لجنة التأليف والترجمة والنشر

السودان

في قرن

١٨١٩ ـ ١٩١٩

تأليف

مكى شبيكة

القاهرة

١٣٦٦هـ ــ ١٩٤٧م

لجنة التأليف والترجمة والنشر

السودان في قرن

١٨١٩ - ١٩١٩

تأليف
مكي شبيكة
أحد أعضاء هيئة التدريس بكلية غردون بالخرطوم

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

نسخة معدلة بواسطة

عمار حسن هبار

السودان تاريخ ١٨١٩ - ١٩١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ذهبت لمصر صيف سنة ١٩٤٣ لمأمورية بحث فى محفوظات عابدين العامرة فيما يتعلق بتاريخ السودان بعد فتح محمد على . وذلك لما يتطلبه عملى كمحاضر لتاريخ السودان الحديث فى مدرسة الآداب العليا ، إذ لا بد من الوصول إلى الوثائق الأصلية إن وجدت ، ولا بد من الاطلاع على ما هو محفوظ منها فى مقر الخديوية بمصر . وهذه ضرورة يتطلبها ما يجب أن يكون عليه مستوى التدريس والمحاضرات .

وقد كان معظم اعتماد المؤرخين فى تلك الحقبة على الرحالين الأجانب الذين جابوا أصقاعه وعلى الذين خدموا فى السودان منهم تحت الحكومة المصرية أمثال بيكر وغوردون وجسى وغيرهم من مختلف الأجناس . والصورة التى ينقلونها لها غالبا جانبية عن ناحية واحدة ، أو أقليم خاص ، وفوق ذلك فهم ينسون حينما يدوّنون ملاحظاتهم ونقداتهم الزمن الذى فيه يكتبون وأن ما يشكون منه ومايلاحظونه من معايب ظاهرة فى أداة الحكم إنما كان جزءاً من الإدارة العثمانية ، فهى فى السودان مثلها فى مصر مثلها فى العراق وسوريا .

والقارئ لما دونوه يخرج بصورة قاتمة عن الحكم آنذاك ، ويرى فى الحكام عصابة شر تآمرت وأجمعت أمرها وغالت فى تآمرها على ظلم العباد والقسوة عليهم ، والتفاصيل التى يوردونها تفقد المؤرخ التوازن فيما يكتب عن السودان عامة ؛ فالإقليم الذى يكتبون عنه نجد أخباره مفصلة ، بينما لا يصلنا إلا تافه الأخبار وقليلها عن بقية الأجزاء ، فيعطى وهو يؤرخ لذلك الأقليم الذى كتب عنه مجالا لا يتناسب مع أهميته .

لهذا الغرض حملت حقيبة فى يوم ١٩ مايو سنة ١٩٤٣ ، ويممت وجهى

شطر سراى عابدين وهناك قابلت المغفور له جلاد باشا رئيس الإدارة الأوربية بديوان جلالة الملك ، وهناك أفاض على فى الحديث عن المحفوظات التاريخية ، وكيف أن المغفور له جلالة الملك الراحل فؤاد الأول أعطاها من عنايته ورعايته ما جعل منها أوفى مجموعة وثائق يهم المؤرخين أمرها . وأخيراً نزلت إلى مقر المحفوظات ووجدت رهطا من الموظفين يعملون فى غير ما جلبة أو ضوضاء ، بعضهم من أبناء الترك الذين يتقنون اللغتين يترجمون من الدفاتر الأصلية ما هو تركى إلى العربية ، و بعضهم يحقق عن معنى كلمة أو لقب أو علم من الأعلام ، والكل منغمسون فى محيط علمى ينقبون ويترجمون و يحققون . ووجدت الوثائق مرتبة ترتيباً علمياً حسناً . وما كان لى إلا أن أقضى الساعة تلو الساعة أنقل ما أجده يمثل ناحية أهملت أو ينقل صورة لم أجدها فى ما كتب من أخبار وصور ، وواصلت الدراسة والتنقيب ثلاث فترات أخرى حتى وصلت درجة من الاطمئنان تجعلنى ألقى محاضراتى على المستوى الجامعى .

وأنا حين أقدم هذه الحقبة من تاريخنا فمستندى الأول تلك الوثائق الرسمية الأصلية يعاونها كل ما نشر من كتب الرحالين ومذكرات الموظفين ومن نتف ظهرت فى التقارير السرية ومخابرات الجيش ومن طائفة من الذين شاهدوا العهد فى آخره واستطاعوا إعطاء صورة حية عنه .

وقد كانت حقبة الثورة المهدية من أوفر حقب تاريخ السودان من حيث المصادر . فمنها الرسائل الرسمية بين القاهرة والخرطوم وبين القاهرة ولندن ومنها يوميات غوردون وهو مُحاصرٌ فى الخرطوم ، ومنها تقرير وضعه الضباط الذين نجوا من القتل أو الأسر فى الخرطوم عن حوادث حصارها وفتحها والحملات الإنجليزية فى الشرق ، وحملة ولسلى — كلها دونت الدقائق من تفاصيلها فى السجلات الرسمية تحمل الإحصائيات والرسائل المتبادلة ، وأسماء الأورط والفرق والضباط وغير ذلك . وفيها ما دونه الأسرى من موظفى حكومة السودان السابقين أمثال سلاطين باشا وإبراهيم فوزى باشا ، وكذلك ما دونه القس أوهر الدر ونيفلد ، ومنها مدونات قلم الاستخبارات السرية للجيش المصرى فى القاهرة من المترددين على السودان

أو اللاجئين إلى مصر منها . وقد ظهرت معظم أخبارها عن هذا الطريق فى كتاب لونجت باشا بالإنجليزية ، وفى كتاب آخر لنعوم شقير بك بالعربية . ثم تلك التراجم العديدة لغوردون حيث كانت شخصيته وحياته تجذب كتابها .

وفوق ذلك محفوظات وزارة الخارجية البريطانية فى جزئها الخاص بمصر تشير إلى ما يقع فى السودان من حوادث ، وكذلك الكتب الزرقاء والجرائد الإنجليزية فى ذاك العهد لم تجد موضوعا تلفت النظر فيه بعناوين بارزة خيراً من موضوع الثورة ، وما اتصل بهـا من بعثة غوردون ، ومن مسألة الزبير ، ومن حملة الانقاذ وغيرها . وكرومر وهو جزء من الحوادث دون آراءه فى كتابه « مصر الحديثة » وقد عثر ونجت باشا فى واقعة كررى سنة ١٨٩٨ فى جيوب أنصارى استشهد فى الموقعة على يوميات عباس أفندى المرافق لحملة هكس والتى دوّن فيها تفاصيل سير الحملة وأنباء الخلاف بين قوادها . وقد احتفظ بها هـذا الأنصارى منذ أن أخرجها من جيوب عباس أفندى حين خرّ قتيلا فى موقعة شيكان . ومن ناحية المهدية طبع الجزء الأكبر من منشورات المهدى على مطبعة الحجر ونسخ منها لا تزال محفوظة . والرجال الذين اشتركوا فى الحوادث والذين ينعمون بذاكرة قوية منهم لا زالوا يروون ما شاهدوه وما خبروه .

وإذا كان الباحث يناله الجهـد من ندرة المصادر ، فوفرتها وتشعبها واختلاف وجهات نظر من يدونونها اختلافا كبيراً ، قد يعجز الباحث أيضاً عن إبراز صورة واضحة صحيحة متناسبة الأجزاء . فقد ينقاد بكثرتها إلى إيراد تفاصيل تسئم القارئ وتمله ، وقد يعطى بروزاً لا يتناسب مع بقية الصورة لجزء منها حيث تتبسط فيه المصادر ، وقد ينحاز لوجهة نظر خاصة ويترك مالا ينسجم معها . وهذا ما يحدث للباحث فى أمر المهدية . فالناحية الحربية وأنباء الحروب وتفاصيلها من المعسكرين المتحار بين وافية كثيرة التفاصيل ، والأخبار المغرضة التى كتبها ودونها أسرى للعهد كذلك قد تبالغ فى نواحى الضعف وتتغاضى عن المحاسن ، والذين يروون عنها وهم ممتلئون بروحها يعبدونها ولا يقبلون خدشا لها أو تنقيصا منها ، بل هى عندهم المثل الأعلى للحياة الفاضلة . فالمبالغة والتفاصيل فى نواحى

الحروب والوقائع ، والإغراق فى وصفها بالوحشية والهمجية ، والحماس البالغ لدرجة التقديس — كلها أمور تجعل الباحث فى حيرة من أمره .

وسط تلك العوامل أقدمت على إبراز صورة للعهد ليست بالمفرطة بالتفاصيل أو الموجزة المقتضبة التى تنعدم فيها الروح ، وإنما هى وسط بين هذين ، وحاولت بصفة خاصة أن أقدم للقراء ما لم يتناوله المؤرخون المحدثون البتة ، أو تناولوه فى ايجاز ، وأوجزت ما هو معلوم بتفاصيله فى الكتب الأخرى .

واستعنت فوق ما قدمت من المصادر التى ذكرت والتى قرأتها إما فى أصولها أو بواسطة مصادر ثانوية ، بأوراق محفوظة بسراى السير السيد عبد الرحمن المهدى باشا بالخرطوم ، تحت رعاية سيادته و إشراف المغفور له السيد على المهدى وقد أعانتنى كثيراً فى ناحية تعاليم المهدى . وفى محفوظات سراى عابدين اطلعت على الرسائل التلغرافية الرسمية المتبادلة بين الخرطوم والمعية . وقد أخبرنى الأوصياء على حفظها أننى قد أكون أول من أطلع عليها لغرض تاريخى . وكذلك كان كتاب Allen عن غوردون والسودان خير معين لى عما يتصل ببعثة غوردون وما دار عنه فى أروقة البرلمان الإنجليزى والصحف الإنجليزية . وأخيراً لا أجحد فضل تلك الرسائل التى قدمها طلبتى عن شخصيات وحوادث المهدية ، قاموا ببحثها واعتمدوا زيادة على المكتوب من المصادر على روايات من يوثق بحديثهم من رجال العهد ، ومن عرفوا وخبروا ناحية أو واقعة أو اتصلوا بشخصية بارزة من رجال المهدية . وبذلك كله تسنى لى أن أخرج للقارئ هذه الصورة للثورة المهدية .

والعهد الأخير فى كتابى ، الذى يبدأ بحملة استرجاع السودان وينتهى عند ما صمتت المدافع فى الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٩ ، هو أقرب العهود لدينا ، وحوادثه وأخباره يعرفها الكثير إما مشاهدة ، أو رواية عمن شاهدوها . واستقيت أخبارها من تقارير الحاكم العام السنوية ، ومن أوراق محفوظة فى مكتبة كلية غوردون ، وكانت قبل ذلك مودعة فى مكتبة السكرتير الإدارى وخاصة علاقات السلطان على دينار مع حكومة السودان .

صفحة

صفحة

السودان قبل محمد على

بلاد السودان

أطلق المصريون اسم بلاد السودان على كل الأقاليم التى تقع جنوبى مصر . ولكنهم يميزون أجزاءها المختلفة . فبلاد النوبة ما جاور حدود مصر الجنوبية إلى أقليم دنقلا وسنار ما يلى ذلك جنوبا على ضفاف النيل إلى أقاليم الزنوج . وما يقع غرب النيل الأبيض من تلال عرفوه بكردفان وما يليها غربا مملكة دارفور . ولكن لمع اسمان منها وهما سنار ودارفور وسأحاول فيما يلى أن أضع للقارئ صورة عامة عن أقليم سنار — سكانه وحكومته وحالته الثقافية والاجتماعية والتجارية وسأرجىء صورة دارفور إلى إبان فتحها فى عهد اسماعيل باشا .

ما قبل الفونج

سبق تأسيس مملكة سنار ماسمّى فى تاريخ السودان بحقبة العهد المسيحى . وهذه الحقبة نادرة المصادر والأخبار والقليل الذى عرف عنها أو رده مؤرخو الممالك المجاورة كمصر والحبشة . وكل ما عرفناه عنها أنه نشأت مدنية مسيحية عمادها مملكتان إحداهما تدعى المقّرة فى دنقلة والثانية علوة وعاصمتها سوبه على ضفة النيل الأزرق الشرقية جنوبى الخرطوم الحالية بقليل . وفى هذا العهد بدأت موجات العرب المهاجرين من مصر جنوبا تتدفق كالسيل دون انقطاع وظلّ نفوذهم يقوى وعددهم يتكاثر إلى أن ضعف أمر المملكة المسيحية وانقطعت صلتها بمصر ورومة ونشأ جيل لا هم بمسيحين ولا هم بمسلمين وكذلك العرب الذين شاركوهم الديار كانوا ضعاف العقيدة الإسلامية ، وأغلبيتهم الساحقة تجهل أسس التعاليم الإسلامية . فاتفق صاحب الدار مع المهاجر فى الجهل بالأمور الدينية .

الفونج والعبدلاب

وسط هذا المحيط الجاهل حوالى أوائل القرن السادس عشر الميلادى تحدثنا المصادر القليلة التى تروى لهذه الحقبة عن حِلف قام بين قبيلة عربية وعلى رأسها عبد الله جمّاع وشعب آخر عرفوا بالفونج يقطنون فى الجزيرة حوالى سنار ومايليها جنوبا . والظاهر أنهم كانوا أهل ملك وسلطان قبل هذا الحِلف لأن ملكهم عمارة دونقس كان المقدّم على حليفه عبد الله .

اشترك الحليفان فى مهاجمة سوبة وعاصمة أخرى تقع بنواحى شلال[1] السبلوكه فقتل من قتل من المسيحيين الذين كانوا يعرفون بالعنج وفرّ من فرّ منهم ومن بقى آثر السلامة واعتنق الإسلام فامتزج بالعرب وتلاشى فيهم دماً ودينا وثقافة . أما عن مملكة دنقلا فانقلابها من المسيحيين للمسلمين ، ومن النوبة للعرب فعلى ما يظهر كان تدريجيا دون سفك للدماء أو خراب للديار اللهم إلا تلك المناوشات الأولى فى زمن عبد الله بن أبى سرح حين كان واليا على مصر، وقد تم ذلك قبل هذا الانقلاب الدموى الذى حدث فى المملكة الجنوبية .

نظام الإقطاعى

استمرت مملكة سنار يتعاقب عليها الفونج ما يزيد على الثلاثة قرون يحكمون بلاد الجزيرة وما يقع إلى جنوبها وحلفاؤهم العبدلاب تمتد منطقة نفوذهم شمالى ذلك وكلاهما يحكم على نظام الإقطاع . فلكل قبيلة سواء كانت بادية أو متحضرة ملكها أو شيخها الذى يعتلى الككر (العرش) بواسطة سنار أو قرّى[2] أولا والحلفاية أخيرا ويدفع ضرائب بعض الأحيان وأحيانا أخرى ينتهز هؤلاء الملوك أو المشايخ ضعف السلطة المركزية ويرفضون دفع الأتاوة المفروضة عليهم مظهرين بذلك عصيانهم ، فتساق نحوهم الجيوش ويقع القتال بين الحاكم وتابعه وأحيانا يكون الضعف قد بلغ حدا لا يستطيع السيد إرجاع مسوده إلى الطاعة ، وقد يختلف الحليفان أحيانا فتقع الحرب بينهما وتراق الدماء ، وقتل أكبر ملوك العبدلاب شأناً وأبعدهم صيتاً وهو الشيخ عجيب المانجلك[3] نتيجة لذلك الخلاف بين الشريكين .

بادى أبو دقن

وإلى الوقت الذى استلم زمام السلطة الحقيقية الهمج كان ملوك الفونج سادة فى أقليم سنار وبرز من بينهم من ذاع صيته فيما وراء الحدود السودانية . فمنهم بادى أبو دقن الذى حارب الشلك وهزمهم ثم قاد جيشه بنفسه إلى جبال تقلى وقاتل ملكها وهزمه وأخذ عددا من النوبة أسرى وأنزلهم فى قرى حول سنار

((١)) بين شندى والخرطوم .

((٢)) عاصمة العبدلاب الأولى بقرب شلال السبلوكة والحلفاية قرب الخرطوم بحرى .

((٣)) لقب يطلق على ملوك العبدلاب .

شرق النيل الأزرق وغربيه وجعلهم حرسه الخاص . ومن مآثره التى رويت عنه أنه كان يكرم العلماء فى بلاده ويرسل الهدايا لعلماء الأزهر ومنهم من مدحه بقصائد .

بادى أبو شلوخ

ومنهم بادى أبو شلوخ الذى غزت الحبشة دياره وتدفقت جيوش الأحباش يقودها الإمبراطور أياسوس نفسه ، واكتسحت الأراضى التى تقع شرق النيل الأزرق بأكملها حتى حطت على شاطىء النيل شرقى سنار مباشرة ورأت الهرج والمرج الذى ساد العاصمة الفونجية ، ولكن خميس أحد أمراء دارفور الملتجىء بملك سنار قاد فرقة من جيش سنار وبحركة التفاف بديعة حاول دق اسفين بين جزئى الجيش الحبشى مما اضطر الأخير إلى التراجع وتعقبه جيش سنار ، إلى أن أخرجه من الحدود بعد أن نال منه ما نال قتلا وأسراً .

الشيخ محمد أبو لكيلك

وكان بادى المار ذكره آخر الملوك ذوى الشوكة من عواهل الفونج إذ تغلب كبير الهمج الشيخ محمد أبو لكيلك على السلطة الفعلية وترك الاسم والمظهر الملك كما فعل الجند الأتراك والبويهيون والسلاجقة بخلفاء بنى العباس واصطبغ الجزء الأخير من حقبة الفونج بالوزراء الهمج إذ كانوا أهل الحل والعقد دون الملوك . ولكن سرعان ما بدأ الشقاق يدب بين الهمج أنفسهم بعد وفاة الشيخ محمد أبو لكيلك وشغلوا بالفتن والدسائس فيما بينهم ، وما كان الرجل ليعتلى كرسى السلطنة إلا على دماء بنى عمه ، وهذا ما أدّى أخيراً إلى استقلال المملكات الصغيرة من سلطان سنار ، إما استقلالا لحقبة محدودة وفى ظروف منقطعة ، وإما استقلالا امتد بهم إلى الفتح المصرى . فالسنين التى سبقت الفتح كانت حقبة تفكك وانحلال ، وهذا مما جعل مهمة اسماعيل باشا أسهل مما كان مقدرا لها .

انتشار الدين الإسلامى

ويعتبر انقضاء دولة علوة وتملك الفونج والعبدلاب إعلانا رسميا للدين الإسلامى والسيطرة العربية فى بلاد السودان ، لأن تسرب الإسلام والعرب سبق انقضاء الدولة المسيحية بأكثر من قرنين ، وبهذا الانتصار العربى الإسلامى بصفة رسمية بدأ الاتصال ببقية الأقطار الإسلامية العربية يأخذ مظهرا جديدا ،

وبدأ روّاد الإسلام الأوائل يجوبون أنحاء السودان تارة من مصر ، وأخرى من بلاد المغرب ، وأحياناً من الحجاز وبلاد الرافدين ، وكانوا يلقون كل إكبار وإجلال من الملوك والسلاطين ، ومن هؤلاء من حبّب لهم الإقامة فى بلاد السودان ، وأشهر هؤلاء الملوك الشيخ عجيب المانجلك خليفة عبد الله جماع على مشيخة العبدلاّب إذ يقال إنه كان يقطع الإقطاعات الواسعة للعلماء والصالحين ويشوّقهم إلى الإقامة فى مملكته بكل الطرق لينشروا الدين والثقافة الإسلاميتين وقد شاهدت الثلاثة قرون من حكم الفونج هجرة واسعة النطاق من علماء المسلمين والمتصوفة منهم إلى جهات السودان المختلفة ، وأنشئت المساجد ومدارس العلم والقرآن ، وتخرّج على أيدى هؤلاء الروّاد عدد عظيم من أبناء السودان فى ناحيتى العلوم الشرعية والصوفية ، وقد عالج « ود ضيف الله » فى طبقاته هذا الموضوع معالجة وافية .

مكانة رجال الدين

ومما يدل على المكانة الاجتماعية التى كان يتمتع بها هؤلاء العلماء والمتصوفة أن الناس كانوا يروون أخبارهم وكراماتهم أكثر مما يروون الملوك والسلاطين ونجد فى مؤلف الشيخ أحمد كاتب الشونة حين روايته لتاريخ سنار نوادر الصالحين وكراماتهم تحتل مكانا أكثر مما تحتله أخبار الملوك ، وتروى هذه الكرامات بإعجاب وتقدير خالية من كل نقد أو ملاحظات ، بينما نجده ناقدا وملاحظا على كل أخبار الملوك والوزراء . ووصل بعض هؤلاء العلماء والصالحين إلى درجة مرموقة عند بعض السلاطين ، فما يرد لهم طلب إذا ما توسطوا فى أمر ، ومن استجار بهم فهو آمن غضب السلطان .

كانت مدارس القرآن والمساجد إذاً وسط الثقافة والتعليم ، ومنها ما اشتهر وذاع صيتها فى أنحاء البلاد ، حتى أن الطلاب يهاجرون من مواطنهم النائية للارتشاف من مناهلها كمدارس المجاذيب والشايقية ، وما كان العالم ينبه ذكره ويشتهر إلا بالرحلة فى طلب العلم على يد المشايخ المشهورين ، وما كان الصوفى يصل إلى درجة ما فى الطريق إلا إذا أخذ من وتتلمذ على أستاذ مشهور وزار

وتبرك بأكثر من واحد . ومنهم من يشد الرحال لمصر للمجاورة بالأزهر الشريف منهل العلوم الإسلامية وللتعرف إلى المشايخ المعروفين ومنهم من ينوى الحج لبيت الله الحرام وزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ويبقى حينا قد يمتد إلى سنين يأخذ من علماء الحرمين أو يسلك الطريق على أئمة المتصوفة هناك .

حالة الشعب الثقافية

أما بقية الشعب فما كان الواحد منهم يطمح لأن يصل لدرجة ما فى الثقافة والتعليم وحسبه أن يسلك الطريق على شيخ مشهور أو تلميذ لشيخ مشهور ويأخذ منه ما هو فى حاجة إليه فى عباداته أخذ الواثق المطمئن لمكانة شيخه الدينية . فالذى مكّنته الظروف من أن يدرس فى مدرسة ما مبادئ القراءة والكتابة وتحصيل القرآن أو جزء منه يهيمن على حياة القرية الدينية والثقافية والاجتماعية أحياناً . فمسائل الزواج والطلاق والعبادات من صلاة وزكاة مرجعها إلى الفكى[1] ، وسهرات القرى فى أغلبها هى حلقات الذكر ومدائح النبى وخاصة عند الكهول والشيب .

صفات السودانى

أخص الصفات التى تعلو مكانة الرجل بها هما الكرم والشجاعة . فمن كان يؤوى المسافر ويطعم الجائع وخاصة فى السنين العجاف ينال مكانا عاليا فى أعين مواطنيه ويتناقل السمّار فى سمرهم نوادر الكرام مثلما يتناقلون كرامات الصالحين ومثلهم الشجعان الذين يدافعون عن عرضهم وما لهم ومجموعتهم دفاع المستميت . فلا يطمع من كان يود الزعامة والسيادة فى قومه إلا بسخاء اليد وقوة الجنان .

أيام القبائل

ولكل قبيلة أيامها التى تفخر بها كأيام العرب فالأمن وحماية العرض والمال تتوقفان على قوة القبيلة . فما من واحدة إلا ولها حروبها مع جارتها والتاريخ الذى يتلقاه الصغير من والديه وأجداده هو وقائع القبيلة ، ومشاهير زعمائها وقوادها وكيف هزموا خصومهم وكيف ردُّوا الوسيق[2] وانتصروا . وهذا مادعا كل قبيلة تودّ الكثرة لتكون فى منعة وقوة ومادعا الرجال يتزوجون فى وقت مبكر

---

(١) الفقيه .

(٢) هو ما يأخذه العدو من غنائم وأسلاب .

ويكثرون ما وسعهم ذلك من النساء والسرارى ليعزوا ويقووا بأولادهم .

الضرائب

ما كان القوم يعرفون الضرائب بما كانت عليه فى مصر آنذاك . فبعضهم لا يدفع ضريبة ما مطلقا وبعض عربان البادية يأخذ منهم الملوك ضريبة غير باهظة فى فترات متقطعة غير منتظمة . فالملوك أنفسهم سواء كانوا ملوك الفونج والعبدلّاب أو ملوك ومشايخ القبائل يطلبون المساهمة من رعيتهم لتجهيز حرب بعض الأحيان ولكنهم يعتمدون فى الغالب على ثروتهم الشخصية من مزارع ورقيق أو مكوس وجمارك يجبونها من القوافل والأسواق .

لا طبقات اجتماعية

وما كان ليشعر الرحالة وهو يمر بديار السودان بطبقات اجتماعية فالأثرياء وحتى الملوك والسلاطين يأكلون ويلبسون ويسكنون مثل ما يفعل أفراد الشعب وقد ذكر وادنجتون أن طمبل ملك أرقو كان يرتدى قميصاً واحدا وهو يرانقهم فإذا ما غسل القميص ليجف مكث الملك فى حجرة لا يفارقها إلى أن يرتديه مرة ثانية وقد يكون فى هذا القول مبالغة ولكنه يؤيد ما نقول به من مساواة اجتماعية آنذاك . ولم يلاحظ بركهارت فى ملك رأس الوادى (دار مالى) أبهة الملك أو عظمة السلطان .

ملاءمة الحياة مع الطقس

ولقد استطاع السودانيون سواء منهم العربى الخالص أو الهجين أن يلاءموا ما بين حياتهم والمحيط الطبيعى . فلبسهم أبيض خفيف وعماده الثوب الذى يقى من يلبسه لفحة الحر بالنهار وزمهرير البرد بالليل وهو من القطن الذى تعودوا زراعته فى أراضيهم وغزله ونسجه من صنع أيديهم وبيوت الطين فى المناطق التى تقل فيها الأمطار أو تنعدم والقطاطى المبنية من القش والقصب فى المناطق الكثيرة المطر هى مأواهم الذى ألفوه ولاءم طقس البلاد . ومأكلهم الشعبى الذى يتكون من عصيدة الذرة أو الدخن وإدام اللحم المطحون أو المرق يعطى أجسامهم طاقة حرارية غير مسرفة فى طقس حرارته مرتفعة بطبيعتها . وما من مرطب يحتاجه المسافر بعد مرحلة طويلة شاقة أنسب من مشروب الآبرى المصنوع من الذرة . والجسم الذى يتعرض لحرارة الشمس طول النهار تنعم بشرته ويطرى جلده

بالدالكة وزيت السمسم وقد أطراها بركهاردت أيما إطراء وهو فى رحلته إلى شندى . حياة اجتماعية كهذه من شأنها ألا تقود إلى طبقتين اجتماعيتين إحداهما فى منزلة السيد والأخرى فى منزلة الخادم المسود . ومما دعّم وأيّد انعدام الطبقات وجود الرقيق بكثرة وسهولة الحصول عليه ليؤدى الذكور منه الخدمات الشاقة فى المزرعة والرعى والسقى وليؤدى الأناث منه خدمات المنزل من طحن وعوس واحتطاب .

التعلق بالوطن الصغير

وإذا كان عز الرجل فى عز قبيلته ومجموعته الصغيرة وإذا كانت مطالب العيش بسيطة وغير متعددة فهو ليس بحاجة أن يفارق دياره وموطن أحبابه وأصفيائه وهو إن فعل ذلك عاملته القبائل التى يكون نزيلا بها معاملة الهمل الذى لا أصل له وقد تمتنع عن مصاهرته إذا جهلت أصله أو علمت أنه يتحدر من أصل وضيع لا يرتفع إلى مكانتهم . ونتيجة لذلك لم يعرف فى تاريخ هذه الحقبة هجرة إلى خارج السودان أو رحيل أفراد إلى جهات أخرى من البلاد اللهم إلا رحيل مجموعة بأكملها طلبا لمرعى أطيب أو ماء أغزر وحتى هذا كان فى القليل النادر .

التجارة الخارجية

عرف السودان الاتجار مع الخارج منذ الأزمان الغابرة والواقع أن أولى العلاقات بين مصر والسودان بدأت بالتجارة وتبادل السلع أولا ومدى اتساع التجارة والتبادل الخارجى فى العصر المسيحى غامض كغموض العهد بأكمله . أما الحالة التجارية وطرق القوافل والسلع المتبادلة فقد وصفها لنا الرحالون وخاصة بركهاردت الذى رحل فى قافلة سنار إلى شندى ومنها شرقا إلى سواكن فالحجاز فى أواخر العهد الفونجى . فهو يبيّن لنا أن مصر تصل إلى بلاد السودان بقافلة سنار وقافلة دارفور فالأولى تبدأ من دراو أو ما جاورها وتسير وسط صحراء العتمور إلى أن تلاقى النيل فى بربر وهناك تأخذ طريقها على النيل فى الغالب مارة بشندى مستأنفة سيرها جنوبا إلى سنار . وهناك طريق آخر قد يبدأ من سنار أو من شندى أو من بربر إلى سواكن على البحر الأحمر . فالطريق الأول يتجر

فيه المصريون وأغلبهم من الصعيد ، والثانى الحدارب وهم سكان سواكن ويقدّر بركهاردت رأس مال التجار المصريين الذين يتاجرون مع السودان ما بين الستين والثمانين ألفا من الريالات .

يحمل هؤلاء التجار إلى السودان كميات من العطور والروائح الهندية والصابون وبعض المنسوجات وأنواعا مختلفة من العطارة ويرجعون بالرقيق والصمغ والسن وغيرها مما عُرف السودان بإنتاجه . ويقدَّر ما كان يصدَّر سنويا من الرقيق لمصر عن طريق قافلة سنار بألف وخمسمائة وعن طريق سواكن بألفين ومائتين ، ولكن ما يباع ويستخدم فى داخل البلاد يفوق هذا العدد ويرى بركهاردت أن الرقيق كان يعامل بوجه عام معاملة حسنة وبعض المولدين الذين يتصفون بشىء من الذكاء والإخلاص ينزلهم سادتهم بمنزلة الولد ، وكان الملك أو الشيخ يعتمد فى حروبه زيادة على أولاده وبنى عمه على عبيده الخواص وهم يبذلون أنفسهم فى سبيل سيدهم الذى به يعتزون ويفاخرون .

وقد تتعرض هذه القوافل أحيانا لمخاطر قطّاع الطريق وخاصة إذا قلّ عددها ، ولكن فى الغالب تتردد ذاهبة وآيبة فى أمن وسلام . وما من شىء يضايقهم إلا العوائد الجمركية التى يجبيها منهم الملوك الذين يمرون بأرضهم فى شكل هدايا وقد يتشبث الملك بسلعة خاصة أو بسلاح نارى يعجبه ولا بد للتاجر من أن يتنازل عنه له .

وصف مجمل

فالمجموعة السودانية إبان الفتح المصرى إذاً تتكون فى مملكة سنار من دويلات صغيرة عمادها القبيلة الواحدة ويصل المواطن إلى مقام الزعامة والشهرة بقليل من الوراثة ، ولكن فى الأغلب بمقدرته فى قيادة القوم فى الحروب وبكرمه وعطفه على أفراد القبيلة زمن السلم ، وينال تقديرهم وإعجابهم دون أن يشمخ بأنفه عليهم ، ودون أن يتخذ لنفسه مظهرا يختلف كثيرا عن بقيتهم . والحكومة أيًا كان نوعها قليلة النفقات قليلة الضرائب . والمجتمع ديمقراطى دونما طبقات ، بل تغلب فيه المساواة ، وعقيدته الإسلامية تميل نحو التصوف ، وزعماء الدين

الحائزين لدرجة عظيمة من الإجلال والاحترام هم من يأتون بالكرامات لا المتضلعين فى العلوم الشرعية فحسب .

الشايقية

وقبل أن نخوض فى حوادث الفتح يجدر بنا أن نقف قليلا فى منطقة دنقلا لنتعرّف إلى عنصرى المماليك والشايقية . فالأول أمره ونزاعه مع محمد على معروف ، ولكنهم حين فرّوا من الصعيد جنوبا إلى دنقلا وطدوا أقدامهم ، وظهرت لهم سيطرة قد تنمو وتكون خطرا على الصعيد لو لم يفرقهم سماعهم بجيش إسماعيل ، والعنصر الثانى وصل درجة من المنعة والقوة ، حتى أنهم انفصلوا واستقلوا عن الفونج والعبدلاب ودانت لهم دنقلا بأكملها بالطاعة وأخيرا قاوموا جيش إسماعيل مقاومة لم يلقها من غيرهم .

كان الشايقية كغيرهم من القبائل فى الشمال يدينون بالطاعة لملوك العبدلاّب ولكن نتيجة للانحلال الذى اعترى جسم الدولة استقل بعض من كانوا يخضعون لهم . ففى أوائل القرن الثامن عشر نسمع أن الشايقية قد أعلنوا استقلالهم عن العبدلاب وأيدوا مشيئتهم هذه بمقاومتهم لجيوش سادتهم السابقين ، ورضى العبدلاب من الغنيمة بالإياب تاركين الشايقية يتفيئون ظلال الحرية . ولم يقنع الشايقية بانفصالهم واستقلالهم ، بل إنهم بسطوا نفوذهم تدريجياً على بقية دنقلا إلى حدود المحس وفرضوا أتاوات خاصة يجبونها عن السواقى ، وعند مجىء المماليك كان لهم مندوب مع كل ملك فى دنقلا ليتسلم منه نصف الدخل يرسله إلى دار الشايقية ، وكانوا فى بعض الأحيان يغيرون على أرض المحس بطريق المحيلة عبر الصحراء من كريمة أو ما جاورها حتى تُحط الرحال على شاطىء النيل الشرقى فى بلاد المحس . ونفقات عيشهم مما يجمعونه من ضرائب دنقلا وما ينهبونه من دار المحس ولم يبق لهم ما يزجون به وقت فراغهم غير أعمال الفروسية والتدريب على القتال . وما كان الرجل منهم يصل إلى درجة مرموقة بين مواطنيه إلا بمهارته فى أعمال الفروسية واقتنائه أصائل الجياد وقواطع السيوف وسوابغ الدروع وظلوا على هذه الحالة إلى أن هب عليهم منافس قوى من الشمال وهم المماليك .

المماليك فى بلاد النوبة

بعد مذبحة القلعة المشهورة لم يخامر المماليك شك فى أن غرض محمد على هو القضاء عليهم جميعا ، فانضمت الشراذم المتفرقة منهم واتجهت جنوبا لتعتصم بالصعيد ، ولكن لا عاصم لهم ماداموا فى أرض مصر فاخترقوا بلاد النوبة التى لم تناوئهم والتى ما كانت لتستبدل طامعا ناشئا كمحمد على لم يجرّب بأصدقاء أقدمين لهم تاريخهم فى حكم البلاد . ولهذا تركوهم يتقدمون فى أرض النوبة ، واستشعر بعض المماليك الضعف فى نفوسهم فسلموا للوالى ورجعوا لمصر فى انتظار ما يسوقه لهم القدر من محن ورزايا . أما أغلبهم فقد اجتاز بلاد النوبة حتى هبطوا أرض المحس .

وكان حاكم المحس آنذاك فى نضال وعداء مع الملك طنبل ملك أرجو ، فرأى أن يستعين باللاجئين الأقوياء ليضرب خصمه الضربة القاصمة ، فليبادلهم صداقة وود وكرم وضيافة بجميل يردونه له حين يريد الإيقاع بجاره الجنوبى ، ولكن اختلاف زعماء المماليك على هذا الأمر أفسد الحلف المنتظر وغادروا بلاد المحس حتى نزلوا بأرقو مقر الملك طنبل وقابلهم بكل إعزاز وإكرام ، وكذلك أحسن وفادتهم بعض الشايقية المقيمين بأرقو كمندوبين لجمع الضرائب ، أما المماليك فقد أعماهم الطمع الذى ركّب فى نفوسهم من هذا الإحسان وغدروا بكل الشايقية المقيمين بأرقو ليقوموا مقامهم فى الوصاية على دنقلا .

المماليك فى دنقلة

وبالرغم من تلك الخيانة الشنيعة فإن الشايقية عقدوا صلحا يحتل بمقتضاه المماليك كل الضفة الغربية للنيل ما بين الخندق وحنّك واختاروا مراغة عاصمة لدارهم ومملكتهم الجديدة وسرعان ما زادت وازدهرت المدينة الجديدة التى سميت بدنقلا الجديدة أو الأوردى (المعسكر) وسرعان ما بدأوا يدخلون تحسينات لها أثرها على الزراعة بزيادة الإنتاج وتشجيع زراعة القمح وقام من كان معهم من مهرة الصنّاع بصنع مراكب شراعية جديدة وأصبح لدنقلا الجديدة مركز تجارى ممتاز .

وبعد مرور أشهر على إقامتهم فى عاصمتهم الجديدة بعثوا بنسائهم لمصر ،

وتصاهروا مع سكان البلاد وقد أخلصن لبعولتهن إخلاصا جعلهن يغادرن بلادهن معهم عند ما سمعوا بمسير جيش إسماعيل وفرّوا للجنوب . وما مرت عشرون شهرا عليهم فى دنقـلا الأوردى حتى بدأوا بحملات تأديبية لتسوية حساباتهم مع من يقتسمون معهم الملك والسيادة وهم الشايقية . وبالرغم ممن قتل من الفريقين فلم تكن بالحروب الحاسمة ، فلا المماليك استطاعوا توسيع رقعة مملكتهم الصغيرة ولا الشايقية تمكنوا من إبعاد العدو الجديد وظلوا كذلك إلى أن وافتهم الأخبار السيئة بتقدم جيش إسماعيل ، وسنرى ما حل بهم بعد ذلك حين نسرد حوادث الفتح .

الفتح

دوافع الفتح

رأى محمد على فى أسواق النخاسين السود المرد وسمع عن شدة بأسهم وقوة مراسهم وتحملهم المصاعب والمتاعب ، ثم عرف أنهم ينقادون بسهولة لسادتهم. فإذا ما ثبت لديه قوتهم وشجاعتهم مع الطاعة والإخلاص ، فما أجدر بهم أن يكونوا المثل الأعلى للجندية . ورأى فى الحجاز أكثر مما رأى فى مصر وعرف أن الجلابين يسوقون منهم كل سنة ما يبلغ الأربعة آلاف لمصر والحجاز ، ولا شك أن محمد على وهو يسعى لتوطيد مركزه فى مصر ، ويسعى أيضا لإيجاد جيش جديد يدعّم هذا المركز يفكر فى الانتفاع بهذه المادة الخام من الرجال لجيشه فى المستقبل .

وسمع كغيره أن جنوب السودان رماله الذهب وأن فيه من الخيرات ما لو استغل لساعد فى إيجاد المال اللازم لما يريده محمد على من إصلاح ومن تأسيس دولة قوية ذات عز ومنعة . ولكنه يحرص على تركيز أرجله أولا ، ويدرس قبل أن ينفّذ ، فبعث بمندوب خاص كسفير يحمل هدايا لملك سنار فى الظاهر ولكنه فى الحقيقة جاسوس يقدم تقريرا للعزيز عن حالة الحكومة من حيث القوة والضعف . وقابله وهو فى الحجاز الملك نصر الدين ملك الميرفاب الذى استولى على ملكه أثناء غيابه منافسه على ود تمساح فطلب منه العون لإزالته وكذلك اتصل به الملك طنبل لمثل هذا الغرض . فالبلاد إذاً كثيرة الخيرات والبركات ، والجنود السود سيكوّنون جيشاً قويا منيعاً ، والمماليك فروا جنوبا وأنشأوا لأنفسهم مملكة ترامت أخبارها لمحمد على . وقد ينتهزون فرصة ضعف الممالك الصغيرة فى السودان ويبتلعونها الواحدة تلو الأخرى ، وقد يتقدمون شمالا بقوتهم الجديدة لاسترداد حقهم الذى اغتصبه منهم محمد على ، وقد يقودون جيشا من السود الذين عرف وسمع عن قوة بأسهم وشدة مراسهم ما عرف وسمع. كلها عوامل تعاونت لتجهيز الحملة وإنفاذها .

نحو الباشا قبل مجئ الحملة . حلت الحملة بارقو ودخلت دنقله الأوردى بعد ذلك دون مقاومة لأن الأهالى وملوكهم ذاقوا الأمرّين من الشايقية أولا ثم أكثر من ذلك من المماليك وفوق هذا فهم شعب شغلوا بفلاحة الأرض والسيادة التى بسطها عليهم الشايقية أولا والمماليك أخيراً لم تترك لهم شيئاً من روح الحرب والمقاومة .

الشايقية

يتزعم الشايقية آنذاك ملكان كبيران وآخرون يلونهما فى المرتبة فأولهم الملك شاويش الذى يقيم فى عاصمته مروى ، ويقال إنه كان بدينا فكه الحديث لونه يضرب للبياض بخلاف بقية أفراد قبيلته والآخر الملك صبير وهو مشهور بقوة بأسه وشدة مراسه . وكأن الشايقية لم يخلقوا إلا للكفاح والنضال ، فإنهم إن لم يواجهم عدو مشترك أغارت كل قبيلة منهم على الأخرى ، وكأنهم أدركوا أن التدريب لا يكون إلا بالقتال الحقيقى لا بالتمثيل . ولذا كان تاريخهم سلسلة متصلة الحلقات من حروب داخلية وخارجية . والآن فهذا عدو مشترك يزحف عليهم وقد أتى بقوة وعدد لم يألفوها ولكنهم ورثوا البسالة وحب القتال والخيول والأسلحة من أجدادهم فهل يسلمونها لأول مغير ؟ إنه عار لا يريدون أن يوصموا به . لم يفعلوا ذلك مع المماليك فحاربوهم وناضلوهم إلى أن فروا أخيراً جنوبا وكفوهم شرهم . ولكن المماليك لا يزيدون على الثلاثمائة والباشا يزحف بجيش يبلغ الآلاف .

نظرية الشايقية

وأقر الشايقية فيما بينهم أن يقبلوا دفع جزية أو ضريبة للباشا ، ولكنهم لا يتنازلون عن خيلهم وأسلحتهم فهى لهم الحياة والحياة كلها . بعث لهم اسماعيل عند ما استقر بدنقلا أن يسلموا أنفسهم وأسلحتهم كما سلمت القبائل التى تقع إلى الشمال منهم فردوا بأنهم يدفعون أتاوة أو ضريبة فقط ، و بعث الباشا لهم المرة الثانية بتسليم خيلهم وأسلحتهم ضماناً لولائهم و إخلاصهم وأخبرهم بأن والده يريدهم شعبا يفلح الأرض لا ليحمل السلاح و يقاتل ، فلم يتزحزحوا عن موقفهم الأول ، لأن الخيل والأسلحة ألفوها منذ صغرهم وورثوها عن آبائهم ، وقد عوّدوا العمل على صهوات الجياد واستخدام السلاح لا استعمال الفأس والجراف

عوّدوا خوض غمار الحروب لا السقى والزرع والحصاد . أرضهم يزرعها عبيدهم ومن أسروه من الشعوب التى يحكمونها ، فهل يريدهم الباشا أن يتنزلوا ويعملوا مثل ما يعمل عبيدهم ؟ إنها لخطة لإذلالهم وإخضاعهم . فلماذا الرماح والتروس والسيوف ولماذا الفروسية إذا لم تكن للذود عن مالهم وعرضهم وللتمسك بمستواهم ؟

منطق اسماعيل

واسماعيل من ناحيته لم يطلب إلّا كل مايجب أن يعمله قائد يفهم أبجديات مهنته . فمهمته إخضاع بلاد السودان حتى تدين بالطاعة ، وهو مقدم فيما لو قبل شروط الشايقية على حروب فى بلاد الجعلين وفى دار العبدلاب وأخيراً فى سنار مقر الملك والسلطان فى بلاد السودان . فهل يترك الشايقية وراءه وهم بهذه القوة والمنعة ؟ وهلا يحتمل أن يقطعوا خط مواصلاته مع مصر ويسيطروا على ما فتحه من البلدان ؟ الأصول الحربية تقوده أن يقاتلهم ويقضى على قوتهم قبل أن يتقدم نحو بقية السودان التى يحتمل أن تقاوم وألا تخضع ، ولكن من الناحية السياسية يجدر به أن يثق بما يقدمونه له من ضمان وأن يحترم كلمتهم ويحسن معاملتهم حتى لا يشعرهم بالذلة والصغار وقد أشار إليه والده فى خطاب أرسله له بعد أن وقعت الحرب معهم بأن مسلكه نحوهم لم يكن بالحكيم .

محمد على يؤنب ابنه

« يا ولدى (1) الأعز إن من المعلوم عن أرباب الحكومة الذين تكون نفوسهم تحت حكم عقولهم أن استجلاب قلوب العباد متوقف على نشر العدالة وأن تسخير البوادى والبلاد موقوف على حسن الاستمالة ومن الظاهر لا يمكن لأى حاكم أن يقوم بعمل بدون عدالة كما أن من البديهى الباهر أنه لا يمكن من الوصول إلى منزله المقصود وإلى غايته من غير استمالة ، فبناء على ذلك كان الواجب عليكم أن تمتلكوا أهالى الشايقية بحسن استمالتهم وتملكوهم وبلادهم بتأمينهم وتأليفهم . فمن العجيب جدا تبعيدكم إياهم عنكم وتنفيرهم من إطاعتكم بتكليفكم إياهم تسليم خيولهم وأسلحتهم ، فإن كنتم غير مطلعين على أحوال

---

(1) تريث هد... دفتر ٧ معيه تركى ترجمة مكاتبة تركية رقم ... [illegible]

أرباب السيف الذين نجحوا فى أعمالهم فى الأزمان السالفة أفلم تسمعوا ولم تعلموا أن الفرنسيين الذين أتوا مصر فى زمن قريب إلى أى درجة كانت عدالتهم فى مجيئهم لأجل تسخير البلاد وإلى أى درجة أظهروا العدل حينما أرادوا الذهاب والانسحاب لأجل تأمين سلامتهم وكيف كان مجىء الإنجليز وذهابهم مقرونين بالعدل ؟ » .

الحرب

رفض الشايقية شروط الباشا ولم يبق له إلا أن يزحف جنوبا لملاقاتهم . وقاموا هم بهجوم بسيط بالقرب من دنقله العجوز ردته جنود اسماعيل وحدث اصطدام آخر أسر فيه عبدى كاشف ابنة أحد الملوك وكانت فى هودجها على جمل تطلق الزغاريد لتثير فى نفوس الرجال الحماس فبعث بها عبدى إلى اسماعيل فأحسن هذا لقاءها وخلع عليها كسوة ومصاغا وردّها بكل إعزاز وإكرام إلى والدها الذى دهش لهذه المعاملة وقرر ألا يرفع سيفا بعد ذلك فى وجه رجل أحسن إليه هذا الإحسان فسلّم للباشا بمن معه من الرجال . وحاول إسماعيل قبل الالتحام معهم فى معركه كبرى أن يتخذ من الطرق ما يدخل الرعب فى قلوبهم علّه بهذا يضعف روحهم المعنوية ، فصار يرسل الصواريخ صاعدة نحو السماء ثم تنحدر على الأرض كالشهب السماوية وكانت استجابة الشايقية الاستهزاء بقولهم « إن الباشا يريد حرب السماء » .

موقعة كورتى

وبعد أيام من حادثة الفتاة الأسيرة كان الباشا معسكرا على بعد نحو ثلاثة أو أربعة أميال من النيل فى الصحراء بالقرب من كورتى فما شعر إلا والصياح من من حوله « وين الباشا وين الباشا » فنهض لتوه وكانوا ينوفون على الألفين يحيطون بمعسكره ورجاله لا يزيدون على ثلثمائة مقاتل وليس لديهم مدفع واحد وما من رجل من جنوده يحمل أكثر من خمس عشرة رصاصة فأُسْرِج له الحصان واعتلى صهوته ويمم وجهه شطر عبدى كاشف وقال له « أتريد أن أقاتل بطريقتى أم بطريقتكم ؟ » وأجابه عبدى بأنه عوّد القتال وفق طريقة قائده . وهنا بدأ يعدّ جنده لملاقاة فجعل البدو والمغاربة فى المقدمة وراف

البدو صالح دار وجنده وخلف المغاربة عبدى كاشف وجعل الجمال والحملة والمؤن كمؤخرة . وبالرغم من قلة عدده وذخيرته فإن الحظ كان بجانبه لأن الشايقية لم يحملوا غير حراب وسيوف عادية ويرتدى قادتهم وبعض فرسانهم دروعاً إذا هى درأت عنهم ضربات السيف فليست بالتى ترد عادية الرصاص . واندفع الشايقية نحو جيش اسماعيل بنفوس أشربت حب القتال وتعوّده وقلوب لم يتطرق إليها خوف أو وجل يتدافعون بالمناكب حتى ينتهوا إلى خط العدو يطعنون ويتلقون الرصاص كأنهم فى حلقة اللعب لا فى حلبة القتال . وهم فوق هذا يقاتلون بدافع قوى إذ لا يريدون مفارقة خيلهم التى ألفوها وألفتهم ولا يريدون أن يلقوا بالحربة والسيف من أيديهم ليتناولوا المحراث أو يحملون عصا الجريد يضربون بها ثيران الساقية .

حمل الشايقية حملة قوية زحزحت المغاربة والبدو ولكن عبدى كاشف التف من الجناح وحل محلهم فى المقدمة ونجح فى أن يرد حملاتهم الأولى وبدأ المغاربة والبدو فى استعادة مراكزهم والثبات فى أماكنهم مرة ثانية وكانت المجموعة من جيش إسماعيل تطلق بنادقها ومسدساتها وتتراجع لتملأها مرة ثانية تأخذ مكانها فى إطلاق النيران فرقة أخرى حتى تعود الأولى التى عبأت [illegible]حتها لخط النار وظلوا هكذا يتناوبون إطلاق نيرانهم وظل الشايقية يتدافعون لينالوا من عدوهم فى قتال اليد باليد ولكنهم أخفقوا فى اختراق المربع وظل الرصاص يحصدهم حتى أدركوا بعد أن تركوا فى ميدان المعركة نحو الستمائة قتيل أنه نوع من القتال لم يعدّوا أنفسهم له وأنه سلاح سرى بالنسبة لهم فبدأوا يتقهقرون فالفرسان منهم تمكنوا من النجاة أما البيادة فقد وقع أكثرهم فى الأسر وكانوا كلهم من العبيد أو الجند المرتزقة فى جيش الشايقية . ولجأ الناجون إلى قلاع أعدّت من قبل ينتظرون تجربة حظهم مرة أخرى مع الباشا .

واصل اسماعيل زحفه حتى أدركهم فى قلاعهم التى احتموا بها ولكنه تريث هذه المرة حتى أحضر المدافع وصار يدكها وواجهوا سلاحاً آخر أشد

فتكا من الرصاص ينهال عليهم من مسافة بعيدة وذات مرة هبطت القنبلة دون أن تنفجر وراحوا يقلبونها و يمتحنونها حتى انفجرت فأهلكت من تجمع حولها وهنا أدركوا أنهم لا يقاتلون آدميين إذ أنهم لا يخافونهم بل حزباً من الشياطين ولم تغن عنهم بسالتهم أو أحجبتهم التى يلبسونها لمثل هذه المناسبات فخارت قواهم وهبطت روحهم المعنوية وفرّوا أمام الجيش دون ملاقاته .

سلّم بعض الشايقية أنفسهم وفرّ الملك شاويش وأتباعه عبر الصحراء وحل بشندى بعيداً عن الجيش ليعطى لجسمه وفكره راحة واستجماماً حتى يفكر فيما يجب عمله . وكأن الشايقية لم يخلقوا إلا للجندية وخوض المعارك ومقارعة الرجال لأنهم حين وصل إسماعيل إلى شندى سلموا اله وعملا بنصيحة والده فى التأليف والترغيب وثق فيهم واطمأن اليه وانخرطوا فى سلك جيشه وبدأت تلك المعاونة بينهم وبين الحكم الجديد معاونة استمرت كل أيام الحكم التركى — المصرى حتى نشوب الثورة المهدية .

بقية المماليك

تركنا المماليك وهم يفرّون جنوبا عندما سمعوا بتقدم الجيش ورأيناهم يقيمون فى شندى حتى وصل اسماعيل إلى البر الغربى من بربر وهناك قابله عدد منهم راجعاً من شندى مؤثراً التسليم على العناد الذى لا طائل تحته . أما الذين ما زالوا يكفرون بمحمد على أولا وبمعاملته لهم فيما إذا سلموا انفسهم ثانيا اتجهت أغلبيتهم الباقية نحو كردفان بخيولهم البيضاء يقودهم عبد الرحمن بك زع وفضّلت شرذمة أخرى الاتجاه شرقا حتى الحجاز . فالفرقة الأولى يقال إنها وصلت تونس ولم يسمع عنها بعد ذلك والثانية انقطعت أخبارها منذ أن غادرت شندى وانتهى أمر شعب قدر له أن يرتفع من العبودية إلى السيادة ويترك أثره فى الأقطار الإسلامية وفى مصر خاصة وحقبة من الزمن فى سوريا والحجاز وقدر لهذا الشعب ألا يحكم فقط بل أن يكون آخر الشعوب الإسلامية التى ترد كيد الصليبيين ويتم أمر إجلائهم عن الأراضى الإسلامية على يديهم وبذلك أتموا رسالة صلاح الدين الأيوبى . وكانت شندى المدينة السودانية آخر مدينة شاهدت مصرعهم ولفظوا فيها النفس الأخير من عظمتهم ونفوذهم ولم يبق لهم من أثر فى هذه البلاد إلا دنقلة الأوردى التى اختطوها وعمّروها .

اسماعيل يختلف مع قواده

بعد انهيار مقاومة الشايقية بدىء بالاستعداد للمرحلة الثانية بعد أن خضعت دنقلا ودانت بالطاعة والولاء وقد ظل اسماعيل يتنطس أخبار الجنوب فنمى إليه أن نمراً ملك شندى يؤثر السلامة ولا يبغى حربا أو مقاومة غير أن المساعد ملك المتمة وملك الحلفاية وحكومة سنار كلهم على استعداد للوقوف أمام الجيش الفاتح . ولنتركهم الآن فى استعداداتهم لعبور صحراء جكدول ولنرجع إلى القاهرة فى ديوان محمد على ونراه يولى جيشه فى الجنوب كل عنايته واهتمامه و يتلقى أخبار تقدمه وأنباء الانسجام أو الاختلاف بين قادته وقد عرف استبداد ابنه بالأمر دون اللجوء إلى قادته المجربين المحنكين ووصلته أنباء تذمرهم واستيائهم مما يعاملهم به اسماعيل الشاب وهو حريص غاية الحرص أن تكلل مجهوداته بالنجاح وقد عرف طباع ابنه وحدة مزاجه وعرف ما سوف يجرّ إليه عدم الانسجام والمعاونة من نتائج سيئة وحرر له الخطاب الذى اقتبسنا من فقراته ما يؤنبه فيه على معاملته للشايقية وهاهو يحذره من الاستبداد بالرأى والرضوخ لمشورة البطانة السيئة .

« فكيف يليق بك أن تجعل مثل سلحدارك الغر الغشيم قائداً على قوجه أحمد أغا وعبدى كاشف الذين بمعيتك من الرجال المتدربين فى أمور الحرب فأحدهما لم يزل يخدم منذ خمس أو ست وعشرين سنة والآخر منذ خمس عشرة أو ست عشرة سنة فهما وان كان يطيعانكم لكنهما على ثقل هذه الإطاعة على أنفسهما يتسليان بأنهما إنما يتابعان نجل مولاهما لكنهما كيف يدخلان تحت حكم سلحدارك الذى نشأ من غير أن يحضر المعارك ولا أن يحادث أرباب الحروب وكيف يتسليان تحت حكم مثله وهما ليسا من الرجال الذين أتوا من ممالك الروم حديثا ولم يشاهدوا العساكر ولا القواد حتى تجوز المعاملة معهما كالمعاملة مع قطائع الغنم ... فيدل عملكم المذكور وحركتكم المسطورة على أنكم ما صرفتم الذهن والذكاء إلى هذه الدقائق ولم تدخل فى أذنكم أصلا تلك الوصايا والنصائح التى كنت أسديتها إليكم بمصر . فياولدى ونور عينى إن من الواضح الجلى أن الأنانى فى هذا العالم يبقى بعيدا عن رضاء الحق سبحانه والمغرور يكون مهجورا

فى نظر الكبار فأنصحك نصح الوالد أن لاتكون من هؤلاء الأنانيين والمغرورين لأن المصلحة التى انتدبتم لها مصلحة عظيمة والممالك التى تقصدها ممالك جسيمة ولا يتغلب المرء على مثل هذه المصلحة العظيمة إلا بالعدالة ولا يملك مثل تلك الممالك إلا بمراعاة الرجال المجربين المعتبرين الذين قاموا بأعمال وأنتجوا أمورا وبالاستشارة والمذاكرة معهم فى كل الشؤون . فلذلك ياولدى إن كنت تحبنى وتطلب رضاى فاجتنب من أن تكون أنانيا أو مغرورا وبادر إلى تنظيم الأمور وتمشيتها بالاستشارة فى المصالح المتعلقة بالأمور الحربية والمواد النظامية مع قوجة أحمد أغا وعبدى كاشف ، وفى الشؤون الأخرى مع كاتب ديوانكم وأحمد أفندى الترجمان والمعلّم حنا الطويل فأقصى مطلوبنا أن تسعوا بكل غيرة فى تحصيل وسائل توحيد الكلمة واتفاق القلوب فى كل الأحوال وأن تهتموا بمطالعة نصيحتى المبينة لهذه المفاهيم المرسلة سابقا وهذه النصيحة مطالعة جيدة وأن تبادروا إلى العمل بموجبها ومقتضاها وأن تتيقنوا أنى أستاء منكم جدا إذا لم تقوموا بالعمل بنصائحى هذه » .

الزحف جنوبا

جمعت الجمال اللازمة لعبور الصحراء والوصول إلى ضفة النيل الغربية بالقرب من بربر وعلقت المدافع على أعمدة من الخشب حملت بين كل جملين واقتحموا الصحراء يقودهم الأدلاء الذين عرفوا مسالكها ودروبها ومياهها وحطوا الرحال على النيل عند الباقير ومنها ساروا جنوبا محاذين للنيل فإذا ما كانوا قبالة بربر سلم لهم البلاد صديقهم الملك نصر الدين ووافاهم هناك أيضا أبو حجل ملك الرباطاب مطيعا مواليا وكذلك فعل شيخ عربان الحسانية .

احتلال شندى

قامت الحملة من قبالة بربر بالغرب واجتازت أرض الجعليين وبعث نمر بابنه نائبا عنه ومظهرا الطاعة والانقياد ولكن الوشايات على مايظهر بدأت تعمل عملها فبلغ الباشا أن نمرا لم يكن طائعا من قلبه وأنه ما امتنع أو تجنب الحضور بنفسه إلا لأمر فى نفسه فالحّ الباشا على حضور عاهل الجعليين شخصيا . فركب فى جماعة من حرسه وأتباعه يلبس الطاقية ذات القرنين علامة الملك ويحمل له أحد

عبيده شمسية كبيرة تقيه حر الهاجرة وتلقاه حرس من جند الباشا ودخل معسكر إسماعيل بهذه الهيئة وحلف ثم يمين الولاء والطاعة لسلطان تركيا وخُلع عليه غير أنه لم يعط سيفا كملك أرقو ونصر الدين وشيخ العبابدة وكان هذا علامة الحلف والاطمئنان والثقة وفى هـذا دلالة واضحة على أن إسماعيل لم يكن ليطمئن إلى عاهل دار جعل .

ظل الجيش فى دار الجعليين مدة للاستجمام والراحة أولا ولجمع الجمال اللازمة ثانيا والظاهر أن عين محمد على الساهرة والتى ترقب حركات الجيش باهتمام زائد رأته يبطئ فى الاستعداد ويضيع الوقت ويهيئ الفرص للعدو يتجمع ويكمل استعداده فخاطب ابنه بأن الابطاء لا مبرر له حيث أن البلاد التى حط رحاله عليها ذات شهرة بوفرة خيراتها وظن أنه إنما ركن إلى الراحة فليمحضه النصح مرة أخرى فى عنف وشدة « ومع [(١)] ذلك لم تنجز مصلحة لحد الآن وهذا إنما ينشأ من عدم إمكان قيامك بأى عمل . وإنى كنت قلت لك مرات أنك ما دمت تحب نفسك فوق حبك للرجال فإنى لا أحبك وكنت آمل أنك عملت بتلك النصائح وعدلت من تلك الأخلاق فإذا أنك لا تزال على تلك الأخلاق كما كنت فهلا تتخلى من هذه الخلال الرديئة ، وقد اتضح انك المتسبب لهذه الأمور من عدم تحمّل جسمك . اقلع عن هـذا الخيال واستخدم من يصلح للأعمال من الرجال فى مختلف الأعمال على قدر الإمكان فها إنى أسديت إليك بهذه النصيحة لهذه المرة فإذا قلت فى هذه المرّة أيضا إنى لا أقبل نصيحة الوالد فوالله العظيم إنى لأستجلبنك مع بعض رجال من رجالك وأضعك فى بيت صغير لأن العار شىء لا يقبل الأولاد والنفس ، فيلزم أن تعلم ذلك بمنّه تعالى وتسير على وفق ذلك والسلام »

لا بد من تأسيس حكومة تدير البلاد التى خضعت للآن قبل أن تصل الحملة إلى آخر مراحلها . فسمح لعبـدى بالرجوع لمقر حكومته فى دنقلا وعين

فى الجزيرة

(١) دفتر رقم ٧ معية تركى ترجمة مكاتبة تركية رقم ١٩٩ بتاريخ ٢١ شعبان سنة ١٢٣٦

محو بك لحكومة بربر وبلاد الجعليين وقام اسماعيل بجيشه مواصلا زحفه حتى حل بمقر أم درمان الحالية وهناك وافاه ملك العبدلاب وسلّم له ، وظل أربعة أيام يتمم ما نقص من جماله وتعبر جنوده إلى مقر الخرطوم الحالية ، وعندما تكامل الجيش بمعداته اتجه فى سهل الجزيرة جنوبا وهذه المرحلة يقصها علينا الشيخ أحمد كاتب الشونة فى مخطوطته ، وكان إذ ذاك بالمسلمية « فنى أول رمضان سنة ١٢٣٦ نزل المومى إليه (اسماعيل) بأم درمان بالجانب الغربى مقابل الخرطوم فهرب منه بعض الناس وقابله البعض ، فأعطاهم الأمان لأنفسهم ولغيرهم وكساهم وتكامل بالخرطوم فأخذ منهم قدر العليق وارتحل ولم تتبيّن لى محطاته ففى ستة أيام من رمضان نزل بحلة وحيدة قبالى المسلمية فاجتمع ما هناك من الحكام والمراتب وغيرهم وقابلوه بتلك المحطة وطلبوا منه الأمان والاقرار على ما فى أيديهم فى الأحكام السالفة ، ومظالمهم الآنفة وأتوه بالضيافة من خرفان وسمن فلم يقبل منهم شىء إلا بالثمن ومعه حينئذ ملوك جعل الاثنين المقدم ذكرهما (نمر والمساعد) والأمين ولد الشيخ ناصر وأخذ عليق المواشى وارتحل ليلا فلحقاه رجب ولد عدلان ودفع الله ولد أحمد بالطريق فأعطاهم الأمان وكساهم وقلّدهم السيوف مثل من قبلهم وسافر حتى نزل بمنى أو غيرها فقابله باقى الهمج والحراب فأمّنهم أيضا وكساهم فرجعوا وأتوه بملك الفونج على عادتهم وزخرفتهم فأمنه وكساه بما يناسب مقامه وذلك آخر دولتهم وإظهار عظمتهم فدخل سنار فى ثانى عشر ليلة من رمضان المذكور فقابله من فيها وأكرم كلا منهم بحسب قانونه وحظه السابق » .

فشل المقاومة فى اللحظة الأخيرة

كيف تسنى لإسماعيل باشا أن يدخل سنار بهذه السهولة دون مقاومة ما وما الذى أصاب جسم الدولة السنارية بما لها من شهرة طبقت الآفاق حتى تفتح أبوابها للفاتح ويقابل الملك الجيش المغير خارج عاصمته بالولاء والتسليم ؟ لم يكن للملك أقل نفوذ كما ذكرنا من قبل وإنما له من أدوات الملك الظاهر والاسم فقط وكان آخر مشايخ الهمج وصاحب الكلمة النافذة والرأى المسموع محمد ود عدلان وكان رجلا سمح النفس عفيفاً يشعر بمسؤوليته الجسيمة فاتصل عندما ترامت

إليه أخبار الجيش بملوك الجعليين وملك العبدلاب والمقدوم مسلم فى كردفان وأخذ يستعد لملاقاة الباشا واتفق مع حلفائه بالتجمع فى الخرطوم وأرسل ابنه عدلان فى الطليعة وبينما هو فى استعداده ارتكب غلطة قادت إلى مقتله وإلى انهيار المقاومة .

ما كان له وهو فى حاجة إلى كل رجل فى مثل ذلك الظرف الدقيق أن يخضع لدسائس وزيره الأرباب دفع الله ود أحمد ويكتب للشيخ أحمد الريح خليفة العركيين بالراحة من الخلافة لخصومة بين الخليفة المخلوع والوزير . وأضمر الشيخ أحمد الريح السوء لشيخ الهمج وتآمر مع منافس ولد عدلان حسن ود رجب وأتياه ليلا فى قرية منى وهو فى قلة من جنده واغتالاه . ولم شعث جيش المقاومة بعد مقتله أخوه رجب ولد عدلان وبدلا من أن يحمل علم المدافعة عن البلاد اتجه نحو قاتلى أخيه للأخذ بالثأر فلم يفلح وأصبح لا هو بالذى قضى على قتلة أخيه ولا هو بالمدافع عن ملكه . وأثناء ذلك الاضطراب والبلبلة دخل إسماعيل الجزيرة فسلّم دفع الله ود أحمد مثير الفتنة بين العركيين وهرب حسن ود رجب قاتل ولد عدلان ولم يجد بادى صاحب المظهر والاسم بدا من الإذعان والطاعة . وزال بهذا ملك دام أكثر من ثلاثة قرون حفظ للإسلام والعروبة إسمهما وتقاليدهما فى حوض النيل الأعلى ور وافده وقال الشيخ أحمد كاتب المخطوطة المشار إليها فيهم .

تأبين مملكة سنار

« فهذا ما جرى من سيرتهم وانتهاء ملكهم فى العام المذكور فرحم الله الأموات منهم وعظّم الأجور فقد كانوا لأهل الخير قادة ولبيوت الفضل سادة فكم أووا غريباً وكم رحموا مسكينا فجعلوه قريبا وقال فى حقهم من نعاهم لما رأى داعى المنون ناداهم وتجرع الصبر عند فقدهم وبلواهم وأرثاهم بهذه الأبيات .

أرى الدهر إقبالا وإدبارا	فكل حين يُرِى للمرء أخبارا
يوما يريه من الأفراح أكملها	يوما يريه من الأحزان أكدارا
وكل شيء إذا ما تم غايته	أبصرت نقصا به فى الحال إجهارا

فلا يُغَرّ بصفو العيش مرتشد ... لأن إحسانه ما زال غرّارا

وأين عاد او شدّادا وما ملكوا ... وأين فرعون والنمروذ إذ جارا

وأين كسرى وأين الوالى قيصرهم ... وأين جمعهم قد صار أخبارا

وأين ملكهم العالى وما ملكوا ... كما حكى عن خيال الطيف إذ زارا

لكنّ من مات بالإيمان معتصماً ... طوبى له على ما حاز أو طارا

والدهر هذا فلا تبقى محاسنه ... فيبدل المرء إحسانا وإضرارا

آه على بلدة الخيرات منشؤنا ... أعنى بذلك دار الفنج سنارا

آه عليها وآه من مصيبتها ... لم نسلها أين ما حللنا أقطارا

فأوحشت بعد ذاك الأنس وارتحلت ... عنها الأماثل بدوانا وحضارا

وصار عمرانها المحسون مندرسا ... يصيح بوم به فى الليل صرّارا

أضحت تعاينها من بعد بهجتها ... كأنها لم تذق للخير آثارا

ومنها يمدح الهمج :

بالمجد كانوا كرام الناس منقبة ... بسيرة كاملين الفضل أحرارا

وكم لهم جاء ذا المسكين مغتربا ... أووا لغربته أنسوه أفكارا

كانوا كراما بإحسان ومرحمة ... كانوا ملوكا وأشياخا وأوزارا

كانوا ليوثا وأبطالا مجرّبة ... كانوا بحورا وأشماسا وأقمارا

فلو رأيت بهم ما حلّ من ضرر ... أجريت دمعك إعلانا وإسرارا

تبكى مساجد أهل العلم خامدة ... ترمى عليهم دموع الحزن أقطارا

فأبشروا بفضل الله سادتنا ... فقد حظيتم بخير النزل أجهارا

تبكى مدارسهم تبكى مواطنهم ... تبكى القبائل بدوانا وحضارا

على كرام يزين الدهر مجدهم ... على ديار عليها الدهر قد جارا

فكل شخص و إن طال الزمان له ... فقد يكونوا عا الأحداث زوّارا

تجريدة كردفان

هذا ما كان من أمر الحملة القوية التى اتخذت طريقها إلى مملكة سنار وهذا هو النجاح الذى انتهت إليه . أما كردفان فكان يقوم على أمرها المقدوم مسلّم

ويدين بالولاء والطاعة لملوك دارفور وكان أن اختمرت فكرة تسيير الحملة على كردفان فى نفس الوقت الذى أصبح أمر حملة سنار أمرا لازما وكردفان لها شهرتها بوفرة الخيرات . فما إن فرغت المراكب من نقل جنود اسماعيل وما إن بارحوا دنقله متجهين نحو بربر وبلاد الجعليين إلا وبدأت حملات كردفان تتحرك وشغلت مواصلات دنقلا بترحيلها وقادها محمد بك الدفتر دار صهر محمد على . وتجمعت الجيوش فى الدبه وبمعونه الشيخ سالم شيخ قبيلة الكبابيش ذات العزة والمنعة عبر الدفتردار الصحراء التى تفصل ما بين النيل فى دنقلا وما بين الأبيض وباره فى كردفان وترامت أخبارها إلى المقدوم وعقد العزم على مقاومتها بكل وسعه ومعه خيالة كردفان ومشاة دارفور واتصلت الرسائل ما بين الدفتردار والمقدوم يطالب الأول بالتسليم صلحا ويصر الثانى على المقاومة وفيما يلى مقتطفات من خطاب المقدوم للدفتردار فيه الإصرار على الحرب وفيه منطقه وحجته وفيه نموذج للغة الرسائل فى الجهات الغربية من السودان آنذاك .

خطاب المقدوم مسلم

« إلى[1] حضرة دفتردار تابع باشى محمد على . منى إليك جزيل السلام ومزيد التحية والإكرام . أما بعد فخطابك الذى أرسلته إلينا فهمناه وما فيه من جهة السيال[2] والطمأ[3] وغير ذلك فهمناه طيب إن كان نحن فى بلدنا مسلمين وتابعين كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بالأمر والنهى فى زمان السلاطين المتقدمين أنتم أهل بحر ونحن أهل بر وكل سلطان يحكم أهل بلده بما قال الله ولا نحن تحت ملككم من زمان السابق . كل سلطان يحكم رعيته بما قال الله وهو المسئول . أما أنتم فغير مسؤولين عن حكم ديار الغير » .

ومنه « ولا ظهر فى زمن السلاطين المتقدمين من العثمانى من خاطبنا بهذا الخطاب ولا من يرسل التجريدة على بلاد الإسلام إلا أنتم فى زمن محمد على باشا غزيتم ديار المسلمين »

ومنه « وأنتم مسلمين تحت سلطان آل عثمان خليفة رسول الله لكن نحن

(١) محفظة ١٩ وثيقة ١٩ .
(٢) لعلها الصيال وهو الاعتداء .
(٣) لعلها الطمع .

خارجين فى حكمه ولا هو مسئول بنا يوم القيامة كل راع مسئول عن رعيته يوم القيامة » .

ومنه « نحن ما خالفنا كتاب الله وسنة رسوله ولا عهد الله لكم بقدوم بلادنا . أنتم غاصبين وظالمين وسايلين كما قال الشيخ فجاز دفع سايل . إن جيت بلادنا أنت سايل وظالم ونحن مظلومين إن متنا فى دارنا متنا مظلومين وشهداء بين يد الله » .

وهذا الرد الصريح أفهم الدفتردار ألا مهادنة ولا صلح ولا تسليم . فخرج المقدوم بجيوشه من عاصمته الأبيض والتقى بالجيوش المغيرة حوالى بارة وكما حدث مع الشايقية من قبل عندما تلتقى الأسلحة النارية مع السيوف والحراب انهزمت جنود المقدوم ولم تغن عنهم بسالتهم وصدقهم القتال وانتهت امارة كردفان كما اندكت مملكة سنار قبلها .

الحكومة الجديدة

السرايا من سنار

كانت الأوامر تتلاحق من القاهرة إلى اسماعيل وهو فى الطريق صوب سنار بما يجب أن يقوم به عند دخوله تلك العاصمة وفى مجموعها تشير إلى أن يقيم اسماعيل فى سنار نفسها و يرسل معاونيه للغزوات فى الجبال والبادية . وتنفيذاً لهذه الأوامر بعث الباشا من مركزه الجديد بكاتب ديوانه محمد سعيد أفندى على رأس ثلثمائة فارس إلى جهات الدندر ليطارد حسن ود رجب قاتل ابن عمه محمد عدلان المار ذكره فانهزم حسن ووقع أسيراً هو وكبار أعوانه ونفذ أمر الإعدام فى اثنين ممن قيل أنهما رأس تلك الفتنة أخذا بثأر ولد عدلان كطاب أبنائه وزج حسن فى السجن وأعفى من القتل لشفاعة كبار وعلماء سنار فى أمره ولأنه قد سهّل نوعا ما مهمة فتح سنار للباشا حيث أزال ركن حركة المقاومة محمد عدلان .

و بعثت سرية قوية بقيادة قوجة أحمد أغا إلى جبل تابى بالقرب من سنار ورجعت بألف وتسعمائة من الزنوج وهى فى طريقها غزت عربان رفاعة وغنمت منهم ألفى جمل وألف بقرة وألف وستمائة ونيف من الغنم . وفى الحال بعث بكل

الزنوج والجمال والبقر لمصر كأول إرسالية لوالده وصدر الأمر للبك الكتخدا فى القاهرة من محمد على بأن يفرز من الزنوج الصالحين للخدمة العسكرية بمعرفة محمد بك لاظوغلى ويبقون فى إسنا للتدريب وإذا وجد ما يمكن عمله بالصبية والنساء فيستخدمون وإلا فيباعون للنخاسين فى إسنا وأصوان أوفى وكالة النخاسين بالقاهرة وأمر أيضاً ببيع الجمال والبقر .

ابراهيم باشا فى السودان

تمت عملية الفتح ووصلت أخبار الغنائم الأولى من منطقة سنار فليذهب إبراهيم باشا بما عرف عنه من أصالة فى الرأى وتجربة فى الحكم إلى السودان وبالاتفاق مع أخيه تنظم الإدارة وتوجه الغزوات بما يوافق أغراض الفتح . سافر ابراهيم ونزل فى العيرة فى ضواحى سنار وظل الأخوان يجتمعان ويتشاوران وأخيراً قر رأيهما على القيام بحملتين قويتين . الأولى يقودها ابراهيم إلى أراضى الدنكة على البحر الأبيض والثانية يقودها إسماعيل إلى جبال الصعيد لأن والدهما يلح فى طلب الزنوج للجندية ويقول فى خطاب لابراهيم باشا «وجلب السودانيين هو غاية المراد ونتيجة المقصود مهما كانت الصورة التى بها يجلبون من مواطنهم» .

الغزوات لأجل الصالحين للجندية

ففى ربيع الأول سنة ١٢٣٧ أى بعد مضى أربعة أشهر على دخول إسماعيل سنار قام الأخوان صوب مأموريتهما وكانت الخطة المرسومة ألا يغار على القرى والجبال القريبة من سنار بل تغزى أراضى الدنكة وجبال الصعيد . فإذا ما تجمع عدد كبير من الأسرى الزنوج فرز عشرة آلاف من الصالحين للجندية يرسلون على جناح السرعة . فإذا ما تم إرسالهم يبعث ما بقى من نسائهم وأولادهم وهكذا إلى أن يتم نحو الأربعين ألفاً من المرد الصالحين للخدمة . على أن ابراهيم كان مصاباً بعلة الباسور قبل وصوله سنار ولقى من طبيب إنجليزى كان فى سنار ما أمكن من المعالجة وغادرها وهو بهذه الحالة . فما وصل جبال القربين فى وسط الجزيرة وهو فى طريقه لأراضى الدنكة حتى اشتدت العلة عليه لدرجة لم يطق صبراً عليها فترك الجند لطوسن بك وقفل راجعاً لسنار ومنها للقاهرة ونجا الدنكة من شر الغارات وظلوا مطمئنين فى ديارهم عشرات السنين حتى جاءهم خطر الغزو والاصطياد فى أواخر عهد عباس الأول .

ولتقدير ما يمكن جمعه من الضرائب ولتنظيم الإدارة رأى إبراهيم باشا أن يجرى إحصاء تقريبيا لعدد القرى فى الأقاليم السودانية من أفواه الذين يوثق بكلامهم فكانت النتيجة أن قرى سنار والحلفاية تبلغ ٣٠٠٠ وفازوغلى ١٠٠٠ وكردفان ١٥٠٠ ، ولم ترد فى الوثائق إحصائية بربر والجعليين ودنقلا . ويرى إبراهيم أيضا أن يعين قائمقاما مع عشرة من الفرسان وعشرة من المغاربة على كل من ١٣ إلى ١٧ قرية ويقدّر إبراهيم أنه يمكن الحصول على ألف أو ألفين من الريالات من كل قرية .

محمد على يهتم بالسود للجندية

شغل محمد على بمسألة السود و إدخالهم سلك الجندية فأنشئت المعسكرات لهم فى إسنا و إصوان وأمر بأن يُرتب مماليكه الشبان ضباطا على هؤلاء السود وأرسلت الأوامر لمدير دنقله بأن يقطع الأخشاب من مديريته و يرسلها مع تيار النيل إلى الصعيد لتبنى منها ثكنات الجنود و بعث بموظّف خاص من قبل مدير جرجا ليقوم بنفس المهمة فى مديرية بربر . وعندما علم أن عددا من الزنوج يهلكون فى الطريق أمر بعمل نوع مخصوص من المراكب يسمى « نقورات » لترحيلهم . و إذا لم تُجدِ هذه الطريقة أشار على مدير بربر باستخدام البشاريين يحملونهم عبر الصحراء وعيّن الأئمة من علماء الفلاحين يؤمون جنوده السود . و إذا ما طلب ابناه مددا من الجند ردّ لهم بأن النجدات موقوف أمرها على إرسالهم السود فعن كل ثلاثة آلاف من الزنوج يبعث لهما بألف من الجند واستعجلهم فى هذا الأمر لأن الدولة تحتاج إلى معاونته لرد عادية ولى عهد إيران الذى أغار على الحدود العثمانية . وصدرت الأوامر بتحريم تعاطى تجارة الرقيق بواسطة الجلاّبة للخارج ومن فعل منهم يبيع سلعته للحكومة حتى يتمكن من الهيمنة على هذا المصدر لسدّ مطالب الجندية . ولم يكتف محمد على بما يجلبه من رقيق فى الأقاليم التى تم فتحها بل تخاطب مع سلطان دارفور للاتفاق على جلب الرقيق من ذلك الإقليم وكذلك أمر بأن تجبى الضرائب لو أمكن رقيقا من الذكور الصالحين للخدمة العسكرية .

سياسة محمد على فى توزيع الجند

رجع إبراهيم من السودان وقدّم تقريره وملاحظته عن الحالة فى السودان لوالده فوصف له رداءة الطقس وعدم ملاءمته للجندى التركى فرتب الباشا سياسته الجندية على ما بيّنه فى الخطاب الآتى الذى بعث به إلى متصرف جرجا «وبديهى[1] أننا قد أرسلنا العساكر الجرارة فى معية أولادنا وما زلنا نرسلهم بغية أن يُجْلَبَ إلينا من ولايات السودان رجال سود نستخدمهم فى أعمال الحجاز وما يماثلها من الخدمات وإذ أن حضرة صاحب العطوفة ولدنا الباشا والى جدة قد أتى فى هذه الأيام من السودان فقد سألناه عن أحواله فأخبرنا أنه قطر وخيم الهواء لا يصلح لإقامة الجندى التركى، ولما كان الجنود الأتراك هم بنى جنسنا وكان من الواجب أن يكونوا بحسب الحال والوقت بجانبنا على الدوام وأن يُحْمَوا ويصانوا من إرسالهم إلى الميادين البعيدة ذات الحرارة الشديدة فقد أوجبت الحال أن يُجمع من أقاليم الصعيد مقدار من العساكر ليرسلوا إلى تلك البقاع فاستصوبنا أن تجندوا نحو أربعة آلاف جندى بحيث يكون هؤلاء الجنود قسمين. أحدهما يجند فى القرى الواقعة فيما بين منفلوط وقنا ويجمع من فرشوط ويقوم بأمر تعليمه وتدريبه إبراهيم أغا ناظر المهمات».

محمد على يلحّ فى إرسال السود

رجع إسماعيل من غزوته فى الجبال الجنوبية ولم يك ناجحا فيها إذ أنه لم يأت بأكثر من ٤٧٧ زنجى يصلح للجندية وما بقى من النساء والأطفال وقدّمنا أن إبراهيم اضطره المرض لأن يرجع دون أن يصيب مغنما. فلم ير محمد على بعينه قوافل السود تتوارد على مصر كما كان يريد ولم تمتلئ معسكرات إسنا وأصوان بأبناء أفريقية ذوى البأس والقوة والولاء لسادتهم، ولكنه ظلّ يخاطب ابنه سر عسكر السودان بقوله «وإن[2] المقصود الأصلى من هذه التكلفات الكثيرة والمتاعب الشاقة ليس جمع المال كما كتبنا إليكم ذلك مرة بعد أخرى بل الحصول على عدد كبير من العبيد الذين يصلحون لأعمالنا ويجدرون بقضاء مصالحنا».

---

(١) دفتر ١٠ معية تركى. مكاتبة رقم ١٤٥ بتاريخ ٢٥ جماد الأول سنة ١٢٣٧.

(٢) دفتر ١٠ معية تركى. مكاتبة رقم ٣٢٥ بتاريخ غرة القعدة سنة ١٢٣٧.

وفى نفس الشهر يخاطبه مرة أخرى بقوله « إن الغرض من انتدابكم إلى تلك الديار باختيار هذه المتاعب الشديدة ومن تعزيزكم بسواد عظيم من الجنود والمهمات واللوازم العديدة هو عبارة عن الحصول على العبيد اللازم ابتغاؤهم وفق المطلوب وإيصالهم إلى ثكنات أصوان غير معرضين للضياع والتلف وليس فى نيتنا ولا فى نظرنا غاية أعز من هذا الأمل كما هو ظاهر وأن قيمة العبيد الصالحين للعمل عندنا لبمثابة قيمة الجواهر نظراً لمقتضى الوقت والحال بل هو أعز من تلك وأجّل كما هو بديهى وأظهر » .

وهكذا نرى أنه قد مضت ثلاثة عشر شهرا منذ أن دخل إسماعيل سنار عاصمة الفونج ولم يتم لعزيز مصر ما أراد من فائدة عاجلة بفتحه السودان فالعدد المقتنص نتيجة الغزوات قليل ومسألة ترحيلهم وإيصالهم إلى مصر لم تكن بالهينة كما يبدو وفوق ذلك ظل الموت يقلّل من عددهم سواء فى الطريق أو بعد وصولهم المعسكرات فى مصر .

فرض الضرائب

أثناء غياب إسماعيل فى غزوته لجبال الصعيد اتفق محمد سعيد أفندى وكيله والمباشر حنا الطويل على فرض الضرائب فسجّلوا القرى ووضعوا ضرائب باهظة لم يألفها الناس من قبل فقد رؤى أن يدفع صاحب الحمار خمسة ريالات وكذلك صاحب الشاة . وما كان لوكيل مثل محمد سعيد أفندى يريد أن يرتفع فى عين رئيسه أو لمباشر كحنا الطويل يريد أن تتضخم الخزينة التى يحرسها أن يفعلا غير ذلك وربما كان يقيسان الحالة بمصر وهما يجهلان مبادى الاقتصاد ويجهلان أن السلع تختلف قيمها باختلاف البلاد . وهذه المقارنة قادتهما إلى ارتكاب ذلك الخطأ الفاضح . فأهل السودان آنذاك أغلبيتهم تتعامل بالذرة والدمور كنقد والريالات المتداولة بين الناس قليلة . والسودانى الذى يريد أن يقوم بتأدية هذه الضريبة الباهظة قد يعوزه السوق الذى يبيع فيه ما شيته .

الثورة على الضرائب

إزاء ذلك الموقف الشاذ الذى لم يألفه السكان من قبل فرّ فريق منهم ملتجئا بالحبشة وفريق آخر بدأ يفكّر فى الثورة والانقضاض على الحكومة الجديدة وقد

أشاعوا فيما بينهم أن الباشا قد قتل فى الجبال ، فنال بعض الجند من جراء ذلك أذى وشعر المعلم حنّا بما يضمره السكان بين جوانحهم ، فسافر إلى شندى مدعيا المرض وقد أرسلت الدفاتر المربوطة فيها هذه الأموال لمصر لاعتمادها . وحينما رجع إسماعيل لدى سماعه هذه الأخبار بدأ فى استمالة الأهالى حتى يعودوا إلى سابق اطمئنانهم ووعدهم خيرا فيما يتعلق بالضريبة وبعث بهجّان ليلحق بالدفاتر ويرجعها ، ولكنه لم يدركها فحذف إسماعيل جزءا كبيرا منها بأن أنزل الخمسة ريالات إلى ريالين وأمر الجباة باستعمال الرفق واللين فى تحصيلها .

الانتقال إلى ودمدنى

لم يطب المقام للجند فى سنار لوخيم مناخها ، وقد عرفت منذ العهد الفونجى بذلك حتى إن ملوك سنار كانوا يبعثون بخيلهم فى زمن الأمطار إلى عبود فى وسط الجزيرة خوفا عليها من الموت . رحل إسماعيل إلى ودمدنى وبنيت الشكنات ومكاتب الحكومة ورتّب حكومة للقرى قوامها قائمقامات لكل عدد منها ويساعد القائمقام مشايخ للأخطاط .

إسماعيل يغادر العاصمة

مضت الآن سنتان منذ أن غادر إسماعيل الديار المصرية لفتح السودان وقضاها فى قتال وغزوات ، وفى بلاد لم يألف غذاءها وطقسها . فالآن وقد هدأت الأحوال وعادت المياه إلى مجاريها بعد تهدئة الفتنة التى قامت فى سنار فايرجع إلى مصر يتمتع بالشهرة التى نالها بهذا الفتح ولعل القاهرة قد جهزت له استقبالا رائعا كالذى قابلت به إبراهيم باشا حين عاد من فتوحاته فى الحجاز . فترك محمد سعيد أفندى وكيلا عنه فى ود مدنى وسار شمالا بحرس يتكوّن من مائتين وخمسين خيّالا وقدّر له ألا يغادر البلاد التى تم فتحها على يديه بل ليلقى حتفه وتفيض روحه فوق أرضها .

مطالب إسماعيل من نمر ومساعد

ترك الباشا خيّالته فى مكان يبعد نحو عشرين ميلا جنوبى شندى وأسرع مع نفر من مماليكه الخواص وطبيبه وخازنداره إلى شندى . وما إن دخلها حتى استدعى الملكين نمر والمساعد وطلب منهما أن يحضرا من النقود والماشية والجمال ما يقدّر بنحو العشرين ألف جنيه على حسب بعض الروايات ، أو على وجه العموم مبلغا تقصر مواردهم المحدودة عن أدائه .

وكان إسماعيل يرهب والده ويخافه ، وقد عرف من الخطابات التى بعث بها إليه أن ما وصل مصر لم يكن بالشىء المنتظر من بلاد عرفت بخيراتها الوفيرة . فهو يريد أن يقدم لوالده هدايا قيمة من إقليمه الذى فتحه وأن ينال الرضا والتقدير . وهو لم يُسَرّ من الملك نمر والمساعد منذ أن قابلهما لأول مرّة ولم يرض إلا بتسليم الملك نمر نفسه حين بعث هذا بابنه، ثم إنه لم ينعم عليه بسيف علامة الحلف والمعاونة ولم يأنس لهما حين غادر شندى جنوبا بل أخذهما فى ركابه تحت المراقبة واوكل بحراستهما الملك شاويش وخيّالته .

محادثة شديدة اللهجة

دهش نمر لهذه المطالب وأبدى اعتراضه فى لغة وقوة لم يرض عنهما الباشا وما كان لنمر أن يخاطب بغير هذه اللغة لأنه نشأ على أن يأمر وتعود الخضوع والطاعة مع التقدير من شعبه وما كان لملك وملك الجعليين خاصه أن يراوغ فى كلامه أو أن يتحدث باللغة الدبلوماسية . وكانت لحظة حاسمة . هذا إسماعيل يبلغ السبعة والعشرين عاما فى عنفوان شبابه وابن عزيز مصر وفاتح مملكة سنار والقاضى على حكمها ، وهذا نمر عاهل أولاد جعل أعز القبائل فى السودان والمتحدرة من سلالة العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ولا مجال للتحقيق فى صحة نسبتهم أو شعورهم بالتسامى والتفوق لأنهم نشأوا على هذه العقيدة ويستجيبون المؤثرات ويتفاعلون مع الحوادث على هذه الأفكار والآراء . وإذا اضطرت الأقدار القاسية نمراً لأن يجلس أمام الباشا فى ذلة وانكسار فإن لهجة الأمر التى كان اسماعيل يخاطبه بها وثقل المطالب زادت نار الثورة المخبوءة بين الجوانح تأججاً واشتعالا . وما رد الباشا على اعتراض نمر بكلمة قد تحتمل مهما كان وقعها ، ولكنه صفع الملك على وجهه بغليونه الطويل . طبيعى لمثل نمر وهو كما وصفناه ووصفنا عزه وقبيلته أن يرد الإساءة التى لحقته فى الحال . وفعلاً . كما روى قد هم بسحب سيفه غير أن المساعد قد غمزه بيده فى رواية ، وتحدث معه بلغة البشاريين فى رواية أخرى بأن يرجئ الانتقام لفرصة أخرى . ولو عرف إسماعيل طباع الشعب الذى أخضعه لم يرتكب هذه الغلطة ، ولكان مد فى عمره أياما أخرى وأنقذ البلاد مما أعقب مقتله من خراب ودمار ، ولكن هكذا أرادت مشيئة الخالق .

المؤامرة والاغتيال والفوضى

دبرت المؤامرة منذ تلك اللحظة بأن تغيرت سحنة نمر وأظهر القبول وتسليم المطلوب غدا ، وجهزت الدلوكة لتضرب احتفاء بالباشا وأسكر القوم حتى ناموا ، وأثناء السرور والانشراح وضع القصب الجاف حول مقام الباشا وأشعلت النيران فى بهيم الليل ووقف الجعليون بسيوفهم يقضون على من يخترق النيران ويخرج إلى الفضاء ويقال إن المماليك أظهروا إخلاصاً لسيدهم بأن تراموا عليه ومات بالاختناق لا بالاحتراق فى ليلة ١٧ صفر ١٢٣٩ . هكذا تروى القصة بتفاصيلها وقد تختلف فى بعض أجزائها من رواة آخرين ولكنها فى جوهرها تقول بأن الأسباب هى مطالب باهظة مصحوبة بإهانة بالغة وأن الرد كان اغتيالا دبِّر وأُحكم تدبيره . والوثائق الرسمية لا تنير الطريق فى هذه المسألة ؛ فهى تتركنا و إسماعيل قد غادر ود مدنى إلى الشمال وتنتقل بنا فجأة إلى حملات الدفتردار الانتقامية .

سمع محو بك مدير بربر و بعث رسولا خاصاً لمصر وسمع الدفتردار فى كردفان فنهض لتوه وساعته وجرد حملته الانتقامية . وسمع محمد سعيد افندى الوكيل فى ود مدنى وأرسل ثلثمائة من الخيالة يستطلعون الخبر فوصلوا ملتقى النيلين وتأكد لهم فرجعوا إلى ود مدنى . وأثناء ذلك تكونت حركة مقاومة فى عبود بالقرب من ود مدنى عمادها الأرباب دفع الله ود أحمد وظلوا يراسلون قرى الجزيرة بالتجمع عليهم وموافاتهم هناك . وهم فى استعدادهم هذا دهمتهم تجريدة الوكيل عند الفجر فشتتت شملهم وفر من استطاع إلى الصعيد وتجمعوا مرة ثانية فى أبى شوكة ، ولحق بهم هذه المرة حسن ود رجب ، والمرة الثانية لاحقهم جيش الحكومة وقضى على مقاومتهم قضاء نهائياً و بعدها هدأت الأحوال فى الجزيرة بكاملها .

المرحلة الأولى لحملة الدفتردار الانتقامية

تحرك الدفتردار بمعظم جيشه نحو النيل الأبيض فذعر منه عرب الحسانية واحتموا بالجزر التى على النيل ، ولكنه وصل إليهم على الأرماث وأوقع بهم مجزرة هائلة واتجه إلى البر الغربى للنيل وشياطين الخراب والدمار تسير فى ركابه حتى حل بالمتمة وأوقع بها حتى أربى عدد القتلى على الألفين ووقع فى أسره ما يربو على الثلاثة آلاف ، وهؤلاء قتلوا عن آخرهم أيضاً لأن بعضهم حاول تسديد ضربة من حربته نحو الدفتردار . و بعد أن ترك المتمة خرابا يبابا اتجه إلى الشمال

لملاقاة زعيمى الثورة نمر والمساعد حيث رحلا لمحاصرة بربر منذ أن قتل الباشا وحدث اللقاء معهما وهما فى عدة آلاف من قومهما واستعر قتال دارت دائرته على الجعليين بعد أن تركوا فى ميدان المعركة نحو الألف قتيل و بعد أن غرق الكثير فى النهر، وبهذا انهارت تلك المقاومة الأولى وانفك الحصار عن بربر وتسنى لمحو بك أن يتقابل مع الدفتردار فى الدامر. و بعد الاجتماع والتشاور ورسم الخطط عاد محو بك إلى مركز حكومته واتجه الدفتردار جنوبا ليعمل السيف فى بلاد الجعليين وعندما كان قبالة توتى عبر إليها وقتل ونشر الذعر والرعب ثم واصل سيره جنوبا والخلائق تفر من وجهه ومن أدركه منهم قضى عليه حتى وصل ود مدنى. وبذا انتهت المرحلة الانتقامية الأولى حيث رجع إلى كردفان تاركا الثوار ملتجئين بالبطانة بعد أن التحموا فى معركة أخرى مع محو بك.

اقتراح اعطاء كردفان بالاقطاع

تبيّن الموقف فى السودان لمحمد على ورأى أن يشير على السر عسكر باعطاء كردفان لأحد السلاطين أو الملوك على سبيل الإقطاع لتتفرغ الإدارة والجنود لحكومة إقليم سنار. ورأى محمد على هذا الرأى لأنه لم تمض سنتان تقريبا على الفتح حتى حدثت ثورات الضريبة فى سنار واغتيال ابنه وما أعقبه من حركات التمرد والعصيان، ولكن الدفتردار لم يوافق على هذا الرأى بحجة أن ملوك كنجاره الذين يستطيعون حكم كردفان زال أثرهم ولم يبق غيرهم يتمتع بنفوذ يخضع له الإقليم المذكور، فصرف النظر عن هذه الخطة وترك بالأبيض حامية لحفظ الأمن وقفل راجعا لإقليم سنار حيث يقضى على الثوّار.

المرحلة الثانية لحملة الدفتردار

سمع الجعليون بقدوم السر عسكر فلجأوا إلى البطانة بالقرب من أبى دليق ووصل هو إلى بلاد الجعليين وجهّز جيشاً يلحق بالثوار وحرّض القبائل الأخرى لتمدّ يد المساعدة والعون للحكومة والتقى بهم بمكان يدعى النصوب انهزم بعدها نمر بعد أن قُتل عدد كبير من أهله وعشيرته، واتجه مع نفر قليل من أصحابه حين انجلت المعركة شرقا واستقر بالحبشة. وعندما جمع الدفتردار الأسرى وجدهم ينوفون على الأربعة آلاف فيهم عدد من نساء نمر و بناته وخالاته وعماته، وس

الـكل إلى النيل أرسلوا بعدها إلى مصر ليباعوا فى سوق الرقيق، لولا أن تدخل قناصل الدول الأجنبية فى الأمر . وكانت موقعة النصوب فى شوال سنة ١٢٣٨ .

موقعة الدندر

تلاشت قوة نمر الآن بقتل من قتل وأسر البقية وفرار نمر نفسه فى قلة من أصحابه . أما المساعد فقد تراجع نحو الصعيد إلى مكان بين نهرى الدندر والرهد .

وبعد فترة استجمام لا بد منها سار الدفتردار على شرقى النيل الأزرق حتى أدرك الثوار والتقى بهم قبل أن يلحقوا بالحبشة ، فقتل الـكثير وأسر نحو السبعة آلاف سيقوا كلهم إلى أبى حراز ولـكن الضعيف منهم مات فى الطريق نتيجة العطش والتعب ، وجهز منهم خمسة آلاف يرسلوا من إقليم سنار فى قوافل تشمل الألف كل واحدة منها إلى مدير دنقلا ليرسلهم بدوره إلى المحروسة كأسرى النصوب .

واستراح الدفتردار قليلا على النيل ثم نهض شرقاً مطارداً لنمر وللقبائل العاصية ، ووصل إلى شرقى كسلا فقتل وسبى ، ثم رجع إلى مكان إقامته بالنيـل وبهذا ختمت صحيفة دموية لم يشاهد السودان مثلها فى تاريخه .!!

تعيين عثمان بك

صدرت الأوامر للسر عسكر بأن يجهز نفسه لمغادرة السودان هو وجنـده وجند جنتمكان [1] إسماعيل باشا وعين من مصر عثمان بك أمير الألآى الأول لإدارة الإقليم . فتحرك عثمان بجنود الجهادية التى تدربت على النظام الجـديد وأثناء مروره بالصعيد أوكلت إليه مهمة القضاء على حركة شخص ادعى المهدية فى إسنا ، وأثناء استئناف سيره جنوباً تمرد بعض الجنود فكاتبه محمد على موبخاً ومؤنباً ومذكراً إياه بأن يتودد لرجاله ويتواضع معهم بقوله : « ألا فليكن فى علمك أن الرجل المتكبر الأنانى المعجب بنفسه لا يسود فى هذه الدنيا ولا ينجح » .

وصل عثمان بك إلى ملتقى النيلين وأعجب بهذا الموقع فلم يواصل سـيره إلى ودمدنى العاصمة وفضّل أن يبنى الثكنات والقلاع فى المـكان الجـديد ورسم خطته لوضع الضرائب الجديدة بعد حقبة الاضطراب والفوضى وكان نظاماً غليظ

(١) ساكن الجنان .

القلب فنكّل بالناس أثناء زياراته فى الجزيرة و إقليم القضارف واتّسم عهده بالظلم والقسوة التى عرف بها عهد الدفتردار فى حملاته الانتقامية وقبل أن تتم له إقامة ثمانية أشهر فى إقليمه الجديد أصيب بداء السل وقضى نحبه وكان أول دفين من العظام فى العاصمة التى أسسها .

محو بك يخلف عثمان بك

طيّر خبر موت عثمان بك إلى محو بك فى بربر نخف فى الحال للخرطوم واستلم الحكومة إلى أن ورد له الأمر بتعيينه على سنار خلفاً لعثمان بك ورجع لبربر أقام بها مدة ثم قفل راجعاً إلى الخرطوم ليقيم فيها نهائياً . وقد خفف محو بك كثيراً من الآثار السيئة التى تركتها سياسة الدم والنار من حملات الدفتردار و إدارة عثمان بك الغاشمة . فأغرى الأهالى بالرجوع لأوطانهم والاطمئنان لجانب الحكومة ، ومنع عساكر الجهادية من التعدى على الأهالى . وقد حالفته الطبيعة فى يمنه بأن هطل الغيث وفاض النهر ودر الضرع وعم الرخاء بعد أيام عثمان بك بقحطها وجدبها وأمراضها .

آثار سيئة

تركت هذه الحوادث المتعاقبة أثراً سيئاً فى نفوس أهل السودان ونظرتهم نحو الأتراك . وبالرغم من أن إسلام السودان يصل إلى درجة التعصب وبالرغم من أن الأتراك كانوا حماة الإسلام آنذاك وأن السلطان العثمانى هو خليفة المسلمين قاطبة فإن السودانى فى قريته الوادعة المطمئنة أشرب بغض التركى وكره منظر الجندى التركى بطربوشه وسوطه ، إذ ظهوره فى القرية لأول وهلة يشيع فيها الخراب والاضطراب .

تقضت الآن ست سنين معظمها غزوات لأسر سكان الجبال وإرسالهم لمصر للانتظام فى سلك جندية محمد على النظام الجديد ، وحملات انتقامية قام بها الدفتردار إن هى أعفت الأطفال والنساء من القتل فلأجل أن يرسلوا لمصر ، وسياسة الإرهاب والعسف التى أشاعها عثمان بك ، ثم قبل ذلك كله الضريبة التى ما ألفها السكان ولم يستسيغوا فداحتها أو الطريقة التى تجبى بها . فلا غرابة إذا ما اقترن اسم الأتراك فى نفوس السودانيين بكل ما هو جائر وظالم لأنها هو

الناحية التى تكشفت لهم من الصورة . وإنصافاً لإسماعيل باشا نرى أنه لم يستبح ممتلكات الأهالى أو أعراضهم ، وأنه كان يدفع أجرة الجمال للحملة وأثمان الغلال والمواشى المؤن ، وأنه أبدى عطفاً وأوصى بالرفق واللين حين علم فداحة ما وضعه وكيله ومباشره من ضرائب . غير أن نزعات الشباب وغروره والشعور بالتسامى والعظمة قد أودت بحياته وقضت على السمعة الحسنة نسبياً التى ارتبطت بفتحه الأول ولم يبق غير حملات الانتقام بعد ذلك ومظاهر الجور والظلم والإرهاق .

استقرار الإدارة والأخذ بأسباب العمران

تعيين خورشد أغا حاكما لإقليم سنار

بعد هذه الأحوال المضطربة عين خورشيد أغا ليكون حاكما على اقليم سنار وهو السودان ماعدا كردفان ودنقلة. وكان على الحاكم الجديد أن يرجع ما فقدته النفوس من ثقة فى الحكومة ، وكان عليه أن يرجع من فرّ ملتجئا بالتخوم الحبشية وعددهم يربو على الاثنى عشر ألفا ونجح أخيرا فى ادراك الغايتين فهو يجامل ويلاطف وينصف حتى اطمأن الناس على أنه لم يكن على غرار من سبقه وأغرى اللاجئين بإعفائهم من ضرائب السنة التى فيها يرجعون ، وقاد حملات إلى الشرق لا ليدمّر ويخرب بل ليحمل على بعض الزعماء هناك الذين يمانعون فى رجوع الهاربين ، وهو فى هذه المهمة قد استعان بذوى النفوذ والكلمة من السودانيين كالشيخ أحمد الريح والشيخ عبد القادر ود الزين .

سياسة عمرانية

وجه خورشد عنايته لعمران العاصمة فبعد أن كانت معظم بيوتها من الشكاب وجلود البقر ما عدا القليل من بيوت قبيلة البداناب [1] شيد الجامع بالطوب الأحمر وكذلك مبانى الحكومة وثكنات الجند وشجع الأهالى على البناء والتعمير بان فرق عليهم الأخشاب من جانب الحكومة .

كان محمد على يشرف بنفسه على ما يجرى فى السودان فى عهده الجديد ، وخاصة بعد تلك المعارك الدموية التى اعقبت مقتل ابنه ورأى أن لا سبيل إلى

---

(١) فرع من قبيلة المحس .

توطيد مركزه وتثبيت دعائم ملكه فى تلك البلاد الثائرة إلا بالعمل على رفاهية السكان والسهر على مافيه راحتهم وما يجلب طمأنينتهم وثقتهم . وتنفيذا لذلك رأى ألا سبيل إلى زيادة انتاج البلد واستغلال ثروتها الطبيعية من زراعية وحيوانية الا بتحسين المزروعات ونسل الحيوانات وإدخال الطرق الحديثة فى كليهما وإرسال الخبراء المختصين من أجل ذلك الغرض . فأمر أن يرسل مع خورشد أغا ما ينوف على المائة من الفلاحين والخولية وزعوا على الاخطاط المختلفة يعلمون الأهالى بالطريق العملى أحدث وأنفع طرق الزراعة ورأى خورشد بعد أن وصل مقر حكومته أن يرجع من أوفدوا للسودان قبلا لأشياء ثبتت بالتجربة أنها لم تكن بذات جدوى كخبراء زراعة الأفيون والدباغة وعمال الجبس والجير ورأى أن يستعيض عنهم بسودانيين يرسلون لمصر لتعلم بعض الصناعات والحرف ثم يعودون لبلادهم يمارسونها فيها .

وضح لخورشد أن الانتاج الزراعى يجب أن يبنى على الرى المستديم لا على الأمطار ، وطلب عمالا من مصر يجيدون صناعة السواقى المصرية لتروى أراضى بلاد الجعليين ، وطلب آخرين يحفرون الترع حيث تستغل مياه الفيطان وفى الجزيرة أغرى السكان الذين يقطنون بعيداً عن النيل بأن يبنوا بيوتهم عليه وينشئوا السواقى هناك ، وقد استحضرت إغراس الأشجار المثمرة من مصر لتزرع فى السودان وشجعت بعض المزروعات كالنيلة وقصب السكر . ولتحسين نسل الضأن الموجود بالسودان جلبت كباش ممتازة من مصر لتحقيق هذا الغرض . وبوجه عام امتازت الإدارة الجديدة بعد هدوء الأحوال واستقرار الأمن بنهوض عام هدفه زيادة الإنتاج واستغلال الثروة الزراعية والحيوانية .

عين محمد على الساهرة

لم يدخل محمد على فى مغامرته السورية ومناوأته للسلطان فى السنين الأولى من حكم خورشد ولذا نراه يشرف حتى على دقائق الإدارة فى السودان . فالذى يطلب إعفاء أرضه من الضرائب لأنها وقف على مدرسة أو جامع يرد عليه الباشا نفسه بأن يطلب من الحاكم المختص التأكد من أن المدرسة قامت فعلا أو الجامع قد بنى ، وحين طلب خورشد أن يزاد مرتبه الذى كان يخصم من ماهيته شهرياً

لعائلته زيادة ملحوظة يرد الباشا بأن هذه الزيادة فى المرتب لها دلالتها المؤدية إلى عدم نزاهة خورشد وأنه يعيش فى السودان بطرق أخرى ولا يطمئن الباشا إلا بتفسير خورشد بأن ما يخصم يذهب بعضه لعائلات بعض الموظفين معه وأنه يتناوله منهم . وإذا أبدى خورشد بعض الحجج على صعوبة بناء المراكب فى إقليم سنار ردّ محمد على بنفسه مفنداً حججه الواحدة تلو الأخرى . وإذا طلب أن تبنى وتجدد الحكومة منزله فى القاهرة نظير خصم مبلغ معين من مرتبه شهرياً رد له بأنه لا يصح للحكومة أن تترك أعمالها الرسمية وتشغل بتجديد منزله .

وبالرغم من ملاحظات محمد على الدقيقة وعينه الساهرة على ما يجرى فى ممتلكاته الجنوبية فإن الرشوة والاختلاس قد بدئ بالأخذ بهما ، وهناك أكثر من حادثة رشوة واختلاس فى بربر ودنقلا عوقب المجرمون بما يستحقونه سواء كان الرفت أو السجن أو مصادرة الأموال . وبلاد واسعة كهذه ومواصلاتها غير منتظمة وصعبة لا بد وأن يشتغل فيها الحكام والكشاف بإثراء أنفسهم .

لم ينس محمد على تزويد جيشه بالسود من السودانيين، ولم يفقد الأمل منهم الجنود السود أيضا رغما عما كان يموت منهم بكثرة فى مصر والحجاز ، فكان يأمر بتحسين غذائهم ومسكنهم وكان يقترح على حاكم سنار ألا يبعث بهم إلى مصر رأساً عقب الغزوات بل يتركهم فى السودان الأوسط ليتعودوا على الطقس والحياة قبل إرسالهم سواء لمصر أو الحجاز . واستطاع خورشد ورفيقه حاكم كردفان بعد أن اطمأن السكان أن يصدرا عدداً كبيراً من الماشية للانتفاع بها فى صعيد مصر للسواقى والجمال لترسل للحجاز من أجل ترحيل مؤونتهم وذخائرهم وكذلك جلود البقر .

ترقية خورشيد

رقى خورشد أغا الى رتبه مير اللواء وسمى مدير الأقاليم السوانية وأصبح يعرف بخورشد بك فى سنة ١٢٤٩ هـ . وفى سنة ١٢٥١هـ رقّى إلى رتبة الميرميران الرفيعة وعُرف بعدها بخورشيد باشا ومنح لقب الحكمدار ، وجاء فى فرمان تعيينه مايلى " (١) وسس كافة الأهالى بسياسة طيبة واجعل الاهتمام ببسط العمران

(١) دفتر ٦٦ معية تركى أمر كريم رقم ٦٧ بتاريخ ٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٥١ .

والرفاهية فى هذه الأقاليم كالأقاليم المصرية نصب عينيك كما هو المنتظر منك ".

ملاحظات على الرق

كثر تردّد السائحين الأوروبين منذ أن تم الفتح ولاحظ بعض الإنجليز الذين حضروا هنا أن بعض الجند والضباط يعطون رواتبهم رقيقا لا نقداً ونقلوا هذه الظاهرة التى شاهدوها إلى قنصل انجلترا العام المستر كامبل وكان يتمتع بثقة محمد على وتقديره ، بل بلغ درجة الصداقة من نفسه فأسرّها لمحمد على فى إحدى محادثاته ، فتأثر الجناب العالى وكتب إلى الحكمدار يأمره بإبطال هذه العادة بقوله « ولما كان من واضحات الأمور مبلغ استهجان هذا النظام لدى الدولة المشار إليها قد وجب إلغاؤه مراعاة لما استحكم بيننا و بين هذه الدولة من روابط الصداقة المتينة وعليه فيجب أن تكفّوا فيما بعد من إعطاء العبيد والجوارى بدلا من العلوفة وأما إن قلتم أن الأخذ بهذا النظام يعود على الميرى بفائدة فأقول لكم دعوا الفائدة فى جانب فأنا مستعد لقبول الضرر والخسارة فى هذا السبيل ولذلك أطلب إليكم بصورة قطعية أن تلغوا النظام المذكور » .

وعند ما استلم الحكمدار هذا الأمر رأى للأخذ به أن يجمع مجلساً كبيراً ينظر فيه وفى أمور أخرى تتعلق بالأمن العام والمالية . فتوافد المديرون على الخرطوم ومعهم سبعة وعشرون من مشايخ الأخطاط والأقسام وعلى رأسهم شيخ مشايخ جزيرة سنار الشيخ عبد القادر ود الزين وقرروا العمل بالأمر الكريم وتوزيع هذا الرقيق على الجهات ليباع وأثمانه تدفع مرتبات وكان هذا أول مجلس كبير عقد فى الحكمدارية للنظر فى الشؤون العامة .

الذهب

شغل محمد على بمسألة استخراج الذهب من معادن بنى شنقول منذ أن استلم الجور بين اللذين بعث بهما ابنه اسماعيل حينما غزا تلك الجهات وبعث بالأسطوات (المهندسين) الإفرنج لذلك الغرض . والظاهر أن الروايات التى سمعها عن كثرة الذهب كان مبالغاً فيها جداً والأبحاث الأولى لم تسفر عن نتيجة تبشر بالنجاح ومع ذلك طلب أن يقدّم تقرير بآراء المعدنيين وأمين المعدن مصطفى بك ، وقد اختلفت آراؤهم وتباينت وانتقل هذا الاهتمام بشأن المعدن إلى الحكمدار حيث رأى أن يقوم برحلة خاصة من أجله غير أنه بلغته أخبار

مؤامرات فى الشرق استلزمت الانتباه لها وصرف النظر عن المعدن فى ذاك الوقت .

حوادث الحدود مع الحبشة

لم تحدّد التخوم ما بين بلاد السودان والحبشة ، وما كان فى الإمكان تحديدها ورجال العصابات يسيطرون عليها ، وكانت الجبال الحبشية ملجأ للفارين سواء من الضريبة أو من تجريدات الانتقام . وقد حدثت بعض مناوشات بين الرءوس الحبشية وجيش الحكومة أسر فى بعضها الضباط . وطارت الاشاعات بعد تلك الاشتباكات الصغيرة على أن الأحباش على اتفاق مع بعض القبائل السودانية المتاخمة وبعض الفارّين الذين لم يعودوا إلى بلادهم بعد . والإشاعة تقول إن المتآمرين ينوون النزول من الجبال بعد أوان الخريف مباشرة ، وإن رجال القبائل إذا ما طلب إليهم من الحكومة بالمقاومة فليتظاهروا بذلك و بعدها ينقلبون على جيش الحكومة وإذا ما تم النصر ترجع البلاد فى الجزيرة وإقليم سنار إلى حكم أهلها الذين كانوا يحكمونها قبل الترك .

نجدة أحمد باشا

بلغت هذه الاشاعات حداً من الذيوع قلق له الحكمدار وبالرغم من أنه سمح له بالنزول لمصر للمعالجة من داء الناسور لم يسعه إلا البقاء وبعث برسالة مستعجلة لمصر يصوّر فيها ما ترامى إليه من أخبار وطلب النجدات القوية السريعة . واهتم محمد على بالأمر وبعث بقوة عظيمة على رأسها قائد برتبة ميرميران وهو أحمد باشا الذى سمّى بأبى ودان فيما بعد . والقوة فى طريقها إلى السودان جمع الحكمدار ما لديه من جند وخف إلى الشرق لملاقاة العدو الذى ربما تحدثه نفسه بتنفيذ المؤامرة ، ولحسن الحظ لم تنزل المكادة من جبالها ولم تعلن القبائل عصيانها ، وكأنما كانت الاشاعة مبالغاً فيها أو أن القبائل ذعرت وخافت من قوات الحكومة . رجع الحكمدار بجيوشه وتقابل مع قائد النجدات فى ود مدنى ورجع الجميع للعاصمة وسافر خورشد باشا للمعالجة من دائه .

مغادرة خورشد باشا

وكان وداعه رهيباً وحزن على فراقه كل الأهالى إذ عرفوا فيه الحاكم المقتدر العادل الذى ساسهم نحو الاثنتى عشرة سنة أنساهم خلالها ما لحقهم من جور

وظلم أثناء سنين الدفتردار الدموية ووصف رحيله الشيخ أحمد كاتب الشونة بقوله « وتجهز بكامل ما لديه ونزل بالمراكب فصعب ذلك على الأهالى جميعاً وصاروا عند وداعه يتباكون بالدموع حتى قيل إن الشيخ عبد القادر هجر نفسه من الأكل والشراب يومين حزناً على فراقه » .

أحمد باشا أبو ودان

عيّن أحمد باشا أبو ودان مأموراً على الأقاليم السودانية لا حكمداراً ليقوم مقام خورشد باشا أثناء غيابه ، ولكن بعد أشهر من ذلك بقى خورشد فى مصر وصدر الأمر بتعيين أحمد باشا حكمداراً وهو من مماليك محمد على الشراكسة حارب فى سوريا فى جيش إبراهيم باشا وحمل نبأ سقوط عكا لمحمد على فى زمن قصير جداً وارتقى فى جيش الباشا حتى وصل رتبة الميرميران . وكان عهده استمراراً لعهد الحكم القوى الموطّد الأركان والدعائم الذى بدأه خورشد وعرف بأنه مثال الحاكم الحازم العادل وقال عنه الشيخ أحمد المذكور « وضبط الحكومة أشد الضبط من غير إهمال ولا تفريط وأبطل كل ما كان من تعدى العساكر على الفلاحين من تسخيرهم فى الأشغال وتسخير بهائمهم فانزجروا جميعاً ورفعوا أيديهم كلية خوفاً من سطوته وبذلك ارتاحت الأهالى وزادت العمارة وكثر الخير وخصبت الأراضى ورخصت الأسعار وحتى صار أردب الذرة بخمسة قروش وصارت أيامه أحسن من أيام سلفه وإن كان أيام سلفه أيضاً حسنة فى نفسها » .

عرف أحمد باشا بكثرة الصمت وقلة الكلام وبذا عظمت هيبته فى النفوس وأصبح يخافه ويخشى بأسه الجند والحكام مهما بعدت أقاليمهم ، وكان لإدارته أثرها الحسن فى تأمين الطرق وانهماك السكان فى مزارعهم وتربية مواشيهم .

ضيق المالية

عين أحمد باشا حكمداراً ومحمد على تحتل جيوشه سوريا منذ ثمان سنوات وتضخمت المصروفات دون أن توازن بما يعادلها من إيرادات ولذا نراه يلحّ على أحمد باشا فى إرسال الصمغ ليفرج بعض الشىء الضائقة المالية وإذا طاب أحمد باشا ربط مرتبات لمشايخ القبائل والقرى يبدى الجناب العالى اعتراضه على ذلك

دون أن يمنعه منعاً باتاً . وأخيراً فكّر فى الاهتمام بأمر المعدن ورأى أن يقوم برحلة لفازوغلى خصيصاً لهذا الغرض . وطلب أولا أن يذهب لمصر مصطفى بك الذى كان مشرفاً على شؤون المعدن وسافر فعلا بمعية خورشد باشا .

سفر محمد على للسودان

بحثت كل الاستعدادات التى يجب القيام بها من تعيين العمال وجمع العُدد والآلات وغيرها وجهّزت لوازم سفر الجناب العالى من ذهبيات لسفره وخيل يمتطيها فى السودان وحاشية كاملة لم تفقد حتى عامل الشيشة ، والقهوجى باشا ، ونقود تصرف على أعمال المعدن وخلع وكساوى تعطى للمشايخ والأعيان . وعند ما تمت الاستعدادات ترك عباس باشا ابن طوسن قائمقاما بدله وغادر مصر لزيارة أراضيه الجنوبية . لم يقم كثيراً فى الخرطوم بل غادرها ليصل الروصيرص ويظل هناك خمسة عشر يوما لتتكامل المعدات واللوازم وعندما تكاملت قام إلى فازوغلى وحط رحاله بها ، وفى الحال بنيت مساكن العمال وشيدت المستشفيات وثكنات الجند وقصر خاص لمحمد على وبرزت إلى الوجود قرية عظيمة فى فازوغلى . وبعد أن شاهد العمليات الأولى لتصفية وصهر المعدن قفل راجعا من فازوغلى .

ولو أن مهمته الرئيسية كانت تنحصر فى شئون المعدن إلا أنه لاحظ ما ينقص إدارته فى السودان وكتب وهو هنا على جناح السرعة إلى عباس باشا بأن يرسل عددا من الكتاب الأكفاء قابلوه عند رجوعه لمصر فى اسوان ولم يكتف بذلك بل أمر بابعاث غيرهم ووصف الحالة من حيث الإدارة بقوله[1] « عندما طفنا أرجاء السودان وتفقدنا أحوال العباد والبلاد ألفينا أن الأقسام والمناطق قد ترك أمرها لجماعة من الكشاف وأن البلاد ينقصها الكثير من الكتاب الأكفاء الذين فى مقدورهم مواجهة الأمور والأحوال الطارئة ومعالجتها وقد عرض علينا أحمد باشا حكمدار السودان حاجة السودان إلى الكتاب الأكفاء فكتبنا من الخرطوم إلى ديوان معاونتنا فى هذا الشأن ولما

(١) دفتر ٢٨٠ شورى المعاونة ملكية وثيقة رقم ٢١ بتاريخ ١١ محرم سنة ١٢٥٥

بلغنا اسوان فى طريق عودتنا إلى مصر وجدنا هناك أكثر من ٤٠ كاتبا قد أوفدوا من مصر للخدمة فى السودان غير أننا لا نزال نرى أن الحاجة ماسة إلى بعض الأكفاء لاستخدامهم فى مركز الحكومة والمصالح الهامة ليتسنى بذلك ترقية البلاد وإصلاح حال العباد ولا أهمية المال إذا ما صرف فى هذا السبيل».

فتح التاكة

فكر أحمد باشا فى توسيع رقعة حكمداريته بأن يفتح بلاد التاكة فهى غنية بمواردها الزراعية كما سمع عنها . فتجهز بجيشه وسار إلى شندى ، ومنها اتجه شرقا حتى وصل قوز رجب التى تقع على ضفة نهر عطبرة اليسرى وشرقى ذلك النهر مفازات قليلة المياه فأخذوا ما يكفيهم من المياه ودخلوا تلك الأراضى المجهولة لديهم واتصلوا بأطراف ما يروى القاش من أراض وسلّمت لهم بعض القرى فى الأطراف دون مقاومة . غير أنهم بدخولهم فى أراض مشجرة وعرة قابلهم الهدندوه بالمقاومة ، فبينما هم فى وسط الأشجار فى هيئة مربع هجم عليهم العربان ليلا فانطلق الرصاص من فوهات البنادق عليهم وابلا مدرارا فارتدوا على أعقابهم وزحف الجيش بعد هذا الانتصار حتى أتوا لمجموعة من الآبار ردمها العرب وفرّوا ، فأصلح الجند من شأنها واستقوا منها وبدأوا يقطعون الأشجار ويشقون الطريق للتوغل فى الغابات وإخضاع السكان .

فلما رأى العرب تصميم الجيش على الاحتلال بسلاحه الرهيب طلبوا الصلح والمفاوضة وتم ذلك وأقام الحكمدار معسكره فى المكان الذى عرف فيما بعد بمدينة كسلا ، وأنشئت الاستحكامات وشيدت مبان لمقر الحكومة . وما أن انقضى الخريف حتى سمعوا بتمرد من بعض العربان فى نواحى كسلا فقاموا لإخضاعهم وكالعادة دخل العرب الغابات فقطعت الأشجار وتوغل الجيش فيها وتلقى هجمات قوية باسلة ردتها النيران وفرّ العرب بعد أن تركوا نحو المائة قتيل فى ميدان المعركة وانقضى بذلك عنصر المقاومة الأخيرة .

وقد دهش أحمد باشا لخصب الأرض التى يرويها القاش ريا مستديما وبنى سدّا يحوّل المياه نحو أراض جديدة حتى تجف الغابات التى كان يرويها ويزيلها

نهائيا حيث لا تعود كمينا للعربان مرة أخرى ووجد الأهالى قبله يستخدمون أنواعا من السدود ويزرعون القطن والذرة واللوبيا . ومن الأقاليم الواسعة التى بسط سيطرته عليها رتب مديرية جُعلت كسلا عاصمتها و بعد أن أقام أشهرا ترك بها مديراً وحامية عسكرية وقفل راجعا للخرطوم .

مطامع أحمد باشا ووفاته

بدأت الإشاعات تحوم حول نيات أحمد باشا عند رجوعه من كسلا وقيل إنه يريد أن يفصل السودان من حكومة محمد على و يضعها تحت سلطة تركيا و يعيّن هو واليا كمحمد على نفسه فى مصر وقد تحدث Werne الألمانى الذى كان معه فى كسلا بأن الباشا كان يسهر ليالى بأكملها يفكر فى هذا الأمر و يتناول القهوة باستمرار . وإذ بلغت الإشاعات حدا من الذيوع حتى اتصلت بمحمد على استدعى الحكمدار لمصر والظاهر أن احمد باشا تباطأ حتى قلق محمد على وبدأ يرسل الخطابات تارة لمدير جرجا وتارة لمدير دنقلا أو بربر يطلب منهم موافاته بما علموه عن أحمد باشا و يسألهم هل وصلهم أم سمعوا أنه غادر الخرطوم .

وأخيرا توفى أحمد باشا تحت هذه الظروف . وكما شاعت أخبار نياته نحو فصل السودان شاع أيضا أنه قتل مسموما بإيعاز من محمد على إشاعة جعلت محمد على يقول لمدير الوجه القبلى وهو ممن لهم علاقة بالمتوفى ما نصه « والله العظيم وبالله الكريم إننى لا أحمل فى نفسى للباشا المرحوم أى شىء من السخط ولا أشك فى إخلاصه وإنى لأقدّر مبلغ جهوده وقيمة خدماته وأعرف ما كان يكنّه لى من المودة والولاء وأنا واثق من ذلك » .

اللامركزية

وبموت أحمد باشا انقضى عهد الحكمداريين العظام ولم يشأ محمد على أن يعيّن مكانه حاكما قد تحدثه نفسه بمثل ما حدثت أحمد باشا أو أن يشاع عنه بمثل ما أشيع عن الباشا المتوفى وهو حريص على أن تبقى ممتلكاته الجنوبية فى يده حرصه على حكم مصر نفسها . والآن وقد مضت عليه أربع وعشرون سنة كان فيها السودان جزءا متمما لمصر لا يريد أن يبتر هذا الجزء بعمل طامع فى الحكم . دارت هذه الأفكار فى رأس العزيز عندما بلغه نبأ وفاة الحكمدار ،

ورأى أن يرتب الإدارة فى ذلك القطر المترامى الأطراف على أساس يبعد احتمال تحقيق أى غرض من شأنه أن يطوى سلطته ونفوذه فى السودان ، ولذا وصل إلى النتيجة الطبيعية التى يصل إليها من كان فى مثل هواجسه ومخاوفه آنذاك وهى لغو ذلك المنصب العظيم الذى ربما يكون شاغله من ذوى المطامع والاستعاضة عن النظام القديم بتقسيم البلاد إلى مديريات ترجع فى أمورها رأساً إلى مصر ويتعاون المديريون فيما بينهم لإنجاز المصالح المشتركه . وتحقيقاً لهذا التغيير الإدارى رأى أن يبعث بمن يثق به لتركيب الآلة الإدارية الجديدة وتشغيلها . فعهد بذلك إلى أحمد باشا المنكلى وعيّنه منظِّماً لا حكمداراً يمكث ريثما يتم الوضع الجديد ويقفل راجعاً لمصر .

تقسيم المديريات

صدر الأمر الكريم بتعيين اللواء حسن باشا لمديرية دنقلا التى وسعت حدودها حتى المتمة وشندى ، وأمين باشا للجهات العليا وهى تبدأ من المتمة وشندى وتشمل الخرطوم والنيل الأبيض والجزيرة حتى ود مدنى والأقسام الشرقية للنيل الأزرق ، وسليمان باشا لمديرية سنار وهى ما يلى ود مدنى جنوبا من الجزيرة حتى حدود فزوغلى وشرق النيل الأزرق كأقسام القضارف وراشد وأرض العطيش والقلابات ، وسليم باشا لمديرية فزوغلى وهى أعالى النيل الأزرق ، وفرهاد باشا لمديرية التاكة ، ومصطفى باشا لمديرية كردفان .

والأمر الذى بيد المنظم يطلب إليه أن يوزع العساكر على هذه المديريات بقدر ما تحتاجه كل منها حسب حالة الأمن واحتمال وقوع الثورات والاضطرابات ، وكذلك توزيع الكتّاب والموظفين وإذا كانت البلوكات ناقصة يعهد إلى كل مدير إتمامها بمعرفته وأن يطلب إلى المديرين التعاون والمؤازرة وفيما إذا طلب أحدهم مدداً وعوناً من أخيه فعليه إجابة مطلوبه . فإذا ما أنجز الباشا هذه المأمورية رحل بمن بقى من الجند إلى جبال المنجم فى فازوغلى ويخصّص وقته وجهده لاستخراج الذهب ويبعث بآرائه واقتراحاته فى هذا الصدد ويبقى هناك إلى أن تصدر له إرادة أخرى بما يجب عمله . وكان محمد على يستبشر خيراً بالنظام الجديد ويقرّ بأن من كانوا يحكمون البلاد قبل هذا وخاصة فى المديريات لم يكونوا

من ذوى الكفاءة والمقدرة ، ويقول للمنظم فى إحدى مكاتباته[1] « إن بلاد السودان من البلدان التى تدرُّ الكثير من الخيرات غير أن الذين عيِّنوا لإدارة مختلف جهاتها حتى الآن لم يكونوا من طراز اللواءات الذين اختيروا أخيراً لتولى شؤونها ، ولذا لم تتقدم البلاد السودانية وظلَّت فى حاجة إلى الإدارة الرشيدة الحازمة » .

صعوبات المنكلى

لم تكن مهمة المنكلى بالهينة كما يبدو فقد بادره المديريون بعدم الطاعة والانقياد لأوامره لعلمهم أنه ليس بحكمدار وأنه أتى لغرض خاص ، ولكنهم مستقلون فى إدارتهم استقلالا كاملا ويرجعون فيما يبرمون من أمر إلى مصر رأساً ، وبلغ من حمزة باشا مدير الخرطوم أن أعلن للأهالى أنه الرئيس المطاع والحاكم المتصرف ولا رئيس فوقه فإذا ما قدم الأهالى عرائض شكواهم للمنكلى وحوَّلها هذا بدوره للمدير نكَّل بهم المدير ولم يسمع لشكاواهم إلا إذا قدمت له بالمباشرة لا بالواسطة ، والأهالى معذورون فى ذلك لأنهم لم يألفوا شخصاً يقيم فى الحكمدارية لا تصرّف له ولا نفوذ . فشكى المنظم هذه الحالة فى مكاتبة طويلة عدَّد فيها ما يلاقيه من مشاكسة وعدم انصياع من المدير المذكور . والظاهر أن محمد على أدرك أنه لاتصلح الأحوال إلا برجوع الحكمدارية ولكن من يُنتخب يجب ألا يكون فى مثل قوة ومطامع أحمد باشا المتوفى . فرجع المنكلى بعد أن قضى ما يزيد على السنتين .

الحوادث فى زمن المنكلى

بالرغم من أن أحمد باشا لم يتمتع بسلطة الحكمدار رسمياً إلا أنه فى الواقع ونفس الأمر كان عليه أن يلعب هذا الدور . فهو الذى قاد الجيش وأخضع قبائل التاكا عندما ثارت ، وهو الذى يبلغ الأوامر الخاصة بتجارة الرقيق للمديرين ويراقب تنفيذها ، وهو الذى عهد إليه بأن يمنع التجار من ممارسة تجارة الصمغ لأنه ملك الدولة وليس لأحد غيرها أن يربح منه حيث أنه نبت الأرض بالطبيعة دون أن تعمل يد الإنسان عملا يذكر فيه ، وهو الذى اقترح لمحمد على تخفيض

(١) دفتر ٣٦٩ معية تركى وثيقة رقم ٣٥٣٧ بتاريخ ٢٤ القعدة ١٢٥٩ .

ورأى أن يرتب الإدارة فى ذلك القطر المترامى الأطراف على أساس يبعد احتمال تحقيق أى غرض من شأنه أن يطوى سلطته ونفوذه فى السودان ، ولذا وصل إلى النتيجة الطبيعية التى يصل إليها من كان فى مثل هواجسه ومخاوفه آنذاك وهى لغو ذلك المنصب العظيم الذى ربما يكون شاغله من ذوى المطامع والاستعاضة عن النظام القديم بتقسيم البلاد إلى مديريات ترجع فى أمورها رأساً إلى مصر ويتعاون المديريون فيما بينهم لإنجاز المصالح المشتركه . وتحقيقاً لهذا التغيير الإدارى رأى أن يبعث بمن يثق به لتركيب الآلة الإدارية الجديدة وتشغيلها . فعهد بذلك إلى أحمد باشا المنكلى وعيّنه منظِّماً لا حكمداراً يمكث ريثما يتم الوضع الجديد ويقفل راجعاً لمصر .

تقسيم المديريات

صدر الأمر الكريم بتعيين اللواء حسن باشا لمديرية دنقلا التى وسعت حدودها حتى المتمة وشندى ، وأمين باشا للجهات العليا وهى تبدأ من المتمة وشندى وتشمل الخرطوم والنيل الأبيض والجزيرة حتى ود مدنى والأقسام الشرقية للنيل الأزرق ، وسليمان باشا لمديرية سنار وهى ما يلى ود مدنى جنوبا من الجزيرة حتى حدود فزوغلى وشرق النيل الأزرق كأقسام القضارف وراشد وأرض العطيش والقلابات ، وسليم باشا لمديرية فزوغلى وهى أعالى النيل الأزرق ، وفرهاد باشا لمديرية التاكة ، ومصطفى باشا لمديرية كردفان .

والأمر الذى بيد المنظم يطلب إليه أن يوزع العساكر على هذه المديريات بقدر ما تحتاجه كل منها حسب حالة الأمن واحتمال وقوع الثورات والاضطرابات ، وكذلك توزيع الكتّاب والموظفين وإذا كانت البلوكات ناقصة يعهد إلى كل مدير إتمامها بمعرفته وأن يطلب إلى المديرين التعاون والمؤازرة وفيما إذا طلب أحدهم مدداً وعوناً من أخيه فعليه إجابة مطلوبه . فإذا ما أنجز الباشا هذه المأمورية رحل بمن بقى من الجند إلى جبال المنجم فى فازوغلى ويخصّص وقته وجهده لاستخراج الذهب ويبعث بآرائه واقتراحاته فى هذا الصدد ويبقى هناك إلى أن تصدر له إرادة أخرى بما يجب عمله . وكان محمد على يستبشر خيراً بالنظام الجديد ويقرّ بأن من كانوا يحكمون البلاد قبل هذا وخاصة فى المديريات لم يكونوا

من ذوى الكفاءة والمقدرة ، ويقول للمنظم فى إحدى مكاتباته[١] « إن بلاد السودان من البلدان التى تدرُّ الكثير من الخيرات غير أن الذين عيِّنوا لإدارة مختلف جهاتها حتى الآن لم يكونوا من طراز اللواءات الذين اختيروا أخيراً لتولى شؤونها ، ولذا لم تتقدم البلاد السودانية وظلّت فى حاجة إلى الإدارة الرشيدة الحازمة » .

صعوبات المنكلى

لم تكن مهمة المنكلى بالهينة كما يبدو فقد بادره المديريون بعدم الطاعة والانقياد لأوامره لعلمهم أنه ليس بحكمدار وأنه أتى لغرض خاص ، ولكنهم مستقلون فى إدارتهم استقلالا كاملا ويرجعون فيما يبرمون من أمر إلى مصر رأساً ، وبلغ من حمزة باشا مدير الخرطوم أن أعلن للأهالى أنه الرئيس المطاع والحاكم المتصرف ولا رئيس فوقه فإذا ما قدم الأهالى عرائض شكواهم للمنكلى وحوّلها هذا بدوره للمدير نكّل بهم المدير ولم يسمع لشكاواهم إلا إذا قدمت له بالمباشرة لا بالواسطة ، والأهالى معذورون فى ذلك لأنهم لم يألفوا شخصاً يقيم فى الحكمدارية لا تصرّف له ولا نفوذ . فشكى المنظم هذه الحالة فى مكاتبة طويلة عدّد فيها ما يلاقيه من مشاكسة وعدم انصياع من المدير المذكور . والظاهر أن محمد على أدرك أنه لاتصلح الأحوال إلا برجوع الحكمدارية ولكن من يُنتخب يجب ألا يكون فى مثل قوة ومطامع أحمد باشا المتوفى . فرجع المنكلى بعد أن قضى ما يزيد على السنتين .

الحوادث فى زمن المنكلى

بالرغم من أن أحمد باشا لم يتمتع بسلطة الحكمدار رسمياً إلا أنه فى الواقع ونفس الأمر كان عليه أن يلعب هذا الدور . فهو الذى قاد الجيش وأخضع قبائل التاكا عندما ثارت ، وهو الذى يبلغ الأوامر الخاصة بتجارة الرقيق للمديرين ويراقب تنفيذها ، وهو الذى عهد إليه بأن يمنع التجار من ممارسة تجارة الصمغ لأنه ملك الدولة وليس لأحد غيرها أن يربح منه حيث أنه نبت الأرض بالطبيعة دون أن تعمل يد الإنسان عملا يذكر فيه ، وهو الذى اقترح لمحمد على تخفيض

---

(١) دفتر ٣٦٩ معية تركى وثيقة رقم ٣٥٣٧ بتاريخ ٢٤ القعدة ١٢٥٩ .

مربوط الضرائب على المديريات السودانية وكان رد الجناب العالى فى لغة التأكيد فى رفض الاقتراح « يا أحمد[١] هل مرادك أن أتخلى عن بلاد السودان باستئذانك منى بالتجاوز عن تلك المقادير من النقود من المديريات المذكورة من غير موازنة بداعى أن الوارد لا يقوم بالمصرف أم تريد أن تتظاهر بأنك مخلص فى عبوديتك ؟... اجمع الباشوات المديرين واعمل معهم مقايسة بين كل مديرية مصرفا وواردا بعد تنزيل ما أردت تنزيله فإن كان الوارد يغطى المصرف فيكون ذلك التنزيل فى محله وأما إذا كان الوارد أقل فانظر فى صورة حسنة توجدها للموافقة بين المصرف والوارد وأخبرنى بها » .

امتازت الحقبة التى مكثها المنكلى فى السودان بالاهتمام الزائد فى ترحيل المواشى من كردفان والبحر الأبيض لمصر ، وكانت ترد المكاتبات من مصر ملحّة فى ضرورة إرسالها وجهّزت لها محطات على النيل مبتدئة من الترعة الخضراء على النيل الأبيض ومنتهية بأسوان وعددها خمس وتسعون محطة . وفى عهده نشطت حركة التجارة فى النيل الأبيض بالمراكب وطلب الأجانب الدخول فى الجنوب لجلب سن الفيل والريش وهذه التجارة بدأها المرحوم أحمد باشا بالاتفاق مع مدير الخرطوم . ورأى المنكلى أن تحتكرها الحكومة غير أن محمد على أدرك ما يجره هذا المنع للأجانب حيث إنه قد يفسر تعدياً على الامتيازات التى يتمتع بها الأجانب فى الممتلكات العثمانية .

الدول الأجنبية ومسألة الرقيق

وفى عهد المنكلى زاد ضغط الحكومة الانجليزية على محمد على فى التشديد بمنع الغزوات لجلب الرقيق وكان يرد بأنه أصدر أوامره فى هذا الصدد ، ولكن قد يحدث عصيان من بعض القبائل الزنجية أو تعد من قبيلة على الأخرى وتزحف الجنود بالضرورة ومن أسر من الصبيان والنسوة يردّ لأهله ومن كان فى سن الجندية يدخل فى سلكها ولا يعامل معاملة الرق « [٢] بل يتمتعون بكامل

---

(١) دفتر رقم ٣٧٦ صادر من ديوان المعية وثيقة رقم ٢٨٧٧ بتاريخ ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٢٦٠ .

(٢) من خطاب خسرو باشا إلى قنصل الانجليز من الدفتر رقم ١٠ عابدين ص ١٧ بتاريخ ٢٥ محرم سنة ١٢٦٠ .

حريتهم ولا يمنعون التزوج مثل الجنود المجندة من الأهلين حسب اللزوم لسد النقص الموجود فى الجنود كما هو الجارى فى كل بلد ويستحقون الرتب حسب النظام العسكرى ، فيقطعون مراحل التربية والتمدن الإنسانية قطعاً متواصلا . الأمر الذى يؤدى إلى ارتياح الأهلين المتمدنين . فأقصى أمانى مولاى المشار إليه عدم حدوث تلك المعاملة غير اللائقة ومشاهدة تلك الأقطار تنتشر فيها التربية والتمدن باستمرار حتى ينال سموه عطف الأمم المتمدنة وحكومة انجلترا الفخيمة خاصة ، وإذا كانت الحقيقة كما وصفت فيظن أن الأنباء المترامية المفيدة بوقوع الغزو ناشئة عن عدم اطلاع بعض السياح على حقيقة الحالة » .

ونرى الطلبات ترد إلى المنظِّم بإرسال بذرة القطن المزروع فى السودان لمصر . وتبرهن إدارة كردفان على أنها تهتم برفاهية الأهالى وحمايتهم من الآفات الزراعية حيث إنها جندت العساكر والأهلين لمقاومة خطر الجراد بإبادته وإتلاف بيضه ، وعلى العموم فالادارة كانت رشيدة لا بأس بها بالقياس لذلك الزمن سوى ما ظهر من اختلافات ومشاكسات بين الحكام أنفسهم .

خالد باشا

غادر أحمد باشا المنكلى البلاد يرافقه الشيخ عبد القادر ود الزين شيخ مشايخ جزيرة سنار والأرباب محمد دفع الله أحد مشايخها ، فأكرم الجناب العالى وفادتهما حين وصولهما وسر من ولائهما وإخلاصهما نيابة عن السودان وسر مما لقياه من كرم الضيافة وحسن اللقاء . وعين خالد باشا خلفاً للمنكلى ولكنه أصبح حكمداراً لا منظما وأكد الجناب العالى ذلك فى فرمان تعيينه الذى بعث به إلى المديريين والقضاة والعلماء والنظّار والمشايخ ، وكان الحكمدار الجديد ورعاً تقياً هادىء النفس وليس على غرار أحمد باشا وخورشد باشا من حيث القوة والكفاءة ، ولعل محمد على أراده كذلك والإشاعات التى رويت عن مطامع أحمد باشا لاتزال ماثلة فى ذهنه .

والظاهر أن محمد على فى هذه المرة بث عيونه وأرصاده ليرى مسلك الحكمدار الجديد ولتحمل إليه أنباء كل ما يجرى فى السودان . فكانت النغمة

الغالبة فى الإرادات والمكاتبات الموجهة إلى الحكمدار هى بلغنا واتصل بنا وليست ردوداً فى غالبها على مقترحات خالد باشا . فمرة يذكر له أن القوارب التى تصعد فى النيل الأبيض لأجل التجارة تؤذى قبيلة الشلك ويأمره أن تكف هذه القوارب من الأذى ، ومرة أخرى يخبره بانشغال الجنود والضباط بالتجارة ويذكره بمخالفة هذا للأصول الحكومية .

مصوع وسواكن

منذ أن تأسست مديرية التاكا كان عربانها يفرّون ويلتجئون بمنطقتى نفوذ سواكن ومصوع هربا من الضرائب والتكاليف الحكومية الأخرى ، فرأى محمد على أن يطلب من الباب العالى ضمهما للسودان نظير نسبة تدفع من جماركهما لخزينة جدة ، ووافقت حكومة الاستانة على هذا الطلب وبذلك قلّت الصعوبات الإدارية التى كان يواجهها حكام التاكة وحكمدار السودان .

الذهب مرة أخرى

تجدد الاهتمام بالذهب واتصل بالحكومة أن شيبون فى جبال النوبة بها من الذهب مقادير عظيمة ويزيد فى جودته على ذهب فازوغلى . وجهّزت الحملات العسكرية لتوسيع ممتلكات الحكومة فى المناطق التى يظن وجود الذهب بها فى فازوغلى ، وأرسل عدد كبير من العمال والاسطوات وآلات استخراج الذهب وتصفيته وسبكه مع المهندسين والأطباء والكتّاب والمحاسبين لإبداء مجهود جبار للحصول على هذا المعدن النفيس قبل اليأس منه نهائيا .

توتر العلاقات مع الحبشة

وقد تحرجت العلاقات وقتا ما بين حكومة السودان والرأس كاسا المتاخم للسودان الشرقى بمطالبة الأخير من القبائل السودانية القريبة من الحدود بضريبة تدفع له رغم أنهم يدفعون لحكومة السودان ، ولم يتنازل الرأس إلا تحت ضغط التهديد بتسيير الجيوش عليه .

فرار أهل الشمال من الضريبة

وهناك ظاهرة أيّدتها لنا الأرقام بدأت منذ الفتح وهى هجرة سكان الشمال وخاصة دنقلا وفرارهم إلى كردفان أو إقليم سنار هربا من الضرائب الباهظة . فقد ادعى أحد مديرى مديرية دنقلا السابقين فى سنة ١٢٥٦ أن زمام المديرية كان ٥٩٠٠ ساقية خربت منها ٥٥١ ساقية خرابا كاملا ، وفر رجال ألفين وإحدى

عشرة ساقية و بقى فى بعضها رجل واحد وثور واحد وفى البعض الآخر رجلان وثوران. فكما رأت القبائل البدوية فى إقليم سنار الفرار إلى حدود الحبشة والدخول فيها أحيانا خوفا من فداحة الضرائب كذلك بدأ رجال دنقلا فى الهجرة جنوبا اتقاء لضريبة لم يألفوها من قبل وهذا يفسّر لنا وجود جاليات كبيرة من سكان دنقلا منبثة فى مديريات كردفان والخرطوم والنيل الأزرق. ومع أن دنقلا قد فقدتهم إلا أنهم نقلوا نشاطهم وخبرتهم بفلاحة الأرض إلى الأقاليم التى استوطنوها فزادوا فى إنتاجها.

إدارة محمد على

توفى محمد على فى ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥ بعد أن حكم السودان تسعا وعشرين عاما تقضت الست الأولى منها فى الفتح والاضطراب واستقرت إدارته المركزية الممعنة فيها والتى تدار على نظام أوتوقراطى صارم عماده الجند ومطلبه من السكان الطاعة والانقياد. وإدارته التى أقامها فى السودان هى على نمط ما كان يدير به مصر آنذاك والكل مقتبس من النظام التركى الذى كان ينتظم أجزاء الدولة العثمانية.

محاسنها

ومن محاسن إدارته أنه أزال الفوارق التى كانت قائمة بين المملكات الصغيرة فى السودان والغارات والحروب التى ظلت سائدة بين كل قبيلة وأخرى وتأمين المواصلات بين أجزاء القطر بأكمله وقد كانت مضطربة. والإدارة الموحدة التى أعطاها محمد على للسودان قلّلت نوعا ما من العصبية القبلية وهذا التحاجز وانفصالية الديار التى كانت متحكمة فى عهود الفونج وإن لم تقض عليها تماما. فالمجموعة المترحلة والمسافر المنفرد كلهم يشعرون بأنهم فى ظل الحكومة التى تهيمن على البلاد بأجمعها لا فى ظل ملك دار أو شيخ قبيلة. وفتح السودان أتاح له الاتّصال بالعالم الخارجي يتأثر بالمدنية القائمة آنذاك وقد هرع السائحون له لمعرفته وتقصّى أحواله. وفوق هذا اتبع سياسة عمرانية رشيدة تهدف إلى تحسين الزراعة وطرق الرى وزيادة الإنتاج الحيوانى بجلب العمال المهرة وحفر الترع والسواقى الجديدة وسلالات الحيوانات والأشجار المثمرة وتقاوى المزروعات الجيدة.

مساوئها

ولكن لهذه المزايا مقابل من المساوئ ليست بالجديدة على أجزاء المملكة العثمانية ولكنها جديدة على السودان . فجشع الحكام والعمل لإثراء أنفسهم أشاع الرشوة والاختلاس وترك مثلا سيئا للسكان يقتدون به . والضرائب التى مهما خففت أعباؤها فهى ثقيلة على كاهل السودانى ولم يألف ما يماثلها من قبل وخاصة سكان البادية الذين لا يقتنعون حتى الآن لماذا يدفعونها وطريقة جبايتها بواسطة الجند يزيد فى سيئاتها .

وبالرغم من أن محمد على كان يسعى لإصلاح شؤون البلاد التى يحكمها ويتمنى تقدمها ورفاهيتها لكن إدارته المالية كانت على أساس تجارى بحت فهو يريد استغلال موارد البلاد الزراعية والتجارية لجانب الميرى وهو لا يحتمل مهما كانت الظروف أن تزيد مصروفاتها على إيراداتها . وقد اشتهرت السنين الأولى لحكمه فى السودان بغزوات الجبال لإنزال السود من معتصماتهم وتسييرهم إما لأسواق الرقيق أو لمعسكرات الجندية وزامل ذلك قسوة أحياناً أثارت ثائرة الأمم الأوروبية وخاصة انجلترا وانصافاً له نقول إنه أصدر الأوامر المشددة لعماله وموظفيه فى السودان لإبطال تلك العادة وغيرها عند ما تبيَّن له خطؤها وخلا عهده الأخير من أعمال القسوة والعنف اللذين اتصل بهما عهده الأول . وفارق الحياة ولم يحقق مطالبه الرئيسية التى من أجلها فتح السودان غير أنه جعل لأول مرة فى التاريخ حوض النيل إلى فشودة وحدة إدارية .

إدارة عباس الأول ومحمد سعيد

تربّع عباس الأول بن طوسون بن محمد على عَلَى الأريكة الخديوية فى سنة ١٨٤٨ م بعد وفاة عمه ابراهيم وجده الهرم لا يزال على قيد الحياة . وكان خالد باشا لا يزال الحكمدار فى السودان . والظاهر أن خالداً والحكام فى المديريات انتهزوا فرصة شيخوخة محمد على وعدم انتظام الأمور وتهاونوا فى الإدارة بل اشتغلوا بما ملأ جيوبهم ولا نرى نشاطاً لخالد باشا إلا فى مسألة الذهب لا رغبة

فى زيادة إيراد الحكومة بل لينتفع به هو شخصياً ولذا تبين لعباس ولمجلسه أن الأمور ليست سائرة على ما يرام فى السودان وأنه يجب أن تغيَّر الأداة الإدارية . ونلاحظ أن عباساً استخدم المجالس فى إدارته . فما من قرار إلا ويصدر فى معظم الأحيان فى المجلس المخصوص أو العمومى .

تعيين عبد اللطيف باشا

عيّن عبد اللطيف باشا وغادر مصر للسودان فكان من الأعمال الأولى التى قام بها أنه أثبت على خالد باشا اختلاس بعض مال الحكومة فاستصفى منه ألف كيس (١) وردّها للخزينة العمومية ورفعت رتب المديريين فى الأقاليم من القائمقام إلى الميرالاى وقرر مجلس العموم لائحة يسير العمل بمقتضاها فى السودان وهى أنّ من يخدم فى دنقلة يبقى هناك ثمانى سنوات وفى الخرطوم ست سنوات وفى كل من سنار وكردفان وفازوغلى والتاكة أربع سنوات ولا يصح لأى موظف أن يغادر مقر خدمته إلا إذا حضر من يحلّ محله ولا يسمح له بالذهاب لمصر أثناء تلك المدة إلا بشهادة طبية تمتحن صحتها فى المحروسة ويعاقب الطبيب والموظف إذا ثبتت اللياقة الطبية . وإذا ألف الموظف الإقامة فى مركز خدمته وطلب البقاء وكانت الشهادة عن عمله مرضية فله أن يبقى مدة أخرى .

وقد أجرى عبد اللطيف باشا بعض التعديلات فى المديريات فأدمجت فازوغلى فى سنار وفصلت دنقلة من بربر وجعلت كل منهما مديرية قائمة بذاتها مع إضافة بلاد الجعليين إلى الأخيرة . ودعّمت الأداة الحكومية بعدد من الكتّاب والمحاسبين والأطبّاء والأجزاجية . واهتم لطيف باشا أيضاً بعمارة الخرطوم فأنشأ من المبانى الحكومية ديوان الحكمدارية وديوان المديرية والمطبعة ومحكمة العموم والأجزاخانة وقشلاقات الطبجية وكلها بالطوب الأحمر .

وفى هذا العهد توالى دخول الرهبان والمبشرين فى السودان وانشئت القنصليات بالخرطوم وكانت أولها القنصلية النمساوية وقد طلب لطيف باشا من

---

(١) الكيس يساوى ٥٠٠ قرش .

مصر إيفاد مترجم يكون واسطة للمخاطبات بين الحكومة والقناصل وردّ الجناب العالى صريحاً بأن المكاتبات تحرر باللغة العربية كما فى مصر آنذاك. وشاهدت حكمدارية لطيف باشا أيضاً نشاطاً من جانب التجار الأوروبيين فى أنحاء السودان وخاصة بعد إنشاء القنصليات وزادت الحركة التجارية فى البحر الأبيض زيادة ملحوظة

الحكمدار يشدّد على الأجانب

ولما رأى الحكمدار تكالب الأوروبيين على التجارة فى السودان وأرباحها المضاعفة شكى أمرهم إلى الجناب العالى واتهمهم بشراء الرقيق وأنهم يحملون الأسلحة ويحملها من يؤجرونهم وبذلك يظهرون بمظهر الحكومة ويقترح أن يمنع هؤلاء من الاتجار وتحتكر الحكومة السن ويشتريها التجار فيما بعد بالمزاد ورأى أن يجعل تجارة الصمغ صعبة المنال للأوروبيين فأصدر التنبيهات المشددة للمديرين وخاصة فى كردفان بأن يحدّد سعر قنطار الصمغ بستين قرشاً وأن الحكومة تقبله بذلك الثمن مقابل الضرائب المطلوبة وأمر بألا يسمح للأهالى ببيع صمغهم بأقل من ذلك الثمن وإذا خولفت هذه الأوامر فالعقاب يحل بالبائع والمشترى. فالبائع يعاقب بضرب السياط إذا ماباع بأقل من السعر المحدد وكذلك شيخ بلدته وكذلك التاجر المشترى وقد روى القنصل الانجليزى أن مدير كردفان ضرب أحد التجار الإنجليز بيده تنفيذاً للأمر.

الأجانب يشكون الحكمدار

قدّم القناصل فى الخرطوم شكاوى شديدة اللهجة ضد لطيف باشا معتمدين على وجوب حرية التجارة وبما للأجانب خاصة من امتيازات فى الممتلكات العثمانية وزادوا على أن الحكمدار أساء إلى رهبان الكاثوليك فى الخرطوم وظلمهم بالرغم من وجود فرمانات من ساكن الجنان محمد على بحسن معاملتهم وختموا العريضة المشتركة بقولهم « مثل لطيف باشا لا يليق أن يبقى قابضاً على زمام الحكم فى تلك البلاد السعيدة المدة الطويلة بل الخير للحكومة أن تختار بدلا منه رجلا مجرّباً خبيراً معلوم الأطوار » . ومن غرائب المفارقات أن يقوى نفوذ الأجانب فى السودان فى أول عهد عباس بالرغم من كرهه الشديد لهم بخلاف سياسة جدّه معهم . فتجارتهم توسعت وقنصلياتهم أنشئت ورهبانهم بدأوا تبشيرهم وتعليمهم فى عهده . وفوق ذلك فقد اشتد ضغطهم عليه حتى أنه أصدر

قراراً فى نفس الشهر الذى وصلته فيه العرائض باستدعاء لطيف باشا وتعيين رستم باشا مكانه وهذا لم يبق كثيراً حيث عاجلته المنية وتوفى بالخرطوم .

مدرسة الخرطوم

ومما عرف عن عباس فى مصر أنه أقفل المدارس التى فتحت فى عهد جده ولكنه فى السودان أمر بفتح مدرسة كبيرة وعين لها رفاعه رافع الطهطاوى ناظراً و بيومى أفندى مدرساً أولا وضابطاً وأرسلت المعدات لها من المحروسة ولكنها لم تبق إلا عهد عباس حيث أقفلت فى أول عهد سعيد . ولم يصدر عباس فى سياسته هذه عن رغبة خالصة لنشر العلم والتعليم فى السودان ولكنه كان مدفوعاً فى الدرجة الأولى بالإساءة إلى رفاعه بك وغيره من رجال العلم بإبعادهم عن مصر إلى السودان . ولم يتبين لنا الأثر الذى تركته هذه المدرسة ولكن مما لا شك فيه أن وجود أمثال رفاعه و بيومى وغيرهما فى الخرطوم كان له بعض الأثر فى الطبقة المتعلمة فى السودان آنذاك وقد ذُكروا بالخير وحزنت الخرطوم على وفاة بيومى أفندى فيها .

وشاهد العصر العباسى وقف العمل فى معدن الذهب لأنه كان يعود على الحكومة بالخسارة وكذلك لغو مصلحة المواشى السودانية فى أسوان لأن مايصل سالماً منها إلى مصر كان قليلا نسبياً . وتعاقب على السودان فى وقت قصير عدد كبير من الحكمدار يين فبعد وفاة رستم باشا عيّن اسماعيل باشا أبو جبل فطرد من خدمة الحكومة بعد مدة واستردت براءة اللواء منه لارتكابه بعض المخالفات فى السودان وترك خلفه سليم باشا صائب الخدمة بقرار طبى وكان الحكمدار على باشا سرّى حين مات عباس وجلس على الأريكة الخديوية محمد سعيد باشا . و بالرغم عما يقال عن عباس ورجعيته فإنه كان مغرماً بالتنظيم فى الإدارة وكان يطالب بمستوى عال فيها فى السودان .

ود الباب العالى أن لو استعاد سلطته كاملة على ولاة مصر بعد وفاة محمد على وفى السودان خاصة استرد مينائى مصوع وسواكن وقدّم أحد الموظفين الكبار عريضة إلى الأستانة يتظلّم فيها من إرغامه على الخدمة فى السودان وقد ردّ له الباب العالى بإعفائه منها فأثار هذا احتجاج عباس وطلب من رجال الإستانة

ألا يفعلوا مثل هذا لأنها سابقة خطرة على مركزه وهيبته كحاكم على السودان .

إدارة محمد سعيد باشا

اعتلى محمد سعيد باشا الأريكية الخديوية فى ١٨٥٤ بعد أن نال قسطاً وافراً من التعليم والتدريب الغربى فأفاد أفقاً واسعاً ونظرة إنسانية عالية واهتماماً برعاياه فى مصر والسودان ومنذ البدء كان يعجب بالشعب السودانى ويحدب عليه وأصدر أوامره بتأليف بلك أو أورطة سودانية خاصة تجمع أنفارها من الأورط المختلفة واستصحبها كحرس خاص له فى رحلة له فى الصعيد لتأديب عربان الوجه القبلى وهو الذى رقّى الجنود السودانيين إلى مراتب الضباط وكتب إلى الحكمدار بانتخاب ألف ومايتين جندى من الألايات السودانية فى سن الشباب وقوة الجسم وجمال المظهر ويرسلون لمصر ليكوّن منهم حرساً خاصاً على ما يظهر .

إبطال تجارة الرقيق

وعمل سعيد ما كان يجب أن يُعمل من قبل فى بلدين يستظلان براية واحدة وحكم واحد فقد لغى الجمارك التى كانت قائمة بين ومصر والسودان وهو الذى أصدر أمراً صريحاً لا بإبطال غزوات صيد السود فقط بل المنع الصريح للإتجار بالرقيق فقد أصدر إرادة كريمة إلى حكمدار السودان هذا نصها[1] « صورة إرادة كريمة إلى حكمدار السودان أن مبيع وشراء الجوارى السود والعبيد الذين صاير جلبهم من السودان ودارفور صار منعه من طرفنا كلياً وقد صدر أمر من طرفنا فى هذا التاريخ إلى المالية لأجل التحرير إلى كمرك أسوان وإلى مدير جرجا وأسيوط فى خصوص عدم إعطاء الرخصة للجلابين المارين عليهم بالأسرى إلى مصر فحين تصير هذه الممنوعية معلومكم يلزم الدقة والاعتنا التام فى منع مبيع وشرى الجوارى والعبيد ببلاد السودان سراً وجهراً وإذا وجد جلابين بيدهم أسرى وقاصدين الجلب إلى مصر يصير حصرهم وإرجاعهم إلى محلهم فتستمر هذه الممنوعية على الدوام بحيث لا يرد أسرى إلى مصر ذكوراً وأناثاً من بعد هذا كلياً فيلزم الحذر والمجازية من وقوع ما يخالف هذه الإرادة فى حكمداريتكم » وكان البحارة الذين يعملون مع التجار الأوروبيين فى النيل الأبيض يحضرون

---

(١) دفتر ٧٢١ قيد الأوامر واللوائح بديوان خديوى مكاتبة رقم ١٠ صفحة ١٣ بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٧١ .

معهم بعض الرقيق وأمر بضبط هؤلاء وعتق الرقيق المجلوب .

على باشا سرى مثال الرشوة والاختلاس

كان الحكمدار حينما ولى سعيد العرش على باشا سرى ولم ترى السودان قبله ولا بعده حاكما انغمس فى الرشوة والاختلاس مثله ولم تشهد العاصمة تركياً — وقد رأت منهم الكثير — يفخر ويجهر بما قبضه من طلاّب الحاجات والمطامع فسقطت هيبته فى النفوس حتى أن بعض الضباط عندما يأمرهم بالنقل إلى جهة أخرى فى الحكمدارية يرفضون ذلك وحتى شكاه أعضاء المجلس (١) فى الخرطوم بعريضة مسهبة أبانوا فيها سوء تصرفاته وارتكابه للمخالفات التى لا تليق بحاكم مثله وأراد على باشا هذا أن يترك أثرا طيباً فى نفس الخديوى الجديد فبعث إليه بألف وستمائة وخمس وعشرين قطعة من الذهب السنارى المتجمع فى خزينة الخرطوم ولكن لم تلهه هذه عن تصرفات الحكمدار فأصدر أمره بتخليته عن الحكم بل طلب إلى الحكمدار الجديد تحقيق ما نسب إلى الحاكم المخلوع من قضايا فخضر منها كشفا طويلا أقرّ فيه من دفعوا له مبلغاً على سبيل الرشوة ولاقى عذابا وإهانة وذلاً من خلفه أثناء التحقيق حتى قدّم عريضة إلى الجناب العالى بما لاقاه من تعذيب فكان الرد أن ترسل التحقيقات والباشا المخلوع إلى مصر .

تعيين الأمير عبد الحليم باشا حكمدار

ولفرط اهتمام سعيد بالسودان أجاب الطلب الذى طلبه عبدالحليم باشا أخوه بأن يعيّن حكمدار للسودان فصدر الفرمان بتعيين الأمير حاكما للأقاليم السودانية وقد ورد فى الفرمان مخاطبا سكان السودان (٢) « تحيطون علما وتدركون معرفة وفهما أنه لما كان من أقصى آمالنا إدخال جميعكم فى سلك العمار والرفاهية . . . وقد كثرت إلى الحكمدارية السلف أوامرنا العديدة واستمرت إليهم التنبيهات الأكيدة بإقامة شعائر العدل ونشر ألوية اليمن والإيمان وهم عجزوا عن القيام بالوفى وكان من اللازم أنى أجرى ذلك بتعيين من نثق به الاهتمام بأجرى هذه

---

(١) كانت القضايا الهامة ترسل لمجلس الأحكام فى مصر للتأييد والمراجعة إن كان بها نقص ولكن لصعوبة المواصلات رؤى أن يؤلف مجلس فى الخرطوم لهذا الغرض وحضر أعضاؤه من مصر برئاسة محمد مهرى بك .

(٢) دفتر ١٨٨٣ صادر الأوامر نمرة ٤ ص ٣ بتاريخ ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٧٢ .

الأمور وبذل كمال الاعتنى ... اقتضت إرادتنا بذل كمال المنّة إليكم بأن عيّنا جليل المقام كبير الكبراء الفخام ذو المجد العزيز عبد الحليم باشا حكمداراً عليكم » .

ولكن الأمير ما لبث أن أقام قليلا فى الخرطوم حتى سافر فى البحر الأبيض وظهر وباء فتاك تفشى فى البلاد . ولذلك نصح الأطباء له بمغادرة الخرطوم لشندى ومنها إلى مصر ولم يرجع لمقر حكمداريته .

زيارة محمد سعيد باشا السودان

وسواء كان سعيد أراد السفر للسودان لوضع نظام وحكومة رشيدة أو لتفقد أحوال رعاياه أو تخلصا من هموم القنال كما اقترح عليه صديقه دلسپس فإنه قد صحت عزيمته وتجهّز للسفر إلى السودان واستصحب معه أورطة سودانية وجهزت له نحو ألف وخمسمائة جمل لنقله وجنده وحاشيته عبر الصحراء وقد وضح الغرض من رحلته هذه فى أمر أصدره إلى ناظر الجهادية ورد فيه [1] « أن عدم دخول بلاد السودان التى هى من أجزاء ممتلكاتنا تحت الإتقان والانتظام حتى الآن مع أن مقصدنا ومطلوبنا تقدمها وعمرانها لأمر موجب للأسف جدا ، والحق يقال وليس بقاؤها على ما هى عليه من الأمور التى يجوز تحملها . وبما أننى صممت العزيمة منذ مدة على أن أرى تلك البلاد وأتبين أحوالها وأوضاعها وأقف على مايجرى فيها أولا بقصد السياحة وثانيا تحت حاجة النزهة فعزمت على أن أذهب إليها بذاتى لكى نضع لها فيما بعد النظم التى تكفل عمران تلك البلاد والحوالى وتكون بها الرفاهية للرعايا والأهالى »

اللامركزية

وسبقت قدومه أوامر عديدة للحكمدار يخبره بأن يجمع العساكر فى الخرطوم حين قدومه وأن يشترى ما يلزم لهم من الذرة بدفع الأثمان المعقولة بغير جبر أو عنف . وما إن وصل إلى بربر بعد ذلك حتى انهالت عليه العرائض من كثير من السكان يتظلمون فيها من حكامهم ومشايخهم وأقاربهم فراعته تلك الحالة ورأى بعينه حالة البؤس التى كانت بادية على الأهلين واستنتج أن هذه الحالة تردت فيها البلاد من ظلم الحكام ، وتخمرت فكرة اللامركزية وتنظيف البلاد من الجيش الجرار من حكام وعساكر غير نظامية ، ورأى أن يناط جمع الضرائب

---

(١) محفظة رقم ٦ أوامر لديوان الجهادية وثيقة رقم ٥٠ بتاريخ ١١ ربيع الأول ١٢٧٣ ،

بالأهلين أنفسهم وأن تؤلف مجالس وجمعيات دورية منهم تنظر فى الشؤون العامة مع المديرين . بدأ بتنفيذ هذا وهو فى طريقه من بربر إلى الخرطوم وهنا أصدر الأمر بلغو الحكمدارية وجعل المديريات تتصل فى حساباتها و إدارتها رأساً بمصر . وقد شرح سعيد سياسته الجديدة للأهلين فى مقدمة الأوامر التى أصدرها للمشايخ .

سياسته الجديدة

« [1] إنه بناء على ما جبلت عليه همتنا وسبقت إليه عزيمتنا فى النظر فى أحوال الأهالى والرعية وإجراء ما فيه المنافع العمومية وعمار البلاد ورفاهية العباد وقد تحرك ركبنا للقدوم إلى الأقاليم السودانية لنطّلع على أحوال من فيها ومعاملتهم بالرفق والمرحمة ولما حلّت ركائبنا بها شاهدنا ما عليه أهاليها من الضنك والمضايقة بسبب كثرة المطاليب المربوطة على السواقى والأطيان فضلا عما كان يؤخذ خلاف ذلك .... اقتضت إرادتنا ترك ذلك جميعه وترتيب مال مربوط على قدر طاقة الأهالى حتى يسكن روعهم ويعمروا أوطانهم » . وفى طريقه من بربر إلى الخرطوم اجتمع ببعض المشايخ وتفاوض معهم فيما يريح الأهالى من الضرائب فاقترح المشايخ أن يربط على الساقية مائتان وخمسون قرشاً نخفضه هو إلى مائتين ويؤخذ على أطيان الجزائر خمسة وعشرون قرشاً للفدان وعشرون قرشاً عن فدان الجروف .

طريقة الجباية

وطريقة الجباية هى أن ينتخب أهالى كل قرية شيخاً من بينهم يجمع ما ربط عليهم من مال ويؤديه إلى ملك أو شيخ كبير من الوطنيين يتبعه و إن لم يرضوا التبعية له فيؤدون المال للمديرية رأساً ، وطلب إلى المشايخ إحصاء السواقى والأطيان وتثبت هذه بعد أن تراجع من المديرية ، وأوصاهم بالرفق واللين وأن يراعوا الجباية فى أوان الحصاد ومواعيد الرواج ويقدّم للشيخ نظير خدماته مكافأة مال ساقية عن كل خمس وعشرين منها . ويجرى ربط الأموال سنوياً فى جمعية بدار المديرية تتكوّن من اثنى عشر شيخاً إلى أربعة وعشرين فتبحث الطرق التى بها تدفع وطريقة تقسيطها كما لهم أن ينظروا فيما يؤدى إلى زيادة العمران والرفاهية للمديرية بأكملها .

---

(١) دفتر ١٨٨٦ أوامر عربى مكاتبة رقم ٣٥ ص ٣٣ بتاريخ ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ .

الأمن العام

وحفظاً للأمن و إخماد الثورات وحوادث التمرد والعصيان رؤى أن تبقى الأورط فى السودان ولكن لا تسلط على الأهالى وألا يوكل إليها جمع الضرائب كما كانت الحالة قبلا وزيادة على هذا الجيش المرابط رتبّ لكل مديرية بعض الجنود برئاسة يوزباشى للمحافظة على الخزينة فى المديرية وما يماثلها من الأشغال وقد طلب إلى مشايخ القبائل فى كردفان إرسال خيالة ليكونوا تحت تصرُّف قومندان الجنود وأمر الملك ود محمود الشايقى بأن يجهز خمسمائة من الشايقية تحت أمر القومندان أيضاً .

اصلاحات خرى

وفوق هذا ما كان لسعيد أن يرجع دون أن يترك تعليمات مفصلة لتنظيم المدن والشوارع وتشجيع السكان لعمل الحدائق فى منازلهم وأمر أن لا تربط أموال على الأطيان التى تغرس بالأشجار المثمرة . وترغيباً لسكان الجبال أمر أن تربط الضرائب على ثلث المحصول فقط وأن يفهموا أنهم أحرار وليسوا بعبيد ، وترك أيضاً نظاماً يكفل اتصال المديريات مع بعضها البعض ومع مصر بالبريد بإنشاء محطات خاصة لتغيير الجمال وتأسيس قسم من الهجانة يقوم بهذه المهمة. وما إن رجع سعيد إلى المحروسة حتى بدأ يستعد لرحلة إلى السودان فى السنة القادمة ؛ فلمديرى دنقلا وكردفان والخرطوم وبربر أن يجمعوا الجمال فى حدود مديرياتهم لانتقاله ولقسم التعيينات فى الجيش أن يحضّر ما يلزم من المؤونة ولكنه لم يقم بهذه الرحلة كما كان ينوى ويرغب .

فشل اللامركزية

نظام جميل وعاطفة إنسانية نبيلة على رعاياه ، ولكن الأداة الحكومية الجديدة بدأ يظهر فيها الخلل ، فقد أبدى بعض المشايخ الكبار العصيان والتمرد على المديريين لزوال هيبة الحكمدارية ، وبدأ بعض المشايخ يتلاعب بالأموال ويظلم السكان ، وفى كردفان خاصة كان مبلغ العشرة قروش المربوط على فدان الأراضى المطرية مرهقاً فى السنين العجاف ، وشكى بعض الأهالى بعرائض قدّموها للقاهرة إما لعدم نهو قضاياهم أو يتظلمون من بعض المشايخ أو من زيادة الربط على أطيانهم أو يريدون الانتقال من شيخ لآخر ، وانهالت سيول الشكاوى

والطلبات على القاهرة انهيالا جعل تغيير سياسة سعيد اللامركزية أمراً لازماً بالضرورة وشاهد آخر عهده وهو على فراش المرض نهاية نظامه وارجاع الحكمدارية إلى ما كانت عليه سابقاً . وبذلك انتهت حقبة سعيد بتغيير سياسته التى لم تفلح بالرغم من اهتمامه ونواياه الحسنة نحو السودان .

إدارة إسماعيـــل

رجوع المركزية

فشلت سياسة اللامركزية فى السودان كما تقدم وأصدر إسماعيل باشا بصفته قائم مقام عمّه الذى كان مريضاً أمراً بتعيين موسى باشا حمدى حكمداراً للأقاليم السودانية ، وانتهى بذلك عصر اللامركزية وبُعثت الحكمدارية من جديد والحكمدار الجديد قضى وقتاً طويلا فى الخدمة بالسودان وخاصة فى كردفان وكان معاوناً بالحكمدارية ، وبالرغم مما عرف عنه من القسوة والجبروت فتعيينه قوبل برنة فرح وسرور عند الأهالى بالسودان لكفاءته ومقدرته لضبط الأحوال التى وصلت درجة عظيمة من الفوضى والانحلال ، ووصف الشيخ الزبير ود ضوّة قدومه بقوله « إلى أن وردت البشائر بترتيب سعادة موسى باشا حمدى حكمداراً بالسودان فاستبشرت بذلك الرعية وأيقنوا بحصول الراحة والأمنية وكان قدوم سعادته أبقاه الله فى رابع صفر الخير من شهور سنة تسع وسبعين فانشرحت بقدوم سعادته الصدور وطابت النفوس وعاد إلى الحكمدارية رونقها »

عقد اجتماع عظيم فى الخرطوم وتُلِى فيه فرمان التولية وأول ما قام به من أعمال فى مركز حكومته هو أنه دعا المديرين بمشايخهم إلى مجلس يعقد فى الخرطوم لاستشارتهم وإبلاغهم ما يريد أن يختطه من سياسة ودل بذلك على أن العهد الجديد ليس بخطوة إلى الوراء بل هو من حيث إشراك السودانيين فى الحكم استمرار لسياسة سعيد ولكنها رتبت على أساس المركزية . وانفرط عقد المجلس بعد أن نظمت الضرائب على أسس ثابتة وقسّطت على ثلاثة أقساط وجهّزت أوراق تعرف بالسركى تكون بيد كل من يدفع ضريبة يبين ما دفع

وما بقى منها والجهة التى وردّ بها المبلغ . ويستمر الشيخ الزبير بقوله « وجعل من الأهالى نظاراً لأجل أن يتمدنوا ويدخلوا فى الإنسانية وأمرهم أن يلبسوا الهيئة التركية » وكان الزبير نفسه هو أحد المشايخ الكبار الذين عهد إليهم الإشراف على الجباية .

أول سودانى يُعين مديراً

ظهرت بوادر سياسية إسماعيل الجديدة بإدخال العنصر الوطنى فى الإدارة والحكم فى مصر والسودان فى السنة الأولى من حكمه وكما بدا بتعيين المصريين الأصليين مديرين للأقاليم وافق هنا على تعيين الشيخ أحمد أبو سن كبير مشايخ قبيلة الشكرية مديراً للخرطوم وسنار ، وكان أحمد بك خير مثال يحتذى ، فبقاؤه فى وظيفته مدى عشر سنوات إلى أن وافته المنية بمصر وعدم الاضطراب فى منطقة نفوذه طول سنى حكمه كلها أمور برهنت على كفاءة السودانى ومقدرته الإدارية . وكان على أحمد بك تسكين الخلافات فى داخل قبيلته من البدنات المختلفة ، وكان عليه أيضاً التوفيق بين القبائل التى تساكن الشكرية فى المرعى وموارد المياه وهم معروفون بعداوتهم التقليدية ، وكان عليه أن ينهج نهجاً فى حكمه يغتصب الخضوع والتقدير من المشايخ الذين كانوا يساوونه فى درجته قبل أن يصبح مديراً ، وتدخل مديريته قبائل وثنية فى الجنوب عرفت بشدة مراسها واستهانتها بسلطة الحكومة ، وكان عليه حفظ الحدود بين السودان والحبشة وفوق هذا فإدارة الخرطوم نفسها تلك المدينة التى يسكنها مختلف الجنسيات والأديان تستلزم من اللباقة والكياسة ما كان من خصال أحمد بك البارزة . كل ذلك فى نزاهة وأمانة لم يلامس فيها الدنس ثوبه أو يده ، ومات فى مصر حين أستدعى للتفاوض معه فى أمر شراء جمال وعليه ديون باهظة لم يقم بسدادها ما خلفه من ممتلكات . أمام تلك التيارات المختلفة وجّه سفينة الحكم فى مديريته المترامية الأطراف وهو جالس بعين اليقظة والاهتمام يدير الدفة مدة عشر سنوات دون أن ترتطم بصخرة إلى أن اختطفته المنية من قيادتها .

حملة موسى باشا إلى الشرق

ربط الحكمدار الأموال وأصدر التعليمات لمن نيط بهم جمعها وتجهز بحملة قوية قادها بنفسه إلى الحدود الشرقية ليظهر قوة الحكومة وسطوتها التى

تضعضعت ووهنت فى زمن اللامركزية ، فرجع الكثير من عربان الهاربين وعلى رأسهم الشيخ أحمد أبو جن شيخ عربان رفاعة الشرق وثبّت فى وظيفته كشيخ لقبيلته و بظهور الجيش على تخوم الحبشة رجع الشيخ ميرى وساعده فى إرجاع الفارين وذهب الحكمدار فى طريقه إلى التاكة وأرجع الطمأنينة والأمان إلى النفوس ثم قفل راجعاً إلى الخرطوم .

سياسة إسماعيل فى السودان

وقد بسط إسماعيل سياسته نحو ممتلكاته الجنوبية فى خطاب وجّهه للحكمدار الجديد بقوله «[1] وخلاصة القول ان هذا القطر الجسيم الحق بالمملكة من قديم العهد وأصبح حقاً مكتسباً لها فالواجب يقضى بعدم إضاعة شبر من حدوده المعينة و بما أن تعمير و إصلاح الإقليم المذكور و إدخاله فى عداد المديريات المصرية التى هى أكثر عمراناً وازدهاراً وكذا توسيع نطاق تجارته من أقصى آمالى وأفكارى بناء عليه يلزم أن تعاملوا سكانه وقاطنيه بالعدل والحقانية وأن تبذلوا أقصى جهدكم فى تزييد عمرانه وتوسيع نطاق تجارته و إيصاله إلى غاية الكمال من جهة الأمن والانضباط العام » .

موسى باشا ينظم الجيش

والتفت موسى باشا بعد رجوعه من الشرق إلى تنظيم الجيش وتقويته وزيادة العنصر السودانى بين صفوفه فبينما كانت الأورط السودانية ثمانية طلب إضافة أورطتين وأن ترسل الجنود النظامية السودانية الموجودة بالمحروسة ورأى أن لا بد من الاستغناء عن الطاعنين فى السن وذوى العاهات واستبدالهم بشبان من السود واتّفق الحكمدار مع مشايخ قبائل الشلك والدنكة وقبائل فازوغلى على أن يورّدوا له العدد المطلوب نظير خمسمائة قرش تدفع عن كل رجل فوافق أفندينا على هذه السياسة ولكنه لاحظ على طريقة التجنيد بقوله « وحيث إنه لا يجوز قبول الأنفار اللازمة للأورط الموجودة هناك بصفة أرقاء نظير الأموال

---

(١) دفتر المعية السنية رقم ٥٢٦ صحيفة ٥٨ بتاريخ ٦ شوال سنة ١٤٧٩ .

فإنه إذا رتبتم عدداً مناسباً من الرجال الصالحين للخدمة العسكرية على كل شيخ من مشايخ جبال فازوغلى وفونج ومشايخ قبيلة شلك ودنكة وخلافهم وأن هؤلاء المشايخ إذا تمكنوا من إحضارهم فعملهم هذا سيكون بمثابة خدمة حسنة للحكومة فبناء عليه ومكافأة لخدمتهم المشكورة هذه يجب التنازل عن الأموال المقررة عليهم بمقدار خمسمائة قرش نظير كل نفر يتمكنون من تقديمه على أن يجرى تفهيمهم بأن الأنفار الذين يقدمونهم بهذه الصورة سيكونون أحراراً مثل سائر العساكر » .

تعديل إدارى لم ينفذ

توفى موسى حمدى باشا بعد حكم دام ثلاث سنوات فى السودان نجح فى توطيد سلطة الحكومة التى ضعفت فى عهد سعيد ولكنه أرجع ما كان يشكو منه الأهالى سابقاً وهو الضرائب الفادحة وصدر الأمر لجعفر باشا صادق بتعيينه حكمداراً ولكن بعد صدور الإرادة رأى إسماعيل أن يجرى تعديلا فى الإدارة نظراً لانضمام سواكن ومصوع وملحقاتهما للسودان ونظراً للتنظيم الذى ينويه ونظراً لاتساع ممتلكاته فى النيل الأبيض . والتعديل الجديد يقضى بتقسيم السودان إلى ثلاث مناطق يحكم كلا منها حكمدار مستقل يتعاونون فيما بينهم على المصالح المشتركة . فالتاكة ومصوع وسواكن وملحقاتهما قسم أول وجزيرة الخرطوم كاملة مع جهات البحر الأبيض الواقعة شرق النيل الأبيض قسم ثانى وكردفان ودنقلة وبربر مع جهات البحر الأبيض الواقعة غربيه قسم ثالث وعين للأول جعفر باشا صادق وللثانى سليم باشا الجزائرلى وللثالث جعفر باشا مظهر . غير أن سليم باشا امتنع عن الذهاب معتذراً بمرضه فأرسل له إسماعيل خطابا شديد اللهجة يخبره فيه بوصول اعتذاره عن الوظيفة وقرّر فيه فصله من الخدمة وأمره بالرحيل خارج البلد للمعالجة فى أقرب وقت وحذّره من التأخير ورجع مرة ثانية إلى النظام الأول وثبّت جعفر باشا صادق حكمداراً عاماً وجعفر باشا مظهر وكيلا للحكمدار .

إلحاق مصوع وسواكن بالسودان

وكان إسماعيل منذ أن ولى الحكم فى مصر يصبو إلى إلحاق ثغرى مصوع وسواكن نهائياً بالسودان بصفة دائمة لا بصفة مؤقتة كما كانا فى عهد جدّه محمد

على فكتب للباب العالى بضرورة هذه المسألة لاتصال العربان فى إقليم التاكة بهما وباتصالهما تجارياً ببقية أنحاء السودان ثم هو لا يستطيع السيطرة التامة على منع تجارة الرقيق إلا بالهيمنة الإدارية على هذين الميناءين وعضد مسعاه الرسمى بمساعى خصوصية بواسطة من بيدهم الحل والعقد فى الأستانة وصرف فيه مبلغاً من الذهب وأخيراً كلل مسعاه بالنجاح .

ثورة الجهادية السود فى كسلا

قبل أن يغادر الحكمدار الجديد القاهرة لمقر حكومته وصلت الأنباء بثورة الجهادية السود فى كسلا وكان الوكيل فى الحكمدارية هو عمر فخرى بك فسيق الجند لإخمادها وأخمدت أخيراً بعد أن لعب فيها السيد الحسن الرغنى دور الوسيط لنفوذه الدينى بين الجند وأبدى السر جشمه عبد الله باشا وآدم بك العريفى بسالة وحكمة فى إخمادها وأمر إسماعيل وكيل الحكمدار الجديد أن يغادر مصر فى الحال مع ما أمكن جمعه من الجند بطريق سواكن لمعالجة الحالة حربياً وإدارياً ولكنه عند ما وصل وجد الثورة قد انتهى أمرها وتقصى الأسباب والبواعث التى قادت إليها وقدمها فى تقرير مطول إلى الخديوى يتلخص فى عدم التدريب العسكرى اللازم وفى افتراق الجند من ضباطهم الأشهر العديدة لأعمال جباية الضرائب وفى ما تفوّه به قوادهم من ألفاظ مسيئة .

ونتيجة لهذه الثورة أمر إسماعيل باشا بإلغاء الألايات السودانية وإبقاء أورطة واحدة منها مكونة من ثمانية بلوكات وتسريح العجزة من الألايات الملغاة وإرسال الباقى إلى مصر لتوزيعهم على الأورط المختلفة وحتى هذه الأورطة الباقية يجب أن لا تضم أحداً من قبيلة الدنكا أو الذين كانوا بالمدفعية وهذه الأورطة أيضاً تُحرم من المدافع ويشدّد على أفرادها فى اتباع القانون والخضوع للنظام العسكرى بصرامة لا هوادة فيها .

إيفاد شاهين باشا للسودان

وقد وصلت للجناب العالى التقارير والمعلومات من الحكام والضباط العظام الذين كانوا بالسودان يشرحون فيها الفتنة حسب ما سمعوا عنها ويتصدون لشرح الأحوال عامة وقد صوروا الحالة بصورة قاتمة اللون وأفاضوا فى اضطراب الأحوال

فى مركز الحكمدارية نفسها ومسلك الموظفين فى الأقاليم فأمر الخديوى بأن يحضر جعفر مظهر من كسلا للخرطوم ويسافر شاهين باشا ناظر الجهادية ويتعاون الاثنان مع الحكمدار جعفر باشا صادق على تحقيق الأحوال العامة وتبيان عوامل الخلل الذى أصاب الأداة الحكومية وما يرونه من إصلاح ويحمل هذا الوكيل إلى مصر لبسطه لإسماعيل .

تعيين جعفر باشا حكمدارا

عدّل إسماعيل بعض الشىء فى أوامره هذه فأصدر أمره لجعفر باشا صادق بتخليه عن الحكمدارية وبتعيين جعفر باشا مظهر لها ولكن انتداب شاهين باشا للسفر للسودان ظل نافذاً . وحضر شاهين وتفاوض مع الحكمدار الجديد فى إصلاح حال الجندية واتباع القوانين العسكرية . وبإخماد الفتنة وبإجراء الإصلاحات العسكرية للجنود السودانيين وبترحيل بقيتهم لمصر هدأت الأحوال وظل جعفر باشا حاكما رشيداً مدة ست سنوات لم تقم فيها ثورات ولكن حدثت تطورات إدارية وعمران فى الخرطوم وتشجيع للحركة الفكرية والأدبية وبدأ التوسع جنوباً فى بحر الغزال وخط الاستواء .

اقتراح بنقل العاصمة إلى توتى

والاهتمام بإصلاح العاصمة جعل ولاة الأمور يفكرون فى نقلها لجزيرة توتى لصلاحيتها من حيث الصحة أكثر من الخرطوم فقد ورد فى مكاتبة من الخديوى للحكمدار بتاريخ ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٢٨٣ ما نصه « ولقد وصل إلى سمعنا أنه نظراً لانخفاض موقع الخرطوم وكثرة الرطوبة فى جوها يظل مناخها رديئاً جداً . أما الجزيرة التى تجاهها فهى على الروايات الصحيحة معتدلة الهواء للغاية ومن حيث الموقع أصلح من الخرطوم لجعلها مركزاً وقد فهمنا من إفادتكم الآنفة الذكر وبما وصل إلينا من الأخبار أنه لا يوجد ببندر الخرطوم ما يستحق أن يسمى بناء وأن أكثر منازله من الطوب النى أو الطين والبعض منها من القش وما إليه وعليه فقد لاحظنا أنه من الهين نقل البلدة تدريجياً من موقعها الحالى إلى الجزيرة المقابلة وإن فى ذلك فوائد جمة فإذا كانت الجزيرة المذكورة تصلح أكثر من الخرطوم لاتخاذها مركزاً أو كان فى الإمكان نقل الخرطوم إليها فإننا نحيل على رأيكم وهمتكم أمر القيام بهذه العملية » .

إنشاء ضبطيات قضائية

ولكن جعفر باشا صرف النظر عن هذه الفكرة ونفّذ مشروعاته فيما يختص بعمران وتجديد الخرطوم . ولزيادة السكان وازدياد حركة التجارة فيها نتيجة لنموها فى البحر الأبيض رأى إدخال نظام إدارى لا بد من وجوده فى المدن الكبيرة وهو إنشاء ضبطية لحفظ الأمن وتعيين مأمور لها وقوة من القوّاصة مهمتهم تشبه مهمة البوليس فى وقتنا هذا وطبّق هذا النظام على المدن الهامة الأخرى كدنقلة و بر بر والأبيض وكسلا وسواكن ومصوع .

عمران الخرطوم

وأبدى إسماعيل ملاحظاته على القواعد العامة التى يجب أن تطبّق فى عمران البلد « أما المستشفى فيجب أن يشاد فى مكان طلق الهواء فسيح الجنبات وأن يكون له حديقة وكذلك القشلاق يجب إنشاؤه فى موقع مناسب بعيد عن البلدة واعملوا على أن تكون الشوارع متسعة منظمة وأن تنشأ المبانى بطريقة تتفق مع قواعد الصحة وفن الهندسة ولا تدعوا مياه السيول التى تنزل إلى البلدة من جراء شدة الأمطار متراكمة فيها بل اجعلوا لها مصارف تسيل فيها إلى البحر وقوا البلدة شرها » . وترغيباً للناس فى العمارة والبناء جعلت الحكومة سياستها أن تبيع الطوب والحجارة والجير والبلاط والخشب للأهالى بالثمن الأساسى دون ربح .

علمه وأدبه وسياسته المالية

عُرف جعفر باشا مظهر بتضلعه فى العلوم الدينية والأدبية وكان يجتمع به العلماء والأدباء للمجادلة والمناقشة وسرت روح حبه للعلم والأدب إلى الأوساط الأخرى فنرى فى عصره قصائد الشعر من شعراء السودان تنشر فى الوقائع المصرية وابنه محمد سعيد بك كان أديباً شاعراً غير أن سياسته المالية قادت إلى هروب الناس من مديريتى دنقلا و بر بر فقد قيل أنه وضع ضريبة باهظة على الساقية بلغت ستة جنيهات وكان يرمى هو إلى التثبت من أقصى ما يستطيع أن يدفعه الفلّاح لا إلى استلام الستة جنيهات بأكملها فذعر المزارعون وصاروا ينزحون تاركين سواقيهم معطّلة إلى الجنوب واشتركوا فى تجارة النيل الأبيض وبحر الغزال وصار الرجل من الجعليين والدناقلة لا يشاد بذكره إلا إذا ترك فلاحة

الأرض والتحق بكتبانيات بحر الغزال واقتنى المال والرقيق وغامر وخاطر من أجلهما .

فصل السودان الشرقى

وتراءت لإسماعيل صعوبة إدارة السودان تحت حكومة مركزية مقرها الخرطوم وخاصة بعد إضافة مرافىء وسواحل البحر الأحمر وما سوف يقوم بفتحه السير صموئيل بيكر فقرر فصل السودان الشرقى وهو يشمل محافظتى مصوع وسواكن ومديرية التاكة وعين ممتاز باشا محافظاً عليها وورد فى الأمر الذى أجرى التعديل بمقتضاه « أنه بالنظر لما هو معلوم من اتساع جهات الأقاليم السودانية وتباعدها عن بعضها عن البعض بمسافات جسيمة مما يشق على الحكمدارية استدراك استكشافاتها واختبار أحوال سكانها فى زمن مستقرب . هذا مع ضرورة الاقتصاد ولأجراء الأسباب الموصلة لتقدم الأهالى وعماريتها وملاحظة ترغيبهم وتشويقهم إلى الزراعة واكتساب منافعها التى هى الأساس الأكبر لسعة الثروة والعمارية ونمو التجارة ونحو ذلك فلهذه المناسبات اقتضت إرادتنا نزع محافظات سواكن ومصوع والتاكة وباقى سواحل البحر الأحمر لحد بربرة التى هى آخر حدود الحكومة وإجعالهم إدارة مخصوصة بمحافظة مستقلة تسمى محافظة سواحل البحر الأحمر وعينا ممتاز باشا محافظاً عليها » .

سياسة ممتاز باشا الزراعية

وانهمك ممتاز فى مهمته بتحسين مرفأ سواكن وعمرانها وكذلك فى النهوض بالزراعة وخاصة القطن فنشطت زراعته فى طوكر وكسلا وطلب المحالج والآلات اللازمة لتجهيزه للتصدير وأبدى مجهوداً جباراً فى نقل الآلات الضخمة من سواكن لطوكر . ولو أنه لم يجد كل ما كان يطمح إليه ولو أن الثمرة التى جنتها البلاد من مجهوداته لم تكن كبيرة نظراً لصعوبة المواصلات إلا أنه يمثل طبقة جديدة من الحكام رأوا أن أولى مهامهم عمران البلاد وزيادة ثروتها الإنتاجية .

بربر تتبع المعية السنية

ولم تقف حركة التقسيم عند فصل محافظات البحر الأحمر بل أدخلت تجربة إدارية جديدة وهى فرز مديرية بربر من الحكمدارية وجعلها مديرية قائمة بذاتها وتتبع فى إدارتها للمعية السنية لا الحكومة المصرية وقلدت إدارتها

لحسين بك خليفة كبير عربان العبابدة ومتعهد سكة العتمور وفصلت حسابات المديرية من ميزانية الحكمدارية وحرّر الأمر لحسين بك خليفة بما يأتى « بناء على ما علمناه فيكم من الأهلية واللياقة والاستعداد قد رقيناكم إلى الرتبة الثانية وأوليناكم مدير بربر وجعلنا هذه المديرية قائمة بذاتها مفروزة من حكمدارية السودان غير تابعة الحكمدارية ولا يكن لديوان المالية عليها مراجعة ولا ملاحظة بل تكون تبعيتها لمعيتنا وفقط المكاتبات والمخابرات العادية يكتب عنها إلى نظارة الداخلية وأما باقى أشغالها وحساباتها ومصالحها يكتب عنها لمعيتنا بدون واسطة » وبدأ حسين بك يولى الزراعة الشطر الأكبر من اهتمامه وأدخل طريقة رى الحياض بالترع والسيالات كما هى الحالة فى مصر وأدخل زراعة القطن فى مديريته وكذلك نرى مكاتبات عدة بين المدير الجديد والمعية السنية بشأن شراء المواشى وإرسالها لمصر على حساب المعية .

لا مركزية أخرى

ثم تطور التعديل الإدارى إلى لغو الحكمدارية ونزول جعفر باشا مظهر وتقسيم السودان إلى إدارات مستقلة فقبلى السودان ويشمل مديريات الخرطوم وسنار وفازوغلى والبحر الأبيض فكردفان فالتاكة فبحرى السودان ويشمل مديريتى دنقلة وبربر وبذلك رجعت مديرية بربر لسلطة الحكومة وانفصلت من المعية وثبّت حسين بك خليفة لبحرى السودان ونقل ممتاز باشا مديراً عاماً لقبلى السودان .

نهضة ممتاز الزراعية

نقل ممتاز اهتمامه وحماسته للزراعة وللقطن خاصة إلى إدارته الجديدة وظل يواصل طلباته من مصر فيما يتعلق بالمحالج والعُدد الأخرى وطاف بنفسه على المزارعين حاثاً لهم على زراعة القطن وطلب كميات كبيرة من بذرته بلغت فى إحدى طلباته ثلاثة آلاف أردب توزَّع مجاناً على المزارعين على أن تقسم الأرباح مع الحكومة وعكف ممتاز على دراسة السودان جميعه من حيث الأراضى الصالحة للزراعة وخاصة القطن وقدّر ما يمكن زرعه فى مديريات السودان المختلفة ما عدا مصوّع بما يربو على المليون من الأفدنة وبيّن الطرق التى يمكن بها ترحيل

محصول القطن ورأى أن أنجع وسيلة هى على النيلين الأزرق والأبيض إلى الخرطوم ومنها شمالا إلى مصر والأقطان التى تزرع فى إقليم القضارف وعلى ضفاف نهر عطبرة تنقل فى زمن الفيضان إلى النيل الكبير ومن ثم ترحّل شمالا . وزيادة على اهتمامه الزائد بالقطن رأى تحسين نسل الضأن والبقر بإحضار الكباش والجاموس من مصر .

سياسة حسين بك العمرانية

أما زميله حسين بك خليفة مدير السودان البحرى فلم يقل عنه اهتماماً بالزراعة . ومشكلته هى الرى فواصل حفر الترع حتى تزرع أكبر مساحة ممكنة زمن الفيضان وشجّع تعمير السواقى ورأى أن يردّ الذين فرّوا زمن جعفر باشا مظهر إلى مديريات الخرطوم وسنار وكانوا يسمون بالمسحّبين فاهتم حسين بك بأمرهم و بعث يرغّبهم فى العودة إلى أوطانهم ووعدهم بكل مساعدة ولكن المشايخ الذين نزلوا فى حماهم فى مديريتى سنار والخرطوم مانعوا فى عودتهم لأن إيراداتهم من الضرائب ستقل واتصل حسين بك بمدير قبلى السودان ولما أن يئس من معاونته رفع الأمر إلى الخديوى فأصدر أمراً كريماً إلى ممتاز باشا يأمره بأن يسمح لهؤلاء بالرجوع إلى بلادهم لعمارتها وزيادة رفاهيتها وألاّ يتعرض لهم المشايخ وقُدّر عدد من تسحّب منهم بهذه الطريقة بنحو خمسة آلاف شخص و بالرغم من هذا الأمر تعرقلت مساعى حسين بك ولم يرجع الكل .

نتائج إدارتى ممتاز وحسين

ولو أن الثمرة التى جنتها البلاد لم تكن لتعادل المجهودات التى أبداها الحاكمان لكنها على وجه العموم كانت حقبة عمرانية لم يعرف لها السودان مثيلا فى كل عهد التركية السابقة من حيث الزراعة . وقد لاحظ ذلك السير صموئيل بيكر حين رجع بعد انتهاء مأموريته فى خط الاستواء فوجد آثار العمران بادية على مديريتى الخرطوم وبربر وخاصة الأخيرة وأطرى إدارة حسين بك خليفة إطراء عظيما ورأى فيه الشخص الذى اطمأن الناس إليه لأنه منهم و إليهم .

وخُتمت حياة الاثنين بتهمة كل منهما بعدم النزاهة فى الحكم وحضر قومسيون تحقيق تحت رئاسة خالد باشا وأساء معاملة حسين بك فى بربر وشكى

المدير المخلوع من الاجراآت التحكمية التى كان يتبعها خالد باشا فى تحقيقاته وانحرافه عن العدل وأخيراً لم تثبت تهمة واضحة عليه بل تركّزت فى تحكم أقاربه فى السكان واجترائهم على حقوقهم ورؤى أن يغادر حسين بك بربر ويقيم فى أطيانه بصعيد مصر وختمت بمدته حقبة الإصلاح والعمران فى بربر ودنقلا.

وزميله ممتاز اتّهم أيضاً بالرشوة والاختلاس وخاصة فى نصيب الحكومة من أموال القطن فعزل وأودع السجن فى الخرطوم وعين مكانه اسماعيل باشا أيوب وعند ما حضر قومسيون التحقيق توفى ممتاز فى سجنه وخلّد ذكره بنهوض الزراعة وإدخال القطن.

تعيين اسماعيل أيوب مديراً لقبلى السودان ثم حكمداراً

وتعيّن إسماعيل أيوب مديراً لقبلى السودان وهو من الذين خبروا البلاد مدة طويلة إذ أنه كان ضابطاً فى ألايات السودان ثم شغل منصب معاون الحكمدارية فرئيس مجلس السودان. وكانت أولى مهامه القضاء على الرشوة والاختلاس وتطهير الإدارة مما علق بها من أدران وبعد خمسة عشر شهراً فى هذا المنصب عادت الإدارة إلى مركزيتها ورجعت الحكمدارية بتعيينه حكمداراً على الأقاليم السودانية وثبت فشل اللامركزية وتجزئة السودان إلى إدارات مستقلة حيث تكوينه الجغرافى لا يدع مجالا لمديريات منفصلة ولا بد من أن تحتك أجزاء الأداة الحكومية. فقد كان يشكو المسيطر على مديرية الخرطوم من مدير التاكة لالتجاء القبائل بمديريته هربا من الضرائب وقد شكا حسين بك خليفة إلى الجناب العالى من معاكسة مديرية قبلى السودان للفارين من مديريته ومنعهم من الرجوع إلى أوطانهم. وبتعيين إسماعيل باشا أيوب ندخل فى حقبة التوسع والفتح وتُشغل الإدارة بامتداد سلطان الحكومة إلى أقاليم خط الاستواء وبفتح دارفور وتنظيم إدارتها وقبل أن ندخل فى حوادث تلك الحقبة يجدر بنا أن نقف قليلا ونعالج ما أفادته البلاد من إصلاحات فى المواصلات والتعليم فى عهد إسماعيل.

فى انشاء خمس مدارس

أنشأ إسماعيل فى زمن حكمدارية موسى باشا حمدى خمس مدارس فى عواصم المديريات وهى بربر والخرطوم ودنقلا والأبيض وكسلا على غرار المدارس

التى كانت فى مصر آنذاك وكل منها تسع نحو المائة تلميذ وقد ورد فى الأمر الصادر بإنشائها « وحيث أن تأسيس خمس مدارس فى المديريات المذكورة لنشر وتعميم العلوم والمعارف والحضارة على الوجه المشروح موافق لنفس المصلحة بناء عليه بادروا إلى إجراء إيجابه واسعوا فى تعليم سكان الجهات المذكورة وتقدمهم بأحسن وجه » .

إحسانات إسماعيل للمساجد ومدارس القرآن

وبذل إسماعيل الإعانات والإحسانات من المعية إلى عدد كبير من المساجد التى تدرّس القرآن والعلوم الشرعية فينال عدد منها ماهياتٍ شهرية للفقهاء والمعلمين تصل إلى أربعمائة قرش شهرياً وراتب ذرة لغذاء الطلاب يصل أحياناً إلى خمسة أرادب شهرياً و بعض المساجد تداعت أبنيتها فرممت بالطوب الأحمر على حساب الإحسانات الخديوية أيضاً وكنا نرى العرائض تُقدّم باستمرار للذات الخديوية اما لربط ماهيات وأغذية أو لترميم مساجد وكلها تجاب طلباتها حتى وقعت الارتباكات المالية المعروفة فى مصر وجذب اهتمام الفتح والتوسع الأنظار وهنا تنقطع العرائض والإعانات كما انقطع الاهتمام بالزراعة .

وقد أدّت هذه المدارس النظامية خدمات لا مثيل لها للإدارة السودانية بأن مدّتها بالكتاب والمحاسبين وعمال التلغراف وأحدثت نهوضاً فى الثقافة والأدب فى ربوع السودان بينما كان العلم قبلها مقصوراً على خلاوى القرآن ومجالس العلوم الشرعية . ورأى ممتاز تتميما لسياسته القطنية أن يبعث بعدد من الشبان السودانيين لمصر لتعلّم الصناعات الميكانيكية حتى يكون فى استطاعتهم بعد رجوعهم إدارة العُدد والماكينات التى لا بد منها لحلج وكبس الأقطان واقترح إيفاد بعض خريجى هذه المدارس الحكومية إلى مصر لتعلم الطب والصيدلة ولكن الاقتراح لم يلق قبولا للمؤهلات العلمية العالية التى يحتاج إليها الطالب قبل الالتحاق بتينك المدرستين .

مدّ الخطوط التلغرافية

شُغل إسماعيل منذ الشهور الأولى من حكمه بربط السودان ومصر بخطوط تلغرافية فطلب الأعمدة من غابات السودان وعند ما ثبت عدم صلاحيتها فى

بعض المناطق التى تكثر فيها « الأرضة » استعيض عنها بأعمدة حديدية طلبت من انجلترا . ومدّ الخط إلى أسوان ثم واصل المهندسون عملهم إلى أن كان شوال سنة ١٢٨٦ حيث اتَّصلت الخرطوم بالقاهرة مدة جعفر مظهر باشا واستمرّت عملية مد الخطوط فى بقية أنحاء السودان حتى تم الاتصال أخيراً بدارفور عند نقطة الفوجة واتصل السودان الشرقى كالقضارف وكسلا إلى سواكن ومصوع واتصلت الجزيرة جنوبى الخرطوم حتى فازوغلى وكان لهذا الاتصال أثره الفعال فى فتوحات دارفور خاصة إذ أن طلب النجدات وموقف جيش الحكومة والنظام الإدارى الذى اُقترح تأسيسه فى دارفور يصل الخديوى بسرعة نسبية ويرد عليه بالموافقة أو الرفض أو التعديل .

السكة الحديد

ولكن أبعد الإصلاحات أثراً فيما لو قيّض له أن ينفذ هو مشروع ربط مصر بالسودان بالسكة الحديدية فنرى إسماعيل منذ سنة ١٢٨١ يرسل مهندسين إنجليزيين ليقوما بمعاينة أقرب طريق لما سمى بخط السودان وعهد إلى الشيخ حسين خليفة متعهد سكة العتمور ليكون دليلهما وخبيرهما فى تلك الصحراء المقفرة

وعند ما كانت احتمالات خط الشمال إذا أردنا تسميته بذلك لا تزال فى طور البحث لم يغفل إسماعيل عن احتمالات خط الشرق الذى يربط النيل بالبحر الأحمر ولكنه أبدى صعوبات التنفيذ كما أبدى نياته نحو أراضيه الجنوبية فقد بعث بإرادة مؤرخة فى ٢٨ صفر سنة ١٢٨٣ إلى حكمدار السودان يقول فيها « وبما أن سواكن هى ميناء عمومية للأقاليم السودانية والمنفذ التجارى لها فإن أهم ما نفكر فيه ونسعى إليه هو العمران وترقية الزراعة والتجارة فى تلك الجهة ونرى فيما نراه من الوسائل المؤدية لذلك أنه لو أنشئت فى السودان السكك الحديدية التى أصبحت الأساس الأعظم للتقدم والعمران لأفادت البلاد الفوائد الجمة فى قليل من الوقت . والله يعلم أن هذه الفكرة لم تبرح مخيلتنا لحظة واحدة ولو كان فى الإمكان لأمرنا بمباشرة العمل فى هذا المشروع منذ الآن ولكن ما الحيلة وإنشاء السكك الحديدية فى تلك الجهة يصطدم بصعوبات كثيرة

ويحتاج إلى نفقات طائلة والحالة تقضى بإرجاء تحقيق مثل هذه المشروعات العظيمة التى تتطلب هذه النفقات إلى ما بعد مدة ريثما تتخلّص المالية من بعض الضيق الذى تعانيه فى الوقت الحاضر كما أن هنالك مع الأسف الشديد موانع أخرى تحول دون ذلك كالمال المخصص سنوياً من المالية لنفقات السودان وما إليه من الموانع » .

فإذا كان تنفيذ خط الشرق أرجئ إلى أن تزول العقبات التى تحدّث عنها إسماعيل فتحضيره ووضع تصميماته لأمر لازم فعهد إلى إسماعيل بك الفلكى ليوازن بين الطريقين المحتمل مد الخط عليهما وهما طريق سواكن — بربر أو سواكن — شندى وقدّم إسماعيل بك تقريره المستفيض مفضّلا طريق شندى على طريق بربر لأن الأخير تعترضه جبال مرتفعة وأودية منخفضة وكان هذا آخر العهد بذلك المشروع إلى أن تجدد الاهتمام به فى حروب المهدى .

خط الشمال

أما خط الشمال فاستمر البحث فى احتمال مده وكان شغل النظار الشاغل وقد عكفوا على دراسة الخرائط التى قدّمها المهندسان الإنجليزيان على خريطة رسمها حسن أفندى الدمياطى المتوفى وابنه الذى كان آنذاك موظفاً بالأشغال العمومية عند ما كانا فى السودان ونام المشروع حقبة تقرب من الأربع سنوات تجدّد النظر والبحث فيه بعدها بإيفاد مهندسين انجليز لمراجعة ما رسم من خرائط واقتراح ما يعنّ لهم من آراء جديدة فقاموا بطريق العتمور برئاسة يعقوب جراهام الذى عيِّن باشمفتشاً لسكة حديد السودان فوصل الباشمهندس وصحبه الخرطوم ومنها جنوبا إلى أبى حراز ووزع بعض معاونيه على الطريق ما بين شندى ووادى حلفا لدراسة ومساحة الطريق تفصيلياً ونوه المستر جراهام بالمساعدات والتسهيلات القيّمة التى بذلها حسين بك خليفة مدير بربر ودنقلة آنذاك وأثناء وجود جراهام بالخرطوم بحث مع مدير قبلى السودان ما يمكن ترحيله من حاصلات على هذا الخط . وبعد إتمام بحث ومعاينة طريق العتمور قفل جراهام راجعاً بطريق الصحراء الغربية ما بين أم درمان وإمباكول فى

دنقلا وقدَّم تقريره عن الطريقين إلى مستر فاولر الذى قرر أفضلية الطريق الثانى

رأى إسماعيل قبل أن يغامر بمشروع ضخم كهذا أن يستعين بخبرة وآراء المهندسين المصريين وخاصة عند ما علم أن طريق النيل والصحراء الغربية فيه من المشاق والمتاعب ما لا يتعادل مع الفوائد التى يمكن جنيها منه ورأى بعد الاستئناس بآراء مستشاريه أن يبحث احتمال طريق العتمور ثانياً وأن يبحث بالذات مشكلة المياه التى هى أكبر العقبات فى سبيله فعهد إلى حسين بك خليفة بفحص الآبار القديمة المنتشرة فى الصحراء ما بين كرسكو وأبى حمد والتى يقال أنها كانت موجودة منذ زمن قدماء المصريين وبعد أن أجرى حسين بك البحث والتنقيب وطهّر كل بئر فى تلك الصحراء عهد إسماعيل إلى عبد القادر بك وحسن أفندى من المهندسين الحربيين بكشف الطريق واحتمال مد السكة عليه وأمر الشيخ محمد حسين خليفة متعهد العتمور بتسهيل مأمورية المهندسين مخاطباً له بقوله « وحيث كما تعلمون أن تمديد السكة المذكورة وتوصيلها إلى السودان يترتب عليها منافع كثيرة من عمارية الجهات التى تمر عليها وباقى جهات السودان وتسهيل وتوسيع دائرة التجارة التى تعود فيها الثمرات والفوائد على أهالى تلك الجهات فينبغى أنكم أنتم ومن يكن عندكم من أهل الخبرة والدراية بحقائق الطريق المذكورة تتحدوا مع أولئك المأمورين وتوروهم وترشدوهم على الطرق والمسالك التى تكون مستقربة ومستسهلة لامتداد السكة الحديد » .

رجع المهندسان المصريان ومعهما زميل أمريكى وقدّما تقريرهما لناظر الجهادية وفيه عقدوا مقارنة بين هذا الطريق وطريق المستر فاولر الذى يحاذى النيل ثم يعبر الصحراء من أمبكول فى دنقلا إلى أم درمان أو إلى المتمة وعلق الناظر على ذلك مؤيداً بقوله « ويفهم من التقرير المقدم منهم أن هذه الطريق اكتشفوها فى عودتهم وأنها خالية من العقبات سهلة وملائمة لأن تمد عليها السكة الحديدية لأنها تمتد إلى مسافة ٤٨٥ ميلا تقريباً بين أدفو وبربر وأنه إذا كان الماء فى هذه الطريق قليلا فالمأمول أن يوفّر فيها الماء بعد أن ينظروا فى أمر توفيره إبان

فصل الشتاء وأن هذا الخط لا يحتاج لغير قنطرة واحدة تشاد فوق النيل وعليه فإن الطريق الذى اكتشفه ووضع تصميمه المهندس فاولر وهو من وادى حلفا إلى المتمة وقد أشّر عليه باللون الأحمر طوله ٥٥٠ ميلا ومع ذلك فهو لا يمتد حتى أدفو فالطريق الذى اكتشفه عبد القادر بك وزملاؤه أقل طولا » .

ومع ذلك فقد استقر الرأى أخيراً على تنفيذ طريق فاولر وفى سنة ١٢٩١ هـ عين شاهين باشا للإشراف على مد خط السودان فى نفس الوقت الذى كان إسماعيل باشا أيوب الحكمدار فى دارفور لإتمام فتحها وتنظيم إدارتها . وأكبر عقبة صادفت شاهين باشا هى عدم وجود العمال بالقدر الذى يكفى لمشروع ضخم كهذا وكادت تحدث أزمة ويساق الباشبوزق إلى أهالى مديرية دنقلا للعمل قسراً فى الخط ولكن الأهالى أنفسهم تشاوروا فيما بينهم وقدّموا اقتراحاً حلّ المشكلة وهو أن يناط لأهالى كل خط العمل فى السكة حتى تخرج من خطّهم ويتناوله أهل الخط الذى يليهم . وبذا تسنى لشاهين باشا الشروع فى العمل وخصّصت إيرادات مديريتى دنقلا وكردفان لكل ما يتعلق بالسكة الحديد السودانية وأصيب شاهين باشا بمرض استلزم عودته لمصر وعيّن مكانه مصطفى فهمى باشا واستمرّ العمل حتى بدأت ارتباكات اسماعيل المالية ولزم الأمر أن يوازن غوردون الحكمدار الذى خلف إسماعيل أيوب مالية السودان وأن يوقف العمل فى السكة الحديدية السودانية .

فتوحات إسماعيل فى السودان (بحر الغزال ودارفور)[1]

الرق فى السودان

عُرِف الرق فى السودان قبل فتح محمد على وعرف السودان تصدير الرقيق إلى مصر وإلى بلاد العرب قروناً قبل أن يدخل إسماعيل باشا بجيوشه مملكة سنار وكان العمل فى الحقول ورعاية الماشية من عمل العبيد وليس من أعمال السادة العرب وعموماً فقد كان الرق ناحية اجتماعية انغرست جذورها فى الماضى

(١) تنحصر هذه فى التوسع فى بحر الغزال ودارفور وخط الاستواء ولا تشمل السودان الشرقى .

وألفها الناس أزماناً . واندفع محمد على كما قدمنا لفتح الأقاليم الجنوبية لأسباب ومن أهمها الحصول على عدد من العبيد يدخلون فى سلك جنديته ودبّرت الغزوات لاستجلاب العدد الضخم الذى كان يصبو إليه محمد على واستخدمت الحكومة الجديدة السلاح النارى ضد هؤلاء السود وكان أثره أشد بكثير مما ألفوه من النهّاضة وصيادى الرقيق من العرب فاستفاد الصيادون بالأسلحة الجديدة واستخدموها فى غزواتهم . ومع أن الحكومة أوقفت الغزوات كما قدمنا إلا أن الصيادين ظلوا يوالون غزواتهم الموفقة بسلاح فتّاك ليس فى الاستطاعة مقاومته وقد كانوا يقاومون بعض الشىء عند ما كان صيادوهم يستخدمون الحراب والسيوف . كل ذلك كان يحدث على أطراف البلاد الزنجية وعلى جبال النوبة .

نشاط التجارة فى البحر الأبيض

تعمقت رحلات سليم قبطان فى النيل الأبيض وتلتها رحلات تجارية بالمراكب وكان أحمد باشا أبو ودان نفسه يمتلك مراكب تصعد فى النيل الأبيض للتجارة وخاصة العاج واقترح أحمد باشا المنكلى المنظّم احتكار تجارة النيل الأبيض بواسطة الحكومة ولكن محمد على لم يوافق منعاً لاحتجاجات الإفرنج الذين بدأوا يمارسون هذه التجارة . وعند ما أنشئت القنصليات فى عهد عباس الأوّل تعمق التجار الإفرنج صاعدين فى النيل الأبيض وظلّ عددهم يتزايد ونشاطهم يشتد حتى أن محطاتهم التجارية امتدت إلى نهر السوباط وبحر الغزال وغندكرو فى عهد سعيد ودخل فى خدمتهم من أهالى السودان عدد كبير فراراً من الضرائب الباهظة وخاصة سكّان دنقلا ولم يتوان التجار من مصريين وسودانيين فى الاستفادة من المورد الجديد فبدأوا هم أيضاً ينشئون الزرائب ويجنّدون الأهالى والعرب لحماية متاجرهم .

كل هؤلاء التجار سواء منهم الإفرنج أو الوطنيين بدأوا محطاتهم التجارية لغرض التجارة ولكنّهم بالتدريج أدركوا أن اقتناص الزنوج وسوقهم و بيعهم فى أسواق الشمال أو تصديرهم للخارج وخاصة لبلاد العرب أجدى وأنفع من التجارة المصرّحة وطفق أصحاب الزرائب يديرون الغزوات من قواعدهم المستندة

على الزرائب لحصون لهم و يستعينون أحياناً بقبائل موالية للغارة على قبائل أخرى معادية وظلّت المراكب ترحّل بدلا من العاج الأبيض عاجاً أسود . ومرّ الرّحالون والمكتشفون على هذه الأقاليم وهى بهذه الحالة من الخراب والتجار قد وصلوا القمّة من حيث الجشع والطمع ووصف الرحالون هذه الحالة فى كتاباتهم و بعضهم قدّم التقارير لحكوماتهم .

اسماعيل يتخذ الإجرآات

تنبه إسماعيل ونُبّه بواسطة الدول الأوروبية للحالة وابتدأ باتخاذ الطرق المؤدية لمحو الرقّ أو لتخفيف أضراره ولا غرابة أن ينحو إسماعيل هذا المنحى الإنسانى . فهو يريد للبلاد التى يحكمها حياة مدنية ورفاهية وقد تجلّت نظرته نحو هذا الوباء من خطاب طويل بعث به للحكمدار يعلق فيه على مسلك مدير وتهاونه عند ما علم غارات بعض النهّاضة على الدنكة والشلك فيقول فيه (١) « إن أهم ما نفكّر فيه ونسعى إلى تحقيقه هو إدخال السودان بما فيه جهات البحر الأبيض فى دائرة المدنية والعمران كما هى الحالة فى أقاليم الحكومة الأخرى ومع أن السودان لا إيراد له فى الوقت الحاضر فإننا لمجرد إدخاله فى هذه الطريق ورغبة فى إسعاد أهاليه قد أنشأنا مديرية البحر الأبيض التى كلّفنا إنشاؤها الكثير من النفقات . و بينما نحن نعمل على إنشاء مديريات أخرى فى الجهات العليا ونسعى لعمران تلك الأرجاء آملين انضواء الأهالى تحت لواء الحكومة إذا بالحوادث تقع على عكس ما نرغب ونأمل وهذا ما يدعو إلى الأسف الشديد الذى لا يمكننا أن نعبّر عن مداه .

إن مدير البحر الأبيض لم ينظر إلى أن أهمّ واجباته هى حفظ الأمن فى تلك الجهة وقطع دابر الأشقياء والأشرار والسعى الدائم لعمران مديريته وإسعادها جاعلا ذلك نصب عينيه عاملا على تحقيقه ولم ينظر إلى أن واجب العمل يقضى على أمثاله الموظفين بأن يسعوا بكل الطرق الممكنة لاجتذاب قلوب الأهالى نحو الحكومة وجعلهم مطمئنين إليها ...... فبينما الحكومة قد ألغت بيع الرقيق

---

(١) دفتر ٥٥٨ معية تركى وثيقة تركية رقم ٣٣ بتاريخ ٩ ربيع الثانى ١٢٨٣ .

الذى استرد من الأشقياء وفى ذلك ما فيه من الاستهتار بأوامر الحكومة ومن أجل ذلك يجب أن لا يكتفى بعزله وإنما يجب أن يرسل أيضاً إلى فازوغلى ليعتقل هناك ويستخدم بالأشغال الخسيسة ليكون عبرة للآخرين . أما الرقيق الذى باعه فيجب استرداده وإعادته إلى أوطانه بالراحة واسكانه فيها وأطلب أن تعملوا على عدم وقوع مثل هذه الحوادث المؤلمة مرة أخرى وأن تحولوا دون تعدى الأشقياء والأشرار على الجهات التابعة لهذه المديرية هذا مع التوسل بالأسباب المؤدية إلى تمدين البلاد وعمرانها » . هذه الوثيقة لا تترك مجالا للشك فى نيات إسماعيل نحو إبطال هذه العادة والأوامر التى أعطيت للحكمدار تتحدث فى صراحة عن الأهمية التى يضعها إسماعيل على هذه المسألة ومعاقبة الموظفين الذين يتوانون أو يتهاونون فى تنفيذ هذه الأوامر .

الويركو والحراسة

واتخذ موسى حمدى باشا أول حكمدار فى عهد إسماعيل ما رآه من الطرق لتنفيذ إرادة الجناب العالى فوضع ضريبة سميت بالويركو على كل بحّار أو عامل يعمل فى المراكب التى تصعد على النيل الأبيض وشدد الرقابة بالوابورات الحكومية على النهر المذكور حتى لا تفلت المراكب المهرّبة ، وتأسست فشودة كعاصمة لمديرية البحر الأبيض وبفضل موقعها تستطيع أن تهيمن على المراكب النازلة من بحر الغزال وبحر الجبل ونهر سوباط . كل هذه إجراآت من شأنها عدم تشجيع التجارة فى البحر الأبيض ومراقبة الرقيق حتى لا يتخذ طريقه نحو الشمال أو نحو سواحل البحر الأحمر . ولكن لا زال التجار يسيطرون على المنبع الذى تصدّر منه البضائع ولا أثر لسلطة الحكومة فى تلك البقاع . وحتى بعد الدوريات النهرية وحراسة الطرق والدروب عرف التجار كيف يراوغون مراكب الحراسة وينزلون رقيقهم فى أماكن بعيدة عن نقط المراقبة ويسوقون سلعتهم بعدها عبر الجزيرة إلى الشرق . وتمكن إسماعيل فى بادئ الأمر من ضبط الإرساليات الكبيرة التى كانت تصدر من مينائى سواكن ومصوع حين ألحقتا بإدارة السودان غير أن المهربين لجأوا إلى المرافئ الصغيرة .

شراء الزرائب بواسطة الحكومة

وضعت أيضاً التحجيرات اللازمة لتوريد الأسلحة والذخائر حتى لا يقوى أصحاب الزرائب وكذلك طلب من القناصل ألا يدخلوا تحت حمايتهم من يسيء استعمالها ومما وضع العراقيل أمام التجار الضرائب التى أجبروا على دفعها عن زرائبهم وكذلك تقوية حامية فشودة . إزاء ذلك بدأ التجار الإفرنج يبيعون متاجرهم وما اكتسبوه من حق فى زرائبهم للحكومة . ووافق إسماعيل بل شجّع سياسة شراء الزرائب من التجار وبلغ ما دفعته الحكومة فى ذلك زمن جعفر باشا مظهر ماير بو على المائة ألف جنيه ، ولكن الحكومة أجّرت هذه المشارع للعقاد وغطاس سنويا لأن إدارتها بواسطة الحكومة كانت تبدو صعبة .

ونتيجة لهذه الإجراآت أصبح التجار يتعمقون فى مجاهل أفريقيا نحو بحر سوباط وبحر الغزال وغندوكرو وأصبحوا يتخذون كل وسيله لتهريب رقيقهم ، وكان للرشوة نصيب كبير فى تسهيل مهمتهم . وقد يبدو غريبا أن تستمر تجارة الرقيق مع نيات اسماعيل الحسنة وأوامره المشددة للحكمداريين والمديرين والطرق المختلفة التى اتخذت لعرقلتها ولغوها ، ولكن السودان بأراضيه الشاسعة ومواصلاته الصعبة وفوق كل ذلك صنف الموظفين الذين كانوا بالضرورة محافظين ولم تدخل فى عقيدتهم هذه النزعة الإنسانية التى ترمى إلى إبطال عادة ألفوها وألفتهم قرونا عديدة ، وهم قبل غيرهم يرون أثرها على حياتهم . ومع أن بعضهم يتقبل الرشوة للتغاضى عن المهربين لكن حتى أولئك الذين يتعففون عنها لم يجدوا فى أنفسهم الحماس الكافى للضرب على أيدى التجار والمهربين لأنهم ليسوا بمؤمنين بهذه النزعة الإنسانية .

فكرة ضم بحر الغزال

بذل اسماعيل كل ما أمكن بذله من مجهود ليضع حدّا لهذه التجارة البغيضة ولكن الأخبار ترد إليه على أنها لا تزال قائمة والدول الأوروبية تنقل إليه ما شاهده الرحالون والمكتشفون من مساوئها فرأى ألا مناص من ضم الأراضى التى يتلاعب فيها هؤلاء التجار إلى ممتلكاته ضمّا نهائيا ، ووضع حاميات فيها وإظهار سطوة ونفوذ الحكومة . فعهد اسماعيل إلى الحكمدار جعفر

مظهر باشا بأن يضم جهات بحر الغزال بما يراه ، وشغل اسماعيل نفسه بجهات خط الاستواء وسنفصل ما اتخذه بصددها فيما بعد . أما ضم بحر الغزال فاتصلت حوادثه بشخصية الزبير الذى روى عن نفسه أن الظروف هى التى قادته إلى بحر الغزال . فبعد أن تعلّم فى مدرسة الخرطوم ما كان يريد أو يرغب أن يذهب لبحّارة كما كانوا يسمون الأقاليم الجنوبية ، ولكن لحق بابن عم له غادر الخرطوم متجها لبحارة ، وعندما أدركه فى الطريق غير بعيد من العاصمة حدثه عن الرجوع وأغراه بكل ما يمكن من حجة وبرهان ليثنى عزمه ، ولكن ما زال مصمما ، وهنا رأى الزبير أن الطريقة الوحيدة التى يتخذها السودانى لوضع حد المسألة هى أن يحلف له بالطلاق إن لم يرجع سافر معه . فلم تؤثر هذه فى ابن العم . فاضطر الزبير لمرافقته إلى بحر الغزال .

الزبير ضد البلالى

بدأ الزبير حياته كمتسبب بسيط ، ولكن ذكاؤه وصفات الزعامة والقيادة التى امتاز بها على من هم حوله جعلته يتقدم خطوات فى التجارة من ناحية ونحو الملك والسلطان من ناحية أخرى فاتسعت متاجره ، وكان يحالف بعض الملوك ليقاتل بهم غيرهم حتى أصبح بالتدريج له شأن يختلف عما كان عليه أقرانه من التجار ، وصارت جهات بحر الغزال الغربية تحت نفوذه التجارى والإدارى وعقد له التجار لواء الزعامة التى وصل إليها باجتهاده وصفاته .

وهو فى هذه الحالة إذ وضع الحكمدار الخطة لضم أقليم بحر الغزال لنفوذ وسيطرة الحكومة وعين أحد أهالى الغرب المدعو الشيخ محمد البلالى ناظرا لقسم بحر الغزال ليكون تابعا لمديرية فشودة وعين له معاونين وكتبة وجنوداً بمرتبات ورتب حكومية وعين كجوك على سر بيادة للقسم المذكور . وسُرّ اسماعيل من إجراءات التنفيذ غير أنه حذر حكمداره من التساهل فى قوة هذه الحملة وبين له ضرورة الانتباه لعددها وعدتها حتى تستطيع ردّ أى هجوم ربما يقوم به سلطان دارفور .

قام الشيخ محمد البلالى متجها صوب مأموريته وقبل أن يلاقى حلف التجار توفى

كجوك على ، وكان الشيخ محمد يستند على قوة الحكومة وسيطرتها ولعله كان يجهل أو تجاهل ما وصل إليه التجار من نفوذ فى تلك الأصقاع وخاصة الزبير ، وكان أن سمعوا بمسير البلالى ورأوا فيه دخيلا يريد اغتصاب ما بنوه من ملك ونفوذ بسواعدهم وأدمغتهم فاتفقت كلمتهم وعقدوا للزبير لواء القيادة وصمموا على مقاومة الشيخ محمد والتقوا به فى معركة لم تكن بالحاسمة سقط فيها قتلى من الفريقين ودخلوا فى جولة ثانية كان النصر فيها حليف التجار وقتل فيها الشيخ محمد البلالى. وعندما وصلت أنباء مقاومة التجار والموقعة الأولى إلى الحكمدار خف إلى مكان الحادث معاون من الحكمدارية ومعه بلوك من العساكر لإجراء التحقيق فى أمر ذلك العصيان . وعندما وصل بحر الغزال كان التجار سادة الموقف فقام بما ندب من أجله من تحقيق وأرسل تحرياته للخرطوم ، وكذلك بعث الزبير شارحا أسباب المقاومة مبينا تعدّى الشيخ محمد ومبادأته بالعدوان .

الزبير بين موقفى العدو الصديق

وصلت هذه التحقيقات للخرطوم عندما كان آدم باشا العريفى يقوم مقام مدير عموم قبلى السودان بدلا من ممتاز باشا الذى عزل رهن التحقيق وقبل أن يصل اسماعيل باشا أيوب المدير العام الجديد ورأى آدم باشا أن يناط بمدير كردفان ضبط الزبير وارساله للتحقيق معه فيما نسب إليه لأن المسافة من الخرطوم بعيدة . غير أن الزبير قد عرف بفطنته وذكائه أنه إذا ما سارت الأمور على طريقها الرسمى فسوف تعده الحكومة ثائرا ولا تستطيع أن تدرك الظروف التى تحت ضغطها دافع عن نفسه وأمواله ورأى أن يوسط حسين بك خليفة مدير بربر ودنقلا أنذاك ، وشرح له الحالة شرحاً وافياً وأظهر الخضوع والامتثال لسلطان الحكومة وما كان يريد أن يُعرف عنه أو تنسب إليه الثورة ونتيجة لذلك رأى الخديوى أن يعفو عنه وأصدر أوامره لمدير قبلى السودان باعطاء الزبير الأمان إذا ما حضر للخرطوم ولا داعى لحضوره للمحروسة كما أبدى الزبير نفسه فى طلبه بواسطة حسين بك خليفة .

الزبير يعين مديرا لبحر الغزال

ولم يكتف الخديوى بالعفو عنه بل رأى فيه من القوة وشدة البأس ومعرفة أحوال بحر الغزال ما سوف يستعين به على توطيد سلطان الحكومة فى تلك الأراضى وأصدرت الأوامر لاسماعيل أيوب الذى ارتفع إلى رتبة الحكمدار بتشكيل مديرية لبحر الغزال وتعيين الزبير مديراً عليها وأمر الحكمدار أيضا بأن يبحث مع الزبير حين قدومه إلى الخرطوم أمر المديرية الجديدة وما يجب لها من المستخدمين والجنود . كل هذه التعليمات ارسلت من الخرطوم مع رسول خاص بطريق كردفان ودارفور ولكن الرسول تأخر فى طريقه لأن عربان الرزيقات قطعوا الطريق . أما الزبير فقد صمم على القيام إلى الخرطوم يعرض ولاءه وإخلاصه حسب ما وعد به من قبل وسير بعض مراكبه أمامه تحمل السن والريش وغيرها ريثما يتم استعدادته . وقبل أن يغادر مقرّه عرف أن عربان الرزيقات وغيرهم أغاروا على حدود منطقة نفوذه وقطعوا الطريق بينه وبين دارفور ورأى أن يقوم بتأديبهم أولا وبعد ذلك يواصل سيره شمالا إلى كردفان ثم إلى الخرطوم . وسارت الأمور سيرا لم تدعه ينفذ عزمه بل قادته إلى فتح دارفور فلنترك الزبير يجمع جنوده البازنقر والبحارة ليزحف بهم على الرزيقات ونضع أمام القارئ إلمامة بسيطة عن تاريخ دارفور قبل حروبها مع حكومة السودان .

نبذة عن تاريخ دارفور

تأسست دارفور مملكة مستقلة فى نفس الوقت الذى نشأت فيه مملكة الفونج وملوكها يرجعون بنسبهم إلى العباس عم النبى (صلعم) وفى إدارتها ونظمها لا تختلف كثيرا عن المملكة الفونجية وظلت ثلاثة قرون يتوارثها سلاطينها كابرا عن كابر ، وكان السلطان محمد الفضل يعاصر محمد على ، وعندما فتحت جيوش الدفتردار كردفان كان المتوقع متابعة الفتح حتى دارفور غير أن حوادث الملك نمر وما أعقبها من اضطرابات أخذت كل وقت ومجهود الدفتردار ، ولم تمكن جيوش محمد على من فتحها ، وكذلك مناوشات الحدود الحبشية التى ظلت تتجدد كلما هدأت الأحوال وبدئ بالتفكير فى فتح دارفور .

محاولة الاتفاق مع أبى مدين

وفى سنة ١٢٥٢ هجرية وفى عهد خورشد باشا وصل الخرطوم أبو مدين أخو محمد الفضل سلطان دارفور يلتمس الإذن بالسفر إلى مصر لمقابلة الجناب العالى

ثم ليذهب إلى الحج ، وقد استفهم خورشد باشا منه عن قوة درافور واتفق معه على أن تفتتح الحكومة الاقليم وينصب هو (أبو مدين) سلطانا عليها خاضعا للحكومة ويؤدى خراجا سنويا يشمل خمسة آلاف من الرقيق ، وخمسة آلاف رأس من أحسن الإبل القوية ، وألفا وخمسمائة قنطار من العاج وثلاثمائة قنطار من الخرتيت ، وسبعمائة وخمسين قنطارا من النحاس الخام ، وألفا وخمسمائة من التمر هندى وكل ذلك يسلّم فى مدينة أسيوط واستكتب خورشد أبا مدين عهداً بذلك وبعث به إلى محمد على . غير أن خورشد رأى بعد هذا أن يرجأ الفتح إلى ما بعد سنتين أو ثلاث يستطلع أخبارها ، ولكن حوادث الشرق وإشاعة غزوة المكادة المزعومة والتى استلزمت حضور الميرميران أحمد باشا لنجدة الحكمدار أخَّرت التفكير فى فتح دارفور ونام المشروع إلى أن قدّر لدارفور أن تفتتح بطريق غير ما قرر لها وعلى يد رجل لم ينتدب لهذه المهمة ألا وهو الزبير . وقد تركناه ينوى مهاجمة الرزيقات وتأديبهم ، ثم يحضر للخرطوم للاتفاق مع الحكمدار بشأن المديرية الجديدة التى وكلت إدارتها إليه .

الزبير يقاتل الرزيقات

جهّز الزبير ما يزيد على الأربعة آلاف من جنده وتقدم شمالا قاصدا شكا مقر الرزيقات ، وكان مقدراً أن يقطع المسافة فى خمسة عشر يوما ، ولكنهم قاموا فى زمن هطول الأمطار وقضوا لذلك أكثر من أربعين يوماً حتى وصلوا جنوبى شكا ، وقد نفدت أقواتهم وصاروا يقتاتون أياما بالحشائش وعروق الأشجار ومات منهم ما يزيد على الستمائة . وعندما اقترب من الرزيقات شنوا هجوما عليه بقوات كبيرة غير أن جنوده كسبوا المعركة وزحفوا بعدها حتى دخلوا شكا فى غرة رجب سنة ١٢٩٠ .

وبعد الموقعة وبعد احتلاله لشكا فرّ مشايخ الرزيقات وعلى رأسهم منزل وعليّان ملتجئين بالسلطان إبرهيم سلطان دارفور ، وهو شاب ارتقى عرش آبائه حديثا ، ولا شك أن له من المطامع والعزة ما يوازى دماء الشباب الحارة التى تجرى فى عروقه وبث له الشيخان شكواهما من الزبير وجنده وعاهداه على

الخضوع والامتثال بعد أن أعلن الرزيقات استقلالهم منذ ثلاثين سنة تقريبا . وطبيعى أن يرحب السلطان الشاب بهذه الفكرة التى ردّت إلى مملكته ما فقدته منذ مدة وطبيعى أيضا أن يحمى جارا التجأ إليه واحتمى به .

بدأ الزبير يخاطب السلطان إبراهيم بشأن الشيخين وقد سرد له ما اتصل من وداد وعلاقات حسنة بين والده والدولة المصرية ونصح له ألا يهتم بما يقوله الشيخان وألا يدعى أنهم رعيته حيث كانوا ينعمون باستقلالهم لمدة ثلاثين سنة وسرد له كيف أنهم عاثوا وأفسدوا وقطعوا الطريق الذى يصل بحر الغزال ببقية السودان عن طريق دافور وختم خطابه بأنهما فتنة ولا يليق به أن يستمع لهما . وظل الزبير يراسل السلطان ، وهذا يمتنع عن تسليمهما وعندها صمم الزبير على محاربة السلطان وصمم السلطان على مقاومة الزبير .

الزبير يزحف على دافور

بدأت الحرب بتجريدة بعث بها السلطان لملاقاة الزبير فى شكا فدارت عليها الدائرة ، ومن ثم واصل زحفه شمالا وفى الوقت نفسه بعث بالرسائل المستعجلة للحكمدار يطلب منه المدد والعون حيث يتوقع مقاومة عنيفة من السلطان ، وظل الزبير يزحف وتقابله التجريدة تلو الأخرى وهو ينتصر عليها حتى دخل دارة ، وظل يوالى إرسال خطاباته المحذرة المنذرة للسلطان والسلطان يرد بإرسال الجيوش يذود عن مملكته ، وما كان للسلطان الشاب ولم يمض عليه طويل وقت على عرش أجداده أن يخضع وأن يمتثل ، ولكنه جهز سرية وفيها عدد من أمراء البيت المالك وزحفوا على دارة مقر الزبير واشتبكوا يوما كاملا حصد الموت من الفريقين عدداً كبيرا انجلت المعركة بعدها بهزيمة جيش دارفور ، ولكن لم تكن بالحاسمة وما تقهقر الفور بعدها ، بل ظلوا معسكريين حول المدينة وخاطبوا الزبير وأوسعوه شتما ورد لهم بما يعادل لغتهم وألفاظهم وخرج لهم هذه المرة وباكرهم بحرب استمرت ساعتين فرّ بعدها فلول الجيوش الفوراوية وكتب الزبير بهذا النصر مستعجلا المدد من الحكمدار .

مقتل السلطان

وبعد أن بعث تجريدة قوية هذه المرة بقيادة عمّه وبعد أن حلت بها الهزيمة

قام السلطان على رأس حملة أخيرة بنفسه وفصل عن الفاشر عاصمة ملكه ينوى مباغتة الزبير فى داره غير أن الزبير قد تحصن بها وجعلها حصنا قويا امتنع على السلطان وتكبد من الخسائر أفدحها حين محاولته الاقتحام ورأى أن يتراجع . غير أن الزبير خرج وراءه مقتفيا آثاره حتى أدركه فى بلدة منواشى ، وهناك دارت المعركة الأخيرة مع السلطان حيث أبلى بلاء حسنا فى ساحة القتال وخر قتيلا واندكّ بموته عرش دام أكثر من ثلاثة قرون كانت فيها المملكة الدارفورية أداة للمدنية الإسلامية بين تخوم الصحراء الكبرى ومستنقعات خط الاستواء . وبعد أن استراح الزبير نحو خمسة أيام بالبلدة قام نحو العاصمة الفاشر ودخلها فى ٢٢ رمضان سنة ١٢٩٢ .

هذه قصة الزبير منذ أن غادر مقره فى بحر الغزال لتأديب الرزيقات وفتح الطريق بين مديريته وكردفان ليحضر بعدها للخرطوم حيث يتفق مع الحكمدار على إدارة مديريته الجديدة ، ولكن الظروف ساقته من حرب مع العربان إلى حرب مع مملكة دارفور انتهت بانتصاره . والآن لننظر ما حدث فى الخرطوم لنتحسس استجابة الحكومة المصرية والحكمدار لمغامرات الزبير وقد تركنا آخر مرة الحكمدار يراسل الزبير بالإرادة السنية التى تنص على تعيينه مديراً على بحر الغزال بشروط يتفق عليها فى الخرطوم وردّ الزبير بأنه سيغادر بحر الغزال بطريق كردفان بعد أن بعث بعض المراكب نازلة فى النيل الأبيض مشحونة ببعض بضائعه . وقد وافق الحكمدار على هذه الإجراآت ورأى فى ذلك فرصة تجعل بحر الغزال متصلة ببقية أجزاء السودان من جهتين الأولى عن طريق النيل الأبيض والثانية عن طريق كردفان .

الحوادث فى الخرطوم والقاهرة

اتصل بمدير كردفان بعد ذلك أن سلطان دارفور اعتراه القلق من حركات الزبير وحشد جيوشه لمقاومته أو مهاجمته وأنه سد الطريق بينه وبين كردفان فأبرق المدير بالخبر للحكمدار ورأى الأخير أن يبعث بنجدات للزبير على سبيل الاحتياط . وعندما بدأت الوقائع بين الزبير وعساكر السلطان وعلم الحكمدار بها بعث يطلب الامدادات من مصر فوردت له البرقية الآتية

من المهردار خيرى باشا « بما أن أمير دارفور قد اعتدى على الحكومة المصرية اعتداء موجهاً ضد مشروع منع و إلغاء تجارة الرقيق فقد اطلعت على برقيتكم الخاصة بطلب إرسال حملة من مصر قوامها ثلاث أورط من النظامية وأربعمائة نفر من العساكر الغير نظامية ورئيس فرسان كامل العدد والعدد مع عشرين ألف قنطار من البقسماط وخمسة آلاف قربة سفرى وألفى قربة رى مجوز و إرسال أورطة سودانية من مديرية السودان الشرقى عدا ما ذكر وتأليف أورطتين سودانيتين من جديد من قبلكم وذلك ليهاجم بهذه القوة على بلاد دارفور من جهتين إحداهما من جهة كردفان والأخرى من جهة شكا » .

وأرسلت إرادة سنية إلى الزبير بترقيته إلى الرتبة الثانية ويهنأ فيها هو وجنوده بما أحرزوه من نصر على عساكر السلطان ولم ينس الديوان الخديوى أن يصدر الخطاب بجملة يفهم منها أن نقطة الخلاف بينه وبين دارفور هى تجارة الرقيق كما فى البرقية السابقة ولعل ذلك تقوية للحركات الحربية التى قام بها الزبير وتقوم بها الحكومة أمام الرأى العام الدولى « بناء على ما شوهد فيكم من حسن الغيرة والاجتهاد فى ضبط وربط أمور الحكومة التى تحت إدارتكم مما هو حاصل منكم من الدقة فى منع تداول واستعمال التجارة فى صنف الرقيق بالتطبيق لأوامرنا العمومية التى صدرت فى هذا الخصوص » .

إسماعيل أيوب يقوم بنفسه للغرب

اتفقت القاهرة والخرطوم على إرسال إمدادات للزبير ولكن إسماعيل أيوب رأى صعوبة فى تنفيذ هذا الأمر حيث أن الطريق بين كردفان وشكا غير مأمون ورأى أن يقوم بنفسه إلى كردفان لكى يباشر ما يرسل من قوة ويجمع من تلك المديرية ما يمكن الاستغناء عنه وما إن وصل الابيض حتى رأى أن يقوم هو على رأس تلك القوة المتجمعة «[1] وأسير بهم شخصياً لنجدة زبير بك حتى اطلع على حقيقة الحالة هناك وأدخل فى قلوب العدو من الرعب والدهشة ما يتناسب وأهمية الوظيفة التى أتشرف بها وأقوى العساكر

---

(١) دفتر ٢٥ عابدين وارد تلغرافات . شفرة رقم ٤٤٥ ص ٥٦ بتاريخ ٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٢٩١ .

الخديوية تقوية شديدة والمأمول أن فتح دارفور يكون ميسراً فى هذه المرة بفضل الله تعالى ويمن طالع ولى النعم » .

محاولة السلطان الاتصال باستامبول

أما السلطان إبراهيم فقد علم أن الزبير والحكومة المصرية يعملان كيد واحدة للقضاء على مملكته وكان يظن من قبل أن حركات الزبير هى من تلقاء نفسه ولا تجد تأييداً من الخديوى وعند ذلك قام بآخر محاولة دبلوماسية لدى حكومة الآستانة فوردت الأخبار للحكمدار بأن السلطان أرسل سفارة برئاسة الحاج إدريس ومعهم من المال ما يبلغ مائتى ألف ريال نصفها لشريف مكة لكى يتوسط لدى الباب العالى ونصفها الآخر للاستانة فأبرق الحكمدار بالخبر للمحروسة حتى يضبط السفراء قبل أو حين وصولهم لأسيوط ولم يتبين لنا من الوثائق ما حدث فى شأنهم .

قوة اسماعيل أيوب

قام الحكمدار من الأبيض مستصحباً أورطة جهادية مستكملة وأربعمائة خيالة وهجانة وثلاثة مدافع ومائتين من الباشبوزق الشايقية واتجه بهم رأساً للدخول فى دارفور من جهة الشرق ومرّ فى طريقه على منطقة المياه القليلة والتى تخزن مياهها فى جذوع أشجار التبلدى المحفورة الوسط ولو كان السلطان تنبّه لهم وأرسل من أخلى تلك الأشجار مما بها من المياه لاضطرت تلك الفرقة إلى الرجوع أو موت الكثير منها عطشاً . وقبل أن يصلوا أم شنقه عارضهم الشيخ أحمد المليح بعربان حمر ولكنهم لم يثبتوا لطلقات المدافع فدخل الباشا على رأس قوته أم شنقه دون مقاومة . وهنا تطايرت الاشاعات بأن الفرقة الأولى بقيادة الزبير قد اندحرت وأن قائدها قد قتل وهذا ما دعا اسماعيل أيوب أن يبقى بأم شنقه ويحصنها ويتريث حتى تصله الأخبار الأكيدة عن مصير الزبير وفرقته . وتحقق كذب الإشاعة أخيراً حين اتصل الزبير بالحكمدار بالرسائل مخبراً إياه بقتل السلطان وتقدمه نحو الفاشر وعند ذلك تحرك الحكمدار صوب العاصمة ودخلها خمسة أيام بعد وصول الزبير إليها وحملت أسلاك البرق بشرى الفتح للجناب العالى ورد جنابه بترقية إسماعيل أيوب إلى رتبة فريق والزبير إلى رتبة لواء .

الحكمدار يرتب الادارة فى دارفور

شغل الحكمدار فى الأيام الأولى بتأمين الأهالى وانزال الجنود فى مبانى السلطان بالفاشر ولكن حسب الله عم السلطان فرّ مع بعض الجند الفوراوى ملتجئاً بجبال مرة الحصينة فأرسلت فرقة حكومية لتتعقبه وبعد ذلك تفرغ اسماعيل أيوب لوضع نظام إدارى جديد يكفل الراحة والأمن للبلاد المفتتحة وطبيعى أن يعتمد هيكل الحكومة الجديد على الجند النظامى وتوزيع البلاد إلى مديريات وأقسام وأخطاط .

وتبين للخديوى مما قرأه من رسائل الحكمدار ومما سمعه من أفواه العارفين بدارفور أن هناك حاجة لفتح الطريق بين دارفور وكردفان بفتح الآبار وتوفير المياه ، واستدعى ذلك تعيين فرقتين من الضباط المهندسين للقيام بتلك المهمة تحت رئاسة ضابطين أوروبيين يعملان فى الجيش المصرى حتى تكون الأراضى المفتتحة متصلة ببقية منطقة نفوذ الخديوى اتصالا حقيقيا وقد تقوم الفرقتان بأبحاث علمية عن معادن ونباتات وأجناس الأهالى فى كردفان ودار فور .

وكانت النية متجهة فى أول الأمر إلى تعيين الموظفين كلهم من مصر من إداريين وكتبة ومحاسبين ونظار أقسام ولكن لما تتكلفه هذه الإدارة الجديدة من أعباء مالية باهظة ونفور الناس فى مصر من السفر لجهات نائية وغير صحية جعلت ولاة الأمور يعدلون نوعا ما فى خطتهم بأن يستخدم ما أمكن أهل البلاد أنفسهم فى بعض الوظائف .

مطامع إسماعيل فى برقو

وامتدت مطامع إسماعيل فى هذه الآونة إلى ما وراء حدود دارفور وأصدر أمره فعلا إلى الحكمدار أن يتوجه الزبير بفرقته إلى برقو بعد القضاء على فلول جيش دارفور المحتمى بجبل مرة بمن معه ومن يبعث من الفاشر لتقويته ومن يلحق به من جنود البحارة الدناقلة من بحر الغزال ويرى إسماعيل بذلك أن يصطاد عصفورين بحجر واحد . الأول فتح بلاد برقو والثانى التخلص من البحارة الذين قوى نفوذهم واستفحل أمرهم ، فإذا ما نجح الزبير فى هذه المهمة عيّن مديرا لبرقو . هذا ما تراءى لإسماعيل من آراء ولكنه لم يقيد الحكمدار

بها بل ترك له التصرف بما يراه حيث إنه أدرى بما يكتنف الموقف من ظروف واحتمالات .

بعد سفر الزبير متعقبا أثر حسب الله الثائر اقترح الحكمدار أن يعين مدير عام على الأربع مديريات فى دارفور من رتبة اللواء ثم يقص ويسرد الأسباب التى يرى منها عدم صلاحية الزبير لمثل هذا المنصب زيادة على إشرافه على بحر الغزال وشكا . ويبين الحكمدار أنه خلع على الزبير من تلقاء نفسه لقب مأمور إدارة دارفور تطمينا له حيث إن قوته تزيد على الستة آلاف كلها مزودة بالأسلحة النارية ونصفهم من عبيده الخصوصيين . وقد علم الزبير فعلا أنه سوف يعين على دارفور وشكا وبحر الغزال بارادة سنية سوف ترد من المحروسة . ويظهر من تلغرافات الحكمدار الشفرة أن ما دعاه إلى انتهاج هذه الخطة هو قوة الزبير ورأى مداراته إلى حين . ويقترح الحكمدار أن ترد الإرادة بفصل إدارة دارفور من شكا وبحر الغزال ويعين مدير عام من رتبة اللواء اما بترقية حسن بك حلمى الموجود بالفاشر آنذاك أو أى لواء غيره . وبذلك تحال شكا وبحر الغزال إلى عهدة الزبير كما كان قبلا . ويرى إسماعيل أيوب أن ذلك هو الطريق الوحيد لإدارة دارفور إدارة رشيدة حيث إن الأهالى هناك كما يقول الحكمدار ينفرون من حكم الزبير وإدارته وأن كل تلك الأقاليم الشاسعة فوق مقدرته الإدارية .

بعد خمسة أيام من هذه البرقية يرى الحكمدار أنه بعد ذهاب الزبير إلى شكا وبحر الغزال لا تفى القوة النظامية الباقية لحفظ الأمن ويرى أن يبقى الزبير حيناً من الزمن مشرفاً على إدارة دارفور ويبقى معه حسن حلمى بك كقائد للعساكر الجهادية حتى يتكامل ورود العساكر والموظفين من مصر وتستطيع القوة المصرية حفظ النظام والدفاع عن دارفور وعندها ينفّذ مشروع رجوع الزبير إلى مقر وظيفته الأولى . ويتردد الحكمدار مرة أخرى فى خطته ويبرق مقترحاً تأسيس مديرية عامة تشمل دارفور وبحر الغزال وشكا تحت رئاسة خالد

باشا قائم مقام الحكمدار فى الخرطوم بعنوان مدير عموم غرب السودان . ومن كل هذا يتضح لنا أن مسلك الحكمدار نحو الزبير ينطبق عليه المثل العامى « لا بريدك ولا بحمل بلاك » .

أثناء ما كانت أفكار الحكمدار متضاربة من حيث مكان الزبير فى الإدارة الجديدة نظر فى اقتراح الخديوى بفتح برقو ورأى أن الزبير ربما لا يقبل أن يوجّه جهده مرة أخرى نحو فتح جديد حيث إنه كان يقاتل ويجاهد ما يقارب السنة ونصف فى بحر الغزال وشكا ودارفور وأنه جهز وصرف على ما يزيد على الستة آلاف من خاصة عبيده وأقاربه وأتباعه ولم يكلف الحكومة أى مصروفات ، وكل هذا من إيرادات مشارعه الخاصة ببحر الغزال وبهذا تم له فتح دارفور وينتظر بالطبع أن تبقى مديرية بحر الغزال فى عهدته لأنها مقر مشارعه ومتاجره وكذلك شكا ودارفور اللتان فتحهما . فشخص هذا ما قام به من جهد وهذا ما ينتظر لا يرجى منه أن يقوم بحملة جديدة نحو بلاد البرقو دون أن ينال جنده ما يتطلبونه من الراحة ودون أن يجنى ثمرات ما افتتح على يديه . وبهذا المنطق وتلك الحجج تحطم مشروع فتح بلاد برقو على يد اسماعيل أيوب باشا

وعند ما نظر اسماعيل أيوب إلى الموقف بصفة عامة رأى أن هناك وجهين للنظر فى هذه المسألة : الأول أن يعهد إلى الزبير بحكم دارفور وشكا و بحر الغزال وفتح برقو ويعين بهذا مديرا على كل الجهات الغربية ولكن يظل هذا الجزء منفصلا عن حكمدارية السودان مثل شرق السودان وألا تتحمل الحكومة أى مصروفات عليه والوجه الثانى هو أن يبقى الزبير فى الوقت الحاضر فى دارفور إلى أن يتم إخضاع كل الجهات فيها وترد القوة الكافية وأثناء ذلك تحتاج دارفور إلى مصروفات تبلغ سبعة أو ثمانية آلاف تتحملها الحكومة وبعدها تتحرك فرقتان أحداهما من دارفور والثانية من بحر الغزال وتتجهان غربا لفتح برقو .

لم يكتف الحكمدار بهذا السيل من الاقتراحات بل أبرق يعدل فى اقتراحاته بأن تضاف كردفان إلى الجهات الغربية وكلها تتبع خالد باشا وحينئذ

لا بأس من تعيين الزبير على دارفور هذا إذا صادق الجناب العالى على تعيين خالد باشا . كل هذه الاتصالات البرقية تتبادل حاملة هذا السيل من الاقتراحات والزبير يتعقب حسب الله ويشدد عليه الحصار وأخيرا تمكن بالقوة والسياسة معا من احضاره أسيرا إلى الفاشر حيث جهز هو وأقاربه وبعث بهم إلى مصر.

وكانت النقطتان اللتان ترتكز عليهما اعتراضات الحكومة على الزبير هما أنه قد يكون طامعا ويستقل بما تحت عهدته من بلاد وثانيهما أنه يعمل فى التجارة فوق عمله كمدير، وترى أنه لا يصح الجمع بين التجارة والادارة وأنها مستعدة لاستلام متاجره ومشارعه بأثمان مناسبة كما فعلت مع بعض التجار الأوروبيين من قبل وزيادة على الاعتراضين السابقين كان جنود البحّارة ينفرون من اتباع نظام خاص واستمرارهم فى خدمة الحكومة يتوقف على خضوعهم للنظام وتناول مرتبات كبقية الجنود الآخرين .

والظاهر أن الجنود الجهادية تكامل منهم عدد كبير بدارفور وأفصح الحكمدار عما يساوره من شكوك فى مقدرة الزبير ويرى أنه ليس بكفء لادارة أراض شاسعة كهذه وأنه يصعب عليه التعاون مع مرؤوسية من أصحاب الرتب النظامية فى الجهادية والموظفين الملكيين الآخرين الذين يحضرون من مصر وأنه لا يريد أن يتخلى عن البحارة ويروى الحكمدار فوق هذا أن الزبير نفسه راغب عن ادارة دارفور وأنه يكتفى ببحر الغزال ولهذا أعلن تعيين حسن بك حلمى مديرا على الفاشر ومديريتين أخريين بصفة مؤقته . أما داره التى تقع فى قبلى دارفور فقد حول إدارتها مؤقتا على الزبير والظاهر أن الحكمدار يريد رفع الزبير عن إدارة دارفور وفى نفس الوقت يبقى فى دارة حيث يستعين به على إخماد ما قد يحدث من الفتن حيث لا تزال الحاميات الحكومية قليلة العدد نسبيا . والحل الأخير لمشكلة الزبير كما يعتقد الحكمدار هو أنه عند ما يرجع إلى بحر الغزال يوكل إليه فى الحال فتح برقو ويعين مديرا على ما يفتتحه من أراضى وتنزع بحر الغزال منه وبذا تتخلص الحكومة من إدارته لدارفور وتتخلص أيضا من مشارعه ومتاجره وبحارته فى بحر الغزال .

لم يمانع الزبير فى رفعه من إدارة دارفور ولم يمانع فى امتلاك الحكومة لمشارعه ومتاجره فى بحر الغزال ولكنه يطلب أن تبقى له ٦٠٠ قنطار من السن موجودة لديه هناك واتفق أن يورد للحكومة من السن والعبيد الصالحين للجندية ما قيمته خمسة آلاف كيس باعتبار قنطار السن ٢٥ جنيه ومكافأة الجندى ٥٠٠ قرش وما يزيد عن ذلك يرسل له ما يقابله فى الثمن من البارود واللوازم الحربية الأخرى ولم يمانع أيضا فى تحويل عبيده والبحارة الذين يصحبونه إلى عساكر حكومية بماهيات .

صدق ظن الحكمدار فى أن أهالى دارفور لابد وأنهم يعاودون العصيان وأن الزبير لابد من وجوده بدارفور لدحرهم وفعلا رفعت راية العصيان فى جبل مرة وأمر الزبير بالتوجه إليهم ، كما قام حسن بك حلمى من الفاشر لنفس المهمة وتمكنا من إخضاع المتمردين . وبعد ذلك مباشرة تنصب بوش أخو حسب الله سلطانا فى كبكابيه وأعلن تمرده وعصيانه فسار نحوه الزبير وقتله وشتت جنده وسلّم المديرية لمدير جديد عينه الحكمدار وقفل راجعا إلى الفاشر . عندئذ نفذ الحكمدار الحلقة الأخيرة من سلسلة اجراآته نهاهو الزبير يسّلم مديرية داره وقد هدأت الأحوال فى دارفور بعد إخماد الفتن والثورات حيث يتهيأ للرحيل لشكا وبحر الغزال ولا حاجة تبرر وجوده فى دارفور .

استشعر الزبير منذ اليوم الذى اجتمع فيه مع الحكمدار بالفاشر أن هناك بعض الانقباض والنفور منه ولعل ذلك مرده إلى شعوره بأن فخر الفتح يرجع إلى الزبير ثم توالت على الزبير الوعود التى تلغى بعد مدة ثم اضطراب اجراءات اسماعيل أيوب من حيث ادارة دارفور وفتح برقو وعلم الزبير رغبة الحكومة فى تسريح جنوده واستلام مشارعه ببحر الغزال . كل ذلك جعل الزبير يظن أن الحكدار ما قصد إلا حرمانه من ثمار انتصاراته ومعاكسته وظن أن الجناب العالى لا يتفق معه فى تلك السياسة وأن الأوفق الذهاب بنفسه إلى المحروسة وعرض الأمر على الأعتاب السنية وما كان يدرى أن تلغرافات الشفرة

المتبادلة بين الحكمدار والبهردار هي التي تملي هذه السياسة وأن الحكمدار يقترح والخديوي يوافق إن اقتنع بصحة الاقتراح . والزبير بحكم تربيته ووسطه ما كان يدرك أن هناك باطنا من الأمر وظاهرا وأن السياسة مداجاة وحيل ، وما كان له أن يدرك طريقة الدسائس التركية ، فالأقوال اللينة التي يبديها له الحكمدار يأخذها على ظاهرها ولم يستشعر أن هناك تخوفا من جهته من نحو عصيان أو تمرد أو استقلال وهو بطبيعته البسيطة وسليقته العربية الواضحة ما كان مخادعا في ولائه للحكومة الخديوية وظل ثابتا على إخلاصه منذ أن قطع عهدا على نفسه بالولاء لهذه الحكومة عندما تغلب على قوات البلالي ونفى عن نفسه تهمة التمرد والثورة . غير أن العنصر التركي الحاكم آنذاك ما كان يصدق أن رجلا عصاميا كالزبير يبني لنفسه مجدا في مجاهل أفريقية والتف حوله أتباع وأهل وعبيد مخلصون له كل الاخلاص وفتح بقواته تلك بلاد دارفور من موارده الخاصة — ما كانوا يصدقون أن رجلا كهذا يكون خلوا من المطامع وما كانوا بحكم تربيتهم وتقاليدهم التركية أن يطمئنوا إلى مثل هذا الرجل ، فقد تعني أقواله الظاهرة معنى عكسيا مما يبطنه في ضميره، ولذلك كان موقف الحكمدار معه منذ البداية موقف الحذر والاحتراس

أنقذ الزبير العنصر الحاكم من حيرته وحل مشكلته بنفسه بأن طلب أن يحظى بالمثول بين يدي الجناب العالي بنفسه وسرعان ماجاء الرد بالموافقة وسرعان ما نفذ الحكمدار سياسة إخلاء دارفور بأكملها من نفوذ الزبير ونفوذ تجارته وأعطاهم الأوامر بتنفيذ سياسة الإخلاء ولم يرض الزبير عن هذه الإجراآت وقدم قبيل قيامه عريضة للخديوي يشكو فيها من استعجال الحكمدار لتجارته بالرجوع إلى بحر الغزال وفصل مديرية دارا عنه وهو يرى أن اختلاط السكان في المديريتين (دارة وبحر الغزال) يجعل انفصالهما إداريا أمرا صعبا - فجاءه الرد بأن أوامر الحكمدار لابد من تنفيذها في الوقت الحاضر وأنه بعد حضوره المحروسة سينظر في تشكيل حكمدارية يكون هو على رأسها تشمل بحر الغزال ورعا جزءا من دارفور — وقبيل قيام الزبير من شكا أو جس الحكمدار

خيفة و بعث بجنود كافية لدارا حتى إذا بدت حركة من الزبير انقض عليه الجهادية ، ورأى أن البارود الذى طلبه الزبير لبحر الغزال مبالغ فى كميته ، وهكذا لآخر لحظة كان الحكمدار يشك فى ولاء و إخلاص الزبير .

الزبير فى طريقه الى مصر

قام الزبير من شكا قاصداً كردفان ومعه رؤساء البازنقر بعد أن قلقت القاهرة والخرطوم من التأخير وبدأ الحكمدار ينثر الأشواك فى طريقه . فبعد أن اتفق معه فى الفاشر على توريد أقمشة وعبيد بلغ ثمنها نحو السبعة آلاف جنيه يصرفها من خزينة الحكمدارية بالخرطوم أرسل تلغرافاً لمصر يسحب اتفاقه هذا لأن أهالى دارا كما يقول قدموا عرائض بأن الرقيق والدمور الذى وُرّد كان ملكهم واغتصبه منهم الزبير ، ولذا ينصح بأن يماطل الزبير فى الدفع بحجة عدم وجود النقدية ، وفعلا أخبر قائمقام الحكمدارية سراً بذلك الأمر . وصودرت أيضاً مائة قنطار من السن فى منزل الياس باشا أمبرير بالأبيض بحجة أنها من سن كردفان وليست من سن بحر الغزال ومشارعه .

فوجىء الزبير بأمر الحجز على السن فى الأبيض ، وفى الحال قدم شكوى حارة بالتلغراف كان الرد عليها التصريح له بأخذها معه وتوبيخ المدير على عمله هذا بالتعرض لموظف كبير من موظفى الحكومة الخديوية . لكنه فوجىء مرة ثانية عند ما وصل الخرطوم وطلب صرف مبلغ ماورّده للميرى بالفاشر وماطله القائمقام كما أمر ، و بعد التلغرافات العديدة صرف له نصف المبلغ ، وفى بربر أيضاً طلب مبلغاً آخر وبعد التلغرافات صرف له بعض الشىء أيضاً وقام من بربر مخترقاً صحراء العتمور إلى كرسكو ومنها إلى مصر .

ودليل ثابت على تخوف الحكومة من الزبير هو أن الحكمدار أمر أن يبقى بدارفور حتى يغادر الزبير الخرطوم و ينتظر بالخرطوم حتى يتيقن من وصول الزبير إلى كرسكو وتحت ستار التفتيش على الشمال يسافر إلى مصر حسب ماطلب منذ مدة . وظلّ الزبير بالقاهرة ولم يقدر له أن يرجع إلى مركز مديريته ببحر الغزال كما كان ينتظر ، فلنتركه هناك ولنرجع إلى ما حدث فى مديرية خط الاستواء من توسع ومجهود لمنع تجارة الرقيق .

فتوحات إسماعيل فى السودان (خط الاستواء)

الضجة حول خط الاستواء

تمت عمليــة الفتح والضم فى بحر الغزال بطريقة لم تكلف الحـكومة مالاً أو خسارة فى الأرواح اللهم إلا الجنود البلالى وما صرف عليهم وهذا قليل بالنسبة لأراض شاسعة كهذه وبرهن الزبير على ولائه وإخلاصـه للحكومة بأنه قبل أن يكون حاكمها من قبل الحـكومة بل قفز منها نحو دارفور وضمها للأملاك الخديوية ، الأمر الذى نوت الحـكومة منذ فتح السودان إتمامه . أما خط الاستواء فقصتها تختلف عن بحر الغزال ، وللشخصيات التى وكل إليها مراقبة التجارة وفتح الأراضى فى خط الاستواء والاعلان الذى نالته المديرية اختل توازن أهمية تاريخ المديريتين ، وكتبت المجلدات والـكتب الضخمة عن خط الاستواء ، ومضت بحر الغزال منزوية فى التاريخ لأنها لم تقم حولها ضجة .

تعيين صموئيل بيكر

فخط الاستواء ارتبط مصيرها بشخصين إنجليزيين ، الأول مكتشف ممتاز والثانى ضابط شاب قدر له أن يلعب دوراً هاماً فى تاريخ هذه البلاد وقدر له أن يلقى حتفه فى تربها وتخلد اسمه الآن أكبر مؤسسة علمية فى البلاد وهى كلية غوردون . وقد حضر صموئيل بيكر فى أوائل سنة ١٨٦٩ إلى مصر بمعية ولى عهد المملـكة الإنجليزية وكان اسمه اشتهر بمكتشف بحيرة البرت . فبعد محادثات بينه وبين نوبار باشا وقع اختيار الخديوى عليه للقيام بحملة الى خط الاستواء وضمها لأملاكه ورضى بيـكر بما طلب إليه وهو عقد لمدة أربع سنوات براتب سنوى يبلغ العشرة آلاف جنيه .

أوامر إسماعيل

وهنا يصدر إسماعيل أمرا لبيكر يحدد فيه مأموريته ويصدر أوامر أخرى إلى ناظر الداخلية وحكمدار السودان ، فقد ورد فى أمر بيكر « نظرا للحالة الهمجية السائدة بين القبائل القاطنة فى حوض نهر النيل ونظراً لأن النواحى المذكورة ليس بها حكومة ولا قوانين ولا أمن ولأن شرائع الإنسانية تفرض منع النخاسة والقضاء على القائمين بها المنتشرين بكثرة فى تلك النواحى — ولأن تأسيس تجارة شرعية فى النواحى المشار إليها يعتبر خطوة واسعة فى سبيل نشر

المدنية ويفتح طريق الاتصال بالبحيرات الكبرى الواقعة فى خط الاستواء بواسطة المراكب التجارية ويساعد على إقامة حكومة ثابتة . . . » وفى أمره للحكمدار ورد « بما أننا أرسلنا سعادة الفريق خسرو باشا إلى السودان ليقوم بتنظيم الجنود الذين سيكونون بمعية صاحب العزة صموئيل بيكر بك المعيّن مأمورا لتوسيع الأقطار السودانية فى جهات النيل الأبيض . . . » وتضمن أمر ناظر الداخلية مايأتى « نظراً لوجوب إلحاق أعالى النيل الأبيض الذى يعد القسم الأكبر من النيل المبارك بالأقطار السودانية ولوجود مناسبة بينهما فإن الحكومة المصرية من القديم اتخذت لنفسها طريق التقدم إلى الجهات العليا وعلى ذلك تقرر تعيين صموئيل بيكر بك الموظف بالحكومة الذى سبق له اكتشاف منبع النيل ولديه المعلومات الكافية عن تلك الجهات مأموراً لإلحاق أعالى النيل الأبيض بالممالك المصرية » .

تضمنت كل الأوامر إذاً توسيع الممتلكات المصرية فى أعالى النيل الأبيض إلى منابعه ولم يرد ذكر القضاء على النخاسة إلا فى أمر بيكر نفسه وهذا يدل على أن الغرض الرئيسى من الحملة هو ضم حوض النيل بأكمله للسودان وتوحيد الأراضى التى ينساب فيها هذا النهر المبارك تحت إدارة واحدة . واختيار بيكر بالذات لأداء هذه المأمورية فيه دلالة أخرى على أن دافع الوحدة أقوى لأن بيكر سبق له التجوال فى تلك البقاع ولأنه اكتشف أحد منابع النيل فهو قد ألف الجوّ وخبر السكان والأراضى .

بدأت الحكومة فى مصر والحكمدارية فى السودان تعملان استعدادا الاستعدادات للحملة ؛ فقد أحصيت البواخر النيلية الموجودة فى مصر والسودان ، وجهز عدد عظيم منها للحملة واشترى بعضها من الشركة العزيزية ، وقامت نظارة الجهادية بإعداد الجند والضباط ومتاعهم ومؤنهم وذخائرهم ، وأمر الحكمدار بتجهيز مراكب شراعية تقوية لأسطول بيكر النهرى . وذهب بيكر بنفسه لانجلترا وطلب من بناة السفن تجهيز سفن خاصة تصلح للملاحة فى تلك البقاع واشترى من المهمات

المختلفة من المصانع الإنجليزية ما هو فى حاجة إليه ولم يهمل حتى الأمتعة الصغيرة. وتجواله فى أواسط أفريقيا أكسبه خبرة بما يحتاج إليه المسافر فيها ، وفتحت الحكومة المصرية خزينتها له بسخاء لاستيراد ما يراه ضروريا لتجهيز تلك الحملة.

السير جنوبا

وصل بيكر للخرطوم ومعه من استخدمه من أعوان أوروبيين ، ولكنه لم يجد الاستعدادات قد تمت كما يرجو ، وكانت هذه أول عقبة سجّلها فى يومياته. وبعد أشهر تمكن من أن تقلع بواخره ومراكبه الشراعية صاعدة فى النيل الأبيض ، وأرادت عقليته الاستكشافية السير من طريق بحر الزراف لأنه مختصر وجديد فى آن واحد ، ولكنه ما سار فيه أياما حتى اعترضته السدود واضطر أن يقفل راجعا وما تمكن من السير فى الفرع الأصلى للنيل الأبيض لأن هبوط منسوب المياه اضطره لتأجيل اختراق منطقة السدود للسنة القادمة . وصمم بيكر أن يقيم وجنوده الأشهر القادمة فى حدود مديرية النيل الأبيض ولم يرض الرجوع إلى الخرطوم ، ففتكت الأوبئة والأمراض ببعض جنوده وقلت من حيوية البعض الآخر . وأثناء إقامة قواته فى المحطة الجديدة التى سماها التوفيقية رجع بيكر إلى الخرطوم ليشرف بنفسه على تجهيز بقية الحملة وحين فاض النيل واصل سيره جنوبا حتى وصل غندوكرو مقر رئاسته فى ١٥ ابريل سنة ١٨٧١ وفى ٢٦ مايو سنة ١٨٧٣ غادرها معتزلا الخدمة لأن عقده قد انتهى . وقد مكث فى خط الاستواء ما يزيد على السنتين يقوم بمهمة الفتح وضم الأراضى

مقاومة أبو السعود والأهالى

إلا أنه منذ البداية لقى من التجار مقاومة أفسدت عليه ما كان ينتظره من توسع ، ووجد بنوع خاص من أبى السعود وكيل شركة العقاد خصما عنيدا يتقد ذكاء ، وله إلمام تام بالبلاد وساكنيها ، ولا شك أنه كممثل لطبقة التجار وأرباب المشارع لا يريد أن يرى سلطة فوق سلطتهم ويرغب فى استمرار احتكارهم للتجارة وسيطرتهم على الأهالى دون منازع ، وقد نجح فى إثارة القبائل ضد الحملة وألقى فى روعهم أن الحملة إذا ما قاطعها الأهالى بعدم تقديم الطعام لها ستضطر

إلى الرجوع . وعلى هذا امتنع الأهالى عن بيع أى شىء من الذرة أو البقر للحملة وظهروا بمظهر عدائى حتى إن الجند ما كانوا يبتعدون عن محطتهم ، واضطر بيكر إزاء هذا العداء وإزاء امتناعهم عن بيع الأطعمة إلى أن يغتصب منهم البقر والذرة لتموين جنده . وبعد أن رفع العلم المصرى فى غندكرو وأعلن رسميا ضمها إلى الأملاك الخديوية تقدم ببعض من جنوده جنوبا لتأسيس نقاط حربية ولاكتشاف منابع النيل وضمها لمصر .

تأسيس المحطات ومعاكسة كباريجا

أسس نقطة فى فاتيكو ووصل إلى الفرع الذى يحمل مياه بحيرة فكتوريا للنيل الكبير فى فويرا وواصل سيره فى بلاد انيورو التى يعرفها حق المعرفة حتى وصل عاصمتها مازندى على ضفاف بحيرة البرت ووجد حفاوة وحسن لقيا أول الأمر من كباريجا ملك انيورو ، وتحت تأثير هذا رفع العلم المصرى وأعلن ضمها إلى مصر بالحفلات المعتادة بحضور كباريجا وعدد كبير من الأهالى . ولكن سرعان ما تبدلت الحفاوة إلى عداوة ، وسرعان ما بدأ الأهالى يهاجمون حصن بيكر ثم قطعوا الزاد والمؤن عنه ، وكل ذلك وإن كباريجا يراوغ ويدعى أنه ليست له يد فى الأمر

التراجع من انيورو

وعند ما تكررت الاعتداءات ورأى بيكر أنه يبعد كثيرا عن قاعدته وأن ما معه من الجنود شرذمة قليلة لا تستطيع الاحتفاظ بتلك المحطة . صمم على التراجع من أنيورو . ولانقطاع أمله من وجود الحمالين جمع الأحمال الثقيلة ووضعها كومة أشعلت فيها النيران ، وكان منظرا مؤلما على نفس بيكر ولكنه إجراء لا بد منه . وبدأ ذلك التراجع الذى قاسوا فيه أشد ما يقاسيه إنسان من وعورة فى الطريق واعتداءات من الأهالى لا تنقطع ليلا ولا نهارا قتل أثناءها بعض الجنود وجرح البعض الآخر إلى أن وصلوا نقطة فاتيكو ثم واصلوا سيرهم إلى غندكرو

بيكر يعتزل الخدمة

وبعد قليل انتهى عقد بيكر وغادر مركز مديريته إلى الخرطوم ، وقبل أن يصلها بعث أمامه بتلغراف يبرق إلى القاهرة حيث يلقى بموجبه القبض على أبى

السعود وتقديمه للمحاكمة لأنه كما يرى بيكر السبب فى كل هذه العراقيل والاعتداءات المتكررة من الأهالى ، بل يتهمه بيكر بأن جماعته أغاروا مرة على المحطة الحكومية وأطلقوا عليها النيران . وبعد إقامة أيام قليلة بالخرطوم سافر لمصر فأنعم عليه الخديوى بالنياشين وشكره على خدماته . وقد بلغت جملة مصروفات الحملة نحو الثمانمائة ألف من الجنيهات بما فى ذلك ما ترك من وابورات. ولم تتم عملية الفتح والضم كما كان مقدرا لها ، وكل الأرباح التى جنتها الحكومة هى تأسيس ثلاث محطات فى غندكرو وفاتيكو وفويرا احتفظ بها محمد رءوف بك الذى تركه بيكر هناك حتى تعيين غوردون كما سيجىء فيما بعد

نتائج حملة بيكر

انتهى عقد بيكر بعد أن لاقى ما لاقى فى تنفيذ مأموريتى الفتح وإلغاء الرق، وقد ترك نتيجة لمجهوداته ثلاث محطات عسكرية كما قدمنا يرفرف عليها العلم المصرى ، ولكن نفوذ الحكومة لم يكن يتعدى أميالا بسيطة من تلك المحطات ، ولم تستطع فل شوكة تجار الرقيق لأن كبيرهم أبا السعود بلغ به الاستهتار بسلطة الحكومة أن أطلقت جماعته النيران على الجنود الخديوية وقد ألقى فى روع الأهالى أن وجود تلك المحطات مؤقت ولا بد أن يغادروا البلاد عندما تتراكم عليهم العقبات والمتاعب . وبالرغم من أن بيكر أتهم العقاد بالخيانة العظمى وعرقلة مساعى الحكومة فى تلك الأصقاع ، وبالرغم من أن الحكومة قدمته للمحاكمة إلا أنه أفلت منها باستخدام غوردون له كما سيجىء .

تعيين غوردون

كان اسماعيل شديد الرغبة فى مواصلة الأعمال التى بدأها بيكر من ناحيتى التوسع وإبطال الرق وتمكن وزيره نوبار أن يقابل بوجه الصدفة ضابطا إنجليزيا فى السفارة الانجليزية بالاستانة ، وإذ كانت أفكار الحكومة المصرية متجهة نحو إيجاد خلف لبيكر عرض الوزير المصرى الفكرة على الضابط الإنجليزى ليدله على انجليزى يقبل الخدمة فى خط الاستواء خلفا لبيكر فو[...] الضابط أن يقابله بعد أيام . وما كان هذا الضابط غير غوردون الذى خدم [...] حروب القرم وفى الصين والآن أتى فى مهمة مندوب إنجليزى فى [...]

دولية تشرف على الملاحة فى نهر الدانوب . وبعد أيام كتب غوردون لنوبار بأنه يقبل الخدمة بدلاً من بيكر إذا وافقت حكومته . فسعت الحكومة المصرية لدى حكومة هوايت هول وتم الأمر ودخل غوردون فى عقد مع حكومة الجناب العالى ،وادهش الجميع عندما رفض مرتب العشرة الأف جنيه كماهية سنوية كما كان بيكر يتناولها من قبله ورضى بألفين فقط . ولعل هذا الاستهلال الذى بدأ به غوردون كان له أكبر الأثر فى نفس إسماعيل إذ كان يقدر موظفه الجديد أكبر تقدير ، وكان غوردون يسره أن يخدم إسماعيل حتى إذا ما زايل اسماعيل الأريكة الخديوية . لم يطب لغوردون المقام وترك الخدمة فى الحكومة المصرية . دخل غوردون فى الخدمة بسلطات أوسع إذ اطلقت يده فى مديرية خط الاستواء بفصلها عن الحكمدارية فصلا نهائيا وعلاقته معها علاقة تعاون ومساعدة إذ تمده الحكمدارية بما يحتاج إليه وتجرى خصم ما يسلم له على المالية .

مذكرة خديوية عن سياسة الجنوب

ومن الدروس التى تركتها حملة بيكر ومن تقاريره وتوصياته حررت الحكومة المصرية مذكرة وافية شاملة نرى أن نثبتها بنصها لأنها تشمل ما يجب على الحاكم الجديد القيام به من أعمال :

« إن المديريه التى شرع الاميرالاى غوردون فى مباشرة تنظيمها وحكمها لا يُعرف عن أمرها سوى الشىء القليل . ولغاية هذه السنوات الأخيرة كانت واقعة بين مخالب قوم من الأفاقين همهم فقط الحصول على الأرباح غير المشروعة فكانوا يتجرون بالعاج والرقيق معا وذلك بان ينشئوا متاجر يديرونها بواسطة رجال مسلحين وكان يضطر رجال القبائل المجاورة — سواء أكان ذلك بطيبة خاطر أم بإكراه — أن يشتركوا معهم فى تلك التجارة ، وكانت الحكومة المصرية قد استولت على مكاتب أولئك التجار بعد أن دفعت تعويضات لأربابها مؤملة أن تتوصل من وراء ذلك إلى وضع حد لهذه التجارة الممقوتة المنافية لشروط الإنسانية .

وكان قد أبيح للبعض من هؤلاء أن يستمر فى تعاطى متاجره فى المراكز

بعد أن قطع هذا البعض على نفسه عهوداً بأن لا يتجر فى الرقيق ووضع بعد ذلك تحت مراقبة حكمدار السودان غير أن سلطة الحكمدار لم تكن قد تمكنت إلا قليلا من جعل الناس تشعر بها فى تلك الأقطار النائية القصية . لذلك قرر الخديوى أن يؤلف من هذه الأرجاء حكومة منفصلة وأن يجعل التجارة مع الخارج كاحتكار من حق الحكومة وما كانت توجد وسيلة أخرى لوضع حد لتجارة الرقيق التى ما زالت ترتكز إلى الآن على قوة السلاح دون سواها متحدية الشرائع والقوانين .

فمتى انقطعت اللصوصية وأضحت فى سير الغابرين وانفتحت ثغرة فى عوايد هؤلاء الأقوام تلك العوايد المجحفة التى تأصلت فى نفوسهم مع كر السنين ، فعندئذ يؤذن بحرية التجارة للجميع . وكان على الأميرالاى غوردون إذا رأى الفرق التى كانت مأجورة لأولئك الأفاقين مستعدة لخدمة الحكومة أن يجنى كل فائدة يمكن جنيها منهم . وإذا رآهم يتوخون سلوك سيرتهم الأولى كان عليه أن يشعرهم بكل ما فى الأحكام العسكرية من بطش وشدة .

وقد وقع آخرون فى خطأ وخيم العاقبة كان يجب أن يتجنب . ذلك أن من الواجب إطعام الجيش إطعاماً جيداً فلا يكون هناك حاجة للاستيلاء ، كما كان حاصلا فى الزمن الماضى على مستودعات حبوب القبائل ؛ إذ أن مثل هذا العمل يدعو تلك القبائل إلى سوء الظن بالحكومة فضلا عن أنه مناف لإرادة الخديوى الذى يود كسب ثقة الأهالى وحسن ظنهم . فيجب أن تزرع الجنود الأرض وأن تزداد المحصولات .

وإذا وجد بين الأهالى الذين يمتنون من أيدى النخاسين أناس لا يمكن الاهتداء إلى عشيرتهم نظراً للأماكن القصية التى نقلوا منها وتعذر ردهم إلى أوطانهم فهؤلاء يستحسن تشغيلهم فى استغلال الأرض بجوار البلاد التى بها حطات . ويجب على الحكمدار الجديد أن يجعل نصب عينيه إقامة خط للنقط العسكرية خلال المديريات التابعة له يربطها مع بعضها من طرف إلى آخر بحيث

تستطيع جميعها أن تراسل الخرطوم مباشرة ، ويجب أن يتتبع هذا الخط ضفة النيل ويتمشى معها إلى أقصى حد ممكن وبما أنه فى غير الإمكان الملاحة فى النيل فى مسافة طولها ٧٠ ميلا بسبب الشلالات فعلى الحكمدار أن يتلمس وسيلة يستطاع معها التغلب على هذه العقبة ويرفع تقريراً بذلك للخديوى .

وعلى الحكمدار قبل كل شىء فيما يختص بعلاقاته مع القبائل الضاربة على سواحل البحيرات أن يحاول اكتساب مودّتهم وأن يجعل نفسه موضعا لثقتهم وأن يحافظ على ممتلكاتهم وأن يستجلب رضاهم بواسطة الهدايا . وعليه أيضا مهما كان نفوذه عندهم أن يجتهد فى حملهم على الاقتناع بالكف عن الحروب التى يضرمون نارها بغية الحصول على العبيد ....

وإذا رأى الحكمدار ضرورة لفرض رقابة حقيقية على قبيلة ما من تلك القبائل فيكون الأفضل أن يترك للرؤساء الحكم المباشر وعليه أن يتحقق من خضوعهم وطاعتهم مع جعلهم يخشون سيطرته »

استقبال غوردون فى الخرطوم

تزود غوردون بهذه التعليمات التى ترسم الخطوط الرئيسية لسياسته وطلب تعيين الأوروبيين معه فأجيب إلى طلبه ، وطلب تعيين ابى السعود وكيلا ومساعدا له . وكانت هذه مفاجأة للحكومة فى القاهرة والخرطوم لأن سلفه بيكر رأى محاكمته لعرقلته مساعى الحكومة ، فطلب غوردون لرجل رهن المحاكمة أمر غريب وشاذ ولكن الحكومة رغما عن ذلك أجابته لما يطلب وما كانت تريد أن ترد له أمرا . وغادر القاهرة يحمل برنامجا مفصّلا لتأدية مأموريته وتنفيذ الأوامر الخديوية وترك صديقه ومعاونه جسّى فى القاهرة لتشهيل مهماته . وعندما أهلَّ غوردون على الخرطوم استقبله الحكمدار إسماعيل أيوب باشا استقبالا رائعا لم يألفه قبل ذلك ووصف روعته فى خطاب بعث به لأخته فى انجلترا وفوق سروره من الاستقبال سر بفتح طريق السدود حيث رجع الحكمدار ومعه أورطة سودانية كاملة قامت بقطع الأعشاب التى تعترض مجرى النيل واقتلعت المياه جزراً عديدة من تلك النباتات المتشابكة بما كان عليها من تماسيح وأفراس

البحر وهى تعوى وتصيح . وكان على غوردون أن يبرق للجناب العالى بوصوله سالما إلى الخرطوم وبما لقيه من حسن الاستقبال وكرم الضيافة من الحكمدار ومحافظ سواكن ومدير بربر وفوق كل هذا أظهر سروره الزائد بالمهمة التى قام بها الحكمدار حيث فتح طريق النهر فى منطقة السدود .

مسيره من الخرطوم

قام من فوره فى وابور خاص ليلقى أول نظرة على مأموريته الجديدة بعد أن أصدر أول أمر له فى الخرطوم تبعا للتعليمات التى تلقاها باحتكار تجارة السن لجانب الحكومة وبمعيته شيالولونج الضابط الأمريكانى الذى كان فى خدمة الجيش المصرى والآن عين لمرافقة غوردون . وبعد تسعة أيام وصل فشودة وهناك تحول فى وابور بوردين (الذى لا يزال موجودا كأثر من الآثار فى ترسانة الخرطوم بحرى) وظل صاعدا فى النيل الأبيض دون توقف إلى أن وصل غندكرو مقر حكمه فى ٢٢ مارس سنة ١٨٧٤ . وهناك قوبل بكل ترحاب من جنود الحامية وعلى رأسها رءوف بك الذى ظل مشرفا على إدارة المديرية بعد مغادرة بيكر لغندوكرو ووجد بعثة من امتيسه ملك أوغنده يهديا للجناب العالى ورأى غوردون أن الفرصة سانحة لتوثيق العلاقات بين الحكومة المصرية والعاهل الأفريقى العظيم وفى الحال أمر بتأليف سفارة ترد هذه الزيارة وتحمل بعض الهدايا لامتيسه برئاسة لونج .

غوردون يرجع للخرطوم

أما غوردون فبعد أن أقام فى غندكرو خمسة أيام قفل راجعا للخرطوم على ظهر باخرته بوردين وكان منظرها وهى تدنو من مراسيها فى الخرطوم وعلى ظهرها مأمور الأقاليم الاستوائية موضع دهشة واستغراب ولكنه أزال ما كان يخامرهم من شك بأن أعلن أنه رجع للإشراف على تشهيل أمتعته ومؤونته وذخائره . وعندما سمع أنها وصلت بربر خف بنفسه وأشرف على وسقها فى المراكب وقابل معاونيه الذين خلفهم وراءه فى القاهرة وأقلعت المراكب وهى تحمل كثيرا من عتاده الحربى ومؤونته ووصل معها الخرطوم .

اقتراحات غوردون

وفى تلك الزيارة الخاطفة للمديرية كون فكرة عنها وأتى بمقترحات عرضها

على الحكمدار وأهمها أن يضم إلى مديريته نهر سوباط ونهر الجور أى أن يُضم جزء من مديرية فشودة وكذلك قسم كبير من بحر الغزال فلم يقبل له الحكمدار وأبرق للخديوى بالأمر موصيا إلا ترضخ الحكومة لهذا الطلب . فورد الأمر لغوردون بأن ما وضع تحت إمرته أقاليم شاسعة هى وحدها فى حاجة إلى مجهود جبار لإدارتها وإحلال الأمن فى ربوعها ولا يوافق على هذا الطلب . فرضى غوردون بهذا الرد وكان يود السيطرة على كل أو كار تجارة الرقيق حتى يتمكن من إبادتها حسب ما يعتقد . وما غادر الخرطوم جنوبا ببواخره ومراكبه الموسوقة إلا بعد أن شكى من تعطيل الحكمدار لأشغاله وبعد أن أبرق بهذه الشكوى للخديوى وهكذا فى أيام تبدل ما أعلنه من شكر لخدمات الحكمدار وما لقيه من حسن استقبال وكرم ضيافة إلى شكوى وتذمر .

محطة على نهر سوباط

وما أن وصل إلى مصب نهر سوباط فى النيل الأبيض إلا وأمر بإقامة محطة هناك تكون الحلقة الشمالية من سلسلة محطاته على النيل ورأى ملاءمة تلك النقطة لأن ما ينحدر فى نهرى سوباط وبحر الغزال من مراكب يمر بها قبل أن يدخل فى النيل الأبيض وتتمكن النقطة من ضبط محمولها من الرقيق . وأقام فيها وبعث بأمتعته ومعاونيه جنوبا إلى غندوكرو وظل هو فى تلك المحطة ليقطف أول ثمرة لتأسيسها . فانتظر كثيراً حتى رجعت بواخره من غندوكرو ليصعد فى النيل إلى مركز رئاسته وقبل أن يغادر محطته ضبط مركبين تحملان عاجا فوق السطح وتخبئان رقيقا فى الداخل فحررهم وأسكنهم فى مستعمرة بالقرب من المحطة لفلاحة الأرض . وهو فى طريقه أسس محطة فى شامبى .

الملاريا تفتك برجاله

بدأ مناخ غندوكرو الوخيم يؤثر فى صحة من بمعية غوردون من الأوروبيين ولم يكتف المرض بالأيام الطويلة التى قضاها معظمهم يتقلب على الفراش من أثر الملاريا ولكن قضى البعض نحبهم وخسر غوردون حسب ماروى بموتهم خسارة لاتعوض فى تلك الأصقاع النائية . أما هو فقد بقى سليما معافى يسهر على راحة المرضى من أعوانه . وفى الشهور الأولى أظهر أبو السعود إخلاصا وولاء

وساعد فى نقل قطع الوابورات إلى ما فوق الشلالات حتى تجمع وتربط هنالك ولكن ما أصاب الأوروبيين من مرض أو موت وما لقيه من حسن تقدير من غوردون جعله يتنمر ويرفع رأسه ويرجع لطرقه القديمة ولكن عين غوردون ساهرة واقفة له بالمرصاد فأقيل من منصبه ووضع تحت الحراسة ريثما يرسل للخرطوم معزولا .

نقل العاصمة إلى اللادو

رأى غوردون أن ينقل عاصمته من محيط غوندكرو الوخيم المحاط بالبرك والمستنقعات وبؤر الناموس والحشرات إلى منطقة عاليه خالية نوعا ما منها فاختار الرجاف أول مرة ولكنه عدل عنها ونقل إلى جبل اللادو . وهناك بدأ بتنفيذ أهم الأغراض التى تعاقد من أجلها مع الحكومة والتى تحويها التعليمات الخديوية وهى فتح الطريق إلى البحيرات وتأسيس محطات عسكرية قريبة من بعضها لتكون خطاً متصلا من المواصلات وكان فى ذلك الوقت صديقه ومعاونه جسّى يقيم فى الخرطوم وكيلا عنه واسماعيل أيوب باشا شغل بحملة دارفور وغادر مقر الحكمدارية إلى الجهات الغربية .

تأسيس المحطات العسكرية

وقد نجح فى تأسيس محطات عسكرية عديدة تصل إلى قرب البحيرات ونجح فى أمر له أهميته وخطورته وهو جذب قلوب الأهلين حتى أنهم بدأوا يتعاملون ويتعاونون مع الحكومة بدلا من مواقفهم العدائية زمن بيكر ونجح غوردون لدرجة ما بأن علّم الأهالى استعمال النقود وبوجه الإجمال كانت خطته حسب التعليمات التى تلقاها خطة مسالمة وتأمين لاخطة فتح وقهر . إلا أن العوارض الطبيعية وقفت أمام طريقه ولم تتركه يحقق كل الأهداف التى من أجلها عين فهذه الأمراض قد اعترت أعوانه وهذه الشلالات جعلت بواخره لا تتعداها إلا بنقل الأجزاء وربطها مرة أخرى فوقها ثم عداوة قبائل انيورو وملكها كباريجا وأخيرا تمرد امتيسة وقبائل أوغنده جعلت ضم البحيرات بصفة نهائية أمرا صعب المنال بالرغم من تأسيس الحاميات لوقت ما فى منطقتها . وإذا هو لم يحالفه النجاح فى ضم أونيورو وأوغندا نهائيا إلا أنه تمكن من استكشافات

فى البحيرات وفى النهر الذى يصل البحيرتين ورسم خريطة لها اضبط مما قبلها من الخرائط .

اقتراح طريق الساحل

ولعل أهم مسألة كانت تتوج نجاحه لو تمت هى علاقته بأوغنده واقتراحه لإيجاد طريق يمتد من البحيرات شرقا إلى الساحل . فبعد أن أقام غوردون بضعة أشهر فى مديريته ورأى بعد الشقة بينه وبين الخرطوم ثم الصعوبات الطبيعية بينه وبين البحيرات من شلالات وأعشاب ومستنقعات وقبائل متوحشة قد تقطع الطريق فى أى لحظة . ثم أن مؤنه وذخائره وعتاده الحربى لاتصل إلى الخرطوم إلا بعد أن تجرب طرق النقل المختلفة من سكك حديدية وبواخر نيليه فى مصر إلى قوافل صحراوية بالجمال إلى بربر وبالنيل ثانيا إلى الخرطوم . كل ذلك جعله يتجه بأفكاره نحو فتح طريق الساحل الشرقى لافريقيا

وعندما اختمرت الفكرة فى رأسه ابرق للخديوى بها وتتلخص فى أن يرسل الخديوى حملة من مصر إلى خليج ممباسة وتأخذ الحملة طريقها من الساحل غربا ويأخذ هو طريقه من البحيرات شرقا حتى يلتقيا ويتم فتح طريق هو المنفذ الطبيعى كما يرى للعالم المتمدن لا طريق النيل . وقد رحّب الخديوى بالفكرة وفى الحال بعث بقوة على رأسها ماكلوب باشا يرافقه شالى لونج ورست فى خليج ممباسا .

علاقات امتيسة الأولى

ومما جعل انتهاج تلك الخطة أمرا فى حيّز الإمكان ما أبداه امتيسه ملك أوغنده من رغبة فى الاتصال بمصر فهو قد أرسل سفراءه كما قدمنا ليقابلوا بيكر ولكنهم وجدوا غوردون وقدموا هداياهم كما مر بل طلب امتيسه من الجناب العالى أن يبعث له بعالمين يهتدى عن طريقهما إلى الدين الاسلامى ولم يكن أحسن وقعا على اسماعيل من هذا الطلب وسرعان ما بعث إلى الحكمدارية بتنفيذه ونفذ على وجه السرعة . وها هو لونج يغادر غندكرو أول ما وصل غوردون إليها فى سفارة لامتيسة ردا لزيارة سفرائه ويحسن الملك وفادة السفير ويتخلّص السفير أخيرا لأن الملك يرغب فى بقائه معه مدة أطول ورجع بعد أن

توثقت العلاقات ويقدّر لامتيسة أن يدخل الدين الاسلامى ولكن الظروف السياسية والدينية تغير الأمور إلى مجرى آخر .

وقد تركنا حملة ما كلوب تلقى أحمالها فى خليج ممباسا وهنا شعرت انجلترا برغبة الخديوى فى التوسع وفى الحال أوعزت لسلطان زنجبار أن يحتج لهذا الاعتداء وهى من جانبها قد ضغطت على اسماعيل بأن يسحب جنوده وقد فعل . وقد تركنا امتيسة يتلقى تعاليم الاسلام فأراد غوردون أن يجعل حبل الود متصلا بينه وبين امتيسة فارسل سفارة ثانية على رأسها أرنست دى بلفون ابن لينان باشا ومعه ثلاثون جنديا وقوبل أيضا بحفاوة وترحاب مثل ما قوبل بهما لونج قبله .

استانلى فى بلاط أمتيسة

ولكن هذه المرة حل ستانلى ببلاط امتيسة ولم يكن الأخير يطمئن لدين واحد ودفعته غريزة حب الاستطلاع أن يسأل ويستفهم عن الدين الثانى الذى يمثله ستانلى وتمكن هذا بلباقته وقوة تأثيره أن يجعل الملك المتقلب الأهواء يقبل دين النصرانية ووسع معلوماته عن المسيحية من المسيحى الجديد وهو ارنست واستمر هذا حقبة مع الملك تارة يعلمه الجغرافيا والفلك وطورا يرد على أسئلته المتعددة المتكررة عن الممالك الأوربية وقوتها وطورا آخر يسأله عن معلومات دينية مسيحية وأخيرا طلب الملك من السفير أن يحالفه فى حرب ضد خصمه كباريجا ملك أونيورو ولكن السفير رفض لأنه لا يقبل على خطة كهذه إلا بأمر من رئيسه غوردون .

رجوع ارنست

وأخيرا غادر ارنست بلاط الملك دون أن يعينه على خصمه وكذلك لم يرض عنه ورجع بجنوده إلى محطات مديرية خط الاستواء بعد أن صادف فى طريقه الكثير من العقبات الطبيعية والانسانية وقدر لهذا الفرنسى الشاب أن يفجع فيه والده كما فجع فى أخيه الذى مات فى أيام غوردون الأولى فى غندكرو إذ قتل فى حرب ضد قبائل معادية وهو قريب من مكان غوردون . وعندما جهز ارنست للدفن . وجد غوردون فى جيبه خطابا من ستانلى إلى انجلترا يهيب

فيه بالرأى العام الانجليزى أن يرسل بعثات تبشيرية لأواسط أفريقيا ويرى أنها فرصة ذهبية لفتح تلك المجاهل المسيحية . فبعث غوردون بالخطاب للخرطوم ليرسل منها إلى مصر فانجلترا وقد استجاب الرأى العام الانجليزى استجابة سريعة وتدفقت بعثات ارساليات الكنيسة الانجليزية على أواسط أفريقيا .

احتلال أوغنده والانسحاب منها

حُدّت مطامع الخديوى فى شرق أفريقيا تحت ضغط انجلترا وقدر لمصر أن أن تنكب مرة أخرى فى مركزها فى البحيرات الاستوائية فقد تقدم أن امتيسا ظل صديقا للحكومة المصرية وطلب من غوردون أن يجعل فى مقره دوباكا نقطة عسكرية كان مقررا لها أن تبقى فى أوردجانى شمال دوباكا وأجابة لطلبه أسست الحامية المصرية وعددها ١٦٠ جنديا فى عاصمة امتيسا ورفرف العلم المصرى فوق ساريته وقائد الحامية النور أفندى محمد . وبعث غوردون بهـذا الخبر للجناب العالى كدلالة على أن امتيسه قبل الحماية المصرية . غير أن أهواء امتيسه المتقلبة جعلته يقلب ظهر المجن للحامية المصرية وقطع عنها الامدادات وتركها فى هيئة حصار حتى أن النور أفندى قوّى حصنه وخف بنفسه لمقابلة غوردون ووجده آنذاك فى فويرا يعمل فى مساحة نهر فكتوريا فعرض عليه الأمر وقد فكر غوردون أن يذهب بنفسه لامتيسه بمن معه من الجنود ولكنه رأى أن من معه من الجند قليل إذا أراد لامتيسه التراجع عن موقفه بالقوة ثم أنه لم يخطر بباله أن مهمته هى الفتح عنوة ورأى لذلك أن يكتب خطابا للدكتور أمين الذى كان فى بلاط امتيسه آنذاك موفدا من غوردون وقد وكان شاهد عيان لحصر الجنود المصرية يطلب منه التوسط لدى الملك بفك الحصار عن الحامية ليباشر بعدها النور أفندى سحب جنوده ومعداتهم . وتم سحب الحامية من عاصمة امتيسه وطوت علمها .

وكان لغوردون أن يبرق للجناب العالى بما جد من موقف امتيسه وبقراره لسحب الحامية فورد له تلغراف من الخديوى تنم لهجته على الغضب وعدم الموافقة لهذه الخطوة إذ يقول فيه « (١) قد علم من تلغرافكم أن السلطان امتيسه متظاهر

(١) دفتر ٣١ عابدين صادر تلغرافات شفرة نمرة ٣٢١ ص ٧

لكم عدم صداقته وفرغت أمنيتكم منه وارادتكم ترجيع عساكرنا من طرفه وحيث أنه بناء على التلغراف السابق وروده من طرفكم المتضمن قبوله تبعية الحكومة ورغبة أقامة عساكرنا بطرفه وما أوريتموه من المدح فى حقه صار اعلان ذلك لسائر القناصل رسميا مع اعلانه بالجرانيل فلهذا إذا كان يصير ارجاع العساكر من طرفه الآن وترك أمتيسه يكون ذلك أمر بارد فى حق الحكومة ولذلك صار استمرار اقامة عساكرنا فى كرسى بلاد امتيسه من الضرورى وبحسب المعلوم فيكم من حسن الادارة مأمول الهو لا يستصعب عليكم اجراء الطرق والوسائط لجذب قلبه وميله وتأليفه لجهة الحكومة و إذا كان سبق ارجاع العساكر الذين كانوا بطرفه فتعملوا كل الجهد فى ارجاعهم كما كانوا على كل حال فإن جل المقصود استمرار تبعية امتيسه المذكور واثباته تحت طاعة الحكومة».
فقد يكون امتيسه راغبا فى مساعدة أولئك الجند له فى قتال اعدائه كما طلب من ارنست قبل ذلك ولم يجد منهم ما يطلبه وقد يكون غيّر رأيه فى احتمائه بالحكومة المصرية بعد أن علم أن هناك حكومات أقوى وأكبر منها حسب ما استقاه من معلومات وقد تكون الدسائس السياسية غيرته مثلما غيرته الدسائس التبشيرية .

غوردون يبرر موقفه

ولم يغفل غوردون الرد على تلغراف الخديوى بل برر موقفه وشرح الأسباب بقوله « [1] اخبرت الحضرة الخديوية فيما سبق عن ترجيع العساكر بالثانى الذين كانوا بدوباكا وكان ذلك ضرورى لأن امتيسه تركهم بدون مؤونة وابتدأ يضرب السلاح ليلا كى يرعبهم وأراد أن يغريهم بكثرة الرشوة لأجل أن يقيموا بطرفه واتفق بالسرمع كباريجا ضدنا وضد العسكر » و بعد ذلك وصل غوردون إلى مصر وقابل اسماعيل وهو مصمم ألاّ رجعة للسودان غير أنه تحت تأثير الخديوى وسحر كلامه وعد بأنه سوف يرجع مرة ثانية وأبحر لانجلترا بعد أن قام برسم خرائط و إقامة عشر محطات يرفرف فوقها العلم المصرى فى مديرية خط الاستواء.

---

(١) دفتر ٤٣ عابدين وارد تلغرافات ص ٢٠٥ شفرة نمرة ١٢١ .

امبراطورية اسماعيل وحكمدارها غوردون

اتساع الامبراطورية

بعد أن تم فتح دارفور و بعد أن أسس غوردون محطاته العسكرية صاعدة فى النيل إلى قرب البحيرات — بل قد بقيت نقطة النور أفندى فى دوبا كا على شاطىء فكتوريا مدة من الزمن — و بعد أن اتسعت الفتوحات فى شرق السودان وضمت أراضى ارثريا الحالية والسومال البريطانى وهرر فى الحبشة وصلت امبراطورية اسماعيل إلى قمتها وأصبحت املاكه تبدأ من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى خط الأستواء ومن سواحل البحر الأحمر إلى شرقى بحيرة شاد .

غوردون ينوى قطع صلته بالسودان

تركنا غوردون فى الفصل السابق ينعم باجازته فى انجلترا بعد أن أعطى وعدا بالرجوع لأواسط أفريقيا ولكن فى الأسابيع الثلاثه الأولى من أقامته بعد أن وصل فى عيد الميلاد ظل يفكّر فى مستقبله ، وقد ظن أن وزارة الخارجية ربما تعرض عليه منصباً يعفيه من الرجوع إلى السودان ، واقترحت جريدة التايمز للحكومة أن تستغل مواهب غوردون وخبرته فى بلغاريا حيث توترت علاقاتها مع تركيا . وفعلا أخذت الوزارة بالرأى ودعا اللورد دربى غوردون للاجتماع به ، خرج بعدها وقد كتب إلى ڤيڤيان قنصل انجلترا العام فى مصر بأن يخبر الخديوى أنه لا يستطيع الرجوع إلى مصر . غير أن اقتراح بعثته لبلغاريا لم ينفذ لعقبات سياسية اعترضت طريقه . وهنا بعد أن فشل الاقتراح و بعد أن كتب للحكومة المصرية بقطع علاقاته معها بدأ فكره يتجه إلى تنفيذ خطته التى لم يكتب لها الخروج إلى حيز التنفيذ أثناء حكمه لخط الاستواء وهى فتح طريق من الساحل فى شرق أفريقيا إلى منطقة البحيرات بتجهيز حملة إلى زنزبار والحصول على امتياز من سلطانها وقيادة تلك الحملة مع صديقه جسى إلى الداخل وكل ذلك بمعاونة مستر وليم ماكنون الذى أصبح من ضمن المؤسسين بعد ذلك لشركة شرق أفريقيا الانجليزية .

غوردون يرجع إلى السودان

وقد أجبرت الأقدار غوردون أن يرجع للسودان لأن إسماعيل رأى خطابه إلى ڤيڤيان وسطر فى الحال خطابا له مبديا استغرابه لرفض غوردون بعد أن أعطى

كلمة شرف بالرجوع ، وكان ظنّه فى صديقه ألا يخلف ماوعد به . وقد فعلت هذه الكلمات السحرية فعلتها فى نفس غوردون وترك مشروعه جانبا وعزم على السفر إلى مصر . وفى اليوم المقرر لإبحاره قابله صديقان وتحدثا معه وتحدث معهما فى أمر الرجوع ونصحاه بأن يطلب من الخديوى إدارة السودان بأكمله لا خط الاستواء وحدها حتى يتمكن تمكناً فعلياً من إبطال تجارة الرقيق . وراقت الفكرة لغوردون ولكنه ظن أن طلبه هذا سيقابل بالرفض وكتب لأخته قبل أن يغادر الأراضى الانجليزية بأنه سيطلب من الخديوى كل السودان ويرجّح أن طلبه سيكون نصيبه الرفض وعليه سيقفل راجعا ويراها فى ظرف ستة أسابيع .

غوردون يُعطى السودان

قابل الخديوى، فى ١٣ فبراير سنة ١٨٧٧ وبحضور شريف باشا أجابه لما طلبه بل عينه حكمداراً على عموم الأقاليم السودانية بسلطات لم تعط لحكمدار قبله، ولفت نظره لأمرين هامين وهما إلغاء الرق وتحسين المواصلات . وعند ماوقع إسماعيل على فرمان التولية كتب غوردون مانصه « وقّع سموّه اليوم على الفرمان ولقد اندهشت للسلطة الهائلة التى وضعها فى يدى . و بعد هذا سيقع اللوم على عاتقى إذا لم تبطل تجارة الرقيق وتتصل أصقاع السودان مع الخارج » .

غوردون فى شرق السودان

لم يبق فى مصر إلا ريثما يتم استعداده ووضع برنامجا بمقتضاه يزور كل شبر من حكمداريته الواسعة وأبحر فى باخرة على البحر الأحمر ويمم وجهه شطر مصوع ليبدأ رحلة تفقد رعاياه وليحاول حل مسائل الحدود المعلقة مع الحبشة إن أمكن كما أمره الجناب العالى . وعندما حل بمصوع تهافتت عليه البرقيات من الفاشر تنبئه بهجوم قبائل زغاوة وميدوب على حاميات الحكومة وتعلن له ثورة هارون أحد أمراء بيت دارفور المالك ، وقد نجح فى ثورته حتى أنه عزل الحاميات من بعضها البعض وبذا انقطعت مواصلاتها وتجمل له الحالة بصفة عامة على أن ما بدافور من جند لا يكفى لردعادية حوادث العصيان والتمرد هذه وترد له التلغرافات أيضا من الجناب العالى تقترح عليه إصدار الأوامر لجماعة الزبير فى شكا وبحر الغزال وقبائل حَمَرْ والكبابيش فى كردفان بمد يد المعونة لإخماد تلك الثورات .

كان رد الفعل الذى أبداه غوردون هو أن حالة الخطر مبالغ فيها وأن حاميات دارفور بها ثمان أورط بيادة وتسعة أرادى باشبوزق ترك ومولدين ومغاربة وسبعة سوارى شايقية وعشرين مدفعا ولا يدخل فى روعه أن تلك القوة فى حاجة لمدد بل العجز فى قيادة حسن باشا حلمى ، وكان الأجدر به أن يخصص فرقتين سيارتين وأن يترك قوات بمراكز الحكومة للدفاع . وعملا بالإرادة السنية بعث لعوض أفندى مأمور إدارة بحر الغزال وسليمان الزبير والنور عنقره وإدريس ابتر ، كل منهم يرسل قوة تتراوح ما بين ألف وألف خمسمائة لجهات دارفور .

اهتمام الخديوى بخط الاستواء

وقبل أن يغادر غوردون مصوع إلى الخرطوم أبدى الخديوى اهتماماً عظيماً بخط الاستواء بالمحافظة على ماتم فتحه و بالتوسع فيما وراء ذلك واقترح على غوردون أن يعين حاكما لتلك الأصقاع يثق به حتى يسبق الشركة الانجليزية التى أسست حديثاً لارتياد شرق أفريقية وهذا هو نص الكاتبة «[1] بالأمس صار إخطار جنابكم بما اقتضى عن تعيين مأمور من ذوى الدارية الموثوق بحسن إدارتهم وإرساله لجهة خط الاستواء للقيام بإكمال حسن سيرها وانتظامها وحيث أنكم لما كنتم بهذا الطرف بعد حضوركم من لوندره أخبرتونا عن وجود قومبانيه مشكّلة على نية التوجه من جهات زنجبار إلى جهة اللاك (Lake) وأنه يقتضى المبادرة والمسارعة ما أمكن لضبط هذه الجهة قبل وصول تلك القومبانيه إليها فينبغى أن تتذكروا هذه المادة وما يجب إجراؤه فيها والمأمور الذى تعينوه يكون فيه الكفاية لها وخلافها من الأمور المهمة بتلك الجهات يكون معلوم » .

أما غوردون فلم ير شخصا يعوّل عليه فى تلك المهمة وردّ بأنه سوف ينهض بنفسه لتلك الجهات بعد أن يعود من دارفور غير أنه بعد وصوله الخرطوم بعد ذلك طلب تعيين براوت بك . وغادر مصوعا بعد أن اقترح تعيين عثمان رفقى[2] باشا فريقا على جميع العساكر بعموم الأقاليم السودانية وكان إذ ذاك بمصوع وطلب

---

(١) دفتر رقم ٣٢ عابدين صادر تلغرافات . تلغراف عربى رقم ٢٨٥ ص ٥٦ بتاريخ ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٩٤ .

(٢) هو نفس عثمان رفقى ناظر الحربية الذى ثار ضده عرابى وصحبه .

أيضا إرجاع المرتبات التى كانت تعطى للعلماء والفقهاء من إحسانات ولى النعم ولكنها قطعت مدة ممتاز وإسماعيل أيوب . وقد طلب وهو فى طريقه رتبا لمحمود ودزائد ناظر الضبانية وللشيخ عوض الكريم أبوسن ناظر الشكرية .

اقتراحاته لإبطال الرق

ظل شهرين فى الطريق من مصوع حتى وصل الخرطوم فى ٤ مايو سنة ١٨٧٧ وهناك قوبل بحفل رسمى وأطلقت إحدى وعشرون قذيفة مدفع تكريماً لحلول ركابه العاصمة . وفى الحال أمر بعمل صندوق يوضع خارج الحكمدارية لتلقى فيه عرائض التظلم والشكوى ونظر فى الأمور المستعجلة ، ثم وضع مشروعاً أوليا بإلغاء الرق وضعه فى تسع بنود أبرق بها للخديوى للموافقة ويتلخص المشروع فى اعتراف الحكومة بتملك الرقيق الحالى لمالكيه ولكنها تمنح المملوك ورقة العتق إذا ما ثبتت سوء معاملته وتسهيلا لذلك يطلب من المالكين تسجيل رقيقهم فى مديرياتهم المختلفة بموجب تذكرة يحملونها باسم المملوك وأوصافه . وحددت مدة ينتهى فيها تسجيل التملك و يستمر الملك لمدة اثنتى عشرة سنة فى السودان ليصبح المملوك بعدها حرّا . غير أن هذه المقترحات لم تنفذ فى الحال ولكنها ضمنت فى مشروع كبير انتهى بمعاهدة بين مصر وانجلترا بشأن الرقيق .

غوردون يسافر لدارفور

مكث أسبوعين فقط فى العاصمة وغادرها فى ١٩ مايو و برفقته ثلاثمائة من جند وأتباع لدارفور التى أزعجته أخبارها منذ أن حلّ بمصوع . وقد بدأ يوجس خيفة من سليمان الزبير بما نقله إليه بعض الوشاة فكتب للمهردار يخبر بتباطؤ سليمان رغما عن أن إصدار الأوامر له بنجدة حاميات دارفور . فقد اشتم غوردون من تلغراف بعث به سليمان يعتذر عن التأخير التلوّن و يطلب ردا لذلك إحضار سليمان محبوسا من تلك الجهة وترقية كل من إدريس أبتر والنور عنقرة لاستلام جنود سليمان ولكن الجناب العالى لم يوافق على هذه الخطة بقوله « [(١)] وأما من جهة طلب ابن الزبير باشا بهذه الصورة هذا يلزم ابتدا دقة التأمل والتبصر فى عواقبه واتخاذ الاحتياطات الكافيه من أنه ربما يكون له هناك

---

(١) دفتر ٣٢ عابدين صادر تلغرافات .

عزوة ويتعضد بأشخاص ويترتب على ذلك نوع عصيان وإخلال راحة تلك الجهة فينبغى أنه بعد إمعان نظر التدقيق فى ذلك يفاد عن أفكاركم فى هذا الخصوص » .

مخاوفه من سليمان الزبير

يرجع غوردون عن رأيه ويوافق على أن يحكم فى أمر كهذا بعد أن يذهب لدارفور ويرى بنفسه فيما إذا كان ابن الزبير حقيقة ينوى الغدر أو هى مجرد تهمة ألصقت به من الوشاة . وعندما وصل الأبيض ترامى إليه أن سليمان اختلف مع العوض أفندى وإدريس ابتر وتفاءل غوردون من هذا الاختلاف لأنه إضعاف لقوة ابن الزبير واقترح من جديد أن يرسل الزبير لهؤلاء الثلاثة بتلغراف يطلب إليهم مساعدة الحكومة والخديوى لا يرى ذلك . وقبل أن يغادر الأبيض حرضه الوشاة كما يظهر ، وكتب عن سليمان قبل مقابلته ما يلى «(١) ثم أعرض أن سليمان أفندى ابن الزبير باشا هو ولد صغير وليس متعقل وأشغاله جميعها هى أشغال مجانين ويستصوب أن يعين إلياس بك الحائز للرتبة الثانية مديراً على جهة شكا ويلتمس الإحسان عليه برتبة اللواء وهو صهر الزبير ونافذ الكلمة ، وتعيين ابن إلياس محمد أفندى وكيلا لأبيه بجهة شكا ومحمد أحمد امبرير ابن أخى إلياس يكون مأمور إدارة بندر الأبيض » ، ولم يتم تعيين إلياس باشا لشكا بل تم لكردفان .

آراؤه لسياسة دارفور

غادر غوردون الأبيض متجها صوب دارفور يحمل فكرتين أساسيتين أولهما أن ابن الزبير صغير السن وغير موال للحكومة والثانية أن عصيان أهالى دارفور مردّه لثقل الضرائب وسوء معاملة الأهلين فعلاجاً للحالة الأولى رأى أن يرفع من شأن خصوم الزبير وابنه وهما العوض أفندى وإدريس أبتر ، وللحالة الثانية رأى تخفيف الضرائب وتطمين الأهالى وإعطاء الرتب والنياشين للبعض وتعيين البعض الآخر من البارزين فى وظائف الحكومة وتعيين إلياس أم برير كان الخطوة الأولى نحو هذا الاتجاه . ويرى كسياسة عامة أيضاً تجنيد العساكر فى السودان

---

(١) دفتر ٤٦ وارد تلغرافات .

أيضا إرجاع المرتبات التى كانت تعطى للعلماء والفقهاء من إحسانات ولى النعم ولكنها قطعت مدة ممتاز وإسماعيل أيوب . وقد طلب وهو فى طريقه رتبا لمحمود ودزائد ناظر الضبانية وللشيخ عوض الكريم أبوسن ناظر الشكرية .

اقتراحاته لإبطال الرق

ظل شهرين فى الطريق من مصوع حتى وصل الخرطوم فى ٤ مايو سنة ١٨٧٧ وهناك قوبل بحفل رسمى وأطلقت إحدى وعشرون قذيفة مدفع تكريماً لحلول ركابه العاصمة . وفى الحال أمر بعمل صندوق يوضع خارج الحكمدارية لتلقى فيه عرائض التظلم والشكوى ونظر فى الأمور المستعجلة ، ثم وضع مشروعاً أوليا بإلغاء الرق وضعه فى تسع بنود أبرق بها للخديوى للموافقة ويتلخص المشروع فى اعتراف الحكومة بتملك الرقيق الحالى لمالكيه ولكنها تمنح المملوك ورقة العتق إذا ما ثبتت سوء معاملته وتسهيلا لذلك يطلب من المالكين تسجيل رقيقهم فى مديرياتهم المختلفة بموجب تذكرة يحملونها باسم المملوك وأوصافه . وحددت مدة ينتهى فيها تسجيل التملك و يستمر الملك لمدة اثنتى عشرة سنة فى السودان ليصبح المملوك بعدها حرّا . غير أن هذه المقترحات لم تنفذ فى الحال ولكنها ضمنت فى مشروع كبير انتهى بمعاهدة بين مصر وانجلترا بشأن الرقيق .

غوردون يسافر لدارفور

مكث أسبوعين فقط فى العاصمة وغادرها فى ١٩ مايو و برفقته ثلاثمائة من جند وأتباع لدارفور التى أزعجته أخبارها منذ أن حلّ بمصوع . وقد بدأ يوجس خيفة من سليمان الزبير بما نقله إليه بعض الوشاة فكتب للمهردار يخبر بتباطؤ سليمان رغما عن أن إصدار الأوامر له بنجدة حاميات دارفور . فقد اشتم غوردون من تلغراف بعث به سليمان يعتذر عن التأخير التلوّن و يطلب ردا لذلك إحضار سليمان محبوسا من تلك الجهة وترقية كل من إدريس أبتر والنور عنقرة لاستلام جنود سليمان ولكن الجناب العالى لم يوافق على هذه الخطة بقوله « [١] وأما من جهة طلب ابن الزبير باشا بهذه الصورة هذا يلزم ابتدا دقة التأمل والتبصر فى عواقبه واتخاذ الاحتياطات الكافيه من أنه ربما يكون له هناك

---

(١) دفتر ٣٢ عابدين صادر تلغرافات .

عزوة ويتعضد بأشخاص ويترتب على ذلك نوع عصيان وإخلال راحة تلك الجهة فينبغى أنه بعد إمعان نظر التدقيق فى ذلك يفاد عن أفكاركم فى هذا الخصوص » .

مخاوفه من سليمان الزبير

يرجع غوردون عن رأيه ويوافق على أن يحكم فى أمر كهذا بعد أن يذهب لدارفور ويرى بنفسه فيما إذا كان ابن الزبير حقيقة ينوى الغدر أو هى مجرد تهمة ألصقت به من الوشاة . وعندما وصل الأبيض ترامى إليه أن سليمان اختلف مع العوض أفندى وإدريس ابتر وتفاءل غوردون من هذا الاختلاف لأنه إضعاف لقوة ابن الزبير واقترح من جديد أن يرسل الزبير لهؤلاء الثلاثة بتلغراف يطلب إليهم مساعدة الحكومة والخديوى لايرى ذلك . وقبل أن يغادر الأبيض حرضه الوشاة كما يظهر ، وكتب عن سليمان قبل مقابلته مايلى «[1] ثم أعرض أن سليمان أفندى ابن الزبير باشا هو ولد صغير وليس متعقل وأشغاله جميعها هى أشغال مجانين ويستصوب أن يعين إلياس بك الحائز للرتبة الثانية مديراً على جهة شكا ويلتمس الإحسان عليه برتبة اللواء وهو صهر الزبير ونافذ الكلمة ، وتعيين ابن إلياس محمد أفندى وكيلا لأبيه بجهة شكا ومحمد أحمد امبرير ابن أخى إلياس يكون مأمور إدارة بندر الأبيض » ، ولم يتم تعيين إلياس باشا لشكا بل تم لكردفان .

آراؤه لسياسة دارفور

غادر غوردون الأبيض متجها صوب دارفور يحمل فكرتين أساسيتين أولهما أن ابن الزبير صغير السن وغير موال للحكومة والثانية أن عصيان أهالى دارفور مردّه لثقل الضرائب وسوء معاملة الأهلين فعلاجاً للحالة الأولى رأى أن يرفع من شأن خصوم الزبير وابنه وهما العوض أفندى وإدريس أبتر ، وللحالة الثانية رأى تخفيف الضرائب وتطمين الأهالى وإعطاء الرتب والنياشين للبعض وتعيين البعض الآخر من البارزين فى وظائف الحكومة وتعيين إلياس أم برير كان الخطوة الأولى نحو هذا الاتجاه . ويرى كسياسة عامة أيضاً تجنيد العساكر فى السودان

---

(١) دفتر ٤٦ وارد تلغرافات .

أيضا إرجاع المرتبات التى كانت تعطى للعلماء والفقهاء من إحسانات ولى النعم ولكنها قطعت مدة ممتاز وإسماعيل أيوب . وقد طلب وهو فى طريقه رتبا لمحمود ودزائد ناظر الضبانية وللشيخ عوض الكريم أبوسن ناظر الشكرية .

اقتراحاته لإبطال الرق

ظل شهرين فى الطريق من مصوع حتى وصل الخرطوم فى ٤ مايو سنة ١٨٧٧ وهناك قوبل بحفل رسمى وأطلقت إحدى وعشرون قذيفة مدفع تكريماً لحلول ركابه العاصمة . وفى الحال أمر بعمل صندوق يوضع خارج الحكمدارية لتلقى فيه عرائض التظلم والشكوى ونظر فى الأمور المستعجلة ، ثم وضع مشروعاً أوليا بإلغاء الرق وضعه فى تسع بنود أبرق بها للخديوى للموافقة ويتلخص المشروع فى اعتراف الحكومة بتملك الرقيق الحالى لمالكيه ولكنها تمنح المملوك ورقة العتق إذا ما ثبتت سوء معاملته وتسهيلا لذلك يطلب من المالكين تسجيل رقيقهم فى مديرياتهم المختلفة بموجب تذكرة يحملونها باسم المملوك وأوصافه . وحددت مدة ينتهى فيها تسجيل التملك ويستمر الملك لمدة اثنتى عشرة سنة فى السودان ليصبح المملوك بعدها حرّا . غير أن هذه المقترحات لم تنفذ فى الحال ولكنها ضمنت فى مشروع كبير انتهى بمعاهدة بين مصر وانجلترا بشأن الرقيق .

غوردون يسافر لدارفور

مكث أسبوعين فقط فى العاصمة وغادرها فى ١٩ مايو وبرفقته ثلاثمائة من جند وأتباع لدارفور التى أزعجته أخبارها منذ أن حلّ بمصوع . وقد بدأ يوجس خيفة من سليمان الزبير بما نقله إليه بعض الوشاة فكتب للمهردار يخبر بتباطؤ سليمان رغما عن أن إصدار الأوامر له بنجدة حاميات دارفور . فقد اشتم غوردون من تلغراف بعث به سليمان يعتذر عن التأخير التلوّن ويطلب ردا لذلك إحضار سليمان محبوسا من تلك الجهة وترقية كل من إدريس أبتر والنور عنقرة لاستلام جنود سليمان ولكن الجناب العالى لم يوافق على هذه الخطة بقوله «[1] وأما من جهة طلب ابن الزبير باشا بهذه الصورة هذا يلزم ابتدا دقة التأمل والتبصر فى عواقبه واتخاذ الاحتياطات الكافيه من أنه ربما يكون له هناك

---

(١) دفتر ٣٢ عابدين صادر تلغرافات .

عزوة ويتعضد بأشخاص ويترتب على ذلك نوع عصيان وإخلال راحة تلك الجهة فينبغى أنه بعد إمعان نظر التدقيق فى ذلك يفاد عن أفكاركم فى هذا الخصوص » .

مخاوفه من سليمان الزبير

يرجع غوردون عن رأيه ويوافق على أن يحكم فى أمر كهذا بعد أن يذهب لدارفور ويرى بنفسه فيما إذا كان ابن الزبير حقيقة ينوى الغدر أو هى مجرد تهمة ألصقت به من الوشاة . وعندما وصل الأبيض ترامى إليه أن سليمان اختلف مع العوض أفندى وإدريس ابتر وتفاءل غوردون من هذا الاختلاف لأنه إضعاف لقوة ابن الزبير واقترح من جديد أن يرسل الزبير لهؤلاء الثلاثة بتلغراف يطلب إليهم مساعدة الحكومة والخديوى لا يرى ذلك . وقبل أن يغادر الأبيض حرضه الوشاة كما يظهر ، وكتب عن سليمان قبل مقابلته مايلى «[1] ثم أعرض أن سليمان أفندى ابن الزبير باشا هو ولد صغير وليس متعقل وأشغاله جميعها هى أشغال مجانين ويستصوب أن يعين إلياس بك الحائز للرتبة الثانية مديراً على جهة شكا ويلتمس الإحسان عليه برتبة اللواء وهو صهر الزبير ونافذ الكلمة ، وتعيين ابن إلياس محمد أفندى وكيلا لأبيه بجهة شكا ومحمد أحمد امبرير ابن أخى إلياس يكون مأمور إدارة بندر الأبيض » ، ولم يتم تعيين إلياس باشا لشكا بل تم لكردفان .

آراؤه لسياسة دارفور

غادر غوردون الأبيض متجها صوب دارفور يحمل فكرتين أساسيتين أولهما أن ابن الزبير صغير السن وغير موال للحكومة والثانية أن عصيان أهالى دارفور مردّه لثقل الضرائب وسوء معاملة الأهلين فعلاجاً للحالة الأولى رأى أن يرفع من شأن خصوم الزبير وابنه وهما العوض أفندى وإدريس أبتر ، وللحالة الثانية رأى تخفيف الضرائب وتطمين الأهالى وإعطاء الرتب والنياشين للبعض وتعيين البعض الآخر من البارزين فى وظائف الحكومة وتعيين إلياس أم برير كان الخطوة الأولى نحو هذا الاتجاه . ويرى كسياسة عامة أيضاً تجنيد العساكر فى السودان

---

(١) دفتر ٤٦ وارد تلغرافات .

من السودانيين والاستغناء عن الجنود المصريين ، لأنه كما يرى يجب على الأخيرين التفرغ للزراعة والفلاحة فى بلادهم .

تحامله على سليمان الزبير

كان تحامله على سليمان ظاهراً إذ أنه حكم عليه بالمماطلة من اختلاف التاريخ فى خطابين ، وصرح بأنه ينوى إضعاف قوة الزبير من التلغراف الشفرة الآتى إلى الخديوى « (١) وبوصولنا داره وجدنا جوابين واردين من سليمان بن الزبير باشا أحدهم لمدير داره مؤرخ فى عشرين جماد آخر يذكر فيه أنه سيحضر بنفسه بعساكر الإمـداد لأهل دارفور فى ٢ رجب ومعه حامد مزمل وموسى ولد الجاز اللذين هما من روس البازنقر ، والجواب الثانى بالتاريخ المذكور إلى حسن حلمى باشا ففتحناه ووجدنا أنه مذكور لنا فيه بأنه سيحضر بالإمدادية لدارفور فى اثنى عشر رجب ومن الاختلاف الحاصل فى قوله بجوابين علم لنا أنه مماطل ويريد امتداد الوقت بدون ثمرة وعلى هذا حررنا له بالاستغناء عن حضوره فى الامدادية لدارفور وأنه يفضـل فى محله . فقط حررنا للنور عنقره أن يحضر لدارفور بقدر ألف وخمسمائة نفر بازنقر ويستصوب تعيين النور عنقره مدير الداره لجذب جزء من البازنقر إليه شىء فشىء وتضعف قوة جماعة الزبير باشا » ، وقد استلم سليمان هذا الأمر المنوّه عنه فى تلغراف غوردون السابق ، وكان يتقدم فعـلا لنجدة دارفور فى طريقه ما بين شكا وداره ولـكنه بقى هنـاك لأن الأمر يمنعه من التقدم .

خطة إذلال سليمان

وصل غوردون داره وبقى فيها حينا وفارقها شمالا غير أن الأخبـار ترامت إليه بأن سليمان ينوى الهجوم على داره وإعـلان عصيانه . فى الحال رجع إلى المحطة وذهب بحرس قليل لمعسكر سليمان جنوبى داره وبعـد مناقشات طويلة قبل سليمان الذهاب بأهله وأكابر أتباعه إلى داره للتفاوض معه ، وقد انفصل النور عنقره بعدد من البازنقر وانضم نهائيا إلى الحـكومة وبعد المفاوضة رجع سليمان إلى شكا . ولم يكتف غوردون بذلك بل لحق بسليمان فى عرينه وأصـدر

---

(١) دفتر ٤٧ عابدين وارد تلغرافات .

أمره له بالذهاب إلى بحر الغزال وأمره أن يخدم تحت إمرة إدريس أبتر الذى عين مديراً قبل ذلك . نزل هذا الأمر نزول الصاعقة على سليمان الشاب وما كان يخطر بباله أن ترغمه الظروف حتى يخضع لسلطة إدريس الذى كان إلى وقت قريب يأتمر بأمره و بقدر ما حاول سليمان أن يثنى غوردون عن عزمه وأن يعطيه الرئاسة والقيادة لم يتزحزح غوردون عن موقفه وأفهمه أن الرئاسة والقيادة لا تسلّم له إلا بعد أن يبرهن كفاءته و إخلاصه فى منصب المرءوس .

تعيينات ورتب ونياشين

وتنفيذاً لرغبة غوردون فى تطمين الأهالى و إسناد بعض الوظائف للسودانيين فإنه عين محمد بك الخبير وكيلا لمديرية داره ، ثم قرر تعيينه مديراً لدارفور عند ماتخمد ثورة هرون وعدّل هذا أيضاً بإسناد دارفور الغربية إليه وعين أخاه حمزة إمام مديراً للفاشر ومحمد خالد زقل وكيلا لمديرية داره والطيب العريق معاوناً لعموم دارفور ، وأغدق على كثير من الرتب والنياشين من زعماء القبائل ومشايخها وكبار التجار فلم يترك شيخاً أو تاجراً كبيرا إلا وطلب له رتبة أو نيشاناً أو الاثنين معا فأسماء مادبو ومجيل ومنزل وأحمد هرون وعبدالرحيم أبو دقل وأحمد خوّاف وغيرهم من الزعماء ظهرت فى الإنعامات . و بعد أن هدأت الأحوال فى دارفور نوعا ما — غير أنه لم يقض على حركة هرون بل حصرها فى نطاق ضيق — امتطى هجينه راجعا للخرطوم وهنا صرف الأمور التى كانت تنتظره ووصلته أيضاً المعاهدة الانجليزية المصرية بشأن إبطال الرق والتى تشمل فى أساسها مقترحاته الأولى ورأى أن لا بد من إذاعتها على الأهلين فأذاعها .

رحلته إلى دنقلا

ثم ذهب شمالا فى باخرة نيلية لزيارة الجزء الشمالى من حكمداريته فوصل بربر ومنها عبر النيل غربا وامتطى الإبل مخترقا الصحراء حتى التقى بالنيل مرة أخرى فى مروى ودخل فى مركب شراعى مع التيار وقد ازدحم الناس على الشاطئين يتظلمون من الإنسان والطبيعة على السواء لأن النيل لم يغمر أراضيهم كالمعتاد ونقصت أغذيتهم نتيجة لذلك ولم يشاهد الأهلون فى دنقلا حكمدارهم سنين عديدة ولذلك كانوا يرجون أن يزيل ما حلّ بهم من ضائقة . وعندما وصل

من السودانيين والاستغناء عن الجنود المصريين ، لأنه كما يرى يجب على الأخيرين التفرغ للزراعة والفلاحة فى بلادهم .

تحامله على سليمان الزبير

كان تحامله على سليمان ظاهراً إذ أنه حكم عليه بالمماطلة من اختلاف التاريخ فى خطابين ، وصرح بأنه ينوى إضعاف قوة الزبير من التلغراف الشفرة الآتى إلى الخديوى « [1] وبوصولنا داره وجدنا جوابين واردين من سليمان بن الزبير باشا أحدهم لمدير داره مؤرخ فى عشرين جماد آخر يذكر فيه أنه سيحضر بنفسه بعساكر الإمـداد لأهل دارفور فى ٢ رجب ومعه حامد مزمل وموسى ولد الجاز اللذين هما من روس البازنقر ، والجواب الثانى بالتاريخ المذكور إلى حسن حلمى باشا ففتحناه ووجدنا أنه مذكور لنا فيه بأنه سيحضر بالإمدادية لدارفور فى اثنى عشر رجب ومن الاختلاف الحاصل فى قوله بجوابين علم لنا أنه مماطل ويريد امتداد الوقت بدون ثمرة وعلى هذا حررنا له بالاستغناء عن حضوره فى الامدادية لدارفور وأنه يفضـل فى محله . فقط حررنا للنور عنقره أن يحضر لدارفور بقدر ألف وخمسمائة نفر بازنقر ويستصوب تعيين النور عنقره مدير الداره لجذب جزء من البازنقر إليه شىء فشىء وتضعف قوة جماعة الزبير باشا » ، وقد استلم سليمان هذا الأمر المنوّه عنه فى تلغراف غوردون السابق ، وكان يتقدم فعـلا لنجدة دارفور فى طريقه ما بين شكا وداره ولـكنه بقى هنـاك لأن الأمر يمنعه من التقدم .

خطة إذلال سليمان

وصل غوردون داره وبقى فيها حينا وفارقها شمالا غير أن الأخبـار ترامت إليه بأن سليمان ينوى الهجوم على داره وإعـلان عصيانه . ففى الحال رجع إلى المحطة وذهب بحرس قليل لمعسكر سليمان جنوبى داره وبعـد مناقشات طويلة قبل سليمان الذهاب بأهله وأكابر أتباعه إلى داره للتفاوض معه ، وقد انفصل النور عنقره بعدد من البازنقر وانضم نهائيا إلى الحـكومة وبعد المفاوضة رجع سليمان إلى شكا . ولم يكتف غوردون بذلك بل لحق بسليمان فى عرينه وأصـدر

---

(١) دفتر ٤٧ عابدين وارد تلغرافات .

أمره له بالذهاب إلى بحر الغزال وأمره أن يخدم تحت إمرة إدريس أبتر الذى عين مديراً قبل ذلك . نزل هذا الأمر نزول الصاعقة على سليمان الشاب وما كان يخطر بباله أن ترغمه الظروف حتى يخضع لسلطة إدريس الذى كان إلى وقت قريب يأتمر بأمره و بقدر ما حاول سليمان أن يثنى غوردون عن عزمه وأن يعطيه الرئاسة والقيادة لم يتزحزح غوردون عن موقفه وأفهمه أن الرئاسة والقيادة لا تسلّم له إلا بعد أن يبرهن كفاءته و إخلاصه فى منصب المرءوس .

تعيينات ورتب ونياشين

وتنفيذاً لرغبة غوردون فى تطمين الأهالى و إسناد بعض الوظائف للسودانيين فإنه عين محمد بك الخبير وكيلا لمديرية داره ، ثم قرر تعيينه مديراً لدارفور عند ماتخمد ثورة هرون وعدّل هذا أيضاً باسناد دارفور الغربية إليه وعين أخاه حمزة إمام مديراً للفاشر ومحمد خالد زقل وكيلا لمديرية داره والطيب العريق معاوناً لعموم دارفور ، وأغدق على كثيرين الرتب والنياشين من زعماء القبائل ومشايخها وكبار التجار فلم يترك شيخاً أو تاجراً كبيرا إلا وطلب له رتبة أو نيشاناً أوالاثنين معا فأسماء مادبو وعجيل ومنزل وأحمد هرون وعبدالرحيم أبو دقل وأحمد خوّاف وغيرهم من الزعماء ظهرت فى الإنعامات . و بعد أن هدأت الأحوال فى دارفور نوعا ما — غير أنه لم يقض على حركة هرون بل حصرها فى نطاق ضيق — امتطى هجينه راجعا للخرطوم وهنا صرف الأمور التى كانت تنتظره ووصلته أيضاً المعاهدة الانجليزية المصرية بشأن إبطال الرق والتى تشمل فى أساسها مقترحاته الأولى ورأى أن لا بد من إذاعتها على الأهلين فأذاعها .

رحلته إلى دنقلا

ثم ذهب شمالا فى باخرة نيلية لزيارة الجزء الشمالى من حكمداريته فوصل بربر ومنها عبر النيل غربا وامتطى الإبل مخترقا الصحراء حتى التقى بالنيل مرة أخرى فى مروى ودخل فى مركب شراعى مع التيار وقد ازدحم الناس على الشاطئين يتظلمون من الإنسان والطبيعة على السواء لأن النيل لم يغمر أراضيهم كالمعتاد ونقصت أغذيتهم نتيجة لذلك ولم يشاهد الأهلون فى دنقلا حكمدارهم سنين عديدة ولذلك كانوا يرجون أن يزيل ما حلّ بهم من ضائقة . وعندما وصل

دنقله وتهيأ لمواصلة السير شمالا ليتفقد السكة الحديد وصلته الأنباء بحدوث اضطرابات خطيرة فى الحدود الحبشية فرجع و بقى فى الخرطوم أربعة أيام ركب بعدها الجمل إلى الشرق .

فى السودان الشرقى ثانيا

وصل غوردون إلى كرن وعلم بوجود ولد ميخائيل فى معسكره فى الجبال المشرفة على المدينة من الشمال و بعث إليه بالنزول إلى كرن لمقابلته . غير أن ولد ميخائيل اعتذر بالمرض وعندئذ قام غوردون بعشرة أشخاص فقط رغم معارضة من معه وصعد للمعسكر وكانت مقابلة وديّة فى ظاهرها و بعد حين كان هو وصحبه فى شبه سجن بضعة أيام رجع الرأس بعدها إلى صوابه ودخل فى شبه اتفاق معه . استمر غوردون فى طريقه إلى مصوع ثم منها إلى سوا كن وطلب هناك الإنعام على عدد من مشايخ شرقى السودان ومن سوا كن امتطى الإبل إلى بربر ومنها للخرطوم .

حالة الزبير فى القاهرة

تركنا الزبير يصل القاهرة بما معه من هدايا عديدة للخديوى وفى الحال أحيط بجو من الكتمان والدسائس التركية لم يألفها ، واتصل به اسماعيل صدّيق المفتش واستصفى لنفسه ما شاء من هدايا الزبير وأمتعته وكانت مقابلته مع الخديوى ودية إلا أن محاولاته للرجوع كلها تردّ بطريقة دبلوماسية . وعندما قامت الحرب بين روسيا وتركيا ذهب فى معية حسن باشا قائد النجدة المصرية للسلطان ورجع الزبير من تلك المهمة مريضاً فأبرق الخديوى لغوردون يستفهم عما إذ كان يوافق على رجوع الزبير للسودان نظرا لمرضه .

غوردون يرفض

رد غوردون بأن الزبير كان متهما بالاستقلال عن الحكومة ولا يخشى منه ضرر طالما أنه (غوردون) يأخذ بزمام الأمور بالسودان أما إذا ترك البلاد فقد تحدث الزبير نفسه بشئ ولا يجد فى البلاد من يضمن حسن سلوكه ثم أن جميع الحكام أبناء العرب حسب رأى غوردون يمانعون فى رجوعه . أبرق بهذا الرد وهو فى مأمورية فى الخارج وعند ما وصل الخرطوم استشار البعض وأجمع المستشارون على أن وجود الزبير فى دارفور أو كردفان أو شكا أو بحر الغزال غير مرغوب فيه

وردّ بصفة قاطعة على أن لا يداعب الأمل مرة ثانية الزبير فى الرجوع واختفى اسم الزبير حتى يلمع ويظهر مرة أخرى أثناء ثورة ابنه وأثناء سياسة إخلاء السودان .

اسماعيل يطلب غوردون للمشاكل المالية

ما أن استقر غوردون فى الخرطوم حتى استلم تلغرافا يستدعيه فيه الخديوى إلى القاهرة ليكون عونا له ضد ذوى المطامع من دائنيه حيث يكون رئيسا على لجنة تبحث فى إيرادات الحكومة المصرية . وخفّ غوردون لتلبية الطلب ولو أنه لم يكن فى صيغة أمر ، بل فى قالب رجاء . وعندما حلّ بالقاهرة وجد أن المسألة تعقدت ودخلت فيها السياسة الدولية وتشابكت الدروب والمسالك فرأى ورأى اسماعيل معه أن يتنحى عن تلك المهمة وأخضعت السياسة الدولية اسماعيل لما كانت تريد منه ومن مصر وهذه المسألة تبين بجلاء ثقة اسماعيل فى غوردون على أنه الرجل الشريف الوحيد من الأوروبيين الذى يلتجئ إليه عند الضرورات .

الاقتصاد فى النفقات

غادر مصر بطريق البحر الأحمر لزيارة أقليم الصومال ومنها اخترق الجزء الشرقى من حكمداريته حتى وصل الخرطوم وبقى فيها هذه المرة أطول مدة أقامها فى مركز حكمداريته إذ أنه ظل تسعة أشهر لم يبرحها . وشغل فى تلك الفترة بمالية حكومة السودان إذ نبهته زيارته لمصر بصدد الارتباكات المالية إلى ضرورة فصل مالية السودان عن مصر حتى لا تمتد أيدى الدائنين إلى الخرطوم ، وقد نجح فى ذلك ورأى إداريا أن يفصل الصومال عن الحكمدارية لأنه عبء مالى عليها ورأى أيضا أن يوقف التوسع فى الجنوب لأن ذلك يتطلب مصاريف باهظة فجعل نقطة مرولى التى تبعد عن بحيرة فكتوريا مائة ميل شمالا آخر محطة للحكومة المصرية وبالرغم من أنه أوكل للدكتور أمين أمر الاتصال الودى مع كباريجا وامتيسة فى أول الأمر تمهيدا لبسط السيادة المصرية على منطقة البحيرات إلا أنه ثناه عن هذه الخطة أخيرا .

ورأى أيضا توفيرا للنفقات أن يقف العمل فى مد السكة الحديد بعد أن امتدت خمسين ميلا جنوبى وادى حلفا لأن مالية السودان لا تسمح باستمرارها ولأن الخزينة المصرية التى يسيطر عليها الدائنون لا تمده بعون ما . وكان غوردون

فى كل إجراءاته المالية يرمى إلى استقلال المالية السودانية عن مصر وهذا مادعاه إلى وقف التوسع والإصلاحات واتجهت نيته حينا أن يعطى دارفور لأحد أبناء السلاطين حتى تتخلص المالية من مصروفاتها . وشغل أيضا فى تلك الفترة بالضرب على تجارة الرقيق ونجح إلى حد ما فى وقفها حتى أنه تمكن من ضبط اثنتى عشرة قافلة من الرقيق فى ظرف شهرين . وبقدر ما كانت سياسته ترمى فى أوائل عهده بالحكمدارية إلى تعيين السوادانيين بقدر الإمكان فى الوظائف انصرف الآن عن تعيين أبناء العرب عموماً مصريين وسودانيين ، وظل يطالب بتعيين أوروبيين وخاصة فى الأصقاع النائية كدارفور وبحر الغزال لأنه اعتقد عدم إخلاص أبناء العرب فى تنفيذ إجراءات تجارة الرقيق .

اختلافه مع وكلائه

واختلف مع خالد باشا الذى قام بأعمال الحكمدارية مدة غياب اسماعيل أيوب فى دارفور ثم عيّن وكيلا رسميا لغوردون وأخيراً استدعى لمصر ، وقد ذكرنا قبلا أنه عيّن عثمان رفقى قومندانا للعساكر فى السودان فعندما خلت وظيفة وكيل الحكمدارية عينه فيها زيادة على قيادته للجند وأثناء غيبة غوردون فى مصر لمأمورية اسماعيل المالية ، استبد عثمان رفقى بالأمر وارتكب من الأعمال ما أثار عليه ثائرة سكان الخرطوم ومد يده للرشوة فاكتنز رقما لا بأس به من الريالات وخالف أوامر غوردون له بالذهاب لدارفور لإنهاء مسألة هرون الثائر غير أن رفقى باشا اعتذر متعللا بالمرض وبلغ التوتر بين الحكمدار ووكيله حدا جعل غوردون يقترح رد النياشين منه وانتهى الأمر باستدعاء عثمان رفقى إلى مصر ليجد طريقه فى المناصب الحكومية العليا حتى يصبح ناظرا للحربية وبدأت فى نظارته الحوادث العرابية .

حركة سليمان الزبير

تركنا سليمان آخر مرة يؤمر بالذهاب إلى بحر الغزال رغم أنفه ويقبل رئاسة إدريس أبتر على مضض منه ، لا لأن إدريسا كان تابعا لوالده وله بل لأنه أول الداسين فى الزبير وابنه وتخاطب سليمان مع والده بذلك وكان الوالد يأمر ابنه بالطاعة للحكومة والامتثال لأوامرها وفى نفس الوقت يحرضه على إدريس وعلى

القضاء عليه ، ولكن إدريس هو المدير الرسمى المعيّن من قبل الحكومة فهناك تعارض نوعا ما بين تأدية الطاعة والولاء للحكومة ومحاربة إدريس أبتر . غير أن الزبير من تجاربه الشخصية لا يرى تعارضا حيث أنه حارب البلالى وقتله بالرغم من أنه مندوب الحكومة الرسمى ومع ذلك أظهر الخضوع والولاء لحكومة الجناب العالى ونال الرتب والنياشين منها . وقد ضُبط خطاب وارد من الزبير لابنه بهذا المعنى وكان هو المستند الذى اعتمد عليه غوردون فيما اتخذه من إجراءات ضد الزبير كما سنبينها .

لم يحتمل سليمان الحالة التى وضعه غوردون فيها وخاصة رئاسة إدريس أبتر وصبر على ضيمه مدة من الزمن ولكن الكيل قد طفح وأخيراً انجرف فى التيار الوحيد الذى يسلكه شاب فى حرارة سليمان واعتزازه بقوته وشن هجوماً على زرائب إدريس أبتر بينما كان صاحبها بعيداً عنها وأظهر عداءه للمدير . ووصلت الأخبار إلى مديرية خط الاستواء وبعثها مديرها بدوره إلى الخرطوم وكذلك تأكد الخبر من السعيد بك حسين مدير شكا ووصفها هذا بأنها حركة ما بين سليمان وإدريس أبتر مدير بحر الغزال .

إجراءات غوردون

نقل غوردون الخبر وما ينوى اتخاذه من إجراءات إلى مصر بما يلى «[1] يوم تاريخه وردت لنا مكاتبة من خط الاستواء تفيد تأكيد ما بلغنا من أن ابن الزبير باشا تحارب مع مديرية بحر الغزال وأنه هجم على المركز وبارز بالعصيان ومستعد للمحاربة وقتل من قتله وأخذ ما أخذه من أمتعة وأسلحة الميرى ، وحيث الآن تأكد عصيان ابن الزبير باشا فإذا وافق يؤمر بقبض والده ووضعه بالحديد وضبط جميع نقوده وأمتعته الموجودة معه كون بلغنا أنه يوجد معه زيادة عن خمسة آلاف جنيه مع الترخيص لنا بجميع جميع أمتعته الموجودة بالسودان وتوريدها للميرى وضبط أقاربه وفامليته وسجنهم وإلا فالأمر مفوض » . ووصل الرد له بأن يعمل ما يراه للصالح العام إذ أنه الحكمدار المفوض .

---

(١) دفتر ٥٠ عابدين وارد تلغرافات بتاريخ ٧ يوليو سنة ١٨٧٨ .

أصدر أمره فى الحال بضبط منازل الزبير بالخرطوم والجيلى والقبض على إخوانه وأخواته وكل أقاربه أينما وجدوا ووضع الجميع فى السجن . أما المنازل وما وجد فيها من أثاث بيع بالمزاد العلنى ووردت الأثمان للخزينة العامة وبعث غوردون بأن تضبط مراكب الزبير التى تعمل بين أصوان والمحروسة ، ولكن الزبير احتج على هذا الأمر وبرهن للحكومة وأقنعها فى مصر بأنه لا يعلم من أمر ثورة ابنه شيئاً وهو على استعداد على أن يحاكم إذا ما ثبت عليه شىء من هذا ولا يرى غضاضة فى أى إجراءات تتخذ ضد ابنه إذا ما أدين بتهمة الخيانة والثورة . وورد للزبير من السودان خطاب طويل من أحد أقاربه يشرح له ما حدث لأمواله وبيوته وأهله حتى النساء والأطفال من ضبط وسجن ، وكان للزبير أن يتأثر لا على الأموال ولا على الرجال ولكن على النساء والأطفال فأرفق القصة كما وردت فى الخطاب بعريضة مؤثرة ورفعها للجناب العالى فتأثر الخديوى وأبرق لغوردون فى الحال بألا يؤخذ الأب بجناية ابنه « وحيث كما لا يخفى سعادتكم أن الزبير باشا المومى إليه بعد أن أدّى خدمات مهمة جهة دارفور قد حضر لهذا الطرف بالطوع والاختيار حتى أنه فى آخر الأمر لما لم سوعد فى العودة لأوطانه امتثل وأقام هنا مدة بدون أن يبدى تردد ولا توقيف ، وفى هذه الحالة إذا نظر فى تحقيق هذه القضية بالمجلس الخصوصى ضرورى المجلس يحكم بما تقتضيه القوانين فى عدم مؤاخذة الأب بجناية الإبن الذى لا يكون له علم بها » .

اسماعيل يتدخل فى الإجراءات

أما غوردون فلم يسلّم بانقطاع الصلة بين الوالد والولد فى هذا الأمر « والقول منه بعدم العلم لا يلتفت إليه لأن ولده لا يمكن أجرى أقل شىء إلا باذنه » وعلى كل إذا رأى الجناب العالى أن يطلق ما ضبط من أملاكه وما سجن من أقاربه فهو طائع للأمر ولكنه لا يكون مسؤولا فيما إذا استمر تعدى ابنه على بقية الجهات . وأمر إسماعيل بالإفراج عن الجميع وإذا كان لدى غوردون مستندات تثبت علاقة بين الزبير وابنه فيما يتعلق بالثورة يبديها عند التحقيق .

أما غوردون فلم يقتنع بهـذا المنطق وكتب بأن سجن أقاربه كان مجرد تهديد لابنه حتى يثوب إلى رشده وعندما يسمع بسجنهم ، وكتب يؤيد نظرية اشتراك الزبير فى الثورة بقوله « (١) ومن خصوص الدلايل والمكاتبات المطلوب إبرازها منا للاستدلال بها على كونه متداخل مع ابنه فإن عداوة المومى إليه مع الحكومة لم محتاج لها طلب دلايل منا بل معلوم للخاص والعام و بسببه فضل بمصر واسماعيل باشا أيوب على حقيقتها أكثر منا وضبط موجوداته وأمواله هذا هو نظير حقوق الميرى التى أخذها ولده والأرواح التى قتلها من عساكر وغيرهم . كما ولا يخفى أن الذى يتجارى على العصيان و يتعدى على حقوق الحكومة و يوجد له أقارب أو أهل لا بد من ضبطهم رهينة وذلك سيما وأن الزبير باشا جميع الأموال التى حصلها من شكا أكتسبها بنفسه ولم أعطى الميرى منها شئ وأنا متأسف على كونه يفضل لغاية الآن بدون سجن مع ما حصل من ولده وما هو مصمم على حصوله زيادة عن ما سبق » ومما أشيع ووصل اسماع غوردون عن الأسباب الدافعة لحركة سليمان مانقله غوردون نفسه بتلغراف المحروسة « (٢) وقد بلغنا أن ابن الزبير باشا قال بأنه لا يحارب الميرى وأنه ما يخلصه أن أحد الدناقلة يتعين مدير عليه والحقيقة لم تعلم وللإحاطة بما ذكر لزم العرض أفندم » . وحتى بعد ما سمعه من أن سليمان لا يحارب الحكومة وأنه لا يرضى رئاسة ادريس أبتر فقط ، بعد هذا كله لازال غوردون ملحا ومصمما على سجن الزبير بمصر أو إرساله إلى سواكن للحجز هناك تحت المراقبة .

منطق غوردون

ولعل أكبر دليل على أن غوردون خضع لقول الوشاة واتخذ ما اتخذ من اجراءات نزولا على ارادتهم ما بعث به فى الوثيقة التالية « (٣) أن الزبير باشا عند قيامه للتوجه إلى مصر أوصى ابنه وأقاربه تحت شجرة بأنه عند وصوله المحروسة

غوردرن يرضخ لقول الوشاة

---

(١) دفتر ٥٠ عابدين وارد تلغرافات بتاريخ ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٨ .

(٢) دفتر ٥٠ عابدين وارد تلغرافات بتاريخ ٢٥ أغسطس سنة ١٨٧٨ .

(٣) دفتر ٥٢ عابدين وارد تلغرافات .

إن لم يترخص له بالعودة فسيخبرهم بالعصيان والمحاربه بإشارة أجروا مقتضى وصية الشجرة ، وبعد أجرى ذلك يلتمس من الحضرة الخديوية تعيينه واليا على جهات دارفور وبحر الغزال وأن لم يجد أجابة فيمكنه التوجه إلى الاستانة العلية وسيتحصل على المرغوب من حضرة مولانا السلطان لأن أفندينا الكبير جنتمكان محمد على باشا صادر له أمر من السلطة العلية أحدهم بالتفويض فى توارث خديوية مصر والثانى بالتفويض له فى أمر جهات السودان مؤقت وحيث أن المومى إليه كان توجه إلى اسلامبول فى وقت المحاربة وعاد سريعا ولم مدروك عندنا إن كان توجهه من تلقاء نفسه أو أمر به كما ولا نعلم مقابلته مع حليم باشا وعدمها وسبب شروع نوبار باشا فى إرساله للسودان والحالة هذه صار ضبط الجواب المحرر منه لولده بأجرى وصية الشجرة فالأمل عرض ما ذكر على المسامع الزكية ومع الموافقة يرسل الزبير باشا لسواكن وبمعرفتنا يجرى التحقيق اللازم معه أولى من أبقاه بمصر » .

الزبير يحاكم غيابيا فى الخرطوم

حاول غوردون فى الوثيقة المتقدمة أن يجعل من أمر الزبير سلسلة من المؤامرات وتُهم بعضها تحاك فى مستنقعات بحر الغزال وجنوب دارفور والبعض الآخر فى بلاط الاستانة وأدخل فيها شخصيتى حليم باشا ونوبار باشا وكلها تخيّلات لم يكن لها أساس من الحقيقة أملاها من لهم غرض فى القضاء على الزبير وشهرته . وأخيراً شكل مجلس فى الخرطوم بأمر غوردون برئاسة حسن حلمى باشا وعرض عليهم الخطاب الذى ضبط وهو فى طريقه من الزبير لابنه والذى يحضّه فيه على طاعة الحكومة وعدم الخضوع والانقياد لإدريس أبتر ووصل المجلس إلى قرار بإدانة الزبير والحكم عليه بالإعدام كما أعدم ولده و إرسال الأوراق لمصر للتنفيذ ولكن مجلس الأحكام فى مصر لم ير هذه الإدانة .

الحرب ضد سليمان

تركنا سليمانا يهاجم زريبة إدريس وأخبار هذا الهجوم تصل إلى الحكومة واستطردنا فى ذكر الإجراآت التى اتخذها غوردون ضد الزبير سواء فى السودان أو فى مصر والآن نقص ماحدث من حملات عسكرية ضد سليمان نفسه . عرف

جسى بأنه القائد الذى جرّد الحملة على سليمان وهو إيطالى صادق غوردون منذ أن كانا فى حرب القرم سويا ، وقد عرف بأنه من ضمن متطوعى غاريبالدى وتقابل غوردون مع صديقه مرة ثانية عندما كان العضو البريطانى فى لجنة الدانوب الدولية . وما أن قبل منصب مأمور الأقاليم الاستوائية حتى بعث إلى صديقه يستدعيه للعمل معه فلبى الطلب وقام بمهمة تجهيز المؤن والذخائر فى القاهرة ، ثم أصبح وكيلا لغوردون فى الخرطوم للترحيل .

غادر غوردون السودان عند انتهاء عقده فى خط الاستواء على ألا يعود مرة ثانية وانفصل جسّى من خدمة الحكومة المصرية أيضا . وعندما تبين لغوردون ثورة سليمان كان جسّى فى الخرطوم يدبّر له صديقه محاولة استكشافية فى غرب الحبشة مخترقا لها حتى يصل إلى الساحل الشرقى لأفريقيا و بينما الاستعدادات قائمة على قدم وساق إذا بأخبار الثورة تصل إلى الخرطوم و إذا بغوردون لا يجد مناصا من أن يعهد إلى صديقه بقيادة الحملة طالما لا يستطيع أن ينهض بنفسه . و بعد معارضة من جسى قبل أخيراً وأبحرت البواخر من الخرطوم فى ١٥ يوليو سنة ١٨٧٨ حاملة عدداً قليلا من الجند وكمية من الذخائر وعليه أن يعزز قوته من حاميات النيل الأبيض وهو فى طريقه عليها .

تجمعت القوة وسارت حتى ألقت السفن مراسيها فى شمبى ومن ثم اتجهت غربًا لتجد سليمان بقواته على بعد ٤٠٠ ميل غربى النيل يحتل زريبتين الأولى تدعى باسمه والثانية باسم إدريس . وكانت خطة جسّى أن يحتل إحدى الموقعين وخدمته الظروف بأن قبض على جاسوس من قبل سليمان وتحت الضغط والتهديد بالقتل أملاه خطابا يكتبه بيده يبين فيه إن جسى ينوى الهجوم على زريبة سليمان وبعث به مع خادم كان بمعية الجاسوس . وكان من الطبيعى أن يجمع سليمان كل قواته فى زريبته ليردّ الهجوم وتمكن جسّى بذلك من التسلل إلى زريبة إدريس واحتلها دون أن يفقد طلقة واحدة .

كانت الأيام الأولى من الحرب عبارة عن سلسلة من الهجمات يقوم بها سليمان

على مواقع جسى منيت كلها بالفشل بالرغم من حالة جسى الحرجة من قلة فى عدده وذخائره . وأخيرا شاءت الأقدار أن تتعاون عوامل الطبيعة مع جسّى على سليمان فاندلعت النيران فى زريبة سليمان وألجأته للقيام بهجوم نهائى على جسى ولما لم ينل منه شيئا انسحب شمالا وخف جسى وراءه متعقبا .

وصلت الأخبار أثناء المناوشات فى بحر الغزال إلى الخرطوم بأن سليمان اتصل بالجلاّبة فى جنوب دارفور بل بهرون الذى لا يزال يرفع راية العصيان معتصما بالجبال يستحث الأهالى على الثورة . فخاف غوردون من اتصال قوّتى هرون وسليمان وخف من فوره بعدد قليل من جنده إلى جنوب دارفور وهو فى طريقه فى كردفان قابل قوافل عديدة من الرقيق مما دعاه أن يبطش بالجلاّبه أنّى وجدهم بل حرّض عليهم العرب حتى يقضى قضاء مبرما عليهم .

تقابل الحكمدار مع جسى فى الطويشة وبحثا الحالة واتفقا على معاجلة سليمان حتى لا يتصل بهرون وقام جسى بزحف واتصل به الموطن الذى يقيم فيه سليمان فى فرقة من جيشه وباغتهم عند الفجر واحتاط بالقرية التى يقيمون فيها دون حراسة . وفى عماية الفجر بعث برسالة إلى ابن الزبير يطلب منه التسليم فى ظرف خمس دقائق وإلا أطلق النيران لأن قوة عظيمة تحتاط بالقرية من كل الجهات . سلّم سليمان للأقدار وأتى بكبار قوّاده ليُجرّدوا من سلاحهم ويكونوا تحت الحراسة وما أن أشيع أنهم ينوون الهرب حتى نفذ جسى فيهم حكم الإعدام جميعا وقفل راجعا ليحمل إلى رئيسه النبأ السار . وبذا ختمت صفحة الشاب الذى ذهب ضحية للدسائس من جهة وضحية تهوّره من جهة أخرى .

تعيين أوروبيين فى الإدارة

قدّمنا أن غوردون قطع الأمل من الاستفادة بالوطنيين فى إدارة البلاد كما يئس من المصريين قبلهم فاتجه نحو استخدام الإنجليز بصفة خاصة والأوربيين بصفة عامة وظلّ يطلب الأذن باستخدامهم وظهرت سياسته هذه فى وثيقة يقول فيها « (١) والحال أفتدم الأشخاص الناقلة والبحارة الموجودين فى جهات بحر

---

(١) دفتر ٥٠ عابدين وارد تلغرافات .

الغزال والرول ودارفور من الضرورى إزالتهم من تلك الجهات بالكلية لأنهم حرامية وهم الجارين نزول الرقيق من هناك وغير جارين دفع طلبات الميرى وأغلبيتهم لم ممتثلين للحكومة ولا يمكن الحصول على إزالتهم بتعيين مأمورية أو ضباط أبناء عرب ولذا قصدنا أن الدكتور أمين أفندى يكون بخط الاستواء وكيلا عليه ومسيوجسى يتوجه إلى جهة بحر الغزال ومسيو فردريك روسية يتوجه إلى دارفور » . وفى اليوم التالى لهذا الاقتراح بعث ببرقية يلحّ فيها على الأذن له بتعيين الأورو بيين ويهدّد بالاستقالة إذا لم يجد طلبه السبيل إلى الإجابة وقد تم له الإذن فبعث أولا للسر ريتشارد بيرتون وللسر صموئيل بيكر ولكنهما لم يقبلا وطلب إلى مارنو النمساوى ومسادليه الإيطالى وسلاتين النمساوى ولبتن الإنجليزى وأمليانى النمساوى وغيرهم من رعايا الأمم الأوروبية وأوكل إليهم الإدارة فى مديريات دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء وتعين جقلر بك وكيلا للحكمدارية بعد أن أنعم عليه برتبة اللواء .

غوردون يفكر فى الاستقالة

رجع غوردون من دارفور وقبل أن يصل الخرطوم سمع بمفارقة اسماعيل لخديوية مصر وقد أبدى فى أكثر من مناسبة عزمه على اعتزال العمل فى السودان إذا ما زايل اسماعيل الأريكة . وفى الواقع ما كان لغوردون أن يتمتع بما تمتع به من سلطة ونفوذ وما كانت طلباته وقد تظهر شاذة بعض الأحيان لتجاب لولا ما يضمره له إسماعيل من تقدير . وبالمثل رضى غوردون عن إسماعيل وعن سياسته وتصرفاته وكان يرى أن الدائنين الأوروبيين تسندهم حكوماتهم يتعاونون ويتآمرون على إسماعيل وسلطته .

وبتبوء توفيق أريكة الخديوية انتقل النفوذ إلى مجلس النّظار وطبيعى أن يحاول النظار إخضاع الموظفين الكبار لمشيئتهم وطبيعى أن يُطَالب غوردون بتوضيح كل ما يطلب منه ولينفّذ كل ما يؤمر به . وغوردون الذى تعوّد على حريّة التصرف فى أقاليم السودان الشاسعة وغوردن الذى عُرِف باستبداد الرأى والعناد فيما يراه صالحا لا يُنتظر منه أن يكيّف نفسه للظروف الجديدة بل إن

الحكومة الجديدة أخذت على غوردون تهاونه فى جمع الضرائب ولم يرض عنه الدائنون الأوروبيون لأنه نادى وعمل باستقلال المالية السودانية وأنهم يريدونها أن تعاون المالية المصرية فى دفع الكبونات .

نظرة عامة لغوردون

سافر غوردون إلى مصر وهناك قدّم استقالته وقبلت بعد أن يقوم بسفارة إلى الملك يوحنا إمبراطور الحبشة . و بعد ثلاثة أشهر قضاها فى تلك المهمة ، رجع ولم يصل إلى اتفاق مع الملك المذكور بل تعرضت حياته للخطر . ولم يعرف السودان حكمدارا جاب أصقاعه وتحمل سفرات طويلة مضنية على ظهور الإبل مثل ما فعل غوردون ولم يعرف السكان موظفاً عظيما أخلص فى عمله وتفانى فيه مثل ما فعل غوردون . وما شك أحد فى نزاهته وأمانته لأنه كان نظيف الثوب بل لا يأبه للأمور المادية وراحة البدن . كل ذلك نتيجة شعور دينى هيمن على كل تصرفاته وتغلغل فى قرارة نفسه . وكان نسيج وحده فى عمق إنسانيته وإحساسه بعذاب البشرية سواء فى الرق أو فقر الأهالى وهذا ما جعل منه رجلا مثاليا فى النبل والتفانى فى خلاص البشر من عذابه .

إلا أنه مع سموّه فى الأخلاق والنزاهة والإخلاص كان عصبىّ المزاج متقلب الأهواء فهو يمحو ما أثبته بالأمس وهو يضع ثقته فى شخص و يطلب له الرتبة والنيشان ليكتب بإيقافها قبل أن تصل . وقد نصحه طبيب فى الاسكندرية بعد أن قدّم استقالته بإراحة أعصابه وعدم التفكير فى السياسة . وهو سريع التصديق لما يسمعه من وشاية فى شأن الآخرين . فتصرفاته مع الزبير وابنه سليمان ومع من يعزلهم من الحكام والمديرين هى فى الدرجة الأولى نتيجة تأثره بمن حوله من مستشاريه .

و بالرغم من مثاليته فى الإخلاص للعمل ونظافة الثوب فى الإدارة وبالرغم من أن عهده بوجه عام عهد استقرار و إدارة رشيدة إلا أنه نظرا لاتساع رقعة الأرض التى يحكمها والثورات التى كان له أن يخمدها والسفارات السياسية التى أريد له القيام بها لم يستطع القضاء النهائى على الرق وسوء الإدارة ومساوئ الرشوة .

ولا ننسى أنه خلّف وراءه عدداً من النـاس حانقين عليه . فمنهم من يتعاملون بالرقيق ومنهم أقارب والمنتفعين بسليمان الزبير ومنهم الموظفون الذين أنزلهم من مناصبهم التى كانوا يتولونها ومنهم العنصر الحاكم فى مصر لأنه لم يخضع للأوامر وأنه عيّن عددا من الأوروبيين دلالة على طعنه فى الموظفين أبناء العرب كما ذكر ذلك صريحاً ومنهم الأوروبيون المتصلون بديون مصر لم يرضهم من غوردون فصل ميزانية السودان عن مصر حتى لا تساهم فى عبء الديون وكبوناتها ولم يرضهم تعضيده لإسماعيل ضدهم وتقديره له . وهناك من حقد عليه من المصريين المهتمين بالمسائل القوميـة الـكبرى لأنه أضاع عليهم ملـكا وامبراطورية فى أواسط أفريقية عند ما كان مأموراً لخط الاسـتواء بل يذهب البعض إلى اتهامه بأنه قصد ألاّ يصل الحـكم المصرى إلى البحيرات ولا يعدمون أدلة تؤيدهم من مذكراته ومن منطق الحوادث بعد ذلك .

السودان بعد غوردون

التمست الحـكومة المصرية إسماعيل أيوب باشا لأن يرجع حكمداراً للسودان كما كان ، وقد انفصل عنها لا لذنب جناه بل عرف عنه الحاكم الذى أضيفت دارفور فى عهده ولـكن غوردون طالب بإسناد الحـكمدارية إلى نفسه ورضى الخديوى بذلك لثقته فيه . وقد ذكرت محاضر مجلس النظار أن إسماعيل أيوب قدّم شروطاً بمقتضاها يقبل منصب الحـكمدارية ولم ير المجلس قبولها ولذا صرف النظر عنه وعيّن محمد رءوف باشا الذى عرفناه قائداً لجنود خط الاستواء فى عهد بيكر بل تركه الأخير فى المديرية حينما زايل خدمة الحـكومة المصرية ووجـده غوردون هناك حينما حل محل بيكر وقدّر لرءوف باشا أن يكون آخر الحـكمداريين فى العهد المصرى قبل شبوب الثورة المهدية .

وصدرت التعليمات للحكمدار الجديد تبسط سياسة الحـكومة المصرية فيما يتعلق بسلطته وفيما يتعلق بإدارته للبلاد ، فقد حددت سلطته من التصرف المطلق الذى منح لغوردون وطلب إليه أن يرجع فى الأمور الهامة إلى النظارات المختصة وتتلخص السياسة الحربية فى الدفاع عن الأراضى السودانية دون الدخـول فى

فتوحات جديدة والسياسة المالية فى عمل ميزانية سنوية ترسل إلى مصر وتقرير ربعى عن حالة المصروفات والإيرادات وأشير إلى أن الضرائب يجب أن توضع بطريقة لاهى بالمرهقة على الأهالى ولاهى بالمفرّطة فى حق الحكومة وما لدينا من الوثائق لا يظهر أى موضوع هام تم فى زمنه قبل المهدية وما حدث فى أخريات أيامه فى الحكمدارية بعد اندلاع نيران الثورة هو من ضمن تاريخ المهدية .

صــــورة عامة

حسن نية الخديويين والضريبة

والآن وقد تابعنا تطوّر الإدارة والحكم فى السودان حتى وقفنا عند أبواب الثورة المهدية يجدر بنا أن نقف وقفتنا الأخيرة نشيّع العهد ونلقى نظرة تتبين لنا منها المعالم الرئيسية دون التفاصيل ونلم بالنُظم الإدارية والقضائية والمالية التى تركزت فيها الإدارة السودانية . والعهد بأكمله كمعظم العهود فيه فترات من الطمأنينة والاستقرار تعلى من شأنه وتشيد بذكره وفيه من فترات الفوضى والظلم ماينزل به إلى الحضيض من حيث العدالة والنظام ، ويختلف الرجال الذين تولوا شؤون البلاد من حكمداريين ومديرين وكشاف وغيرهم من أرباب النفوذ والسلطة من حيث مقدرتهم فى الإدارة وانسجامهم وتجاوبهم مع السكان ، ومن حيث نظافة ثوبهم وعفة أنفسهم مما يجعل الحكم على العهد بأكمله أمراً عسيراً فإما أن نسمه بالظلم والقهر وإما أن نتسامح فيه ونجعل منه عهداً ذهبيا . وأجزاء الصورة التى تبرز لنا وتجذب أنظارنا أكثر من غيرها اثنان وهما حسن نية من جلسوا على الأريكة الخديوية ورغبتهم السامية فى تقدم البلاد وعمرانها والثانى الضرائب الباهظة المرهقة وسوء الطريقة التى تجبى بها .

التفاتات الولاة فى مصر

ونلمس التفاتات ولاة مصر إلى رعاياهم فى الجنوب من أوامرهم المشددة على الحكام ومن ولوا الأمر فى السودان بالرأفة والرفق ورفاهية البلاد . تبدت السياسة أول ما تبدّت فى عهد محمد على فتشجيع الزراعة وزيادة الإنتاج

واستغلال الثروة الطبيعية و إنزال العقاب الصارم . بمن ثبتت عليهم تهمة الارتشاء أوالاختلاس وملاحظاته الدقيقة على مسلك وكلائه فى البلاد — كلها تدل على أنه كان يجرى على سياسة الاستفادة من البلاد و إفادة أهلها . ولولا السنين الأولى من حكمه التى اتسمت بالحملات الانتقامية وصيد السكان وأنزالهم من معتصماتهم بالجبال ليجدوا طريقهم ، إما إلى معسكرات التجنيد أو إلى وكالات النخاسين . لولا تلك اللحظات السوداء فى صحيفته لما لاحظنا عليه ما يهبط بمستوى إدارته السودانية ويشين سمعتها وخاصة إنه أول من فتح البلاد للعالم والحضارة وجعل منها وحدة إدارية متماسكة الأجزاء بعد أن كانت مفككة العرى والأوصال .

وبالرغم مما عرف عن عباس الأوّل ورجعيته وإنه عاد بعصر القهقرى من حيث التعليم إلا إننا نلمس ناحية حبه للتنظيم فى قوانينه ولوائحه التى سنها للخدمة فى السودان وكذلك صرامته مع الذين يميلون إلى الكسل فى أعمالهم ومدرسته التى أسسها فى الخرطوم وكانت بذلك النواة الأولى للتعليم المدنى الحديث . أما سعيد فتحمس للسودان وأهله منذ اللحظة التى جلس فيها على الأريكة الخديوية فهو أول من أشاد ببسالة الجندى السودانى وفتح باب الترقى لهم فى الجيش إلى مرتبة الضباط ودلّل على اهتمامه العظيم بالبلاد أن عيّن أخاه الأمير عبد الحليم حكمداراً عليها ثم كانت زيارته المشهورة وسياسة اللامركزية والحكم الذاتى وسماعه لشكوى المتظلمين وضراعة المقهورين وتأثره بما آلت إليه الأداة الحكومية من سوء . واسماعيل الذى وسّع رقعة البلاد بالفتوحات لم ينس العمل على رفاهيتها وعمرانها . فمدارسه ومواصلاته و إحساناته لبيوت العلم والدين ومحاولاته للقضاء على عادة الرق الوحشية وتعيينه للسودانيين فى المناصب الكبيرة كلها آثار ناطقة بحسن التفاته .

النية الحسنة والرغبة فى الإصلاح وحدهما لا تكفيان لإشاعة النظام والعدل وتيسير سبل الرفاهية والعمران فالأمر فى حاجة إلى الأيدى المتعددة والإدارة التركية آنذاك خلو منها والواقع أن نظريات سعيد واسماعيل الحديثة والمبادئ التى

اعتنقاها لم يشاركهما فيها معاونوهم فى السودان لأنهم ما زالوا من أنصار المدرسة التركية القديمة . واتساع المسافات و بعدها من السلطة المركزية جعل أمر الرقابة عسيرا إن لم نقل مستحيلا وهذا يفسّر لنا الاختلاف بين النظرية والتطبيق .

الإداة الادارية

أعترت الأداة الإدارية تغييرات جمة فمرة تنعزل المديريات عن بعضها البعض وأخرى تندمج اثنتان أوثلاث فى مديريات عموم وثالثة تجزّء المديرية إلى قسمين وتعدّل الحدود ولكن بوجه عام كانت البلاد تدار وتحكم من الخرطوم قصبة الأقاليم السودانية بواسطة الحكمدار وينوب عنه مديرون فى الأقاليم والمدير يشرف على نظّار الأقسام وهؤلاء بدورهم على مشايخ الأخطاط . أما القبائل الرحّل فيختفى عندهم مايلى المديرية من أقسام فالوحدة الإدارية هى القبيلة بكاملها ولها شيخها الذى يتصل بالمديرية رأساً وأحيانا تسهيلا للإدارة ومراعاة لمقتضيات الظروف تكوّن مأموريات لا هى صغيرة كالقسم ولا هى كبيرة كالمديرية ولكن مجموعة منها تقع تحت إدارة مدير عموم كما حدث فى دارفور وفى القضارف ووحدة الإدارة فى الجنوب هى القبيلة كما هى الحالة بين العرب الرحّل .

وتنهض الإدارة بحفظ الأمن وجمع الضرائب وأنيط جمعها إلى جماعة من الجند الغير نظامى سمى بالباشبوزق فهم زيادة على جهلهم بالأمور العسكرية لا يعرفون أبجديات مبادئ الاقتصاد وطرق الجباية . والضريبة عند أهل البادية تقدّر بحسب ثروة القبيلة وعدد ما شيتها وأنعامها وتفقد الأرقام التى تدلنا على فداحتها عندهم ، ولكن بوجه عام فالشكوى دائمة منها . أما الضرائب الزراعية فأرقامها تنطق بعبء ثقيل على كاهل كليل فالساقية تتراوح ضريبتها ما بين ثلاثة وخمسة جنيهات والمترة (ما يسقى بساقية على بئر) ما بين ١٧٥ و ٣٥٠ قرشا والشادوف ما بين ٢٥٠ و ٣٥٠ قرشا وفدان الجزائر ما بين ٥٢ و ٦٠ قرشا وفدان الجروف بين ٢٢ و ٤٥ قرشا . هذه الأرقام أوردها على سبيل المثال لا الحصر . فهناك ضرائب الأراضى المطرية والمنازل والمراكب وغيرها مما يلاحق المواطن فى حلّه وترحاله وينتشر الباشبوزق فى البوادى والقرى يحملون السياط مذكّرين

الأهالى بسلطة الميرى ونفوذ الحكومة بطريقة الجلد والرشوة والتخويف . فلا غرابة إن ضجَّ الأهالى وجأروا بالشكوى حتى ضربوا المثل الشهير الذى يقول « زولين فى تربة ولا ريال فى طلبه » .

والقضاء فى الأحوال الشخصية يمارس بمقتضى الشريعة الإسلامية ويقوم عليه قضاة ومفتيون فى عواصم المديريات ونواب شرع فى المدن الصغيرة . والقانون الهمايونى أساس المحاكمات فى القضايا المدنية والجنائية وفى كل مدينة مجلس محلّى من التجار والأعيان ينظر فى القضايا الصغيرة وأعضاء المجلس لا يتعاطون أجرا على ذلك اللهم إلا بعض رؤساء هذه المجالس فى المدن الكبيرة وابتدأت العضوية تشمل الضباط والموظفين الذين هم فى حالة المعاش وفوق الكل مجلس أعلى للاستئناف ومقره الخرطوم . وأما القضايا الكبيرة فينظر فيها المديرون بأنفسهم وبعضها تحال للقاهرة للبت فيها هناك . ولكل من المدن الكبيرة ضبطية قضائية بقواصيها تباشر التحقيق فى الجرائم وتقديمها للمحاكمة . والجيش الذى عليه حفظ الحدود وأطفاء الثورات الداخلية يتكون من مصريين وسودانيين والعنصر الأخير أصبح يتزايد بمرور الزمن وخاصة عندما أصبحت الحاجة ماسة للجنود لاتساع رقعة الإمبراطورية ولصعوبة التجنيد فى مصر والترحيل إلى السودان .

التجارة

وتجارة السودان كانت مزدهرة ومتصلة بمصر ويمكننا أن نقسم البلاد إلى ثلاثة أقسام من حيث الطرق واتصالها تجاريا بمصر والبحر الأحمر . فالأول حوض النيلين الأزرق والأبيض وروافدهما بما فى ذلك كردفان الشرقية . وتتدفق المتاجر فى هذا الأقليم بالنيلين إلى الخرطوم ومنها شمالا إلى بربر ومن ثم أما إلى الشرق لسواكن أو شمالا عبر الصحراء إلى كرسكو . وتحمل القوافل من البضائع العاج وريش النعام والتمرهندى والسنامكى والجلود وقرون الخرتيت والنيلة والمسك والزيت والشحم والعسل والشمع والذرة والملح . أما الطريق الثانى فهو طريق الأربعين الشهير فيبدأ من كوبى بدرفور وينتهى فى أسيوط وينقل حاصلات كردفان الغربية ودارفور وبعض الأقاليم التى تخرج عن إدارة السودان

كودّاى و باقرمى و بورنو وما والاها من الأقطار غربا وقد قلت التجارة على هذا الطريق بعد فتح دارفور نظراً للرقابة الصارمة على تجارة الرقيق أولا ولخوف سلاطين الأقاليم الغربية من الفتوحات المصرية ثانياً ، فتحولت متاجرهم إلى الطريق الممتد من بحيرة شاد إلى مرزوق وطرابلس . والصمغ والريش والعاج والأبنوس والجلود كانت البضائع التى تحمل إلى مصر على هـذا الطريق ، والطريق الثالث تخرج متاجره من الحبشة مثل البن والشمع والعسل وتنتهى عند مصوع على البحر الأحمر . ومثلما فتوحات دارفور والرقابة التى ضربت على تجارة الرقيق أضرت بطريق الأربعين كذلك تناقصت المتاجر التى كان مصدرها خط الاستواء وبحر الغزال لمنع التجار من تعاطيها فى تلك الأقاليم كوسيلة لتشديد الرقابة على الرقيق . وما يرد إلى السودان من السلع فى مبادلة مايصدره ، يتكون معظمه من المنسوجات القطنية والآلات الحديدية القاطعة وغيرها .

والصورة العامة التى تخلص لنا من العهد بكامله هى أن السودان فتح لتأثير المدنية تعمل فيه عن طريق مصر وتوحدت أجزاؤه المختلفة تحت إدارة واحدة ممعنة فى المركزية وكانت تحدث التفاتات تحمل النوايا الحسنة من الجالسين على الأريكة الخديوية غير أن داء الإدارة التركية المتفشى فى كل أجزاء الإمبراطورية العثمانية وجد طريقه إلى السودان حيث شاعت حوادث الرشوة والاختلاس وزاد عبء الضرائب زيادة لم يعد يحتمله كاهل الأهالى واستخدمت أحياناً طرق تدل على الظلم والجور مما لطخ سمعة الإدارة من هذه الناحية ، وأخيراً جاء إسماعيل بإصلاحاته الإنسانية من حيث العمل على إبطال الرق والعمرانية من حيث ربط أجزاء السودان بشبكه من الأسلاك التلغرافية والبدء فى مد خط السكة الحديدية السودانية والثقافية من حيث إنشاء المدارس المدنية والصرف على مساجد العلم والقرآن من إحساناته الخاصة .

حكّام السودان إلى قيام الثورة المهدية

الاســـــم	تاريخ التعيين	ملاحظـــات
١ عثمان بك	جمادى الآخرة ١٢٣٩ – فبراير ١٨٢٤	
٢ محو بك	شـوال ١٢٤٠ – مايو ١٨٢٥	
٣ على خورشد باشا	جمادى الآخرة ١٢٤١ – ينـاير ١٨٢٦	أوّل من تلقب بحكمدار
٤ أحمد باشا أبو ودان	صـفر ١٢٥٤ – أبريل ١٨٣٨	
٥ أحمد باشا المنـكلى	شـوال ١٢٥٩ – أكتوبر ١٨٤٣	منظّم
٦ خالد باشا	الحجـة ١٢٦١ – ديسمبر ١٨٤٥	
٧ عبد اللطيف باشا	الحجـة ١٢٦٥ – أكتوبر ١٨٤٩	
٨ رستم باشا	ربيع الأوّل ١٢٦٨ – ديسمبر ١٨٥١	
٩ إسماعيل باشا حقى أبو جبل	رمضان ١٢٦٨ – يونيـه ١٨٥٢	
١٠ سليم باشا صائب	رجب ١٢٦٩ – أبريل ١٨٥٣	
١١ على باشا سرّى	جمادى الآخرة ١٢٧٠ – مارس ١٨٥٤	
١٢ على باشا جركس	ربيع الآخر ١٢٧١ – ديسمبر ١٨٥٤	
١٣ الأمير محمد عبد الحليم	ربيع الأوّل ١٢٧٢ – نوفمبر ١٨٥٥	
١٤ أراكيل بك	جمادى الأولى ١٢٧٣ – يناير ١٨٥٧	مديرون للخرطوم حقبة لامركزية سـعيد
١٥ حسن بك سلامة	رجب ١٢٧٥ – فبراير ١٨٥٩	
١٦ محمد بك راسخ	الحجـة ١٢٧٧ – يونيـة ١٨٦١	
١٧ موسى باشا حمدى	القعـدة ١٢٧٨ – مايو ١٨٦٢	
١٨ جعفر باشا صادق	محـرم ١٢٨٢ – مايو ١٨٦٥	
١٩ جعفر باشا مظهر	شعبان ١٢٨٢ – ديسمبر ١٨٦٥	
٢٠ ممتاز باشا	رجب ١٢٨٨ – سبتمبر ١٨٧١	مدير عموم قبلى السودان
٢١ إسماعيل باشا أيّوب	شـوال ١٢٩٠ – نوفمبر ١٨٧٣	مدير عموم ثم صار حكمدارا
٢٢ غوردون باشا	صفر ١٢٩٤ – فبراير ١٨٧٧	
٢٣ محمد رءوف باشا	صفر ١٢٩٧ – يناير ١٨٨٠	

اشتعال الثورة

أصل محمد أحمد وحياته الأولى

ولد للسيد عبد الله فى جزيرة لبب بالقرب من دنقلا العرضى حوالى سنة ١٢٦٠ هجرية ولد سماه محمد أحمد . وكان الوالد يحترف صنعة المراكب ، ولأمر ما ترك دنقلا وصعد فى النيل مثل ما فعل أجداده فى هجرتهم من قبل ونزل بشندى أولا ثم واصل السير جنوبا حتى حط الرحال بكررى شمالى أم درمان بقليل ، ولم يمكث الوالد إلا قليلا فى موطنه الجديد إذ توفى إلى رحمة مولاه . وما كان لأخوة محمد أحمد غير اقتفاء أثر الوالد فى الصنعة غير أن محمد أحمد لم يجد فى نفسه الميل لمثل ما يعملون ، بل مال بفطرته نحو الدين ، وكان من الطبيعى أن يدخل مدرسة القرآن أو الخلوة فى القرية التى يقيمون فيها ، ولكنها لم تطفئ ظمأه نحو العلم والقرآن بل رحل لغيرها فى الخرطوم ولثالثة فى الجزيرة وحفظ القرآن وفى الأخيرة بدأ يدخل فى درس العلوم الفقهية .

فى مدرسة محمد الخير

ما عارض أخوانه فى ميل أخيهم ونزعته نحو الدين والقرآن ، وكيف لهم أن يعترضوا من خصه الله وهداه نحو الطريق القويم . وقد ترامى إلى سمعه شهرة الشيخ محمد الخير وحلقات درسه الدينية ، وترامى إليه كثرة الطلاب وشهرة الغُبُش فى عالم الدرس والتحصيل والصلاح ، فهاجر إلى الشمال وهناك نهل ما استطاع أن ينهله من علوم النحو والتوحيد والفقه والتصوف وهناك كان يمارس الزهد والتقشف والتعبد . فحلقات الدرس والمناقشة بالنهار والتهجد بالليل . ولم يك كغيره من الطلاب الذين ينامون ملء جفونهم ويتناولون ما يقدمه لهم شيخهم من طعام أو ما يتفضل به أهل الإحسان . وقد آلى على نفسه منذ البدء أن ينقى النفس والبدن معا من الأدران أو ما يشتبه فيه . فشيخه يتناول مرتبا حكوميا من الذرة والمال ، ومثل هذا الرزق لا يضمن خلوه من الظلم والمحرمات فهو لا يبنى خلايا جسمه بالمشتبه فيه وما عليه إلا أن يذهب فى بهيم الليل للصيد الحلال

على شاطئ النهر لاصطياد السمك ، ويلقى فى سبيل ذلك من النصب ما يلاقى قبل أن يقع السمك فى سنّارته .

وبديهى أن يتناقل الطلاّب أخبار ذلك الشاب الزاهد المتقشف الذى لا يعيش مثلما يعيشون ، وطبيعى أن تصل أخباره إلى شيخه الذى يعجب به ويقرّبه ويشركه فى طعامه من محصول سواقيه وجزائره لا من هبات الحكومة . فإذا ما وثق الطالب مما يقوله شيخه اطمأن إلى طعامه ووجد فسحة من الوقت يقضيها فى العبادة بدلا من انتظار رزق من السمك يسوقه له الله . أروى محمد أحمد غليله من العلوم الشرعية وعرف شيئاً من التصوف بالقراءة والممارسة معا ، وكالغزّالى قبله رأى أن الحقيقة الكاملة لا تنقلها الكتب وحدها فلا بد من التصوّف ولا بد من أن يأخذ طريقا على شيخ شهير . وما كان فى المنطقة التى تجاور الخرطوم من هو أعلى كعبا وأبعد صيتاً من الشيخ الطيب « راجل أم مرّحى » الذى أخذ الطريقة السمانية من المدينة المنورة ونشرها فى أقاليم السودان ، وهاهو حفيده الشيخ محمد شريف ولد نور الدايم يقتفى أثر الجد المؤسس للطريقة فى هذه البلاد .

في مسجد ولدنور الدايم

دخل محمد أحمد فى عداد المريدين وهنا وجد متسعا من الوقت للعبادة والتأمل وهنا استمر يحتطب ويجهز طعامه بنفسه وإذا ما تفقد الشيخ تلاميذه ومريديه بالليل لم يجد محمد أحمد كغيره من « الحيران » نائما بل يجده فى يقظة يتعبد ويتهجد فلفت نظره ذلك الشاب الذى لم يجد له نظيرا من بين مريديه ورفعه مكانا عليا وسمح له بأن يسلك الطريق نيابة عنه . كل ذلك وأخوة محمد أحمد يقيمون فى الخرطوم بعد أن مات الوالد ودفنوه فى كررى وبعد أن رأوا أن مهنتهم تتطلب التواجد فى الموردة الكبيرة بالخرطوم .

في سبيل الرزق

وما عرف العلم والتعبد بطريقة يعيش منها الإنسان فطبيعى بعد أن أذن له شيخه فى تسليك الطريق أن يمارس مهنة يعيش منها ، وهو لا يريد أن يبقى عالة على أخوته فاحترف أول مرة بيع خشب الحريق فى سوق الخرطوم ، وعلم

ذات مرة من امرأة تساومه فيه أنها تريده « للسورج » الذى يحوّل إلى خمر فيما بعد فأنفق ماعنده منه للناس وترك بيعه نهائيا . واشترك مع غيره فى تجارة الذرة وصعدا فى النيل الأبيض فما ابتعدا كثيراً من الخرطوم حتى نادى محمد أحمد شريكه بالوقوف وشراء ما يريدانه من تلك الجهة . فخالفه الشريك معترضا بأن وافر الربح فى الابتعاد فأجاب محمد أحمد « ماذا نقول لربنا إذا ماخاطبنا بأن الدنيا عدوة وأننا سافرنا نطلبها ؟ » فنزل الشريك على ما أراده محمد أحمد ، ولكنهما اختلفا مرة أخرى حيث يريد محمد أحمد بيع الذرة فى الحال والشريك يريد التريث فاقتسما السلعة وباع محمد أحمد نصيبه بالثمن الحالى ونفض يده من تلك التجارة أيضا .

العزلة فى الجزيرة أبا

وما كان لرجل هذا رأيه أن يطمئن إلى محيط الخرطوم بضجيجه ، وهو يريد الخلوة والتأمل فصعد فى النيل الأبيض حتى حط رحاله بجزيرة أبا ذات الغابات المتشابكة ، وكان يسكنها عدد قليل من العرب الرحّل وأنفار قلائل من الشلك وهم سكانها الأصليون ، وهناوجد متسعاً من الوقت وهناسلك الطريق عليه سكان الجهة وأصبح له أتباع ومريدون وسرعان ما جذب أخوته إليه فى الجزيرة حيث تصلح لصناعة المراكب بما فيها من أشجار ضخمة وسرعان ماذاع صيت الشيخ محمد أحمد كرجل صلاح وتقوى . فإذا صلى بكى واستبكى وأطال الوقوف والركوع والسجود وإذا وعظ أثر فى النفس وهو فوق ذلك لا ينام من الليل إلا أقله قائما متعبدا وعيشه عيش من زهدوا زخرف الدنيا واتّجهوا بأنفسهم إلى الأخرى .

علاقته بشيخه محمد شريف

اتّصل حبل المودة بين الشيخ وتلميذه . ففى المواسم والأعياد يذهب محمد أحمد لتقديم فروض الولاء لأستاذه فى مقرّه ، وقد وصف له جهات الكوّة وحببها إليه فكان الشيخ يقيم بعض الوقت فى مكان بين الكوّة والجزيرة أبا . كل ذلك والتلميذ يرتفع فى سلّم الشهرة ارتفاعا محسوسا حتى أصبح ذكره على الأفواه والبواخر والمراكب بين فشوده والخرطوم تلقى مراسيها فى جزيرة الشيخ محمد أحمد ليمدها بالبركات وتترك بعض الهدايا عنده لينفقها على الخلوات والحيران الذين كثر

عددهم . ويظهر أن لمعان اسم محمد أحمد فى سماء الشهرة أوجد شيئاً من المنافسة بين التلميذ وأستاذه فتوترت العلاقات ووقع خلاف وانشقاق يقال إنه نتيجة استياء محمد أحمد مما حدث فى حفلات ختان أبناء أستاذه من لهو لم تستسغه طبيعة التلميذ .

اتصاله بالشيخ القرشى

ولـكن كيف له الاطمئنان إلى حياة الصوفية والطريقة السمانية بصفة خاصة بدون شيخ فهو مخلص لها واطمأن إلى الحياة الروحية فى ظلها . و بعد فترة روحية فيها بعض القلق رأى فى الشيخ القرشى فى الحلاويين بأرض الجزيرة ما يعوّضه عن أستاذه الأوّل . فهو من تلاميذ الشيخ الطيب نفسه وهو قائم بشروط الطريقة بمسلك لا شبهة فيه ، فجدد العهد على يديه والواقع أن شهرته ما كانت فى حاجة إلى شيخ غير أنه رأى من مستلزمات الطريق وهو لا يزال شابا دون الأربعين أن يعتمد على شيخ له قدم راسخ فى الحياة الصوفية وأبدى بالرغم من ذيوع صيته من الخضوع والانـكسار لشيخه الجديد مثلما كان يبديه لأستاذه الأول وشاءت الأقدار أن ينتقل الشيخ القرشى إلى الدار الآخرة وأن يشرف تلميذه على بناء قبة فوق قبره .

الدعوة سراً

كان إتمام بناء قبة الشيخ القرشى فاتحة التبشير بالدعوة سرا فقد وافاه عبد الله بن محمد الذى أصبح خليفته الأول فيما بعـد عند بناء القبة ، وكان أول من آمن بمهديته . وعند ما رجع إلى أبا دخل فى دور المـكاتبة لرجال الدين من مشايخ الطرق وعلماء الشريعة سرا وكانت كتاباته فى بادئ الأمر تلميحا لا تصريحا ، فبعضهم آمن واستعد إلى حين صدور الأمر و بعضهم كفر بالدعوة ولم يعرها اهتماما . وقام بعد أن بقى بجزيرته حينا بطوافه فى مديرية كردفان وجبال النوبة يسر بالدعوة إلى من يثق به و بتأييده وقد عاهده البعض وخاصـة الملك آدم أم دبالو ملك جبال تقلى .

إظهار الدعوة

رجع الشيخ محمد أحمد من رحلة كردفان وبدأ فى التو والحال بتحرير الخطابات الصريحة هـذه المرة إلى رجال الدين يدعوهم لنصرة الدين والقيام

لتأييد المهدية الكبرى التى خصه الله تعالى بها وعلى نصرة الكتاب والسّنة وأخبرهم أنه أمر بإعلانها وسيمشى النصر بين يديه . وبديهى أن تقع إحدى تلك الخطابات فى يد الحكومة ولم يعرها محمد رءوف باشا اهتماما لأنه لم يتعوّد ولا من كانوا قبله من الحكام أن يقوم درويش فقير ضعيف القوة والعون بمناصبة الحكومة العداء بنفوذها وسيطرتها أولعل هذا الشيخ إن صح ما نسب إليه كتب ما كتب وادعى ما ادعى فى حالة جذب قد تعترى مثله من الدراويش أحيانا . ولكن الأخبار تواترت والمنشورات أعلن أمرها وانتشر فلا أقلّ من أن يتبيَّن الحكمدار جلية الأمر ولكنه إلى الآن ليس بشيء كبير يجذب اهتمام الحكومة فى مصر حتى يعلنها به ولا يستدعى الحال أن يخبر حتى ولا مدير المديرية التى تتبعها أبا وهى فشودة .

سفارة محمد بك أبو السعود

وكان محمد بك أبو السعود معاونا للحكمدارية آنذاك وهو قد سافر كثيراً فى النيل الأبيض وله معرفة شخصية بأخوة الشيخ محمد أحمد بل ربما يكون آمن بصلاح محمد أحمد واستقامة سيره ، ولكنه لا يصل لدرجة الإيمان بمهديته . فقام فى وابور مع بعض الأعيان من أقارب المهدى فى الخرطوم وأخذ فى طريقه بعضهم من الفشاشوية . كل ذلك لعلمه بل يقينه إنها قد تكون شطحة من شطحات الدراويش تنتهى بمراجعته . وعندما ألقت الوابور مراسيها على الجزيرة أظهر المهدى استعداده لمقابلتهم ولكن بعد حين وفى فترة الانتظار شرح أبو السعود مهمته لأقارب المهدى قائلا « رأيت أن نراجع الشيخ محمد أحمد عما نسب إليه من دعوى وأحضرت معى الكبراء والأعيان من الخرطوم والفشاشوية من أهله لنتحد الجميع معكم فى إرجاع الشيخ عما ادعاه وإنى كصديق لكم أرجو أن أوفق فى مأموريتى » فأجاب الكل بأنهم لم يعهدوا فى محمد أحمد كذبا والأفضل الانتظار كيما يسمع منه بنفسه .

لم يجد أبو السعود من محمد أحمد إلا كل أصرار حين قابله ومهما يتوعد ويهدد أو يحسن القول فالاستجابة واحدة . وذكر أبو السعود فيما ذكر الآية « يا أيها

الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم » ، فأجاب المهدى « أنا ولى الأمر فى هذا الأوان فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » فقطع المندوب الرجاء وقفل راجعا فى وابوره ليخبر الحكمدار بما رأى وما سمع وأبرق له بالنتيجة من الكوة .

الخديوى يعلم الأمر

عندذلك أحس الحكمدار أن الأمر يستدعى بعض الاهتمام فجهّز بلوكين من الجنود لأنه علم من أبى السعود أن من مع المهدى لا يجاوز المائتين وعهد إلى أبى السعود بمرافقة الحملة كخبير ورأى بعد أن أبحر الوابور أن يبرق للجناب العالى بمصر بما يأتى :— « [1] فى ابتداء شهر رمضان أشيع بأنه موجود بجزيرة أبا التابعة مديرية فشودة بعيدا من الكوة بمسافة ثمانية ساعات شخص يسمى الشيخ محمد أحمد من أهالى دنقلا من مشايخ الطرق مدعى أنه المهدى المنتظر وبوقته عينّا قاضى الكوة واثنين من العلماء لينظروا الخبر فتوجهوا إليه وتحقق أمر ذلك الشخص واستحصلوا على مخاطباته المحررة إلى ناسات بخطّه وختمه يدعوهم أنه هو المهدى المنتظر وأرسلوا تلك المخاطبات لنا بالبوستة فبوصولهم لطرفنا قد عينا واحد وابور وأرسلنا من طرفنا مندوبين وحررنا له جواب بالنصيحة وأن يقوم يحضر لطرفنا وعند وصول المندوبين سلموه المخاطبات فحرر لنا ردهم بأنه هو المهدى المنتظر ومن لم يصدقه فالسيف ولكون أوروا بأنه موجود بعد نحومائتان نفر قد عينا وابور وبلوكين عساكر جهادية وواحد مدفع تحت قومندانية صاغقول أغاسى الطوبجية وأعطيناهم التعليمات اللازمة وفهمناهم بأنهم يجروا كل الطرق المستحسنة لحضور محمد أحمد بدون زعزعة وأن تراءى لهم عدم إمكان حضوره وأشهروا عليهم السلاح يجرى ضربهم وإحضاره بالقوة الجبرية وإفادتنا عن كل ما يجروه أول بأول وفى يوم الأربعاء الماضى صار قيامهم من الخرطوم إلى تلك الجهة ولزم عرضه بالإخطار أفندم » .

(١) دفتر ٤ وارد تلغرافات من سنة ١٨٨١ بتاريخ ١٤ أغسطس سنة ١٨٨١ .

المهدى يستعد للملاقاة

ولنترك الوابور تحمل البلوكين فى طريقها إلى الجزيرة ولننظر مافعل المهدى بعد ذهاب أبى السعود وتيقنه بأن الحكومة لا بد أن تبعث بجندها لحربه. أرسل المهدى لدغيم والعمارنة بالحضور فكاشف الجميع بالحرب وأخبرهم أن من يريد القتال جهاداً فى سبيل الله فليبق ومن لم يرد فهو حر يذهب أنّى شاء فرضى الكل بالجهاد وبايعوه على الأنفس والمال والولد وبعدها كانوا يتدربون على الحرب الدفاعية والهجومية ويستعرضهم المهدى ويعظهم مدة ثلاثة أيام قبل ملاقاة الجند الحكومى.

ليلة المعركة

وصل الوابور إلى الفشاشوية، وكان يقيم هناك بعض الدناقلة الموالين المهدى يعملون فى المراكب نخف بعضهم وأتى على جناح السرعة لإبلاغ المهدى خبرها فوجدوه فى صلاة التراويح وبعد قضاء الصلاة بدأ المهدى وصحبه فى الاستعداد لملاقاة العدو فأحضرت الرايات وكانت خمسا ومكتوب على كل منها لا إله إلا الله محمد رسول الله وعلى إحداها أضيف الجيلانى ولى الله والثانية أحمد الرفاعى ولى الله والثالثة إبراهيم الدسوقى ولى الله والرابعة أحمد البدوى ولى الله والخامسة خالية فأمر المهدى بفرع من الأراك ودقّ طرفه حتى أصبح كالفرشاة فكتب به على كل الرايات محمد المهدى خليفة رسول الله. فكانت تلك اللحظة الفارق بين الطريقة والمهدية وما بين المسالمة والجهاد وقد أصبح اسمه بعدها محمد المهدى بدلا من الشيخ محمد أحمد ثم عيّن النقباء لأصحابه الذين لا يزيدون على المائتين كثيرا.

المعركة

أتى الخبر إلى المهدى بوصول الوابور ونزول الجند قبل الفجر فأمر فقلعت الرايات ومشى خلفها الأنصار حتى غرزوها أمام القرية وجلسوا وراءها متوارين عن الأنظار. سار الجند من الشاطئ نحو القرية، وقد ظنوا أنهم يفاجئون الشيخ وصحبه ويلقون القبض عليهم دون كبير عناء فظلوا سائرين حتى وجدوا أنفسهم أمام الرايات ومن خلفها الأنصار وجها لوجه. وهنا أشار المهدى بأن تقلع الرايات ويتحرك الأنصار وراءها واشتبكوا مع الجند فى موقعة حامية فى

أرض موحلة ومنخفض منها وما تمكّن العساكر من تنفيذ أمر الضرب مرتكزا حيث دخلتهم الأنصار وأعملت السيوف والحراب والعصى فيهم ما لم تعمله الأسلحة النارية فمات معظمهم وقليل من فرّ ووجد طريقة راجعا إلى الوابور . تلك قصة الواقعة الأولى بين المهدى وجيش الحكومة والتى لا اختلاف بين الرواة فى أن المهدى خرج بالنصر والحكومة بالهزيمة إذا ما اختلفت التفاصيل .

القصة الرسمية للواقعة

وهاك القصة من التلغراف الرسمى الذى بعث به الحكمدار إلى مصر بعد أن وصلته الأخبار المشؤومة من أبى السعود بالتلغراف من الكوّة[1] « ورد تلغراف من معاون الحكمدارية بالكوّة يفيد أنه لما توجهت العساكر إلى جزيرة أبا بالبحر الأبيض محل إقامة الشقى محمد أحمد المدعى إنه المهدى السابق العرض عنه فبوصولهم هناك القوا الأمر الذى بيدهم ولم أرسلوا قاضى جهة الكوّة الذى أمرناهم بإرساله إلى الشقى لأجل يدعوه للحضور وإن لم يمتثل وأشهر عليهم السلاح يعامل بالقوة الجبرية بل أخرجوا العساكر ليلا الساعة التاسعة[2] وقصدوا محل إقامته لضبطه فوجدوا بعض اشخاص بهيئة دراويش ينوفون عن المأتين نفر مجتمعين وشاهرين بوارقهم فعند ذلك أمرهم الريس بضربهم بالرصاص فلم يمتثلوا لأمره وقالوا هؤلاء دراويش فقراء لا يصح ضربهم ولما قربوا منهم فهمّوا عليهم الدراويش وتمكنوا منهم وقتلوا مائة وعشرين عسكرى وستة ضباط وهذا نشأ من عدم الانقياد للرئيس المعيَّن معهم وما تبقى من العساكر رجعوا التجأوا بالبحر بجوار الوابور » .

خطة الحكمدار

انجلت الموقعة الأولى باندحار قوة الحكومة وكان عليها أن تدبر ما يقضى على المهدى حيث أن انتصاره هذا ما كان عن ضعف فى قوة الحكومة أو قوة خارقة للمهدى بل من غلطات حربية ارتكبت . وقد وصلت الأنباء أن المهدى ينوى مغادرة الجزيرة والتوجه إلى جبال تقلى فاهتم الحكمدار بجمع قوة عسكرية كافية

---

(١) دفتر قيد التلغرافات الشفرة الواردة إبتداء من ٢٧ يونية سنة ١٨٧٩ بتاريخ ١٥ أغسطس سنة ١٨٨١ .

(٢) هذا يوافق الرواية القائلة بأن المعركة حدثت عند الفجر حسب الساعة العربية .

فى السكوة تتكون من أربعة بلوكات ترسل من الخرطوم وأربعة بلوكات جهادية ومأتين من الباشيوزق الخيالة من الأبيض وثلاثة بلوكات من فشودة وأمر مدير كردفان أن يسدّ الطرق المؤدية إلى جبال تقلى . هذا ما اتخذه رءوف باشا من إجراآت وهذه هى خطّة لمقابلة عدوان المهدى فماذا فعله المهدى إزاء ذلك .

خطة المهدى

تيقن المهدى أن لابد من تجهيز حملة كبيرة ضده ورأى أن الجزيرة أبا وتلك الجهات التى حولها لا تصلح لملاقاة قوات كبيرة وقرّ رأيه على الهجرة إلى جبال النوبة حيث يكون هناك بعيدا عن متناول يد الحكومة وإذا ما قصدته أية قوة تلاقى نصبا فى الوصول إليه . فقام بأنصاره وعبر النيل إلى الغرب وهناك تكامل عليه بعض قبائل دغيم وكنانة والحسنات وساروا متجهين إلى الغرب . وقد أبدى عساكر أبو كلام شيخ الجمع استعداده فى عدم اعتراض طريق المهدى إذا مر فى غير داره لأنه موظف من قبل الحكومة وسوف تنزل به العقاب إذا علمت بأن المهدى مرّ فى داره . وكانت خطة المهدى منذ البداية المرور على دار الأحامدة لا على دار الجمع غير أنه طلب من الناظر ألا يمنع الأنصار الذين يمرون بداره فرادى يريدون اللحاق بالمهدى فى دار الهجرة فوعده بذلك .

فى الطريق إلى قدير

قوبل المهدى وصحبه بالإكرام من ناظر الأحامدة ورجالها وكان سيرهم بطيئا نظرا لهطول الأمطار . وعند ما شارفوا حدود تقلى أذن الملك آدم أم دبالو للمهدى بدخول داره حسب ما وعد به من قبل . وأول منهل نزلوه فى تقلى هو الزمزمية وأمدهم أرباب جهة أم طلحة بما هم فى حاجة إليه من ذرة وبقر . وبقى المهدى بذلك المنهل عدة أيام لتوالى نزول الأمطار وهناك بدأ سكان بعض الجبال والعربان النازلين فى الأودية بالانضمام إلى راية المهدى ، وكانت جواسيس الملك آدم تتسمع الأخبار من جهة الحكومة فعلمت بقيام محمد سعيد باشا مدير كردفان من الأبيض على رأس قوة كبيرة مقتفيا أثر المهدى وأشار الملك على المهدى بالارتحال إلى مكان حصين يدعى « بطن أمّك » وهو ما يحتمى به أهل تقلى إذا ما أعلنوا عصيانهم على الحكومة فلا تنالهم جيوشها مهما حاولت .

ارتحل المهدى إلى « بطن أمك » ووجده مخضرًا ممرعا غزير المياه و بعد إقامتهم فى ذلك الموطن ثلاثة أيام وصل محمد سعيد باشا إلى حدود تقلى وتبيّن له أن الملك لا يسمح له بدخول داره ووصل آنذاك إلى المنهل الذى تركه المهدى وهو الزمزمية . وعلم سكان الجهة أن الملك لم يسمح للباشا بدخول تقلى ، فدبّروا خطة لإرهابه بالليل حيث صعد جماعة منهم و بأيديهم السلاح النارى على رءوس الجبال المحيطة بالمنهل ليلا وأطلقوا بنادقهم وكان لها دوى مروّع تجاوبت أصداؤه فى الجبال ، فاستفهم محمد سعيد فقيل أنه المهدى وصحبه ولكنه لا ينالك بشرّ وأنت داخل دارنا . فطلب من أرباب [1] الجهة أن يخرجه وجيشه من أقرب طريق . فخرج بعد أن دفع ألفى ريال غرامة بصفة « أدبه » للملك آدم لأنه دخل داره دون إذنه

محمد سعيد يرتد عن الجبال

وقد نقل الحكمدار بالبرق أخبار حوادث محمد سعيد باشا ودخوله جبال تقلى ورجوعه منها بتلغراف تاريخه ٨ أكتوبر يقول فيه : « إن محمد سعيد باشا مدير كردفان بتاريخ ٦ شوال سنة ١٢٩٨ قام بألف عسكر جهادية ومائتين وخمسين باشبوزق ومائتين خياله من العربان ورجع بتاريخ ٢٣ منه وقدم تقرير عن أنه اقتفى أثره لغاية جبال أم طلحة احدى جبال تقلى ولما تراءى له أن أهالى الجبال مزعزعين وملك تقلى قبل الشقى بطرفه وجد القوة لا تناسب . وضربُ جبال تقلى يلزمها ٦ أورط بيادة وستة أرادى شايقية لأن مك تقلى منذ فتوح دارفور تقوّى بجلابة بحر الغزال وجلابة شكا وكثير من أهل كردفان تهربوا للتخلص من دفع الماليه وحررت خصوصى إلى مك تقلى وارسلت ابن الياس باشا لكى ينصحه ويرسل هذا الشقى » .

بيان رسمى عن مهمة محمد سعيد باشا

أجّل الحكمدار تنفيذ الخطة التى نوى اتباعها لتقرير محمد سعيد باشا عن تقلى وما يلزم لها من قوة وكذلك موسم الأمطار لا يناسب تحركات قوة عسكرية كبيرة . وفى فترة الانتظار هذه وصلته أنباء تقلّل من أهمية المهدى وتقول بأن الكثير من اتباعه صدّوا عنه ولم يبق معه إلا القليل من البقارة والدناقلة . والعداوة المتأصلة بين البقارة وغيرهم و بين بدنات البقارة أنفسهم لا تجعل لحركة

تأجيل الخطة

(١) مندوب الملك فى الجهات .

المهدى شأنا كبيرا . فالحكمدار قد اطمأن بعض الشىء ولا يرى خطورة كبيرة الموقف وذكر فى بعض رسائله أن « الحامل لهذا الشق على هذه التسببات هم بعض الدناقلة أقاربه الذين كانوا متخذين جلب الرقيق حرفه » فليست الحركة إذا فى أساسها ترتكز على عقيدة دينية عميقة حسب رأيه .

المهدى يستقر فى قدير

تركنا المهدى فى « بطن أمك » وقد لحقت بعض جيوشه بمؤخرة محمد سعيد باشا وغنمت منها بعض الشىء وسار إلى جبل النقارة وأقام به شهرا كاملا لتوالى هطول الأمطار وبعدها جاوز حدود تقلى متجها إلى جبل قدير فنزل أولا فى جبل كُرُن ثم الوِدَى وفى جبل الجراده بعد ذلك قاتلهم الفكى المختار الكنانى بعد أن عاهدهم بالموادعة فانتصر المهدى . ووصل إلى قدير وقابله الملك ناصر بالحفاوة والاكرام . وكان المهدى وهو فى طريقه متجها للغرب منذ أن غادر أبا يلتحق به الأنصار من الجزيرة وجهات النيل الأبيض وكردفان والجبال وفى قدير أتاه سكان الجبال المجاورة و بايعوه غير أنهم لم يكونوا على إيمان قوى ولم يركن المهدى إليهم . وبعد أن أقاموا بقية شهر القعدة والحجة أتاهم خبر راشد بك أيمن بوقت قصير قبل وصوله .

حملة راشد

سمع حاكم المديرية التى تتبعها الجزيرة أبا وهو راشد أيمن بك بأمر المهدى فخاطب الحكمدار بأنه سيقضى على حركته بما معه من القوة فى فشودة ولم يتلقّ الإذن من الحكمدار ، فقام من فشودة ومعه ٣٥٠ جندى نظامى و ٧٠ من الخطريه وقوة تبلغ الألف من الشلك على رأسهم الملك نفسه . والتزم خطة كتمان خبر التجريدة منذ البدء وسيّر الجند بسرعة حتى يضمن عنصر المفاجأة ووصل جبل فُنقر ووافقهم الملك تيفرا على كتمان الخبر بعد أن عاهد المهدى قبل ذلك بالمساعدة ولكن إمراة كنانية تدعى رابحة أسرعت سائرة النهار بأكملة وثلثى الليل حتى بلّغت خبر راشد إلى المهدى .

تجمّع الأنصار استعدادا لملاقاة العدو . وهم فى تلك الحالة وصلهم رسول من قبل الملك ناصر يخبرهم بأن البارحة وصلتهم « نَضِيرَة » وهى عادة اتخذها سكان

الجبال منذ القدم تنبئ بقدوم جيش محارب وهى عبارة عن علم فى رأسه نار يرفعه أصحاب الجبل الذين حل الجيش بهم ليلا وما إن يراه أهل الجبل المجاور إلاّ ويرفعون علما أيضا وهكذا إلى أن تصل مقر الملك ويتهيأ ويستعد لملاقاة الجيش وأيّدت هذه « النضيرة » ما نقلته رابحة الكنانية .

وبعد أن استكشفت طلائع المهدى جيش راشد وقف أنصار المهدى المشاة فى القلب والخيالة فى الجناحين ووصلت الجنود منهوكة القوى من أثر السير السريع المتواصل وكانوا يظنون أن عامل المفاجأة يعوّضهم عن قواهم المتضعضعة ، ولكنهم وصلوا فى حالة إعياء وتعب وأمامهم صف المشاة الأنصار كأنهم يتهيئون للصلاة وفى الجناحين خيالتهم . فدخل المشاة الأنصار فى الجيش أوّلا وعندما انفرط نظام عساكر راشد وبدأ بعض الجند يفرّ تناولتهم الخيول من الجانبين وانتهت بنصر حاسم للمهدى وقُتلت أغلبية الجيش بما فيهم راشد وكيكون ملك الشلك ، ومن نجا رجع لفشودة ليقصّ الخبر . واتصلت الأنباء بالحكمدار الذى لم يكن مسئولا حيث خالف راشد الأوامر مخالفة صريحة . وعند ذلك أدرك رءوف باشا أن الحالة خطرة وطلب قوّات من المحروسة وختمت سنة ١٨٨١ بهذه الموقعة وطار صيت المهدى بعد أن ربح الجولة الثانية ضد قوّات الحكومة ، وظلت الدروب المؤدية إلى قدير مقر المهدى المنتظر تصب مددا جديدا إن لم يكن كثيرا فإنه دلالة على بدء تقلقل العقيدة فى النفوس .

حوادث الثورة فى كردفان والجزيرة

طلب رءوف باشا الإمدادات من مصر بعد هزيمة راشد وظل كل يناير حقبة تردّد وفبراير وجزءا من مارس سنة ١٨٨٢ لا يدرى ما يفعل ، وكان العرابيون آنذاك قد سيطروا على الحكومة فى مصر وهم يخافون توزيع الجند ويريدون الجيش يقيم بمصر لأن قوّتهم مُستمدة منه واعتمادهم عليه . وما كانوا فوق ذلك يصدّقون أن الحاميات الكثيرة المنبثة فى السودان تعجز عن إخماد فتنة كهذه يقودها شخص

ينتمى إلى طبقة الدراويش وأنصاره ليس لهم سابق خبرة بالتدريب على القتال وليس لهم من الأسلحة النارية ما يصبح خطراً على أسلحة الحكومة ، ورأوا أن ما أحرزه من انتصار مردّه إلى عدم كفاية الحكمدار وعجزه فإذا ما استبدل برجل مدبّر حازم عالم بفنون العسكرية الحديثة لاستطاع أن يرد الأمور إلى نصابها ويشيع الثقة والطمأنية فى نفوس الناس بعد أن بدأت تتزعزع .

عبد القادر باشا إلى السودان

إختار العرابيون عبد القادر باشا حلمى لهذه المهمة وهو قد تلقى تعليمه العسكرى العالى فى أوربا وعرف أحدث فنون الحرب وله من مقدرته وكفاءته مايجعل منه رجل الساعة فى السودان . وما كانت الوزارة لتجد رجلا أجدر بمثل تلك المهمة . وما كان كغيره من الحكمدارين السابقين بل اختير لملء منصب جديد فى الوزارة وهو وزارة السودان وغادر عبد القادر باشا مصر ناظرا لوزارة السودان وحكمداراً له فى آن واحد . ووصل الخرطوم فى أوائل مايو سنة ١٨٨٢ ووجد الهلع والخوف يسودان الأوساط العسكرية والمدنية ونقل إليهم مايمازجه من اعتداد بالنفس وثقة تامة بنجاح مهمته . وإذا كان على يقين أن الفن الحربى الحديث وحده هو الذى يستطيع اخماد الفتنة ، بدأ بتحصين الخرطوم وأشرف بنفسه على التدريب العسكرى وفقا لأحدث الأساليب وألف كراسة طبعت فيها التدريبات الحربية ووزعها على الضباط وصف الضباط يهتدون بهديها . وإذا ما صار تجهيز حملة لإطفاء ثورة محلية فى الجزيرة أعطى ضباطها درسا مقتضبا عما يجب عمله من حيث الهجوم والدفاع والتحصين وغيرها زيادة على ما يجب استيعابه من الكراسة المطبوعة . وعلى وجه العموم أصبح حركة مستمرة أعادت إلى النفوس ما فقدته من ثقة وظُن أن الأمر سوف يحسم والمياه تعود إلى مجاريها بفضل الحكمدار الجديد .

كانت النغمة السائدة فى مكاتبات عبد القادر باشا لمصر هى الثقة التامة بانتهاء الأمر بفضل ما قام به من إجراء واصلاح فهو يقول تعليقا على تجريدة يوسف باشا الشلالى التى كانت فى طريقها إلى قدير « ومأمول ان شاء الله الحصول

على الغرض المقصود وبعد زمن قريب منظور حضور البوستة بالأخبار المبشرة بالظفر والنجاح » . وفى نفس الرسالة يقول « وقد زال عن خواطر العامة بل والعساكر ما كانوا يتوهمونه من الخرافات التى ألقيت إليهم بواسطة المفسدين وحصل من الأهالى الإذعان للطاعة وطلب الأمان ومن العساكر البسالة والإقدام وبعنه تعالى ونفوس الحضرة الخديوية قريبا يصير إزالة ومحو أثر ماهو حاصل من المفسدين وتقرير الأمن والراحة بين كافة أهالى هذه الجهات ويعودوا للتوطن والعمارية والله ولى التوفيق أفندم » .

تجريدة ود الشلالى

وقبل أن يصل عبد القادر وبعد مغادرة رءوف باشا كان القائم بأعمال الحكمدار جقلر باشا ، فرأى أن يحاول القضاء على قوة المهدى فى عرينه بقدير ، فحشد جيشا مؤلفا من ثلاثة عشر بلوك من الجند النظامى وألفى وخمسمائة من الخطرية وعقد لواء الحملة ليوسف باشا الشلالى . وهو من الكنوز الذين ولدوا فى السودان . عمل فى التجارة فى الجنوب وكانت تجارة « بحّارة » مدرسة لتكوين روح المغامرة والبطولة وخلق الرجولة فنال منها يوسف الشلالى نصيبا وافراً وبإضافة ذلك إلى ما منحه الله من ذكاء وصفات نادرة دخل خدمة الحكومة وارتقى فيها من حاكم فى أقليم الرول (رومبيك) إلى مساعد جسّى الأول فى تجريدته على سليمان الزبير إلى مدير سنار . فتوسم فيه جقلر الكفاءة والمقدرة لقيادة الحملة واستدعاه من سنار لذلك الغرض . وكان يوسف مؤمنا بنجاح مهمته واثقا من أنه سينال ما فشل فيه راشد وأخذ مع جيشه من المؤن والذخائر ما يكفيه للقضاء على المهدى وما هو لازم لتموين الجند بعد ذلك . وكان فى نيته أن يؤسس مديرية فى جبال النوبة عاصمتها جبل الجرادة وأخذ ما يلزم من تقاوى لزراعة الخضروات والمحاصيل الأخرى .

مسير الحملة

سار من الكوة إلى فشودة ومنها اتجه غربا ورئيس الخطرية معه طه أبو صدر الشايقى وأتته نجدات من كردفان على رأسها عبد الله دفع الله أخو أحمد بك دفع الله وعبد الهادى صبر . وقد علم المهدى بتكوين الحملة من أنصاره

الذين لحقوا به حديثا من نواحى الخرطوم والجزيرة والنيل الأبيض ، ونظّم طلائعه وعيونه ليلمّ بحركات التجريدة حتى لا تداهمه مثل ما أوشك راشد أن يفعل لولا رابحه الكنانية ونصيرة الملك ناصر . فبعث بجواسيسه إلى جبل فنقر للاقامة مع تيفرا وقد عاهده هـذه المرة بعد أن أخل به قبل ذلك وبعث بغيرهم للاقامة مع الملك آدم ملك تقلى يتنطسون أخبار الحكومة فى الأبيض بالرغم من أن الملك آدم ألقى فى روع رجال الحكومة أنه معهم وأنه يمنع المهدى إذا حاول اختراق حدود بلاده وأنه على استعداد لتجهيز حملة ضده فيما لو طلب إليه ذلك . وكانت الأيام آخر فصل الجفاف فشحت المياه ولذا أقام الشلالى فى فُنقر مدة أطول مما قدّر له يسقى جيشه وبهائم الحملة من آبار حفروها لهـذا الغرض ولم يرض عبد القادر باشا عن هذا التأخير عندما حضر إلى الخرطوم ورأى أن هذا يساعد المهدى بتجمع الناس حوله .

قتل الجواسيس

خان تيفرا العهد المرة الثانية وسلّم جواسيس المهدى إلاّ من فرّ إلى رئيس الخطرية طه أبو صدر وكان أول طليعة وصلت من جيش الشلالى إلى فنقر . وحكم الشلالى عندما حل بالجبل على الجواسيس بالإعدام بطريقة بتر الأعضاء واحداً واحداً أمام أنظار الجند . كل ذلك لشدتهم فى مخاطبة الباشا ولم يقرّه القاضى الذى كان فى رفقته ولا كبار رجاله على هذه الطريقة الوحشية فى إعدام الجواسيس وهى فوق وحشيتها قد تقود إلى هبوط الروح المعنوية فى نفوس الجند ، لأن رجلا هذا مبلغ تأثيره فى نفوس أنصاره إلى درجة تحملهم على مقابلة الموت بثبات كما فعلوا لا بد وأن يكون على شىء من الحق فى دعواه .

مخاطبات بين الشلالى والمهدى

كان الشلالى كغيره من رجال الحكومة المسلمين يرون فى دعوى المهدى خروجا على المألوف لديهم وفى تصرفاته ما ينافى ما أدعاه وأنه لا يصح لمسلم مهما بلغ من الصلاح والتقوى أن يرفع السيف فى وجـه جنود تدين بالولاء والطاعة لخليفة المسلمين العثمانى . ثم أن المهدى فى نظره فوق ذلك يبالغ ويتهم بالكفر من شك فى مهديته ولم يجد ولا غيره من المسلمين فى الكتب ولم يسمعوا من علمائهم

الذين استشاروهم أنّ إنكار المهدية يقود المسلم إلى الكفر . كل ذلك ظهر لهم مبالغة وإغراقا أو قل شطحات نادى بها درويش وهو فى شبه غيبوبة . هذا أو قريبا من هذا كان يراه المسلمون الموالون للحكومة فى المهدى ، وعليه رأى الشلالى مراجعته بالمنطق ولم يقطع الأمل فى رده إلى صوابه .

بعث الشلالى وهو مقيم فى فنقر إلى المهدى رسالة طويلة لم نهتد إلى نصها ولكن نقاطها البارزة حفظها لنا المهدى فى ردّه عليها وقد استعان الباشا بالطبع بالعالم الذى يرافقه وربما بالعلماء الآخرين قبل قيام الحملة . فهو يعترض على المهدى بأنه قتل الجند غدرا وهم قدموا للمراجعة لا للحرب فى أبا وردّ المهدى بأن من يرد المراجعة والمناقشة يرسل « الصلحاء والعلماء أهل المذاكرة والدراية بهذا الشأن ولم يرسل العساكر الأغبياء ويعطيهم الأسلحة . » ولاحظ الشلالى أنّه قتل المسلمين ظلما وعدوانا ورد المهدى « أنّا ما قتلنا إلا أهل الجرادة بعد أن كذبونا وحاربونا وقد أخبرنا النبى (صلعم) وأخبر جميع أهل الكشف بأن من شك فى مهديتنا وأنكر وخالف فهو كافر ودمه هدر وماله غنيمة فخار بناهم لأجل ذلك وقتلناهم » . ويستمر المهدى فى خطابه عن الترك ويقول « على أن النبى (صلعم) أمرنا صريحا بقتال الترك وأخبرنا بأنهم كفّار لمخالفتهم لأمر الرسول باتّباعنا وإرادتهم لإطفاء نور الله تعالى الذى أراد به إظهار عدله فكيف نسأل عنهم بعد هذا » وردّ المهدى على استخدام الطلائع ومناصرة ضعفاء الأعراب له بأن النبى (صلعم) استخدم الطلائع وكذلك صدّ عنه وجهاء القوم وناصره الضعاف فى أوّل الأمر .

المرحلة الأخيرة

وبعد أن هطلت الأمطار ووفرت المياه تحرك الجيش ونزل بجبل الجرادة وهناك تحصّن داخل زريبة من الشوك ظل الجند طول الليل يقيمونها وناموا فى الجزء الأخير من الليل مما لاقوه من السهر والتعب . وتحرك المهدى بكل جيشه ونزل ليلا حول الزريبة ولكنه لم يقترب منها . فبات ليلته وعند الفجر صلّى بهم ووقف فيهم خطيبا وحرّضهم على الجهاد فى سبيل الله وأوصاهم بأن يؤدى كلٌّ

دينه وأن يودّع الصديق صديقه وكلهم منصتون ، و بعد ذلك أخذ يلقى الأوامر على رؤساء الرايات وظلّ كل أمير يقلع رايته ويذهب إلى الجانب الذى أُمِرَ باحتلاله فى مواجهة الزريبة . و بعد أن انتظموا فى شبه حلقة حولها أمر أنصاره أن يحمل كل منهم سبع حبّات من الحصى ويرميها على الزريبة وهو يقول « اللهم أنت ربّنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت ثم تكبّروا وتدخلوا الزريبة » .

المعركة — اشتبك الفريقان فى موقعة لم تكن بالسهلة الهينة وقد كانت من أشد المعارك التى دارت بين الفريقين فى حروب المهدية ، وتمكن الأنصار من إجلاء الجند من الزريبة ومتابعتهم بعيدا عنها . وقتل فى الهجوم الأول طه أبو صدر فضربت زوجته النحاس وظلّت تنادى بجنده للتجمع والثبات وأبدت بسالة لم تُعهد فى إمرأة مثلها. واتخذ عبد الله دفع الله خدعة جازت على الأنصار بأن أمر جنوده بالقاء أنفسهم على الأرض حتى يظنّ بأنهم ماتوا وبعد أن تركت الراية الزرقاء (راية الخليفة عبد الله) الزريبة متعقبة أثر الجند الذين خرجوا منها قام وأصلح الزيبة وأصلى الراية الزرقاء نار حامية كانت شديدة الوطأة عليهم ، وما أن تمكنوا منه إلا بعد أن أحاطوا بالزريبة مرة ثانيه وتغلبوا عليه بتفوق العدد ، وانجلت المعركة بانقراض جيش الشلالى إلا القليل الذى فرّ لينقل الخبر .

أثر الانتصار — لم يبق شك فى إذهان الشعب بعد أن تغلب المهدى فى الجولة الثالثة ، فازدحمت الدروب إلى قدير من كل فج و بعث من هناك بالرسل والأمراء إلى نواحى كردفان ودارفور والجزيرة لإشعال النيران ضد حاميات الحكومة ، وتواترت الأخبار والشائعات عن المهدى وكرامته فمنها أن النار تشتعل فى أجسام جند الحكومة و إن اسمه وجد منقوشا على ورق الشجر و بيض الدجاج .

الدافع الأول — وهنا يجدر بى أن ألاحظ على ما كتبه المؤرخون فى الأسباب التى أدّت إلى الثورة المهدية ويجمعون على أن الأسباب الرئيسية هى فداحة الضرائب وتفشى الرشوة والعنت والظلم والمناداة بإبطال الرق . وقد تكون بعض هذه الأسباب

أو كلها مجتمعة السبب فى انضمام البعض إلى راية المهدى وقد يكون المهدى استعان بالبارزين ممن كانوا فريسة لواحد أو لأكثر من تلك الأسباب لكن الناحية التى يهملونها والتى فى نظرى المحرك الأول للثورة هى المعتقد الدينى وشخصية المهدى .

فالشعب السودانى يدين معظمه آنذاك بالعقيدة الإسلامية بواسطة الطرق واتباع المشايخ ، ويعطى وزنا كبيراً للكرامات وخوارق العادات ودخل فى روعه أن مخالفة الولى أو الصالح لا تضره فى آخرته فحسب بل قد يرى أثرها الضار فى الدنيا فى نفسه أو ولده أو ماله . وعندهم من الأمثلة لذلك شواهد يروونها . ومشايخهم كغيرهم من المسلمين ينحون باللائمة على الحالة التى تردى فيها الإسلام وكيف أنه أصبح غريبا كما كان أولا . وهم يأملون أن يجدد الإسلام على رجل من آل بيت النبى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وظلما وهم قد قرأوا فى كتبهم التى درسوها أوصاف الرجل وما يستطيع عمله . وهم يؤمنون بفكره المهدى ولا ينكرونها كبعض العلماء الذين يشكون فيها وإنهم إن اعتقدوها لا يرون فى نظرهم أوصافها منطبقة على الشيخ محمد احمد . ولكن فئة العلماء قليلة فى السودان آنذاك وجل رجال الدين ، الذين يؤثرون على الجمهور الإسلامى هم أرباب الطرق من الصوفية وهم يفخرون بأنه قام بهذا الأمر رجل منهم . وحانت الفرصة للقيام لنصرة الدين فبثوا الفكرة فى تلاميذهم وأتباعهم وضربوا لهم مثلا باتباع المصلح الجديد فتابعتهم العامة أما اقتداء بمشايخهم أو خوفا من غضب ذلك الولى الصالح الذى سمعوا بزهده وتقشفه وكراماته أو إرضاء لغزيرة القتال التى تمكنت منهم أو عند البعض حباً للمغانم والنهب . ولا شك أن بعضهم انضم إلى المهدى بعد واقعة الشلالى وبعد الوقائع الأخرى وخاصة بعد هكس لانقطاع أملهم من الحكومة وبعد أن وضح لهم أن المستقبل للمهدى . ومن هذه الطائفة بعض العلماء والتجار الذين وإن علت مناصبهم فى المهدية إلا أنهم فى الواقع ما رسخت عقيدتهم فى المهدية يوما من الأيام .

فوق ما ناله المهدى من تأييد وسمو الروح المعنوية بين أنصاره وفوق ما تدفق عليه من سيل الأتباع والمريدين ، فانه كسب مغانم عظيمة فى الزاد والعتاد بسحقه قوّات الشلالى . ولنتركه الآن يجمع المغانم ويضعها فى بيت ماله تحت إمرة صديقه أحمد ود سليمان ويتلقى أفواج المبايعين ويرسل السرايا والرسل إلى الغرب والجزيرة ، ويخاطب بيوت الدين بمهديته ويقدم لهم الآن الدلائل والبراهين بانتصاراته الساحقة على قوّات الحكومة التى كانت هيبتها وسطوتها تملأ النفوس ولنْرَ ما فعله الحكمدار وما شب من ثورات فى الجزيرة .

كانت الجزيرة ملأى بزعماء الدين « مشايخ الطرق » وكانت سيطرتهم تامة على سكانها . وهم وسكانها قد عرفوا محمداً أحمد منذ أن كان شيخا يتجول بدراويشه وهم قد عرفوا ما كان من أمره مع أستاذه الشيخ محمد شريف وانضمامه إلى الشيخ القرشى الذى وصل درجة عظيمة أنذاك من الصلاح ورأوا فى محمد أحمد شابا بلغ به الزهد والورع والتقشف مبلغا لم يعهدوه فى مثل سنّه أو حتى فى من يكبره من المشايخ . والآن وقد سمعوا بانتصاره فى أبا ثم على مدير فشودة هاجر بعضهم إليه لأنهم لم يستطيعوا المجاهرة بالعصيان لقرب قوات الحكومة منهم وبُعد المهدى عنهم .

حركة عامر المكاشفى

كان الشيخ أحمد المكاشفى أحد الذين هاجروا لقدير وكانت أوامر الحكومة تأمر بتنكيل أقارب المهاجرين . فألقت القبض على أخيه عامر وأذاقته من صنوف العذاب ألوانا فى سنار ، فافتدى نفسه بما معه من مال وخرج حانقا غاضبا على الحكومة . وبالرغم من وجود المهدى بقدير وبالرغم من أنّ قوات الحكومة ترابط فى أنحاء مختلفة فى الجزيرة أتى إلى عربان رفاعه الهوىْ جنوبى سنار « وعرض مهدية » أى نادى بالثورة ، فتجمعوا عليه للتخلص مما ترهقهم به الحكومة من ضرائب وسار بهم إلى سنار وتمكن من اقتحامها ، ولكنه جُرح فخرج منها ليرجع إليها المدير وجنده ، فامتنعت عليه هذه المرّة غير أنه حاصرها وقطع خط التلغراف الذى يصلها بالخرطوم . وقد علمت الحكمدارية بأمر سنار قبل القطع وأمر

جقلر صالحا ود الملك أن يتقدم من السكوّة لفك الحصار فنجح فى مهمته وتراجع عامر إلى بركة تيقو ليستأنف هجومه مرة ثانية كما سيجىء .

الشريف أحمد طه ومحمد زين

ثار أيضا الشريف أحمد ود طه شرقى النيل الأزرق بين رفاعه وأبى حراز وقد تحمس للمهدى والمهدية رغم انقطاع الصلة بين مقرّه ومركز الدعوة فى كردفان ووجد من شايعه ، فانتصر على عدد من الباشبوزق بعث بهم جقلر وكذلك على نجدة أتت من القلابات ولكنه اندحر أخيرا وقتل حين قاد جقلر نفسه قوة من الجنود النظامية تحمى ظهورهم فرقة من الشكرية . ثم واصل جقلر سيره جنوبا لينتصر على محمد زين التكرورى فى أبى شوكة وعاد إلى الخرطوم ليجد عبد القادر بها بعد أن قضى على تلك الحركات الأولى فى الجزيرة ماعدا حركة عامر المكاشفى . وعند ما استلم عبد القادر مقاليد الأمور بعث بصالح ود الملك لمطاردة عامر وتغلّبت باشبوزق صالح على أعراب عامر لأنهم لم يتعوّدوا القتال ضد الأسلحة النارية ولأنهم لم يروا المهدى حتى يؤمنوا به إيمان عقيدة وحتى يبيعوا الأرواح كما يفعل الأنصار ذوو العقائد الراسخة . وانتهت حرب العصابات الأولى فى الجزيرة وفر عامر نفسه إلى قدير لمبايعة المهدى وسرت موجة فرح وسرور فى الدوائر الحكومية وتيمنوا بقدوم عبد القادر إلا أنهم تلقوا الأخبار المنبئة بانقراض حملة ود الشلالى كما ذكرنا .

موجة ثانية فى الجزيرة

اندلعت النيران فى الجزيرة مرة ثانية برجال بايعوا المهدى وأتوا لتنفير القوم ضد الحكومة . فمنهم ود الصليحابى الذى ثار فى الجبلين وانتصر على جند الحكومة بقيادة السعيد بك الجمعيابى ورجع الأخير بفلول جيشه ليتحصن بالدويم . وأتى من قدير الداعية الأكبر أحمد المكاشفى وبدأ بقتل حامية شات إلى الجنوب الغربى من الدويم وزحف على الدويم إلاّ أنها امتنعت عليه . وسار فى طريقه لمهمته فى سنّار ، ولكن ساء عربان الدويم أن يندحروا فتجمعوا على عبد الباسط الجرى وحصروها مدة إلى أن يرفع الحصار على يد جقلر موفدا من عبد القادر باشا .

وشبت نار فى غربى الجزيرة أيضا أشعلها فضل الله ود كريّف من مشايخ الطريقة السمانية وقطع خط التلغراف بين السكوّة والمسلمية وهزم ما أرسل إليه

من جند حكومى فى أم سنيطة . وانتهت سنة ١٨٨٢ ولا تزال المقاومة تتركز فى فضل الله فى غرب الجزيرة واحمد المكاشفى بقوات كبيرة فى مشرع الداعى على بعد عشرين ميلا شمالى سنار وهو إنما اختار ذلك المكان بعد أن تحسس حصون سنار وامتنعت عليه ورأى أن يمنع وصول المدد إليها من الخرطوم بعد قطعه خط التلغراف مرة ثانية .

عبد القادر ينهض للجزيرة

رأى عبد القادر باشا أن الأمر فى الجزيرة يستدعى قيامه بنفسه فغادر الخرطوم فى ٢ يناير سنة ١٨٨٣ إلى المسلمية ومنها إلى عبود وهناك أخذ ما بها من حامية وذهب إلى غرب الجزيرة ليقاتل ود كريف ، و بعد أن تم انتصاره عليه فى قرية معتوق اراد القضاء على مركز المقاومة فى شرقى الجزيرة فى مشرع الداعى ، فجاء بقوات من الكوة وأمرهم بالمسير إلى ود مدنى لانتظار أوامره هناك ، ورجع هو إلى الخرطوم ، ومنها نزل فى البواخر وزحف على رأس قوة على ودّ المكاشفى فأوقع به ودحره إلى سقدى مو يه غربى سنار ودخل المدينة ظافرا . وأرسل صالحا ود الملك على رأس قوة تطارد ود المكاشفى وتمكّن فعلا من زحزحته من سقدى مو يه حيث فرّ بفله ليتصل بود برجوب الثائر بنواحى الجبلين . وواصل عبد القادر سيره جنوبا ليطارد الحاج أحمد عبد الغفار حيث أراد اسقاط حامية كركوج فالتقى به فى التبنة قرب الروصيرص وشتت جموعه ورجع إلى الخرطوم منتصرا . و بدأت الثقة تعاود النفوس بعد أن فقدت بهزيمة ود الشلالى .

حرب الدعاية

هذه اجرآت عبد القادر الحربية وقد تمت كلها بنجاح ولكنه عرف أن سلاح الدعايه الذى يقوم به المهدى قوى لابد من مقاومته ، فخطابات المهدى ومنشوراته تثير فى النفوس الحماس وتلهب المشاعر ، و إذا تركت دون رد ربما يظن الناس أن الحكومة ومن شايعها من العلماء يعجزون عن مقارعة المهدى بالحجة والبرهان ، فوجّه عبد القادر همته لهذا الأمر . ولو أن السلطان عبد الحميد أصدر منشورا رسميا للعالم الإسلامى بتكذيب الدعوى وكذلك علماء الأزهر أفتوا ببطلانها ونشروا فتواهم هذه ، إلا أنه رأى الحاجة ماسة لرسائل ومنشورات

وفتاوى تصدر من الخرطوم وتوزّع فى السودان ليقارنها الناس مع خطابات المهدى لعلهم يؤمنون ويقتنعون بدعاية الحكومة .

أكّد المهدى فى منشوراته وخطاباته « تغيّر الزمن وترك السنن ولا يرضى بذلك ذوو الإيمان والفطن بل أحق أن يترك لذلك الأوطار والوطن لإقامة الدين والسنن » . ثم أنه وضّح أن الناس قد تنكّبوا الطريق المستقيم وانجرفوا فى سبل الضلالة ، فهو قد أتى لتطهير الفساد واقامة العدل والدين بدلا من الظلم والضلال وبيّن أنه مأمور من الله وأخبره سيد الوجود بالخلافة الكبرى والمهدية العظمى وأن من خالفه فقد كفر وذكر مسنداً عن « الشيخ محيي الدين بن العربى فى تفسيره على القرآن العظيم علم المهدى كعلم الساعة والساعة لا يعلم وقت مجيئها على الحقيقة إلا الله » وروى عن الشيخ أحمد بن إدريس أنه قال « كذبت فى المهدى أربع عشرة نسخة من نسخ أهل الله ثم قال يخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونه » ثم يمضى ويقول « وهذا لا يخفى عليكم أن التأليفات الواردة فى المهدى منها الأثار وكشف الأولياء وغير ذلك فيختلف كل منها كما علمت من أنه يمحو الله ما شاء الآية وفيها الأحاديث فمنها الضعيف والمقطوع والمنسوخ والموضوع بل الحديث الضعيف ينسخه الصحيح والصحيح ينسخ بعضه بعضا كما أن الآيات تنسخها الآيات وحقيقة ذلك على ماهى عليه لا يعرفها إلا أهل المشاهدة والبصائر »

هذه بعض من أقوال المهدى سواء فى منشوراته أو خطاباته أو أحاديثه مع أصحابه ومنها يتبين لنا أن دعوته فى أساسها ترتكز على التغير الذى حدث فى الدين وعلى انتشار المفاسد وعلى الحاجة إلى تطهير الدبن مما علق به من أدران ، ويحتاط لمن يتصدّى لتكذيبه بأن البلد التى يخرج منها المهدى والسنة التى يظهر فيها ، والهيئة التى بها يعرف كلها أمور لا يعلمها إلا الله ، فإن وردت أحاديث عن شأن المهدى وظهوره لا تنطبق على مهديته فالأحاديث منها الضعيف والموضوع والمنسوخ ويضرب على نغمة ضرورة التسليم بالمهدية لأن من خالفه فقد كفر . والناس عندما يقرءون منشوراته وخطاباته ويقرءون بين سطورها الثقة برسالته والإيمان بعقيدته

يخافون من وعيد المخالفة ، وهم يرون بأعينهم تبدّل الحال وإن المسلمين على غير ما يريدون لأنفسهم وهم إذ يسألون عن نشأة محمد احمد وعن مسلكه يتعرّفون إلى زهده وتصوّفه وابتعاده عن الشبهات واعتماده على الخالق لا على المخلوق .

درءاً لتلك الدعاية كلّف عبد القادر باشا المفتى شاكر الغزّى ومحمد خوجلى قاضى عموم السودان والسيد أحمد الأزهرى أن يؤلف كل منهم رسالة فى تكذيب دعوى المهدى ، فركّزوا منطقهم فى ضرورة طاعة ولى الأمر بالآيات والأحاديث وأوردوا كل الأحاديث التى استطاعوا جمعها من كتب السنة وبينوا أن كل الأوصاف التى وردت فى شأن المهدى من حيث الزمن والمكان وهيئة المهدى تخالف حالات الشيخ محمد أحمد . ووضّحوا أن لا ضرورة لظهور المهدى لأن الأرض لم تملأ جورا وظلما وأن الجميع يرتعون فى بحبوحة الأمن والسلم تحت رعاية أفندينا الخديوى والناظر والحكمدار عبد القادر باشا وإن الجميع يدينون بالولاء والطاعة لسلطان المسلمين الذى يُخطب باسمه فى المساجد . وحذّروا المسلمين من الضلالة بعد الهدى وحرّضوهم على شد أزر الحكومة ومعاونتها فى القضاء على تلك الحركة. وزاد المفتى أنّ أمر المهدية نفسه يقول به بعض العلماء ولا يقول به البعض الآخر . وقد طبع الباشا هذه الرسائل ووزعها على الناس لمقاومة منشورات ورسائل المهدى . وفكر أيضا فى أعمال الاغتيال بواسطة مأجورين وفى إرسال إحدى الظروف التى تحوى ديناميتا ينفجر بمجرد أن يفتحه المهدى وحاول بواسطة أحد الدراويش أن يبعث بعجوة مسمومة كهدية للمهدى . ولم يتبين لنا من الوثائق فيما إذا نفذت مسألة العجوة والظرف والاغتيال ولكنها ذُكِرَت كوسائل ينوى الحكمدار تجربتها .

وقد تحدث الناس عن محاولة الإغتيال بواسطة عبد الله ود ابراهيم حيث صوّب مسدّسه على المهدى ولكنّه لم ينطلق رصاصه فى رواية وعلم المهدى بالمؤامرة قبل أن تنفذ فى رواية أخرى ويتحدثون عن تسليم عبد الله هذا بأمر المهدية وتحمسه وإخلاصه لها فيما بعد .

وقد ألّف الشيخ محمد شريف أيضا قصيدة فى ذم المهدى بإيعاز من عبد القادر باشا قال فيها :

لقد جاءنى فى عام « زع » لموضع ... على جبل السلطان فى شاطىء البحر
يروم الصراط المستقيم على يدى ... فبايعته عهدا على النهى والأمر
فقام على نهج الهداية مخلصا ... وقد لازم الأذكار فى السر والجهر
وأفرغ فى نهج المحامد جهده ... فرقيته جهلا بعاقبة الأمر
أقام لدينا خادما كل خدمة ... تعز على أهل التواضع فى السير
كطحن وعوس واحتطاب وغيره ... ويعطى عطا من لا يخاف من الفقر
وكم صام كم صلى وكم قام كم تلا ... من الله لا زالت مدامعه تجرى
وكم بوضوء الليل كبَّر للضحى ... وكم ختم القرآن فى سنة الوتر
لذلك أسقى من منهل القوم شربة ... بها كان محبوبا لدى الناس فى البر
وكان لدينا عيشه صدقاتنا ... وخادمنا عشرين عاما من العمر
إلى الخمس والتسعين أدركه القضا ... على ما مضى من سابق العلم بالشر
بصحبة شيطان من الجن آيس ... وشيطان أنس وافقاه على الضر

المسير إلى الأبيض

تركنا المهدى منتصراً فى قدير على ود الشلاّلى فى مايو سنة ١٨٨٢ واستطردنا فى حوادث الجزيرة من الشهور الأولى من سنة ١٨٨٢ إلى الشهور الأولى من سنة ١٨٨٣ حيث خفّ الحكمدار بنفسه وأعاد الهدوء إلى أرجائها ، والآن سنسرد ماحدث للمهدى بعد انتصاره العظيم . بث دعاته لمضايقة حاميات كردفان ودارفور أو استلامها لو أنسوا فيها ضعفا ؛ فذهب مادبو إلى دارفور وسقطت الحاميات فى كردفان الواحدة تلو الأخرى ماعدا بارة والأبيض وقد شاهدت التيّارة مجزرة بشرية هائلة من قِبَل الفكى المنا اسماعيل وخربت قرية أسحف خرابا تاما . و بعد شهرين من واقعة الشلاّلى تحرك الجيش من قدير قاصدا الأبيض وقيل إن الياس باشا إمبرير فى الأبيض تواطأ معه واستدعاه لفتحها . وكانت الأمطار تنزل مدرارا فاضطر

للبقاء نحو الشهر فى جبال الكواليب . وعندما غادرها ترك الأسلحة النارية التى غنمها من الوقائع الثلاث ، لأن الأنصار يعوّلون على الرمح والسيف ، وقد تمت انتصاراتهم إلى الآن بها ، ونزل بمنهل كابا على بعد ستة أميال إلى الجنوب الغربى من الأبيض و بعث برسولين لحامية الأبيض وأعيانها وتجارها يطلب إليهم التسليم فرفضوا بل حكموا على الرسولين بالإعدام لاستخفافهما بالحكومة .

خرج مَنْ والى المهدى سرّا إلى معسكر كابا وعلى رأسهم الياس باشا امبرير وحاج خالد العرابى ومحمد باشا إمام وجورج اصطمبوليه وكثيرون غيرهم . ومن البارزين الذين أخلصوا للحكومة وظلوا على ولائهم لها إلى آخر نسمة من حياتهم أحمد بك دفع الله منافس الياس باشا وخصمه . وقد صمّمت الأبيض على المقاومة فحُفِرَ خندق خارجي على كل المدينة وعُزّز بخندق داخلى يلتجئ إليه الجند إذا ما صعب عليهم الاحتفاظ بالخارجي . وعدد الجند يبلغ الستة آلاف من نظامية وباشبوزق ، وقائد الحامية محمد سعيد باشا حكمدار غرب السودان يعاونه على بك شريف مدير كردفان واسكندر بك قائمقام العساكر .

الهجمة الأولى

عيل صبر أصحاب المهدى وألحوا عليه بأن يأذن لهم فى الهجوم فهم إن لم يظفروا بالنصر ظفروا بالشهادة فى سبيل الله ، وهم أيضا تخوّفوا من أن تدخل جنود الفكى المنّا المرابطة فى الشمال وتفوز بالنصر والغنائم قبلهم . ويقال إنه لم يأذن لهم ومع ذلك اتجهت جموعهم تظلّلهم سحب التراب الذى أثارته حوافر خيولهم ويسمع لصوت أرجلهم وأرجل خيلهم دوى كأمواج البحر الذى حركته ريح هوجاء . ودخلوا الاستحكام الخارجي واصطف الجند داخل الخندق الداخلى وفتحوا على الأنصار نيران المدافع والبنادق كالمطر وكل ما سقط فريق اقتحم فريق آخر غير مبالين بالموت ، بل أمنيتهم الفوز بالشهادة ، وكان من الغريب أن ترى الأنصارى يحمل على المدفع أو على أفواه البنادق وهو لا يحمل غير عصى هى سلاحه الوحيد .

استمر الأنصار يقذفون بأنفسهم منذ طلوع فجر ٨ سبتمبر ١٨٨٢ حتى بعد الظهر ، ويبلغ عددهم نحو الخمسين ألفا ، على جنود الحامية وراء الخنادق والمتاريس

وكان كلما دخل بعض الأنصار الاستحكام أجلتهم العساكر ، وإذا ما رأى الجند أن الأرض لا تصلح ميدانا لنيرانهم لاختلاطهم بالأنصار رقوا إلى سطوح المنازل وظلوا يرمون من فوقها ، يقابله عناد مثله من الأنصار إذ كانوا يجعلون من أنفسهم سلالم يرقى عليها بعضهم لإجلاء عدوهم من مراكزه . وانجلت المعركة بتقهقر الأنصار إلى منهلهم بعد أن تركوا ما يقارب العشرة آلاف قتيل من ضمنهم أخوا المهدى محمد وعبد الله بعد أن استشهد أخوه حامد فى قدير فى موقعة الشلالى ، وكذلك استشهد قاضيه أحمد ود جباره . وقد أبدت حامية الأبيض ثباتا وشدة مراس دل على ما تستطيع شرذمة قليلة نسبيا أداءه إذا ما صدقت القتال وضحّت وهى تلك الفئة من الجهادية السود الذين حينما سلّم من بقى منهم بعد ذلك كانوا أداة فعالة فى القضاء على حملة هكس كما سنبيّنه فى حينه . قرر المهدى بعد أن ردته الحامية أن يحاصرها وكذلك أمر أنصاره بحصار حامية بارة ، وبعث يجلب الأسلحة النارية من الكواليب وقد رأى فتكها وفعلها . وإذا كان انتصار الأنصار على الأسلحة النارية فى مكان خال من الحصون فإن فوهة البندقية وراء متراس أو حصن لا تقاوم .

عرابى يعارض ارسال الجند إلى السودان

ذكرنا قبلا أن العرابيين استولوا على الحكومة المصرية وتألفت أخيراً نظارة برئاسة محمود سامى البارودى ، وعرابى نفسه كان ناظر الجهادية فيها ، وذكرنا أنهم يمانعون فى إرسال الجيش إلى السودان خوفا على مراكزهم التى يسندها الجيش ؛ فقد طلب عبد القادر باشا امدادية للسودان بعد واقعة الشلالى وإن لم يتيسر إرسال الجند طلب خمسة آلاف بندقية رمنتون لعلمه أن النظارة قد لا توافق على بعث الجند ، وردًّا على ذلك الطلب أرسل عرابى بصفته ناظر الجهادية والبحرية الوثيقة التالية إلى المعية « وحيث إن الوقت لا يساعد على إرسال عساكر من مصر للأقاليم السودانية بسبب أن الموجود والحالة هذه هو على قدر الضرورى لتوطيد الأمن الداخلى خصوصا أن حكمدار السودان أورى أنه إذا كان غير متيسر إرسال عساكر الآن فيرسل إليه خمسة الأف بندقيه بالجبخانات

الذاكرعنها فأفكارى فى ذلك صرف النظر عن إرسال عساكر ويكتفى بإرسال الأسلحة والجباخانة المطلوبة ، وها هو جارى اللازم فى تجهيز وإرسال الأسلحة والجبخانة المذكورة فنؤمل عرض ما ذكر على الحضرة الفخيمة الخديوية » .

ساعد انتصار حامية الأبيض على تهدئة الأحوال وأزال القلق الذى أحدثته إبادة تجريدة الشلالى نوعا ما وخرج عبد القادر بنفسه إلى الجزيرة وأعاد هدوءها كما قدّمنا واتجهت الأنظار إلى المشاكل الداخلية فى مصر وما جرّته من أزمات دولية والكل يثق بحكمة ومقدرة عبد القادر باشا لمعالجة ما قد ينشأ من تطورات وأزمات فى الموقف السودانى .

الصورة تعود قاتمة

وبالرغم من الانتصار الذى نالته حامية الأبيض فإن الصورة سرعان ما عادت قاتمة عندما تشدد الحصار وأبيدت معظم الامدادية التى أرسلت لنجدة حاميتى الأبيض وبارة بقيادة على بك لطفى وفيها قتل السيد أحمد الأزهرى وقد عين قاضيا لغرب السودان . وشرح عبد القادر باشا الموقف للحكومة ونوّه لهم أن الثقة فى الحكومة قد تزعزعت وأن الجنود النظامية الذين يحرسون المحطات العسكرية المختلفة فى أنحاء السودان معظمهم من السودانيين وهم لا يُعتمد عليهم فى قتال زعيم دينى منهم ، والعساكر غير النظامية ضعيفة فى مقدرتها الحربية « و بناء عليه تراءى أنه بدون حضور قوة عسكرية كافية من المحروسة بأى طريقة كانت لا يمكن الحصول على إعادة هذه الجهات إلى السكون بل يزداد التلف فالأمل الأسعاف بإرسال قوة أقله عشرة آلاف نفر لأنه إن تأخر حضورهم الآن منظور أن الفتنة تعم كافة الجهات السودانية وفيما بعد يتعسر إطفاؤها بأضعاف أضعاف هذا المقدار ولو كان تيسر وصول هذه النجدة كان مأمول إزالة المصاعب فى أقرب وقت ، لكن لسوء الحظ لم يتم المقصود فالرجا العرض على الأعتاب الكريمة » .

تحرّج الحالة فى الأبيض

وفى ديسمبر سنه ١٨٨٢ تمكن محمد سعيد باشا من مخاطبة عبد القادر وصوّر له جموع المهدى التى بلغت المائة ألف نفس وما معها من الأسلحة النارية التى

غنمها ، وبيّن له صعوبة المقاومة ولا سيما أن العساكر قد اشتدت مضايقتهم من ناحية الأغذية فلم يتركوا حيوانا أوحبة من الغلال إلا استهلكوه واستهلكوها ، وشاركوا النمل فى مخازنه الأرضية وسطوا عليها ، ولاحقوا الفيران فى أجحارها وقبضوا عليها وما تركوا جلدا أو عرقا لنبات ومع ذلك فقد ظن عبد القادر أن محمد سعيد يبالغ حيث قال « وهذا وأنه و إن كان المتراءى أن ما أوراه هذا الحكمدار فيه مبالغة لكنه على أى حال نرجو الإسعاف بسرعة إرسال المدد » .

ومن هذا يتضح أن الحكمدار يرى فى وصف قائد حامية الأبيض للحالة وتحرّجها مبالغة ، وكذلك ترى الحكومة فى مصر أن الحكمدار يبالغ فى سوء الحال عموما وأن ما يطلبه من مدد لا يرون أن الحالة العسكرية تستدعيه ، وهذه الظاهرة ساهمت فى خذلان جنود الحكومة وانتصار المهدى بنصيب كبير .

عبد القادر يطلب النزول

وصل عبد القادر فى أواخر سنة ١٨٨٢ إلى درجة اليأس فكتب فى ١٤ ديسمبر يطلب أن يُعفى من الخدمة فى السودان ويقول « المنظور أن تكامل حضور العساكر اللازمة سيأخذ وقت طويل وبهذا السبب ستتسع الحركات الحاصلة بهذه الجهات وبما أن تلك الحركات لا يمكن إطفاها إلا بوجود العساكر الكفاية وفضلا عن ذلك فإن أهوية هذه الجهات قد أضرّت بصحتنا فلهذا نسترحم من تعطفات الحضرة الفخيمة الخديوية تعيين من يقوم مقامنا والتصريح لنا بالتوجه للمحروسة فالمرجو عرضه على الأعتاب الكريمة أفندم » . ولكن الجناب العالى لم يوافق على إعفائه ويرد عليه « ونودّ أن يكون هذا الانتصار العظيم على يدكم لتحوزوا بذلك الفخر وتحظوا من لدنا بمزيد الالتفات والرعاية فالمأمول منكم الاستمرار فى مباشرة هذه الأشغال ومن هنا جارى الاهتمام الزائد فى تسهيل وابعاث العساكر أول بأول » .

الانجليز يحتلون مصر

ومنذ يوليو سنة ١٨٨٢ كما تعلم قد احتلت الجنود الانجليزية مصر بعد أن انتصرت على قوات عرابى ودخلت المسألة السودانية فى طور جديد . ولو أن الحكومة الانجليزية أظهرت عدم تدخلها فيما يجرى فى السودان ورأت فيها

ثورة محلية لحكومة الخديوى أن تعالجها بما تراه ، إلا أنه من وجهة عسكرية ترى الحكومة الانجليزية ألاّ بد من معرفة كنه الحركة ومدى تطورها واحتمالاتها وهل وصلت إلى درجة أن تكون خطراً على مصر نفسها ؟ وهنا لا يهملها الانجليز لأنهم لا بد وأن يدافعوا عن مصر .

بعثة ستيوارت إلى السودان

ولجأت السياسة الانجليزية كما تفعل فى مثل هذه الحالات إلى بحث الحالة بواسطة لجنة أومندوب خاص وتقديم تقدير عنها ، فانتدبت الكولونيل ستيوارت للذهاب إلى السودان وبحث حالته هناك . وعندما نزل بسواكن سأل عن القوات المعسكرة فى موانى البحر الأحمر وأجناسهم وعن عدد الأسلحة وأنواعها ونصح بأن يبعث بالجنود السودانيين للخرطوم وأن يحل محلهم مصريون من المحروسة ، وفى بربر طلب من المدير بيانا بالقبائل وعددها وأسماء مشايخها ومقدار الأموال المربوطة عليهم وعدد السواقى وغير ذلك من شؤون المديرية . وأبرق حكمدار شرق السودان وكذلك مدير بربر إلى عبد القادر باشا بما طلبه ستيوارت وكان حضوره وأسئلته موضع دهشتهما . فبعث الحكمدار يستفهم عنه المعية ومايجب أن يتخذه إزاءه من موقف .

ورد الرد للحكمدار بأن المعلوم لدى الحكومة المصرية هو أن ستيورت وبصحبته مساداليه الذى كان مديراً لدارفور سابقا ذهب للوقوف على حالة المهدى وأنها وإن لم تعرف الغرض من أسئلة الكولونيل إلا أنها ترى أن يمدّ الحكمدار ستيوارت بالمعلومات التى يطلبها ولا يأذن لغيره أن يتصل بالكولونيل ، وعلى الحكمدار أن يضع الضابط الإنجليزى تحت المراقبة بحيث لا يشعر بها وكذلك مرافقه مساداليه ويبعث بملاحظاته عنه سرّا دون أن يلم بها أى مخلوق كان .

وأبرق عبد القادر بأولى رسائله عن حركات ستيورت وقال « إنه يريد الوقوف على جميع أحوال هذه الجهات سواء كانت إدارية أو عسكرية أو مالية أو جغرافية أو سياسية » ولم يقف وستيورت عند ذلك الحد بل نصح بطلب الأورط السودانية الموجودة فى سواحل البحر الأبيض وإحلال جنود المحروسة محلهم .

واستمر عبد القادر فى ملاحظاته بقوله « ومن اختبار أحوال المومى إليه تبيّن لنا أنه يريد إظهار سطوتهم بهذه الجهات وبناء عليه قد نصحناه بالمحسوس بتعريفه أن الحركات الحاصلة هى تحركات دينية وأن ذلك يفتح للشقى بابا لتأييد ما يوهم به على العربان ويوجبهم للثبات على تصديقه واتباعه ولذلك عدل عن تلك الطريقة وأخذ يظهر اتفاق حكومته مع الحكومة الخديوية على إطفاء هذه الحركات وقد أبدى لنا غاية الممنونية عما رآه من الاهتمام يومى بتعليم العساكر والضباط » .

واقترح ستيورت حضور ضباط من الأوروبين لهم معرفة باللغة العربية وسمّى له بعضهم فبعث الحكمدار فى طلبهم وقصّ الباشا أيضا ما وقع من خلاف بين جقلر وستيورت كاد يؤدى إلى الضرب بسبب ما لاحظه الأخير على جقلر من نقص فى خططه الحربية التى قام بها أخيرا فى النيل الأبيض

والظاهر أن تخوّف الحكومة المصرية من مأمورية ستيورت قد زال إذ وردت برقية للحكمدار تقول « إنه من التحريات التى جرت علم لدينا أن الكولونيل ستيورت مأموريته فقط هى التجسس عن مسألة المهدى وأحوال السودان ولا شىء خلاف ذلك كما أن مسادليه بك إنما هو رفيق سفرية فقط مع الكولونيل المومى إليه وليس له مأمورية مطلقا فلا يكن لكم فكرة من أمرهما وإنما كلما طلبه الكولونيل من الإيضاحات يعطى له ويقتضى أن تجروا حرق التلغراف الذى أرسلناه لكم قبل هذا فى خصوص من تقدم ذكرهم » .

تعين رئيس أركان حرب انجليزى للسودان

وفى نفس الوقت الذى كان فيه ستيورت يقترح تعيين ضباط أوروبيين فى الخرطوم تقرر فى القاهرة أن يعين رئيس أركان حرب إنجليزى لجيش السودان وهو فى طريقة إلى مصر وهو الذى يأخذ معه من الزملاء الإنجليز من يرى أخذهم معه .

استدعاء عبد القادر

وهنا تعترضنا مسألة فى غاية الغموض وهى استدعاء عبد القادر باشا . ومما يزيدها غموضا طريقة السرّية التى اتبعت فى استدعائه فقد تركناه فى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ يكتب بالسماح له بالنزول إلى المحروسة ويأتيه الرد من الجناب العالى

بالبقاء ليتم النصر على يديه ومن ١٥ ديسمبر إلى ٢٣ منه تتصل مكاتباته بمصر بشأن بعثة ستيوارت وفى ٢١ ديسمبر أيضا يُبرق للحكمدار بتعيين رئيس أركان الحرب الانجليزى وهو فى طريقه من انجلترا . وتحفظ لنا المحفوظات فى سراى عابدين أوراقا تتعلق بمأمورية أحمد حمدى بك ياور جناب الخديوى لجهة الأقاليم السودانية وتنصّ التعليمات على أنه يغادر القاهرة فى ٢٤ ديسمبر بطريق السويس وعندما يصل سواكن يسلم الأمر بتعيين علاء الدين باشا حكمداراً على السودان سرّا ولا يذيعه وعند وصوله الخرطوم يسلّم الأمر العالى إلى عبد القادر باشا بإلغاء نظارة السودان وانفصاله عن حكمداريتها . فما الذى حدث ما بين ١٤ ديسمبر و ٢٤ منه حتى تتغير الاتجاهات لدرجه أن الجناب العالى يرفض طلب عبد القادر باشا بالنزول إلى المحروسة ويريده أن يتم النصر على يديه ليصدر أوامر سرية بعد عشرة أيام فقط بل أقلّ بانفصاله عن الحكمدارية ؟ هل لبعثة ستيورت دخل فى المسألة ؟ أم أن الأمر تمهيد لرئيس أركان الحرب الإنجليزى ؟ لا أجد ضوءاً بما لدى من وثائق ولذا رأيت الاكتفاء بسرد الحوادث متتابعة حسب ما استخلصته من الوثائق .

تجرى هذه الأحداث فى السر والخفاء ، وعبد القادر لا يعلم عنها شيئا ، بل آخر اتصال رسمى من الخديوى يؤكد بقاءه فى منصبه ، وقام على هذا الأساس بنفسه لإخماد الفتن التى نشبت فى الجزيرة وظلّ يخمدها الواحدة تلو الأخرى والأوامر تأتيه من مصر ألاّ يشتت القوة التى بدأت تتجمع وتتوارد من المحروسة والأجدر به أن يجمعها لتسييرها على كردفان لفك حصار الأبيض أوّلا وللقاء قوات المهدى الرئيسية ثانيا . وبينما هو ينتقل من ظفر لآخر إذا بالأبيض تسلّم بعد أن أضناها الحصار وسلّمت الحامية جوعا . ويكتم خبر فصل عبد القادر حتى بعد وصول حمدى بك وعلاء الدين باشا إلى الخرطوم لأن عبد القادر كان فى حملاته الموفقة فى الصعيد وإلى أن عرفوا أنه فى طريقه إلى الخرطوم وأنه على بُعد قريب منها أعلنت الأوامر الخديوية بتعيين علاء الدين باشا ، وقد تمت التعيينات الجديدة الأخرى وهى تقضى بأن يكون سليمان نيازى باشا قومندانا للعساكر بالسودان ، وأن يكون الضابط الإنجليزى هكس باشا رئيسا لأركان حرب الجنود هناك .

وكانت آخر وثائق تبودلت بين عبد القادر باشا والجناب العالى هى ما كتبه الخديوى لعبد القادر حين وصوله الخرطوم و إعلانه بالاستدعاء «عرض لمسامعنا أخبارية وصولكم إلى الخرطوم بالسلامة فحصل لدينا الممنونية من ذلك واعلموا أننا متشكرون لإجرآتكم والأعمال التى حصلت فى مقابلة الأشقياء وكبحهم بواسطة حسن همتكم وتدبيراتكم وقد صدر أمرنا فى تاريخه إلى علاء الدين باشا بما لزم عن تجهيز ما يلزم لترحيلكم بالوجه اللائق» .

فردّ عبد القادر باشا «تشرفنا بورود الإرادة الصادرة لنا فى تاريخه وما أولانى إياه جناب ولى نعمتى أدام الله وجوده من الرضا على ما قمت به من بعض فروض الخدمة لجنابه العالى لا أراه إلا من فيض مراحمه السنية وشعورى بحسن التوجيهات العليه و إنى أفتخر بذلك بين الأقران وأرفع لله أكف الابتهال بدوام سموّه محفوظا بالنصر والإقبال ممتعا بكرام الأنجال أفندم» .

وختمت مرحلة من مراحل الثورة المهدية بسقوط بارة والأبيض أوّلا وبنزول عبد القادر باشا ثانيا وافتتحت مرحلة جديدة تعاونت فيها انجلترا مع الحكومة المصرية إن لم يكن بجنودها فببعضهم و بسياستها وفوق ذلك فإن مصر بعد الاحتلال الإنجليزى أصبحت حكومة بلا جيش وما بقى من فلول الجيش العرابى بُعث به للسودان ليتجمع هناك و يبدأ مرحلة النضال الجديدة مع المهدى .

حملة هكس

تركنا فى الخرطوم علاء الدين باشا حكمدارا على السودان وسليمان نيازى باشا قومندانا للعساكر وهكس باشا رئيسا لأركان الحرب وقد صدرت التعليمات لسليمان نيازى أن يعمل برأى هكس فى المسائل الفنية البحتة ولو أنه القائد .

انتصارات حكومية فى الجزيرة

ورأى الجميع فى الخرطوم القضاء على الأنصار المتجمعين على ودبرجوب قرب الجبلين قبل التقدم للمهدى فى كردفان وفيهم من زعماء الحركة أحمد المكاشفى وعامر المكاشفى وود الصليحابى . وذهبت قوة كبيرة وقابلت ودبرجوب و بعد

أن أبلى الأنصار بلاء حسنا امتنع عليهم اختراق مربع الجيش وفاز الكثير منهم بالشهادة ومن بينهم أحمد المكاشفى وانتصر الجيش انتصارا ظُن أنه فأل حسن لما هو مقدم عليه فى كردفان .

إشاعات تقلل من أهمية المهدى

وبالرغم من أن المهدى غنم كثيرا باستسلام الأبيض وبارة إلا أن الإشاعات انتشرت بانفضاض الناس من حوله وهبوط الروح المعنوى من بين أنصاره وكان الأثر العام لهذه الإشاعات هو التقليل من أهميته عندما تنقل بالتلغراف لمصر وكان لا بد وأن تجعل الحكومة المصرية متفائلة بأن القوة التى أرسلتها سوف تقضى القضاء النهائى على جيوش المهدية .

هكس يختلف مع نيازى

لم يستطع سليمان نيازى العمل باستشارة هكس أو لعله لم يدرك الوضع الجديد فى مصر بعد الاحتلال وهو أن المستشار الانجليزى تجب طاعته فيما يشير به ، وسليمان من رجال المدرسة القديمة حيث تعود أن القائد هو الذى يأمر وكل من يليه من الضباط إنما هم أدوات تنفيذية . شكا هكس من عدم المعاونة التى يلقاها من القائد وهدّد بالاستقالة ، فنقلت الحكومة المصرية — أو لعلها أمرت بذلك — سليمان إلى حكمدارية سواحل البحر الأحمر وكان المظنون أن تعهد القيادة لعلاء الدين على أن ينصاع أكثر مما كان يفعل سليمان ، لأن الحكومة المصرية لا تزال على نظرية أن الحركة دينية ووجود مسيحى على رأس الحملة مما يقوّى عزائم الأنصار وينشر دعاية المهدى . إلا أن عدم المعاونة التى أبداها سليمان قد يبديها علاء الدين وأنه فيما إذا اختلف الاثنان وترك هكس الجيش لعلاء الدين فلا يستطيع هذا قيادته لأنه ترك الخدمة العسكرية منذ أمد بعيد . ورؤى أيضا أن الأمور السياسية والإدارية وحدها قد تستنفذ وقت علاء الدين كله ولذا وصلت الحكومة المصرية إلى نتائج منطقها المحتومة وهى ترك القيادة العسكرية لهكس باشا .

هكس لا يقرّ الذهاب لكردفان

كان على علاء الدين تجهيز المؤن ودواب النقل وكان المصدر الكبير لجمال الحملة قبيلة الكبابيش ولكنهم الآن فى منطقة نفوذ المهدى ، نخف علاء لدين

بنفسه للشرق لجمع الجمال من قبيلة الشكرية وبعث بعندو بين آخرين لجمعها من بربر ودنقلا وسنّار ، وتجمّع بذلك ماينوف على الخمسة آلاف بعير . وقبل قيام علاء الدين بمأمورية جمع الجمال بالشرق حدثت مناقشة بينه وبين هكس أظهر فيها هكس مخاوفه بأن القوة التى لديه ليست بالكافية للقضاء على المهدى وأنه خابر لورد وفرين بأن يمدّه بقوة أخرى غير أن اللورد رأى التريث حتى ينصح للحكومة المصرية بترك كردفان ودارفور والمحافظة على الجزيرة وبذلك لا تحتاج القوة الموجودة إلى ترحيل بالجمال ، وإذاً لا ضرورة لمأمورية الحكمدار فى الشرق . غير أن علاء الدين رد بأنه يعمل على حسب التعليمات التى صدرت قبلا وتقضى بمهاجمة المهدى فى كردفان . ثم لاحظ هكس أيضا أن المالية المصرية قد لا تستطيع الصرف على حملات كهذه كما عرف من السر أوكلند كلفن ، ورغب هكس أن يذهب لمصر المفاوضة بشأن الأمدادات والتقوية ، ولكن علاء الدين عارضة بأن ذلك يخلق مجالا للشائعات ويقوّى دعاية المهدى . وأخيرا رضى هكس بأن يترك الحكمدار يمضى فى مأموريته ورضى هو بالبقاء فى الخرطوم .

هذا الملخص للمناقشة التى جرت بين مَن عُهد إليهما أمر الحملة تظهر أن السياسة الإنجليزية والمصرية لم تكونا على وفاق فى أمرها ، وأن قائدها يرى أن قوته ليست بالكافية للغرض الذى ندبت من أجله ، وهذه عناصر ضعف فى الحملة قبل أن تتحرك . وبعد جلسات بين القواد اتفق رأيهم على أن تبدأ الحملة سيرها من الدويم وأن ترابط قوات فى الخرطوم وسنار وعلى النيل الأبيض لكبح جماح من تحدثه نفسه بالثورة ، وكذلك تأسيس نقاط عسكرية إلى الغرب من الدويم كلما توغلت الحملة فى كردفان حتى تحمى ظهورها وتتراجع إليها إذا ما أحست بضغط يلزمها التقهقر ، ولتحفظ اتصالها بالخرطوم . وتحركت على هذه الخطة قوات هكس إلى الدويم نقطة التجمع الرئيسية .

مسير الحملة من الدويم

رافق علاء الدين الحملة للشؤون السياسة والإدارية وكان من بديهيات الأمور لديهم أن الأهالى فى الطريق يهرعون إلى الجيش ويقدمون له المساعدة الكافية

ولاسيما أنه جيش ينوف على العشرة آلاف ، وأن قوّته كفيلة بأن ترد طمأنينة الأهالى وتجعلهم يتعاونون مع النقاط العسكرية التى تؤسس فى الطريق ، ويمدّونها بما هى فى حاجة إليه من أغذية ، ولكنهم ما تقدموا مرحلة واحدة حتى تلاشت آمالهم . فالسكان هجروا قراهم وتركوها خالية ، وما أقبل عليهم ولا شيخ واحد ليدلّهم أو يعاونهم ، واختل نظام السير فى جيش عظيم كهذا مع عدد كبير من الحيوانات ، وكان هذا الاختلال مدعاة للاحتكاك ما بين هكس ومعاونيه الكبار فى الجيش المصرى كحسين مظهر باشا ، وسرت روح تواكل فى الجيش أوقعت الارتباك فى صفوفه حتى لقى حتفه .

اتخذوا فى سيرهم الطريق الجنوبى الطويل لأنه وإن كان أطول إلا أنه يمرّ على مناهل المياه التى تكفيهم ، وخاصة الخور الكبير المسمى بالنيل . ومن الدويم قبل المسير كتب هكس وعلاء الدين إلى العربان فى الطريق وإلى الملك آدم ملك جبال تقلى وإلى إلياس باشا امبرير . وهذا يدل على أن الحقائق كانت محجوبة عنهم فالملك آدم هو الذى سهّل للمهدى المرور بداره إلى قدير وكان يخبره بما يسمعه من جهة الحكومة ، والياس باشا هو الذى نشر الدعاية له فى حامية الأبيض وكان على رأس من خرجوا منها إلى المهدى فى كابا .

تقدموا ثلاث مراحل ولم تقابلهم إلاّ قرى مهجورة وكلّما سمع السكان بمسيرهم ارتحلوا يمينا أوشمالا عن طريق الجيش . فعقد القائد مجلسا عسكريا للنظر فى مسألة المحطات العسكرية التى كان مقررا إقامتها فى الطريق . ولو أن الظروف الحربية تحتم إنشاء مثل هذه الحاميات الصغيرة فى طريق المواصلات أونقط ارتكاز عند التقهقر ، إلا أن عدم معاونة السكان ومظهرهم العدائى وهجران القرى ، جعلهم يعدّلون فى خططهم بأن يتقدم الجيش بكامله ، وألا يترك حاميات فى الطريق ، لأنها مهما قويت فالأنصار لابد أن يتفوّقوا عليهم عدديا ، وفوق ذلك فالجند الذين يحمون تلك الأماكن المنعزلة يضعفون قوة الجيش الرئيسى . وبعد أن انعقد المجلس العسكرى بحضور هكس وعلاء الدين وكل الضباط العظام من رتب القائمقام

والأميرالاى واللواء اقتنعت أغلبيتهم بسير الجيش دون أن يترك محطات عسكرية في الطريق .

تعمق هـذا الجيش وعدده بالأتباع يزيد على الاثنى عشر ألفا فى تلال كردفان ، وانقطعت صلته بالنيل ودخل فى مغامرة حربية عرف التاريخ القليل من أمثالها . جيش يكوّن من فلول جنود وصموا بالثورة وزعماؤهم فى سجون القاهرة رهن المحاكمة ، ينقلون بحالة سيئة إلى السويس ثم يلقون فى البواخر وبعضهم مقيدة أرجلهم ، وعلى رأسهم جندى غريب عنهم يجهل طباعهم وأخلاقهم ، وفوق ذلك يخالفهم فى الدين والعقيدة ، ومهمته القضاء على ثورة تمتد جذورها فى أرض الدين لا السياسة ، والأمة التى تهمين على مصير الأمة المصرية والتى فتحت البلاد بعد أن أخمدت الثورة تتنصل من المسؤولية وتصرّح بلسان المسئولين من ساستها أن ذلك القائد قبل قيادة الحملة على مسئوليته ، وأن سياستها عدم التدخل بين الحاكم وشعبه الذى جاهر بالثورة والعصيان ؛ والجميع يدخلون فى أقليم لم يألفوا طقسه ومياهه ولم يتدرّبوا على القتال ضد طبيعته ومحاربيه ؛ هـذا الجيش كما وصفناه فى عدّته ومعنوياته توغل فى أرض عدوّه منذ أن فارق النيل .

عوامل معاكسة

دبّ الخلاف بين الرءوس منذ البداية ؛ فتارة على وقت المسير وارتياد المناهل وطوراً على الطريق وطول المرحلة وطورا على من المسؤول عن تحركات الجيش وإعطاء الأوامر ، أهو الجنرال هكس ؟ أم الضابط السياسى علاء الدين باشا ؟ أم أكبر الضباط الوطنيين حسين مظهر باشا ؟ أم رئيس أركان الحرب فركار ؟ ومشا كل المياه تتجدد يوميا . هل الآبار تكفى لسقاية الجيش أم لابد من البرك ؟ وهل يتحرك الجيش بكامله أم لا بد من فرقة استكشافيه ؟ كل ذلك والأنصار يظهرون أفراداً وجماعات يطلقون بعض الأعيرة النارية ثم يختفون ، والسكان يتنحون عن الطريق ويحملون ما أمكنهم حمله من القرية ، وما بقى يتركونه أكواما من الرماد . ولم يلقهم ولا وطنى واحد يحمل رسالة للخرطوم أو يرضى أن يكون حلقة اتصال بين مواطنهم والنيل ، ولو رضى واحد بذلك ربما يتجه المهدى

اختلافات بين القواد

بالرسالة بدلا من الخرطوم ، وقد هرب جندى ادعى أنه كان فى معسكر المهدى أسيراً فى المراحل الأولى من الحملة بعد أن تسلح ببندقية وامتطى جملا سريعا ولحق بالمهدى ، وبالطبع نقل إليه ماعرف وما خبر عن أحوال الحملة . كلما ازدادوا إيغالاً إلى الغرب زادت المشاكل وتفاقمت الخلافات وانحطت الروح المعنوية وازدادت شدة المقاومة ، فبعد أن كان الأنصار يظهرون فى جماعات صغيرة حضرت الآن قوات من قبل المهدى تحت قيادة الأميرين عمر الياس باشا والحاج محمد أبو قرجة وكانت مهمتهما تنحصر فى الإزعاج والمناوشة لا الملاقاة والمقاومة .

خطابات للزعماء

وعندما وصلوا مناهل المياه الغزيرة الواقعة على خور النيل حرّرت الخطابات إلى زعماء القبائل منبئة إياهم بوصول التجريدة لخلاصهم ، ومهرت من علاء الدين وهكس . ومنذ أن فارق الرجال الذين يحملونها المعسكر لم يعرف مدى تأثيرها بل هناك شك فى وصولها إلى من كتبت إليهم ، وحتى لو استلموها فقد مضى أوانها ، وها هو مهدى الله قد ظهرت آياته وسمت مكانته إلى درجة ما تركت وطنيا فى سهول كردفان يُقبل على جيش يقوده نصرانى ويترك نور الهداية المنبعث من جبين المهدى .

دعاية المنشورات

وما كان المهدى أن ينازل خصمه فى حلبة الوغى قبل أن يوجه إليه الإنذار الأخير ، وهذا يجب أن يصل إلى كل جندى فى التجريدة لا أن يصل إلى القادة الذين لابد وأن يحاولوا إخفاءه حتى لا ينحل الجيش وتخور قواه ، فأملى على الكاتبين المنشور التالى[1] « من الفقير المعتصم بمولاه محمد المهدى بن السيد عبد الله إلى من يسمع من أهل الجردة ممن له عقل . فإنه لا يخفى على كل ذى عقل أن الأمر بيد الله ولا يشركه فى ذلك بنادق ولا مدافع ولا سواريخ ولا عصمة لأحد إلا لمن عصمه الله . فإذا فهمتم ذلك فاعلموا أن الله واحد ولا تغترون بأسلحتكم ولا بجموعكم التى تريدون أن تقاتلوا بها جنود الله فإنه لا قوة لشىء دون الله . وإن قلتم إن مهديتنا مكذوبة فاعلموا أن التكذيب إنما يصدر ممن يحب الدنيا ويخاف من

---

(١) دفتر نمرة ٦ وارد تلغرافات سنة ١٨٨٤ عابدين .

المخلوق ويستعجز قدرة الله . فإذا فهمتم ذلك فلايغرنـّكم أقوال علمائكم فإن الترك الذين قتلتهم شكوا للحق عز وجل وقالوا يا إلهنا ومولانا المهدى قتلنا من غير إنذار فأقول أنذرتهم يارب وحضر على ذلك شاهد سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وقال لهم الإمام المهدى أنذركم فلم تسمعوا له وسمعتم أقوال علمائكم فذ نبكم عليكم ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون فقال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لـكنا مؤمنين وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين فإن كان لـكم نور تؤمنون بالله ورسوله وتصدقون بهديتنا وتخرجون إلينا مسلمين ومن سلم يسلم وإن أبيتم إلا الجحود والاعتداد بالمدافع والبارود فإنكم مقتولون كما أخبر سيد الوجود وأسوتكم ماسبقكم من الجنود والسلام » . كتبت نحو السبعة آلاف نسخة من ذلك الإنذار حسب رواية أحد الذين كانوا يكتبونها وحملها الخيالة ووضعوها فى طريق التجريدة على فروع الأشجار ، وقد نجح بعض الجند فى التقاطها وما إن علم هكس وأركان حربه بها حتى جمعوها فحرقت .

المرحلة الأخيرة

اقترب الجيش من نهايته المحتومة بعد سريان الملل والسأم فى نفوس الجند واعتراهم يأس غريب قبل الالتحام فى المعركة الفاصلة ، ونفوس القواد لازالت متنافرة ، وأخبار المهدى وعَدده وعُدده فى طى الغيب ، ثم إنهم تشكـّكوا فى نيات الأدلاء وقسوا فى معاملتهم معهم حتى إن بعضهم وضع فى الحديد ، وكذلك حامت الشكوك حول عبد الرحمن بك بانقا المرافق للحملة ، وهذا ما دعا أحد الأدلاء إلى الهرب والالتجاء بالمهدى . وكانت الخطة المرسومة أن يصلوا إلى كازقيل ثم منها المرحلة الأخيرة إلى الأبيض .

المعركة الفاصلة

تركنا المهدى فى الأبيض يبعث ببعض أنصاره عندما سمع بتحرك الجيش من الدويم للمناوشة وأصبحت أخباره تصل إلى الأبيض يوميا عن عدد الجيش والحيوانات وهجر القرى وابتعاد السكان عن الطريق . ثم كان ما كان من إنذاره النهائى الذى وجّهه للجنود ، وأخيرا صمم على ملاقاته خارج الأبيض . وأمر بالرحيل

وخرج الأنصار مشاتهم وخيّالتهم ؛ فمنهم الجهادية الذين يحذقون استعمال الأسلحة النارية ، ومنهم فرسان أهل الغرب دُربوا على أعمال الفروسية وامتطاء صهوات الجياد واستخدام الرماح ، ومنهم حملة السيوف ، ومنهم من لم يركب مهرا أو يحمل بندقية أو سيفا بل العصا أو الفأس ولكنه يريد أن يشارك إخوانه الأنصار فى الذب عن حياض الدين والقتال فى سبيل الله ، ويربط الجميع إيمان عميق بما يعتقدون وإن فاتتهم نشوة الظفر بعد المعركة فلن تفوتهم الشهادة فى سبيل الله .

خرج الجيش يتعثر فى مسيره فى وسط أرض مشجرة يقصد كازقيل . فبعث المهدى بالجهادية تحت قيادة حمدان أبى عنجة ، وقد أردفهم الفرسان على خيلهم وأنزلوهم وسط الأشجار على جانبى الطريق الذى يسير فيه الجيش . وهم فى مخبأهم وسط الأشجار ظلّوا يصوّبون نيرانهم على الجيش يوما وليلة ؛ فاختل نظامه وارتبك وصار الرصاص يردى الضباط والجنود والحيونات على السواء ، ولا سبيل إلى رد عادية نيران الأنصار إلا بالرصاص والمدافع ، ولكنها قليلة الإصابة إذ الجهادية يتخذون من جذوع الأشجار وظلمة الغابة ساترا يقيهم رصاص الجيش . وبعد أن نال أصحاب الأسلحة النارية من التجريدة ما نالوا من الأنفس واختلال النظام ، صدرت الإشارة من المهدى بالهجوم العام . وهنا قام الفرسان والمشاة و يبلغون الآلاف العديدة ، واخترقوا المربع وأبادوه عن بكرة أبيه ، غير مئات من الجرحى والأسرى الذين اختبأوا وسط الجثث . وانتهت تجريدة هكس التى حوت آخر عدد عظيم من جيش نظامى ، وبذا كانت موقعة حاسمة بين قوة الخديوى وقوة المهدية .

سياسة الاخلاء والانسحاب

حالة المهدى المعنوية بعد الانتصار

أبيد الجيش فى غابة شيكان يوم ٤ نوفمبر ١٨٨٣ ورجع أنصار المهدى بأسلاب وغنائم أعظم قوة من حيث العدد والعدة قاتلتهم إلى الآن . ولنترك المهدى وأنصاره فى الأبيض يستقبلون الوفود الجديدة التى آمنت بعد أن كانت فى شك

وقد خلصت كردفان بأكلها المهدى وانقطعت حاميات دارفور عن أى مدد يصلها من الخرطوم ، وازدحمت الطرق المؤدية إلى الأبيض بمن يريدون البيعة والانتساب لسلك المهدية . وكان المهدى وانتصاراته المتواليه على كل لسان ، وتغنت النسوة وهن فى عملهن من طحن وعوس واحتطاب بمناقب المهدى وذهب القواد العظام لإشعال النيران فى الأماكن التى ما سرت فيها روح المهدية بعد . ولم تصل الأخبار فى حينها إلى مقر الحكمدارية فى الخرطوم ، وأن هى وصلت فمتناقضة فبعضها ينبئ بإبادة التجريدة و بعضها يتحدث عن تصادم كان النصر فيه حليف هكس .

اقتراحات الخرطوم

وأوّل خبر يوثق به أتى إلى الحكمدارية من الدويم وتاريخه ١٩ نوفمبر وأبرق به وكيل الحكمدارية فى ٢٠ منه وختم الوكيل برقيته بما يأتى « وحيث أنه بهذه الحالة قد صارت الخرطوم وخلافها فى حالة خطر كلّى لعدم وجود عساكر كفاية حتى للمحافظة كما سبق العرض عنه ذلك فلزم عرضه للإسعاف بصدور الأمر بما يوافق أفندم » .

وفى ٢١ نوفمبر أبرق حسين سرى باشا وكيل الحكمداربة أيضا بتفاصيل الخبر من أسير فرّ بصفة أنصارى بعد أن حضر المعركة ، وأشار بالاتفاق مع إبراهيم حيدر باشا قومندان ٣ جى لواء والكولونيل كوتلجن أن الأوفق هو انسحاب العساكر من نقاط النيل الأبيض كشات والدويم والكوة وولد الزاكى وجمعها فى الخرطوم حتى تأتى النجدات من المحروسة وإذا لم يتم حضور النجدة تنسحب حامية الخرطوم إلى بربر .

وتلقى رَدًّا على برقيته بيوم ٢٢ نوفمبر بمايلى : — « [1]عرض لسامعنا ما فى التلغراف المؤرخ ٢١ نوفمبر سنة ١٨٨٣ المختص بما ترآى موافقته من جهة العساكر الموجودة فى النقط و بما أنه يرى الحاضر ما لا يرى الغائب وجل المقصود دائما

---

(١) صادر تلغرافات ٣ صحيفة ١٠٤ عابدين .

التحفظ بالطرق والتدابير التى يُرى ضرورة لزوم اتخاذها وقد تورّى بأنه باتحادكم فى المذاكرة فى هذا الشأن ما وجدت طريقة أوفق من انسحاب عساكر نقطة شات والدويم والكوة وولد الزاكى وحضورهم والحالة هذه إلى الخرطوم واتخاذ طريقة للتحفظ فعلى حسبما رأيتموه يصير الإجراء . أماما يلزم إجراء بعد تاريخه فهذه يلزم العرض عنه لطرفنا أوّل بأوّل »

فالحالة إذا دخلت فى طور من الخطر بإبادة حملة هكس لم تدخل فى حسبان ولاة الأمر وقد انتشر الذعر والرعب فى الخرطوم إلى درجة أن حسين سرى باشا وكيل الحكمدارية وإبراهيم حيدر باشا قومندان الآلاى الثالث كلاهما طلب النزول إلى مصر متعللين بالمرض .

هوايت هول وقصر الدبارة

والآن لننتقل من الأبيض والخرطوم والقاهرة إلى هوايت هول وداونتج ستريت وقصر الدبارة ونرى كيف كانت استجابة السياسة الإنجليزية لهذا الاندحار . وهى باحتلالها لمصر أصبحت مسئولة نوعاما عما يجرى مهما تنصلت ومهما ادّعت أنها ثورات داخلية . وإذا لم تهتم بالحالة فى السودان قبل شيكان فقد أصبح الخطر يقترب من مصر نفسها الآن . وإذا هى احتلت مصر لتعيد الأمن إلى ربوعه ولتثبيت سلطة الخديوى فأحرِ بها أن تتخذ من الإجراآت ما يمكنها من الدفاع عن مصر إذا امتدت نيران الثورة إليها أو اقترب الأنصار من الحدود .

تنصريحات لندن بعدم التدخل

التصريحات التى فاه بها الساسة الإنجليز عندما يتحدثون عن ثورة السودان قبل شيكان تؤيد كلها عدم التدخل وتدعى أنها من شؤون مصر الداخلية ، ولكنهم لايخفون آراءهم بصدد مقدرة مصر على أخمادها ويشيرون إلى إخلاء بعض أجزاء السودان حتى تتفرغ القوة المصرية للدفاع عن جزء محدود تستطيع الاحتفاظ به والدفاع عنه دون مساعدة خارجية . فاللورد وفرن أشار باخلاء دارفور وجزء من كردفان واللفتننت كولونيل ستيوارت نصح فى تقريره بالانسحاب من السودان الغربى . وهذا يتسق مع منطق حكومة جلادستون التى رأت أنها أُرغمت على احتلال مصر وأنها تفكر فى الانسحاب عندما تعود المياه إلى مجاريها . فبديهى

ألا تفكر حكومة هذه سياستها التى صرحت بها أن تضيف على أعبائها عبئا جديدا هو إخماد ثورة السودان . ولكن مثلما كذّبت الظروف التى تلت الاحتلال تصريحات جلادستون كذلك ألجأته وحكومته إلى التدخل فى شؤون السودان بالتدريج .

مضير

أول التدخل البريطانى

بدأت الرجل البريطانية تتزحلق نحو مشكلة السودان فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٨٣ عندما أبرق السر إفلن بيرنج لحكومة جلالة الملكة ووصف لها بلبلة الأفكار واضطراب الأحوال عن حملة هكس ، لأنه لم تصل أخبار أكيده عنها منذ خمسة أسابيع ، ويرى أنها إذا ابيدت سوف تفقد مصر السودان إذا تركت وشأنها دون مساعدة خارجية ، ويرى أيضا إلا يُستخدم الجيش المصرى الجديد فى إخماد الثورة فى السودان بل يترك للدفاع عن مصر . أزاء هذه الحالة يطلب بيرنج ما يشير به إلى الحكومة المصرية إن هى طلبت مساعدة الجنود البريطانية أو الهندية أو التركية وختم برقيته بأنه يرى أن تمد انجلترا مصر بضباط فى التقاعد ووصل الرد فى اليوم التالى عما يلى « لا نستطيع المعونة بجنود انجليزية أو هندية . لا تشجّع تطوع الضباط الانجليز ، ليس من مصلحة مصر طلب المعونة بواسطة جنود تركية فى السودان . إذا طلب منك أن تبدى رأيك أشر بإخلاء السودان إلى حدود معلومة » .

هجرت السياسة الانجليزية نظرية عدم التدخل وبدأت تكوّن رأيا أن لم يكن واضحا فهو يدّل على اتجاهها على الأقل . وفى يوم ٢٢ نوفمبر نقل بيرنج لحكومته أنباء أبادة حملة هكس ونوّه على أن مصر قد تطلب معونة الدولة ذات السيادة وهى تركيا ويرى أن يعضّد هذا الطلب وفى الحال التى ردّت وزارة الخارجية بأن لامانع أن يستخدم الخديوى جنودا تركية فى السودان ، ويستفهمون عما إذا كانت مصر نفسها تتعرض للخطر ، وإذا كان الأمر كذلك فما هى الاجراآت التى يجب اتخاذها ؟ وقد كانت النتيجة الحتمية للخطر الذى تتعرض له مصر فيما إذا سقطت الخرطوم مدعاة لأن تبقى الجنود الإنجليزية فى القاهرة ، بعد أن كانت

مفاوضات ترحيلها إلى الإسكندرية قد قطعت شوطا كبيرا . وأشار بيرنج والخبراء الإنجليز العسكريون فى مصر إلى أن مصر بمفردها ليس فى مكنتها الاحتفاظ بالسودان ، ويرون الثبات فى الخرطوم حتى تتراجع الحاميات التى تقع جنوبها وبعدئذ يتم التراجع التدريجى حتى حدود مصر .

كيف اختير غوردون للسودان

عندما كانت الاقتراحات والآراء تنقلها أسلاك البرق فى المحيط الرسمى بدأت تطورات فى الرأى العام الإنجليزى قادت فى نهايتها إلى اختيار غوردون للقيام بمهمة الاخلاء . ففى اليوم الذى ظهرت فيه أخبار هكس وإبادة حملته كتب ضابط من سلاح المهندسين الملكى فى لندن إلى رئيسه يقترح فيه إبعاث غوردون لاخماد ثورة المهدى إذ علم فيه الجرىء الذى يرتفع فى مثل هذه المناسبات وربما ينجح فى تلك المهمة مثلما نجح فى الصين . فبعث الرئيس بهـذا الاقتراح إلى إلى صديق له فى وزارة جلادستون هو وزير العدلية ونقله هـــذا بدوره إلى اللورد جرانفيل وزير الخارجية .

استشار الوزير رئيسه جلادستون ووافق هذا الأخير وعندئذ طيّرت البرقية الآتية إلى قصر الدوبارة فى ١ ديسمبر سنة ١٨٨٣ « إذا وافق الجنرال غوردون على الذهاب إلى مصر فهل فى إمكانه تقديم خدمة لك أو للحكومة المصرية ، وإذا كان ذلك فى الإمكان فما نوع العمل الذى يقوم به ؟ » .

لم تسجّل حوادث السودان برقية أشد غموضا من هذه . فأساس الاقتراح أن يذهب غوردون ليقاتل المهدى ، ويرى صاحب الاقتراح أن غوردون هو الرجل الذى يستطيع إخماد ثورة كهذه . وجرانفيل مع علمه أن الحكومة الانجليزية نصحت بالانسحاب من السودان إلى حدود معلومة يطلب من بيرنج ببرقية مبهمة كهذه أن يقطع برأى فى نوع الخدمة التى يقوم بها غوردون . وفوق ذلك فغوردون وبيرنج يختلفان فى المزاج والسياسة ، وقد يجزم من خبر الرجلين أن الانسجام المطلوب فى القيام بأمر خطير وغامض كهذا لا يوجد بينهما ولكنها سياسة جلادستون المضطربة وأوامر ونصائح جرانفيل الغامضة .

لم يكن بيرنج بحاجة إلى معونة غوردون وكان عليه أن يعرض خدماته على شريف باشا رئيس مجلس النظار المصرى . وعقب المقابلة أبرق بالرد التالى فى ٢ ديسمبر « لا ترغب الحكومة المصرية فى استخدام غوردون لسبب واحد رئيسى وهو أن الحركة القائمة فى السودان دينية وتخشى إن هى أقدمت على تعيين مسيحى فى مركز كبير قد تباعد ما بينها و بين القبائل التى لا تزال على ولائها . وأرى من الحكمة أن نترك مسألة السودان بأكملها لهم و إلا نضغط عليهم فى هذا الموضوع » .

الحكومة المصرية لا تريد خدمات غوردون

ويتبين من هذا أن بيرنج حتى ذلك الوقت ينصح و يعتقد فى سياسة عدم التدخل . وتأييدا لرأيه كتب رسالة طويلة فى اليوم التالى أكّد فيها وجوب استمساك حكومة الملكة بسياسة الامتناع عن التدخل فى شؤون السودان . وحتى اليوم التاسع من ديسمبر كان بيرنج لا يزال مصرّا على هذا الرأى ، وهذا بصدد تعيين الزبير لقيادة حملة مكوّنة من ستة آلاف من السود إلى السودان الشرقى . فعندما خاضت الجرائد الانجليزية فى موضوع قيادة الزبير للحملة وأبدت اعتراضها على هذا التعيين كتب بيرنج يقول « إذا كانت حكومة جلالة الملكة ألقت عبء المسؤولية على الحكومة المصرية فليس من العدل أن تعترض » .

ظلّ بيرنج ينادى بعدم التدخل إلى اليوم التاسع من ديسمبر ولكننا نراه انقلب فجأة فى اليوم العاشر وبعث برقية هذا نصها « لقد وضح لى الآن ضرورة تعليمات واضحة فى أقرب فرصة بما يجب أن ننصح به للحكومة المصرية . وهم الآن ينقادون للتيارات والحوادث دون خطة معينة وسيظلون كذلك إلى أن يُوّجهوا نحو هدف معيّن » وهذا التغيير فيما بين ليلة وضحاها يدعونا للتساؤل عن منشئه ، وقد تكون نشر أخبار الكارثة التى أصابت الجنود المصرية فى تلال البحر الأحمر وهددت سلامة ميناء سواكن السبب المباشر الذى حدا بالمعتمد البريطانى القذف بسياسة الامتناع جانبا وطلب التعليمات الصريحة الواضحة التى تجعل لانجلترا الكلمة الأولى فى الأمر . وهكذا انحاز بيرنج لسياسة الواقع بعد أن

بيرنج يقف صريحا فى جانب التدخل

اقتنعت بها الحكومة البريطانية قبله . ومنذ ذلك اليوم دخلت المسألة السودانية في طور جدّى بعد فترة التأرجح والغموض .

الحكومة المصرية تقترح طلب المعونة التركية

وبعد يومين (١٢ ديسمبر) اجتمع شريف باشا بالمعتمد وقص عليه ماوصل إليه الاجتماع الخطير لمجلس النظار الذى عقد برئاسة الخديوى . ويتلخص فى أن الحكومة المصرية أقرّت بعجزها عن معالجة المسألة بنفسها وأنها لا ترى من الحكمة استخدام جنود انجليزية أو هندية وربما تساعد كوسيلة للدعاية فى صالح المهدى لحركة دينية كهذه ، والأفضل الالتجاء لتركيا ويطلبون من انجلترا الاتفاق مع الباب العالى على « نوع ومدى المعونة التى تقدمها » وبالاختصار فقد تركت مقابلة شريف باشا فى ذهن بيرنج أن الحكومة المصرية وضعت نفسها تحت تصرف حكومة جلالة الملكة فيما يختص بتنظيم معونة تركيا .

وبالرغم من اشتغال الوزارة الانجليزية بموضوعات داخلية تعرضت فيها لأزمات وزارية وصل الرد منها فى اليوم التالى (١٣ ديسمبر) يؤكد أن حكومة جلالة الملكة لا ترغب فى استخدام جنود انجليزية أو هندية فى السودان ولا مانع لديها أن تستخدم الجنود التركية بشرط أن تقع أعباؤها المالية على كاهل خزينة الدولة العثمانية ، وأن تجعل سواكن مركز حركاتها الحربية ، ولا توافق حكومة جلالة الملكة مطلقا على تجريدة تثقل كاهل الميزانية المصرية الكابل ، وفى النهاية ينصحون بأن تنسحب الحاميات المصرية إلى أسوان أو إلى حلفا على الأقل . فتلك الاشتراطات التى رأت فرضها انجلترا تجعل معونة تركيا أمرا غير متوقع الحصول ولذا نصحت بالانسحاب .

زال الغموض وأبدت السياسة الانجليزية نصيحتها فى لهجة تنم على الأمر لا إسداء النصح فقط ، ولكن فاتت الناصحين العقبات التى يصادفها تنفيذ هذه السياسة ، وهذه وضحها بيرنج فى مذكرة تفصيلية وصلت عن طريق البريد بعد أن تناقلت أسلاك البرق السياسة الجديدة . وما إن تلقى المعتمد الرسالة البرقية حتى نقلها إلى شريف باشا ورأى هذا أن يرد عليها بمذكرة وافية وقد فعل ذلك فى يوم ٢٢ ديسمبر .

تناولت مذكرة شريف حق التنازل القانونى وقال بانه ليس من حق الخديوى أن يتخلى عن جزء من ممتلكاته بموجب فرمان تعيينه ، ورأى أن اخلاء شرق السودان ودنقلا يجعل مهمة الدفاع عن مصر شاقة ، وفى نظره أنه بمعونة عشرة آلاف جندى تركى فى الاستطاعة فتح الطريق ما بين سواكن وبربر ، ولا يظن أن تركيا ترفض هذه المساعدة لأن مصر عاونتها قبل ذلك بثلاثين ألفا فى حربها على روسيا ، وختم مذكرته بأن حكومته لا ترغب فى مهاجمة كردفان بل تود الاحتفاظ بالخرطوم وشرق السودان وحوض النيل .

شريف يصر على الاحتفاظ بالسودان

وكتب بيرنج معلّقا على هـذه المذكرة بأن أية مفاوضات مع تركيا سوف يكون نصيبها الفشل ، وأنه على حسب ما ورد من الأخبار فالخرطوم حالتها ليست بالحرجة كما يبدو ، وقد تستطيع مصر الاحتفاظ بشمال الخرطوم لمدة من الزمن ، وفقدان ذلك الجزء من السودان الذى يقع مابين حلفا والخرطوم يُعد ضربة شديدة على نفوذ الخديوى و بالتالى يجعل أمر الدفاع عن مصر شاقا صعبا و بوجـه عام فقرار الحـكومة المصرية يبدو أحسن الحلول لمثل هذا الأمر المعقد . فإذا ما أخذت الحـكومة به فلا بد من بقاء الجيوش الانجليزية لمدة تتراوح بين خمس وعشر سنين فى مصر لتمـكّن الحـكومة المصرية من بناء قوة دفاعية لا بد أن تستنزف شيئاً من الميزانية المصرية ، ولـكنها قليلة بالنسبة لما يتطلبه الاحتفاظ بالسودان جميعه وختم قائلا « ليست هناك وسيلة للاغراء تجعل الوزارة الحالية تقبل سياسة الاخلاء والطريقة الفعالة لتنفيذها هى مصارحة الخديوى بلزومها ، و إذا اعترض عليهـا الوزراء الحاليون فلا بد له من تعيين آخرين فى استطاعتهم تنفيذها ، والملاذ الأخير فيما إذا تعقدت الأمور هو تعيين وزراء انجليز بصفة وقتية ، ولا بد فى النهاية من إيفاد ضابط انجليزى برتبـة كبيرة يُمنح سلطات فوق العادة لسحب الحاميات فى السودان وتأسيس نظام حكومى يلائم الحالة هناك » .

مرت أيام ولم يتلق بيرنج ردا على مذكرة شريف باشا وتعليقه وفى هذه الأثناء توالى ورود الأخبار بتطور الموقف فى الخرطوم إلى درجة مزعجة ، حيث إن قلوب الموالين للحكومة اعتراها الرعب وظنوا أن حكومة مصر تركتهم للأقدار

بيرنج يوافق على اخلاء جزئى

تلعب بهم كما تشاء وإلا لسمعوا عن النجدات وسرعة إرسالها ، وأخيرا بعث بيرنج باستعجال وصف فيه صورة للحالة كما تبدو ، وتتركز فى عدم مقدرة الحكومة المصرية على عمل شىء ما إذا ماتركت وشأنها ، ولابد للحكومة الانجليزية والحالة هذه من اتخاذ سياسة إيجابية فعالة فى إدارة مصر فيما إذا ألحّت وصممت على نظرية الاخلاء . وفى الثانى من يناير من السنة الجديدة (١٨٨٤) أبرق بيرنج إلى لندن باقتراح جديد قدّمه شريف باشا يتركز فى إرجاع السودان الشرقى وشواطىء البحر الأحمر إلى تركيا إذا ما رفض السلطان المعونة العسكرية وبذ يتسنى لمصر بما لها من جند الاحتفاظ بوادى النيل والخرطوم .

استقالة شريف

تحركت حكومة جلالة الملكة أخيرا للعمل وعقد مجلس الوزراء جلستين فى يومى ثلاثة وأربعة يناير وفى اليوم الأخير وصلت الحكومة إلى قرار نهائى قدمته لجلالة الملكة فوافقت عليه وأبرق لبيرنج فى نفس اليوم بأن الحكومة لا تزال مصرّة على إخلاء السودان بأكمله ، ولا مانع لديهم من إرسال جنود عثمانية بشرط أن تقوم تركيا بنفقاتها ، ويوافقون أيضا على إرجاع شواطىء البحر الأحمر للدولة العثمانية . غير أن ما ختموا به البرقية هو السياسة المقررة إذ لا يعتقدون فى مقدرة مصر بالدفاع عن الخرطوم . ولو أنهم يؤمنون بتجمع القوات المصرية إلا أنه لا بد من انسحابها من الخرطوم وبقية السودان . وفى خطاب خاص لبيرنج صرّح اللورد جرانفيل أن الوزير المصرى الذى لا يستطيع المعاونة مع الحكومة الانجليزية فى الأمور السياسيه الهامة طالما أن جنود جلالة الملكة تحتل مصر عليه أن يستقيل . وبذا أصبحت الحكومة الانجليزية مسؤولة عن الاخلاء وتنفيذه والوزير المصرى الذى لا يتعاون معها فى ذلك لا يحتفظ بكرسيه وما كان لشريف وهو يؤمن ببقاء السودان وبالاحتفاظ بوادى النيل منه على الأقل أن يقبل هذا الوضع فرفع استقالته فى ٧ يناير للجناب العالى وكان حتما أن تقبل .

تنفيذ سياسة الاخلاء وبعثة غوردون

حديث غوردون لمحرر جريدة بول مول

فى صباح يوم ٨ يناير كان غوردون جالسا مع صديق له فى منزل أخته

بضواحى ساوثهمبتون ، فلايشعران إلا برجل قصير ذى لحية يطلب مقابلة غوردون .

وكان ذلك الرجل هو و . ت . ستيد محرر جريدة بول مول جازيت لأخذ حديث منه عن حوادث السودان لأنه خبرها وعرف مشاكلها . وما كان غوردون فى حالة تسمح له بإعطاء حديث لمحرر جريدة عن السودان لأنه رجع من بروكسل بعد أن أتفق مع ملك البلجيك للخدمة فى الكنغو . واقتضت الظروف غوردون أن يقدم استقالته من جيش جلالة الملكة لأن السلطات لم تسمح له بالجمع بين وظيفته فى الجيش والخدمة تحت ملك البلجيك ، وما أتى لانجلترا إلا لتلقى رد حكومته بصدد استقالته ثم يعود توًّا لبلجيكا ويحزم حقائبه ويسافر إلى مجاهل أفريقيا . وكان من الطبيعى أن يعتذر غوردون عن إعطاء حديث وإبداء آراء قد تتعارض مع سياسة الحكومة . ولكن تحت إلحاح المحرر بألا يحرم الرأى العام من تجاريبه وخبرته الطويلة بشئون السودان خضع وأدلى بحديث طويل ضمنه آراءه عن حركة الثورة المهدية وعن سياسة الإخلاء ولم يكن على علم بأن الحكومة أبانت ما تراه فيها .

حديث غوردون

طفق غوردون يتدفق فى الحديث ما يقرب من الساعتين للمحرر . وبدأه بضرورة الاحتفاظ بالأقاليم التى تقع شرقى النيل الأبيض ويوافق على إخلاء كردفان ودارفور ، ويرى فى الثورة أنها سوف تنتشر بسرعة البرق فيما لو أخلى السودان ، وسوف تتطاير منها شرارات عبر البحر الأحمر لتشتعل فى الجزيرة العربية وشمالا فى صعيد مصر ، وأنه ليس باستطاعة النقط الحربية أن تحبس تيارها المندفع .

ثم أبان صعوبة تنفيذ الإخلاء وأشار بأن عدد الجند الذين يراد ترحيلهم من حاميات السودان يزيد على الأربعة وعشرين ألفا ، وإذا كان فى حيز الإمكان والاستطاعة ترحيل حاميات الخرطوم وشمالى السودان فماذا يحدث للجند المرابطين فى دارفور وغندوكرو ؟ أيضحى بهم لأنهم أخلصوا الطاعة وأظهروا الولاء ؟ وكيف يمكن الحصول على عدد من الجمال لترحيل العدد الضخم من

الملكيين والعسكريين ؟ وهل تخلق مواقع تحمى ظهورهم ؟ وهل فى الامكان حماية النساء والأطفال من النهب والقتل وهم يقطعون المئات من الأميال قبل أن يصلوا إلى مكان أمين يطمئنون فيه إلى سلامة أنفسهم ؟ هناك طريقان عمليان إما التسليم فى التو والساعة للمهدى وإما الدفاع عن الخرطوم وهذا الأخير مايجب اتباعه .

*

ويرى غوردون أن الوزير المصرى الوحيد الذى يستطيع مواجهة ذلك الموقف الحرج هو نوبار باشا . فإذا ما لقى التعضيد والمعونة الكافيين من حكومة جلالة الملكة استطاع بحكمته وكفايته تدارك الأمر . وربما أرسل نوبار حاكما عاما قويا بمليونين من الجنيهات إلى الخرطوم ، وليس هناك من يصلح لمثل هذه الوظيفة فى مثل ذلك الموقف الشاذ إلا السير صمويل بيكر . فإذا ما وقفت الحكومة المصرية موقف الحزم ، وإذا ما أعانتها وساندتها الحكومة الانجليزية ، وإذا ما أرسل حاكم عام مقتدر بمبلغ من المال ومنح سلطات استثنائية ، فربما تذوب الثورة من نفسها كما يذوب الثلج . وربما يدب الخلاف بين القبائل وتفتر حماستهم للمهدى وعند ذاك يرفرف علم الأمن والطمأنينة مرة ثانية على ربوع السودان ، وبعدها يعلن للسودانيين بشكل واضح قاطع أنهم سيمنحون دستورا ولا يسمح بعد اليوم للترك والشراكسة بإثراء أنفسهم بل يقصون إقصاء تاما من الإدارة ، وأن تحرير الرقيق سوف لا يكون أمرا مستعجلا .

رأى غوردون فى الثورة

والحركة كما يظنها غوردون لم تكن بدينية بل هى فى أساسها ثورة على النظام التركى الشركسى وأن الدين ماهو إلا غشاء خارجي لها ، والقائم بأمر الدعوة يظنه غوردون آلة مسخرة فى يد إلياس باشا امبرير وملاك الرقيق فى الأبيض . ويرى أنه (غوردون) صاحب الأثر الأول فى هذه الثورة ، فإدارته مدة الثلاث سنوات للسودان علمت السودانيين معنى الحرية وثاروا عند ما فارق البلاد ورجع العنصر التركى — الشركسى للحكم بعده ، ويتحسر على المصير الذى صار إليه السودان ، وأنه أحب البلاد وأهلها ولو كان فى استطاعته انتشالهم مما تردوا

فيه من هوة وخراب لفعل . ومن غرائب المصادفات أن نوبار باشا قبل الوزارة فى نفس اليوم الذى كان محرر البول مول جازيت يأخذ حديثه من غوردون ، وقبلها على أساس المعاونة مع السياسة البريطانية فى نظرية الإخلاء .

الجريدة تقترح إيفاد غوردون

وفى اليوم التالى للحديث عقد المحرر فصلا افتتاحيا بعنوان « غوردون الصينى للسودان » أشار فيه إلى صعوبة الإخلاء وانتقد سياسة الحكومة التى تقود إليه ، واقترح أخيرا إرسال غوردون بكارت بلانش إلى السودان ليفعل مايراه مناسبا ، ويجب أن لاتتوانى الحكومة فى ذلك لأنه بعد أيام سوف يعود إلى بلجيكا ليسافر للكونغو . وضربت كل الجرائد الانجليزية على هذه النغمة فى الأيام التالية وأجمع الرأى العام الانجليزى على وجوب إبعاث غوردون ، وهذا يتسق مع رأى بيرنج فى تنفيذ سياسة الاخلاء لأنه اقترح إرسال ضابط انجليزى عظيم بسلطات استثنائية إلى الخرطوم والحكومة الانجليزية حينما ردت على رسائل بيرنج لم تقطع فى هذه النقطة بالذات برأى ما .

إزاء هذه الحركة التى أثارتها الجرائد كتبت الملكة فكتوريا فى العاشر من يناير إلى اللورد جرانفيل ما يلى « تأسف الملكة على عدم الاهتمام الذى أبدته الحكومة بشأن استخدام الضباط الانجليز حسب طلب سير أفلن بيرنج » وفى اليوم الذى استلم جرانفيل هذه الملاحظة من الملكة وصله خطاب من زميله وزير الحربية ينبئه أنه لم يبت فى استقالة غوردون إذ ربما يستطيع الوزير الجديد نوبار قبول غوردون أكثر من شريف . وتحت ضغط هذه الظروف من الرأى العام ومن الملكة ومن زميله وزير الحربية أبرق جرانفيل فى مساء نفس اليوم (١٠ يناير) إلى بيرنج بما يلى « هل هناك من حاجة لمعونة غوردون أو السير شارلس ولسن على ضوء التطورات الجديدة ؟ » .

ظهرت جرائد الصباح فى لندن وكلها أجمعت على صعوبة الاخلاء وخاصة مقال السير صموئيل بيكر الذى أبان بوضوح عقبات التراجع وصور جيشا من النساء والأطفال والمدنيين يتراجعون يحرسهم عدد من الجند انحطت روحهم

المعنوية وكلها أجمعت أيضا على ضرورة إيفاد غوردون . وفى المساء ورد الرد من بيرنج بما نصه « استشرت نوبار ولست أرى ضرورة لاستخدام غوردون والسير شارلس ولسن فى الظروف الحاضرة » . وفوق ما كانت تنادى به الجرائد الانجليزية فإن أصدقاء غوردون كانوا يُلحفون عليه فى قبول الخدمة فى السودان ولكنه يصرّ على عدم القبول لكتابته استقالته من الجيش أولا ولأنه وعد ملك البلجيك ثانيا ولأنه لا يستطيع خدمة توفيق ثالثا .

مقابلته للادجوتانت جنرال

بعث اللورد ولسلى الادجوتانت جنرال إلى غوردون لمقابلته فى وزارة الحربية بعد أن عرف إصرار غوردون على عدم الخدمة فى السودان . فلما قابله فى عصارى يوم ١٥ يناير أبلغه أن الحكومة سحبت اعتراضها على خدمته فى الكونغو وأنه يستطيع الخدمة لصالح دولة أخرى مع الاحتفاظ برتبته فى الجيش ، ولكن حكومته تريده لأن يؤدى لها خدمة هى فى أمس الحاجة لها وأنها تريده إذا تأجل وعده لملك البلجيك إلى أن يقضى المهمة التى تناط به من حكومته . والمهمة التى عرضها ولسلى هى ذهابه إلى سواكن وتحقيق حالة السودان عن كثب . وأجاب غوردون بألا مانع لديه من ذلك فيما إذا طلبته الحكومة وأنه لا يدلى باقتراحاته إلا بعد درس الأحوال والتحقيق وقد يسفر تحقيقه عن تعيينه حاكما عاما وقد يسفر أيضا عن الانسحاب التام .

مهمته فى السودان

وقد ناوله ولسلى ورقة ليكتب عليها ما يراه من تعليمات لمأموريته وإجراآت لتنفيذها تحددها بتقرير يرفعه وأثناء ذلك يكون بيرنج حلقة الاتصال ويطلب أن يقابله إبراهيم بك فوزى فى السويس ليرافقه لسواكن . وبينما غوردون وولسلى يتفقان على تحديد المهمة يخاطب جرانفيل جلادستون ويحصل على موافقته بأن يستخدم غوردون نفوذه فى القبائل الضاربة بين سواكن وبربر ويجعلها تعاون فى سحب الحاميات والمدنيين بطريق سواكن . ومن هنا يتضح الخلاف الجوهرى بين ما وافق عليه جلادستون وبين ما تم على يد غوردون ، نفسه ولم يلاحظ الموظفون فى وزارة الخارجية الخلاف الظاهر . وفى خطاب خصوصى من

جرانفيل إلى بيرنج أشير إلى طلب الرأى العام لاستخدام غوردون وطلب من بيرنج أن يقول رأيه فى صراحة وهذه هى المرة الثالثة التى تعرض فيها الحكومة الانجليزية خدمات غوردون فى السودان .

أما جلادستون فعلى ما يظهر نسى أنه وافق على استغلال نفوذ غوردون فى قبائل شرق السودان وأبدى تحفظات على المهمة بأن جعلها استشارية بحتة وأن ما يوصى به غوردون من إجراآت لا تلزم الحكومة البريطانية باتباعها وبالاختصار يريد جلادستون اتقاء العاصفة باخفاء رأسه فقط . وتدل الحوادث أنه انساق نحو سياسة لا يريد أن يصل معها إلى نتيجتها الطبيعية وهى أن الحكومة الانجليزية بالزام مصر اتباع سياسة الاخلاء إلى درجة أن الوزير الذى لم يرض بها أجبر على الاستقالة قد أخذت على نفسها مسؤولية أدبية بتنفيذها . وقد مضى الزمن الذى كانت انجلترا تدّعى عدم التدخل أو أن ما يجرى فى السودان من الأمور الداخلية البحتة .

آراء عبد القادر باشا

هذا ما كان يجرى فى هوايت هول فى لندن أما فى لاظوغلى فى مصر فقد كان عبد القادر حلمى باشا ناظرا للحربية فى نظارة نوبار باشا ، ولسابق خبرته ومعرفته بأحوال السودان طُلب إليه أن يبحث بالأرقام وبالطرق العملية مسألة الاخلاء . وبعد أن استعرض عدد الحاميات وما يرابط فيها من جنود وعدد المدنيين الذين يودون مغادرة السودان وصعوبة النقل عبر الصحراء وصل إلى أن الاخلاء ربما يتم فيما بين سبعة أشهر وسنة ، وكاد الاتفاق يتم بين النظارة وبيرنج على أن يذهب عبد القادر نفسه لتنفيذ الاخلاء ، ولكنه اختلف مع بيرنج فى التصريح فى السودان بالاخلاء من عدمه . فالأخير يرى وجوب إعلانه وعبد القادر يرى أن الإعلان يقود إلى ارتباك الأمر وعرقلة الانسحاب وفساد الخطط وبذا أصبح فى حكم المقرّر عدم سفر عبد القادر .

بيرنج يقبل خدمة غوردون

أصبح بيرنج فى مركز حرج ، فالوزير المصرى الذى يستطيع الاضطلاع بالمهمة رفض لخلاف فى الرأى ، والإخلاء أصبح سياسة مقررة لا بد منها وهو

معتمد دولته لتنفيذها ، وقبل أن يصله عرض جرانفيل لخدمات غوردون طلب من حكومته إبعات ضابط انجليزى ليقوم بما رفضه عبد القادر باشا وعندما وصلته برقية جرانفيل بعرض خدمات غوردون للمرة الثالثة رد بأن لا مانع لديه من قبول خدماته على أن يفهم غوردون أن مهمته تنحصر فى الإخلاء وأن أوامره يتلقاها من المعتمد البريطانى فى مصر . وهكذا حوّلت مأمورية غوردون من صفة استشارية للتقرير والتوصيات إلى وظيفة تنفيذية وانتقلنا إلى المرحلة الثانية من الغموض الذى أحاط بمهمة غوردون . ففى رأى جلادستون أن يستخدم غوردون نفوذه فى قبائل الشرق بسحب الحاميات عن طريقها وفى رأى جرانفيل أن يقدم تقريراً بما يجب عمله وأخيرا يطلب بيرنج منه القيام بعملية الانسحاب والإخلاء .

غوردون يقبل المهمة

غادر غوردون ووجهته بروكسل قبل أن يرّد بيرنج برأى حاسم ليغادرها إلى إلى الكنغو إذا ما توانى المعتمد فى القاهرة أو ردّ كما سبق له أن ردّ بالاستغناء عن خدماته . وهو فى الاستعداد لرحلة الكنغو أبرق إليه ولسلى بالحضور حالا إلى لندن . فما وسع غوردون إلا أن يصارح ملك البلجيك بأن حكومته تطلب منه العمل فى السودان وليس له إلا أن يمتثل بالطاعة والاذعان . وكانت الوزارة الانجليزية فى مركز حرج ، فالرأى العام يطالبها بإرسال غوردون والملكة تلح فى إبعاث الضابط الذى يطلبه بيرنج وهاهو غوردون على وشك الرحيل إلى الكنغو فى خدمه جلالة ملك البلجيك . كل ذلك دعا الوزراء يجتمعون فى لندن بالرغم من غياب بعضهم بما فيهم جلادستون نفسه حالما وردت برقية بيرنج بالقبول ، وسرعان ما اجتمع بهم غوردون وخرج بعد اجتماع قصير آخذا على عاتقه مهمة الإخلاء حسب ما دونها هو ، وأصدر جرانفيل تعليمات مضمونها ذهاب الجنرال إلى سواكن ليبحث ويضع تقريراً عن الحالة وما يجب أن يُتخذ من خُطى لسلامة الحاميات والجاليات الأوربية هناك ، وعليه النظر فى أنجع الوسائل لإخلاء داخلية السودان وتوطيد دعائم الإدارة المصرية فى موانى وسواحل البحر الأحمر ، وعليه أيضا التخفيف ما أمكن من نتائج الثورة القائمه على انتعاش

تجارة الرقيق ، وعلى غوردون أن يكون تحت إمرة المعتمد البريطانى فى مصر ، وأن يتصل بالحكومة البريطانية عن طريقه ، وعليه أخيرا أن يؤدى أى خدمات تطلبها منه الحكومة المصرية بواسطة بيرنج .

ويتضح من تلك التعليمات الغامضة والتى اشتهر جرانفيل بإصدارها أن الحكومة الانجليزية لا تزال مصرة على عدم حمل عبء المسؤولية وأنها لا تزال ترى فى مهمة غوردون استشارية لا تتعدى التقرير وتقديم التوصيات ، ولكنها أخيرا رأت أن غوردون قد يُطلب منه عمل تنفيذى لو أرادت الحكومة المصرية ذلك عن طريق بيرنج . والظاهر أن جرانفيل تحاشى عن قصد كل بيان صريح يجعل لمهمة الجنرال عملا تنفيذيا من قِبَل الحكومة الانجليزية ولا شك أنه بذلك إنما يتأثر برأى رئيسه جلادستون . ولكنهم فى لندن يعلمون تمام العلم أن ما يطالبه بيرنج هو ضابط يُمنح سلطات مدنية وعسكرية للقيام بعملية الإخلاء التى رفضها عبد القادر باشا .

ما فهمه غوردون من مهمته

إزاء هذا التناقض والبلبلة الفكرية فى صفوف أعضاء الوزارة الانجليزية ومعتمدها فى مصر يجدر بنا أن نرى ما فهمه غوردون نفسه من مهمته . ويتضح ذلك جليا من مذكرة بعث بها إلى حكومته وهو فى طريقه فى البحر الأبيض المتوسط . فقد فهم حسب ما دوّن أن الحكومة الانجليزية قررت منح السودانيين استقلالهم وقررت ألا تجعل للحكومة المصرية مجالا للتدخل فى شؤونهم بعد ذلك وتنفيذا لذلك فقد أرسلته لسحب القوات المصرية والمدنيين من أجانب ومصريين .

وسط هذا الاضطراب والفهم المختلف لمهمته غادر غوردون العاصمة الانجليزية فى نفس اليوم الذى تلقى فيه تعليماته من الوزارة وبصحبته الكولونيل ستيوارت وبدأ العمل منذ اللحظة التى غادر القطار فيها المحطة . وفى الطريق حتى وصوله إلى محطة ليون الفرنسية ، رمى فى هذه المذكرات والاقتراحات جانبا بمهمة التقرير واتكأ كثيرا على ماسوف تطلبه منه الحكومة المصرية ، ورأى أن القيام بسحب القوات المصرية وتأسيس حكومات سودانية يقضى أن يصدر أمر

من الخديوى بتعيينه حاكما عاما كما كان قبلا ، وأن يصدر منشور من الخديوى ينادى فيه بأنه تعطّف ومنح الاستقلال لسلاطين السودان وأن غوردون يمثله ويمثل الحكومة البريطانية فى هذا الصدد ، وأنه سوف يُخلى البلاد من الجنود ، وأنه عين حاكما عاما ليضطلع بهذه الأعباء . واقترح أن يصدر غوردون نفسه بيانا يناشد فيه السودانيين بأنهم وقد منحوا الاستقلال ألا يتعرضوا للحاميات المنسحبة وبيان خاص إلى القبائل الشرقية يناشدها تسهيل انسحاب إخوانهم فى الدين إلى مرفأ سواكن . وحيث إنه يجب عليه الخضوع لأوامر بيرنج أرسلها من محطة ليون للوزارة الانجليزية للحصول على تصديقها اقتصادا للزمن ، فالغالب أن يستأنس بيرنج برأى حكومته قبل الموافقة عليها .

حكومة انجلترا توافق على المقترحات

وصلت مقترحات غوردون واجتمعت الوزارة لبحثها والجرائد الانجليزية تهلّل وتكبّر بابعاث غوردون وترى فى ذلك قراراً من الحكومة حكيما إذ فى نظرها أن غوردون هو الرجل الوحيد الذى يستطيع إنقاذ الموقف فى السودان . وبديهى إزاء ذلك الحماس البالغ الحد من الرأى العام أن توافق على المقترحات . وقد لاحظ جلادستون الفرق الظاهر بين ما رآه ووافق عليه وبين المقترحات التى تجعل من غوردون أداة تنفيذية لسياسة الاخلاء ، ولكنه رضى عندما علم أن التعيين والأوامر والبيانات تصدر من الحكومة المصرية وعليه تخلى حكومة جلالة الملكة من كل مسؤولية . وهكذا ينساق جلادستون فى منطق خاطئ كهذا .

وعندما نزل غوردون فى الباخرة فى البحر الأبيض المتوسط فصّل ما أجمله من مقترحات ، فالسودان سوف يفصل عن مصر ويعاد سلالة الملوك والسلاطين إلى عروش آبائهم وأجدادهم ويتحسس رغبات الأهلين فى المدن الكبيرة التى نشأت بعد فتح محمد على كالخرطوم وبربر وكسلا ويقرّ معهم نوع الحكومة التى يرتضونها ، ويسحب الحاميات تدريجيا . وسوف لا يتعرض لها أهل السودان طالما ضمنوا استقلالهم . وفى رأيه أن المهدى سوف لا يتعرض للحاميات المنسحبة

طالما أنها لا تقاتل . وإذا تعرض وهـذا فى نظره بعيد الاحتمال فسوف يلجأ لحـكومة جلالة الملـكة .

فهم غوردون خاطىء

بنيت هـذه المقترحات على أساسين ، وهما ثقة غوردون فى نفسه وتقدير السودان له وأن نفوذه ومركزه بين السكان يضمن تنفيذ ما يراه من خطط ، والثانى فهمه للثورة على أنها فى أساسها ردّ فعل لمظالم الحـكم ، وأنه بزوال الحـكومة الظالمة يزول السبب ويرضى المهدى بحل الاستقلال ويوافق بل يساعـد على سحب القوات من السودان . وعلى هـذه الأسس الواهية بنى غوردون صرح خطة وعلى هذا التقدير الخاطىء لأسباب الثورة بنى مقترحاته . وما كان يدور بخلد غوردون وهو الذى خبر السودان وجاب أصقاعه وتعمق فى فهم مسائله أن يتصوّر درويشا خامل الذكر يثير حماسا دينيا يشتعل كالنار تأتى على الأخضر واليابس . وهو قد عرف فى تلك الطبقة من الناس الانزواء من المجتمع والتظاهر بالمسكنة والانكسار ، وعرف أن جل همهم دخول الخلوات وتدريس الأتباع والمريدين وتلقى الهبات والعطايا من الحـكومة والمثرين ، وما كان يظن طبقة كهذه تستطيع التأثير على الأذهان والقيام بثورة ضد قوات الحـكومة الرهيبة وسطوتها المخيفة ونفوذها الفعال ، وأكبر ظنه أن اليد الخفية التى تحرّك الثورة من وراء الستار تحت القناع الدينى هم كبار ملاّك الرقيق يعاونهم من اكتووا بنيران الضرائب الفادحة ومن رزحوا دهرا تحت نير المظالم القاسية ، والمهدى زعيم الحركة وحامل لوائها قد يكتفى بملك بسيط فى غرب السودان إذا مازال السبب الذى من أجله التفّ الناس حوله وعقدوا له من أجله لواء الزعامة .

وغوردون مهما سلّمنا بخبرته وتجاريبه فى الحـكم والإدارة للسودان عامة والمسلمين بصفة خاصة لا يستطيع إدراك الحماس الدينى أو تلهف المسلمين قاطبة لهذا اليوم الذى يظهر فيه رجل يعيد للدين عزه ومجده بعد أن خبا نوره ، ولم يدرك وما كان له أن يدرك ما تفعله مثل هذه الدعوة من رجل عرفوا زهده وتقشفه وخبروا تدينه وإيمانه ، وبعد ذلك رأوا وسمعوا عن انتصاراته المتوالية . فهل يتقاعس

المسلم بعد أن وضح النور وانجاب الظلام ؟ وهل يقعد به الخوف واليأس بعد أن دقت الساعة التى ظل العالم الاسلامى يترقبها ؟ هذه هى الناحية التى لم يلمسها أو يتحسس عليها غوردون عندما كان صاحب الكلمة فى هذه البلاد ، وهذا هو الأساس الرملى الذى انهار فوقه ما شيده من آمال . وإذا اشتهر غوردون بتدينه فكذلك كانت نهايته وخيبة آماله عدم إدراكه ما يفعله الدين فى النفوس .

غوردون فى القاهرة

وصلت اقتراحات غوردون عن طريق البرق لبيرنج ووافق عليها بحماس بالغ ، ولكنه رأى أن يعرج غوردون على القاهرة فى طريقه إلى الخرطوم للتشاور معه ومع الحكومة المصرية . وعندما ألقت الباخرة مراسيها فى بورت سعيد وجد غورون برقية من جرانفيل ينبئه بضرورة النزول ومقابلة بيرنج ووجد فى استقباله السر ايفلن وود سردار الجيش المصرى ورسالة رقيقة من بيرنج يقنعه فيها بالتعريج على القاهرة قبل قيامه للسودان ، فلم يجد الجنرال مناصا من الاذعان والانصياع فأقله القطار للقاهرة وهناك حدثت المقابلات مع الخديوى أولا ثم مع بيرنج ونوبار ثانيا واتفق الثلاثة على سحب القوات وإقامة حكومة اتحادية (Confederation) من الملوك والسلاطين فى السودان .

غوردون يقترح استخدام الزبير

قابل غوردون بوجه الصدفة الزبير باشا فى منزل أحد رؤساء الوزراء السابقين وكان قبل أن يبحر من انجلترا ابرق لبيرنج بتشديد الرقابة على الزبير ويستحسن نفيه لقبرص لأنه لا يزال على رأيه فى أن الزبير عنصر خطر على الثورة فى السودان ، فقد يزيد فى إذكائها وقد يهبّ ليتعاون مع المهدى ولكنه عندما قابل الزبير وجها لوجه خطرت له فكرة قلبت الوضع ، ورأى فى الزبير شخصية سودانية قوية تستطيع معاونته فيما هو مقبل عليه من مهام ، ورأى الاستعانة بالزبير بدل أن كان يلمح فيه الخطر والمقاومة . وليست الخاطرات السريعة والحكم على أمر بعكس ما أبرمه بالأمس بغريبة على غوردون ، فتاريخه فى السودان ملئ بها . وفى الحال دُبرت مقابلة بين الرجلين فى منزل بيرنج فلم ينس الزبير موقف غوردون من ابنه سليمان وخطة الإذلال التى اتخذها حياله وأخيرا اتهمه بالثورة على الحكومة وانتهت بإعدامه ، ثم هو ليس بناس طلبه

الملح بسجنه هو ومصادرة أملاكه ، وسجن أقاربه ، وأخيرا المطالبة بمحاكمته على أنه الموعز لابنه بالثورة ، ولولا معارضة الخديوى آنذاك لأعدم غوردون الزبير . فعل غوردون ذلك وهو يعتقد أن ابن الزبير فتى طائش انساق إلى الثورة بتحريض والده وكلاهما خرجا على الحكومة ، وكلاهما يستحق الاعدام ، وجرت معاتبات بين الاثنين أصرّ فيها غوردون على موقفه ، وما اقتنع فيها الزبير بحججه ، وبالرغم من ذلك يصرّ غوردون فى مرافقة الزبير له وبالرغم من أخطائه وعدم خضوعه يتوسم فيه السودانى الوحيد الذى يساعد فى حل الموقف فى السودان .

لاحظ الحاضرون كبيرنج ونوبار أن الهوة سحيقة بين الرجلين وأنهم إن سمحوا للزبير بمرافقة غوردون فربما يحدث منه ما يعرقل خطط غوردون بدل معونته . واحتياطا لهذا لاحتمال رفض بيرنج مايطلبه غوردون ، وهكذا رأى نفسه يتلقى الرفض فى أولى مطالبه وقد قيل له إنه سيلقى التعضيد والمعونة الكافيين من بيرنج والحكومة المصرية . وعندما كانوا يودعونه فى محطة القاهرة حاول بيرنج تخفيف ما لاقاه غوردون من صدمة بأن وعده بالنظر فى ذلك الأمر مرة ثانية فيما لو أصر على الزبير حين وصوله الخرطوم ورأى لزوم ارساله . وعلى هذه الحالة النفسية قام القطار به فى رحلته النهائية يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤ التى ما عاد بعدها بل كانت آخر سفراته ، ومن غرائب المصادفات أنه لقى حتفه فى فجر ٢٦ يناير من السنة المقبلة (١٨٨٥) .

ولنترك غوردون فى طريقه إلى الخرطوم يرسم خططه لبرنامجه الشامل من حيث ترحيل الحاميات والمدنيين ومن حيث إقامة الحكومات السودانية ولندوّن هنا وثيقة تظهر بجلاء استحالة الإخلاء والانسحاب من رجل هو فى الدرجة الأولى من حيث الخبرة بالسودان والأوجه العملية للترحيل وهو حسين باشا خليفة مدير عموم دنقله وبربر وقد عيّن مرة ثانية لهذا المركز ، فكتب بتاريخ ٢٢ يناير سنة ١٨٨٤ ما يلى : —

« نعرض للاعتاب الخديوية أنه فى هذا اليوم ورد لنا تلغراف من سعادة وكيل الحكمدارية يرغب فيه ارسال جميع المراكب الموجودين هنا وكرشهم للخرطوم وبالاستفهام منه عن السبب ورد لنا تلغراف يخبرنا أنه صدر إليه أمر عطوفتلو رئيس (١) مجلس النظار عن مخابرتنا باستحضار الجمال اللازمة لسفرية كل من يرغب التوجه لبحرى من أهالى الخرطوم وخلافهم والفقراء منهم يترحلوا على طرف الميرى ولا نعلم لهذا موجب إلا أن يكون من تصور من هم مستولين الإدارة بالخرطوم وما عندنا من الأفكار نصدق به ولى نعمتنا وهو أن الخرطوم فى غاية الاستحكام والعساكر الموجودين به كفاية المحاماة عن البندر وخلافه وفقط محتاج لمن يكون فيه الكفاية من رجال الحكومة المعوّل عليهم فى الإدارة والسياسة والثبات كسعادة عبدالقادر باشا حلمى وما يماثله إذ أن المتمهدى بجيوشه الآن بكردفان ولم نسمع أحوال زيادة عن حركة الحلاوين (٢) ولو صار ارسال قوة عسكرية للجهة المذكورة بطريق البحر وضربها والاستغناء عنها بالكلية كما خابرنا وكيل الحكمدارية بالمشافهة التلغرافية لسكن هيجان الآخرين واطمئنان الأهالى والسكان بمحلهم . أما القول بترحيل أهالى الخرطوم لبحرى وترك تلك المدينة الحصينة يترتب منه خراب السودان بأكمله فضلا عن عدم تمكن أحد من العساكر والأهالى من الوصول إلى بحرى لأوجه ، الأول أنه بمجرد قيامهم من الخرطوم تهيج الأهالى والعربان معا ويكونوا يد واحدة ويمسكوا المواشى والطرق ومحلات الشلالات ويمنعوا مرور المراكب بالبحر والوصول إلى بربر والثانى لو فرض وأمكنهم الوصول فلا توجد جمال للترحيل من طريق أبوحمد بما أن الجمال هى من العربان والحالة هذه جميعهم بالعتامير وجارين اللازم لدخولهم تحت الطاعة وعندما يبلغهم قيام الأهالى وخلافهم من الخرطوم يزدادوا نفور وهيجان ولا يوجد جمل واحد للترحيل وربما يقطعوا طريق أبوحمد . ومع تراكم أهالى ومستخدمين الخرطوم ببربر مع الموجودين بها فلا يجدوا شيء للقوت

---

(١) نوبار باشا .

(٢) فى الجزيرة جنوب الخرطوم .

الضرورى وتهلك الرعية وعلى كل فقيام أهالى الخرطوم غير صائب وما عندنا من النصيحة بحسب الصدق والأمانة أو ضحناه » .

وقبل وصول غوردون أيضا كتب الشيخ العبيد محمد بدر المقيم بأم ضبّان جنوبى الخرطوم شرقى النيل الأزرق خطابا إلى علماء الخرطوم وهو رجل مشهود له بالصلاح والنظر الثاقب لعواقب الأمور يطلب منهم ايقافا لسفك الدماء بين المسلمين التسليم للمهدى وهذا ما نقله البرق من الحكمدارية إلى المعية بتاريخ ٢٧ يناير سنة ١٨٨٤ .

« يوم تاريخه حضر جواب من الشيخ العبيد المقيم بجهة العيلفون إلى العلما بالخرطوم وهم الشريف حسن المجدى قاضى الخرطوم والفقيه عبد القادر قاضى الكلاكلة والفقيه موسى مفتى المجلس المحلى تاريخه ٢٤ ربيع أول يفيد أنه كان متصبر للآن انتظار تسليم الخرطوم للمهدى من دون سفك دما وأنه يجب لهم التسليم كما أحب لنفسه لأن فى ذلك الراحة الكاملة التى تحقن دما المسلمين وأموالهم وأن جميع البلاد حصلت بها الحركات ويطلب منهم الاجابه بالقبول بعد الاتفاق معنا أو رفض طلبه وحيث أن ذلك ممايقتضى العرض عنه للاعتاب السنية فبناء عليه لزم العرض للاحاطة » .

وجاء الرد من القاهرة فى نفس اليوم برفض طلب الشيخ العبيد .

غوردون فى الخرطوم

غوردون يعين المهدى ملكا لكردفان

حمل غوردون معه فرمانين ممهورين بإمضاء وختم الخديوى أحدهما يعين غوردونا حاكما عاما للسودان لاعادة الأمن إلى ربوعه والثانى يعلن فيه أنه موفد لمهمة إخلاء السودان وانشاء حكومة منتظمة فيه وقد ترك لغوردون استخدام أيهما فى الظروف الملائمة. وظل وهو فى الطريق يضع المذكرة تلو الأخرى بما سوف يفعله ولكنها فى مجموعها تتركز فى نقطتى سحب الحاميات وإنشاء حكومات سودانية. هذا بالرغم مما فاه به فى حديثه لمحرر بول مول جازيت من صعوبة الاخلاء ولكنه غوردون الذى يرى أن مجرد ظهوره فى السودان يعيد الطمأنينة للنفوس وأن أوامره وتعليماته ستنفذ حسب الخطة المرسومة، وفوق ذلك يجهل الناحية الدينية للثورة. وبمجرد وصوله لبربر بعث بكسوة شرف للمهدى معلنا إياه بأنه أصبح ملكا لكردفان ويرجوه توطيد العلاقات بينه وبين الحكومات الأخرى فى السودان وبذا تنتهى الحرب القائمة. ولاعتقاده الجازم على موافقة المهدى لهذا العرض السخى فى نظره أعلن للأهالى فى بربر عزم الحكومة على الإخلاء وتعيين سلالة السلاطين والملوك الأقدمين على ما كانوا يحكمونه من أقاليم وشعوب وغادرها فى طريقه للخرطوم مطمئن البال مستريح النفس على نجاح خطته.

اقتراح للحكم فى دارفور وبحر الغزال

اجتازت اقتراحاته العملية لنوع الحكومة التى يريد انشاءها فى بقية أجزاء السودان تطورا كلما اجتاز بعض الأميال فى طريقه نحو العاصمة السودانية. وقبل أن يغادر القاهرة استصحب معه الأمير عبد الشكور من سلالة سلاطين دارفور لتنصيبه سلطانا على إقليم آبائه وأجداده ولكن ما وصلت الباخرة إلى أسوان حتى ردّه غوردون للقاهرة لما تبين له من عدم كفايته ولانهماكه فى الشرب. وهو فى الباخرة شُغل باقتراح لإدارة بحر الغزال والأقاليم الاستوائية ويتلخص بأن تعطى بحر الغزال لملك البلجيك يحكمها على غرار الكونغو حيث توجه ضربة قاضية على تجارة الرقيق فى منابعها ويقوم هو بتنفيذ تلك السياسة عندما ينفض

يده من أعمال السودان الأخرى ويقيم الحكومات المقترحة فى ربوعه ، وكتب بذلك خطابا لملك البلجيك عن طريق حكومته وأودعه مكتب البريد فى كرسكو ، ولكن بيرنج وحكومة جلالة الملكة رأوا ألا تصل مهمة غوردون إلى تلك الأقاليم ، وهكذا فشلت أولى محاولاته لتنظيم الحكم الجديد .

حكم ذاتى فى السودان تحت سيادة مصرية

أما نظامه لبقية أنحاء السودان فأول اقتراح له عند وصوله أبى حمد بعث به إلى بيرنج وفيه فرض سيادة مصرية على الحكم الذاتى فى السودان تنحصر فى تعيين الحكام ومحكمة عليا للاستئناف . ولكنه ما إن مرّ على القرى واتصل بالسكان فيما بين أبى حمد والخرطوم حتى تراجع عن الخطة التى اعتزم تنفيذها ورأى الانفصال التام بين البلدين والدولة التى تفرض سيادتها على الحكم الذاتى هى دولة أخرى غير مصر .

حكم ذاتى تحت اشراف بريطانى

وصلت الباخرة إلى الخرطوم تجاه سراى الحكمدارية صباح يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ وخرجت الخرطوم عن بكرة أبيها ترحب برجل عرفته وعرفها ، واستقبل فى السراى كبار الموظفين والضباط والعلماء والوجهاء ، وممثلى الجاليات الأجنبية . وبعد أن انقضت زحمة الاستقبالات لجأ غوردون إلى مكتبه بالسراى مساء ذلك اليوم وبدأ يدوّن الأفكار التى ظلت تتلاعب فى رأسه طول الطريق بين بربر والخرطوم ، وقد تبين له أن الحكومة المصرية أضعف من أن تكون لها سيادة ولو اسميه ، ولقد اقتنع بأن الاستقلال الكامل للملوك والسلاطين معناه الفوضى الكاملة وأخيرا رأى ألاّ مفر من سيادة أجنبية تدخل عنصرا من الاستقرار والثبات للأداة الحكومية المزمع تأسيسها ولا بد أن ينحصر الاختيار بين تركيا وانجلترا والأخيرة فى نظره ترجح كفتها على تركيا .

والإشراف من قبل انجلترا يكون على غرار إشرافها على الأفغان آنذاك أى تعضيد أدبى للأداة الحكومية وإعانة مالية تسد عجز الميزانية ، وإذا كان لا بد من رجل مقتدر ليصبح رأسا للحكومة الجديدة فمن يصلح لذلك ؟ ما شك غوردون لحظة واحدة فى الرجل وهو الزبير وربما قارن بينه وبين حسين باشا خليفه فى بعض الأحيان ، فالأخير ذو خبرة وكفاية وله نفوذ فى بربر ودنقلا ، غير أن اسم الزبير

يفوق لمعانه أى شخصية أخرى فى السودان . فلا بد إذاً من ارساله ولا بد من مقاومة كل الاعتراضات إذا أريد للسياسة الجديدة الاستقرار ، وإذا أريد للسودان انتشاله من الفوضى والاضطراب ، وقد برّ بيرنج بوعده وعضد مشروع غوردون عندما بعث به إلى لندن من حيث ارسال الزبير .

بداية تنفيذ الأخلاء

تركّزت مقترحاته لاقامة الحكم الجديد بعد أن تتم عملية الانسحاب ويغادر هو البلاد واقترح الشخص الذى يخلفه فى مركزه والحكومة التى تساعده أدبيا وماليا . فليصرف الجهد بعد ذلك فى الغرض الثانى من بعثته وهو إخلاء البلاد فأصدر أوامره بايقاف العمليات الحربية ضد قوات المهدى وأعوانه وكتب لود البصير فى الجزيرة يطلب منه وقف الاعتداء ، وأمر بفتح أبواب الاستحكامات للداخل والخارج ، وبدأ بفرز الجنود المصريين من السودانيين توطئة لترحيلهم بالتدريج ، وبعث لبيرنج أن يستقبل أول ارسالية من النساء والأطفال والموظفين والجنود مكونة من ألف وثمانمائة فى كرسكو . كل ذلك وغوردون لايزال فى جهله ببواعث الحركة وما أدرك قوتها ومدى اعتناق الناس لمبادئها وفوق كل هذا محفزها الدينى ، ولكن الضباط العظام والعلماء والوجهاء فى الخرطوم عرفوا عن الثورة وقوتها ما لم يعرفه غوردون ونصحوا له بالتريث فى تنفيذ الإخلاء ، تارة بالمقابلة وتارة بالكتابة ولكنه ردهم بألاّ سبيل إلى التراجع وألا مجال للنصح .

الثورة فى السودان الشرقى

ولنترك الآن غوردونا فى الخرطوم يعدّ نفسه لتنفيذ الإخلاء بعد أن طلب تعين الزبير حاكما للسودان ولننظر حوادث السودان الشرقى وما حدث فيها من تناقض لسياسة الانسحاب . بعد سقوط الأبيض وأثناء ما كانت الحكومة المصرية تفاضل بين علاء الدين وهكس لقيادة حملة كردفان وأثناء ما كانت الاستعدادات على قدم وساق لتسيير تلك الحملة والآمال الجسام التى أنيطت بها أبرق الحكمدار بالرسالة التالية لمصر فى ٣ أغسطس سنة ١٨٨٣ « علم من التلغراف الوارد من محافظة سواكن رقم ٣ أغسطس سنة ١٨٨٣ بأنه بلغه مؤكدا أن شخصين أحدهما يدعى عثمان هذا من عائلة دقنه بسواكن والآخر جعلى لم يعلم

اسمه حضروا من طرف المتمهدى وقاموا من بربر وتوجهوا لعربان البشارية وحرّضوهم على التعرض ضد الحكومة ثم حضروا لعربان الأمارار وحرضوهم أيضا وأن أحدهما توجه لعتباى وقيل إنه بها للآن والآخر توجه أول أمس من كوكريب قاصداً سنكات ليهيج عربانها ولذلك صار قيام المحافظ ومعه محمود على شيخ الفاضلاب لأعمال الطريقة المؤدية لضبط عثمان المذكور » .

أما الجعلى الذى لم يعلم اسمه فهو الشيخ الطاهر المجذوب من سلالة المجاذيب بالدامر أهل علم وتصوّف من زمن بعيد ومدارس قرآنهم بعيدة الصيت والشهرة ، وأنجبت العائلة عددا من الصالحين المعتقدين ومنهم الشيخ الطاهر الذى أصبح له نفوذ وتلاميذ وأتباع فى الجبال الشرقية . وأما عثمان فهو ينتمى إلى عائلات سواكن الشهيرة وصاحب أسفار لغرض التجارة فى داخلية البلاد وخارجها وعرف بشدة مراسه وعمق عقيدته وثباتها . ومنذ أن سمع بالمهدى هاجر إليه وعقد معه بيعة ظلّ وفيا لها بعد زوال المهدية إلى أن وافاه أجله المحتوم . وما عرف من أمراء المهدية الكبار من كان فى مثل وفائه واخلاصه للثورة وتفانيه فى سبيل إمامها وخليفته من بعده ، وما كان لرجل غير عثمان يتزعم قبائل الجبال الشرقية وهم أصعب مراسا واشكس قيادة من كل القبائل السودانية . ولولا قوة عثمان و إيمانه العميق برسالة المهدى لما تمكّن من تزعمهم وكانوا له طوع بنانه ورهن اشارته . وبدأت النار التى اشعلها دقنه تعمل عملها . فأصحاب الجمال امتنعوا عن استخدام جمالهم فى طريق سواكن — بربر والذين كانوا فى القوافل هربوا أثناء الطريق

أعمال دقنة الحربية

وكان بدء حركاته الحربية الهجوم على سنكات فى نفر قليل من أصحابه المخلصين ولكنهم رُدّوا على أعقابهم وجرح عثمان فى المعركة وتنفست الحاميات الصعداء وظنّوا أنها حركة ضعيفة قضى عليها بأول انهزام أوقع بها . ولكن سرعان ما استرد عثمان عافيته وكثرت حركة التجمع حوله والتف عليه سكان الجبال وبدأ مناوشته التى ظلت شوكة فى جنب القوات الحكومية ، وعطل الطريق إلى البحر الأحمر حتى انحصرت المواصلات فى الطريق النيل وتوجت

أعماله باحتلال سنكات بعد أن أبلى قائد الحامية توفيق بك بلاء حسنا ومعه جند قليل أخلصوا الولاء. وسقطوا شهداء ولأنهم عند خروجهم من الاستحكام قاصدين الوصول إلى سواكن إذ نفدت أقواتهم وانقطعت مواصلاتهم. وظل دقنه مستوليا على آبار التيب وطماى يشن الغارة تلو الغارة على طوكر وسواكن.

هزيمة بيكر

وأخيرا رمت الحكومة بآخر سهم فى كنانتها للميدان الشرقى مثلما رمت بحملة هكس فى الميدان الغربى. ومثلما عقدت اللواء لضابط انجليزى فى شخص هكس قاد فلنتين بيكر جيشا من الجندرمة من اخلاط الناس غير المدربين وعدته ستة آلاف، وليس هذا بالعدد القليل لو أحسن تدريبه وسمت روحه، ولكنهم ما كادوا يرون رايات الأنصار تخفق على الآبار حتى هلعت نفوسهم واستطار لبهم ورموا بأسلحتهم على الأرض متضرعين إلى الله أن يحميهم من عدوهم الرهيب. فاختلط الأنصار بهم بعد اختراق المربع وأبادوا من ثبت إلاّ من ولى الأدبار ودخل فى الوابورات والسفن الراسية فى مرفأ ترنكتات ومن بينهم قائدهم بيكر وقفلوا راجعين. ولم تشهد حروب المهدية قوة تفقد الصلاحية للقتال وتفقد الروح المعنوية مثل الخليط الذى قاده بيكر ولا نتسامح بتسميته جيشا.

وقد نشرت الجرائد الانجليزية بحروف ظاهرة خبر انهزام بيكر المريع ووصلت الأخبار للحكومة الانجليزية على أن الثورة لم تكن بما عرفوا عنها عندما عقدوا مجلسهم مع غوردون، وقد أبرقوا لغوردون وهو فى طريقه على الهجن يعبر الصحراء النوبية بمخاوفهم من الحالة واستفهموا عما إذا كانت هذه الهزائم تؤثر على مهمته فى الخرطوم، فاستلمها وهو فى بربر وردّ على أنه مهما كان حرج الحالة فرجوعه بعد أن وصل ورأى الناس سوف يكون لطخة فى سمعة بريطانيا. واستجابة لما أثارته الجرائد عن الحالة فى الشرق رأت السلطات الحربية الانجليزية أن تبعث بجنود انجليزية لميناء سواكن لتحمى المدينة وتمد يد العون وتسهل مهمة الانسحاب لبقية الحاميات. وعندما خوطب غوردون فى هذا الشأن أبدى اعتراضه ورأى أن مهمته سلمية ولا يصح التدخل المسلّح.

حملة جراهام

وصلت أخبار تحرّج الحالة فى الشرق وارتفاع نجم عثمان دقنه وإبادة الحامية فى سنكات بعد بسالتها وفتحت المناقشة فى البرلمان حول سياسة الحكومة فى مصر، وعما تنتهى بطرح الثقة. وتحت هذه الظروف قررت الحكومة القيام بعمل حاسم يُرضى الرأى العام بالرغم من اعتراض غوردون بحملة حربية والوزير الوحيد الذى مازال فى إصراره على الأعمال السلمية هو جلادستون. وفى تلك الليلة صدرت الأوامر بارسال أربعة آلاف جندى انكليزى بقيادة الجنرال جراهام لفك الحصار المضروب حول حامية طوكر ولحماية مرفأ سواكن. وبينما كانت السفن تمخر فى البحر الأحمر تقل الأورط الانجليزية للقيام بأعمال عدائية كان غوردون ينشر الدعاية لمهمته السلمية، وهكذا انجرفت السياسة الانجليزية فى تناقض مضحك، فالاخلاء وإقامة حكومات مستقلة فى النيل وعلى بعد ٢٥٠ ميلا إلى الشرق تهبط الجنود متجهزة للحرب. واشتبكت الجنود الجديدة فى حروب مستعرة مع الأنصار فى التيب وطماى وأحرزوا انتصارات بعد تحمل الضحايا ولكنها حروب أثيرت دون ما غرض واضح بل كانت الحملة نتيجة لموقف حرج أمام الرأى العام وجدت الوزارة الانجليزية نفسها فيه، ورأت أن هذا العمل ينجيها من الورطة. فإذا كان الغرض فتح الطريق لبربر لتسهيل عملية الانسحاب فإن قوة الحملة لاتسمح لتأدية ذلك الغرض. فبعد أن أبدوا حنكتهم وتدريبهم العسكرى رجعوا ليعسكروا فى سواكن منتظرين تعليمات أخرى. وبينما كان غوردون يقوم بتنفيذ سياسته السلمية سمع الناس فى الخرطوم عن إبحار القوة الانجليزية ثم عن نزولها فى سواكن لتبدأ أعمالها الحربية فلا غرو إذا اعترتهم الدهشة ولم يفهموا ما بدا لهم من تناقض.

غوردون يتنكر لسياسة الاخلاء

وإذا كان غوردون ظل واضحا فى سياسة الإخلاء وإقامة حكومة سودانية إلى يوم ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ إلاّ أن سلسلة من الغموض وسوء الفهم بدأت لمدة ستة عشر يوما حتى ١٢ مارس حيث قطع الثوار خط التلغراف. وقد ربط غوردون منذ البداية إخلاء السودان وإقامة الحكومة السودانية مع بعضهما

البعض ، واختار وأصرّ على اختياره للزبير باشا رأسا للحكومة المقترحة . وبعد مكثه فى الخرطوم أياما أدرك كنه الحركة وهنا وضحت الحقيقة أمام عينه وهنا أدرك أن حركته السلمية بنيت على أسس واهية . ومن يوم ٢٦ فبراير بدأت رسائله تظهر فيها أمثال تلك العبارات « ارسال التجريدة » و « سحق المهدى » ، ولو أنه فى الجانب الأخر يلمح القارئ منها تمسكه بسحب الحاميات . وهذا الاتجاه الجديد فى الرسائل أدهش بيرنج كما أنه أدهش الحكومة البريطانية ولم يبعث بيرنج بنصوص الرسائل البرقية التى ظلت تتوارد عليه دون انقطاع فى هذه الحقبة من الخرطوم بل يبعث بملخصاتها .

فترة تردد

فهمت الحكومة الانجليزية أن غوردون رمى بتعليماته جانبا واتخذ خطة الهجوم لأن ورود مثل هذه العبارات فى رسائله إنما تبين بوضوح الموقف العدائى الذى سوف يقفه من المهدى . وفهم المدافعون عن غوردون أن عمله هذا لا يعنى القذف بسياسة الإخلاء بل إن هذه السياسة تستدعى استعمال القوة أو التظاهر بالقوة حتى تمهد الطريق لسحب الحاميات والمدنيين ، واستدلوا بذلك أنه فى الأيام التى بعث فيها بتلك الرسائل حاملة طابع الهجوم والعداء كانت السفن والقوارب تحمل بعضا من المرضى والعجزة الجنود لبربر ، ومنها عبر الصحراء لكروسكو . وفى هذه الفترة كان مجلس الوزراء البريطانى ينعقد ليبت فى مسألة تتعلق بالسودان ويصدر قرارا ، وبعد ساعات ترد رسالة من بيرنج تحمل اقتراحا جديدا من غوردون ربما يؤثر فى القرار فيما لو وصل قبل الانعقاد . وغوردون بدوره يبدى رأيا ويبعث به ثم يصله قرار يجعل رأيه الجديد عديم الأهمية . وبيرنج من القاهرة يبعث بملخص لمجموعة من التلغرافات الواردة من الخرطوم أو أجزاء منها وقد تحمل صورة غير صادقة لما يريده غوردون ولا سيما أن غوردون عرف بعدم عنايته بتحديد المعنى وإيراد اللفظ الذى يؤديه ومن الجانب الآخر عرف بعض أعضاء الوزارة البريطانية بعنايتهم الفائقة بالمعانى والألفاظ التى تدل عليها مثل Dilke .

مسألة الزبير

ومسألة أخرى أثارت كثيرا من الغبار وهى مسألة تعيين الزبير ليرأس الإدارة السودانية الجديدة . وقد تبين لنا أن بيرنج اعترض أولاً خوفا على غوردون من وجود الزبير معه وأخيرا انحاز لرأى غوردون ووقف الاثنان صفا يطلبان بإلحاح بل هما على اقتناع بأن الإخلاء لا يتم دون إقامة حكومة قوية وأن الرجل الوحيد الذى يستطيع تسيير الدفة هو الزبير والزبير وحده . ولكن الحكومة الانجليزية التى كانت تحت رحمة الرأى العام آنذاك ما كان لها أن توافق على رأى كهذا . فهى إن وافقت أصبحت ملزمة بالإشراف على النظام الجديد وهذا معناه تحمل مسؤولية الحكم فى السودان وفوق هذا ربما اتهمها الرأى العام بالتفريط فى التقاليد الانجليزية وتقاليد الحرية والقضاء على الرق . وما عرف الرأى العام البريطانى عن الزبير سوى أنه أكبر نخاس أنجبته أفريقيا . وأخيرا خضعت الوزارة لرأى عام سممته الجرائد ضد الزبير بل إن أحد النواب فى المعارضة ووزير سابق ألقى فى المجلس خطبة فياضة تحدث فيها بإسهاب عن السمعة التى تصيب بريطانيا فى الصميم فيما لو أقدمت على إرسال الزبير وتعضيده ، وأخيرا حمل البرق رسالة صريحة لبيرنج تنبئه عن رفض الحكومة لإبعاث الزبير وأنها سوف لا توافق على استخدام قوة فى بربر وهذه الأخيرة رأى غوردون أن لابد منها لفتح الطريق لسواكن . غير أن الرسالة ما وصلت لمن يهمه أمرها ، ففى اليوم التالى لارسالها تم تطويق الخرطوم وانقطع الخط التلغرافى حوالى ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ وقبع غوردون ينتظر فتح طريق بربر سواكن وإبعاث الزبير .

بدء الحديث عن الانقاذ

اتصلت الرسائل بين القاهرة ولندن بشأن استخدام الجنود لفتح الطريق وبعث غوردون باقتراح له يتلخص فى أنه يستقيل من وظيفته فى الجيش ويسافر جنوبا للخدمة فى الكونغو وتنسحب حامية الخرطوم إلى بربر برئاسة ستيوارت إلى أن يتم لها الانقاذ . كل ذلك إذا أصرت الحكومة على موقفها تجاه الزبير . وبدأت الأفكار تساور بيرنج منذ انقطاع الاتصال التلغرافى وتحرج موقف غوردون وسرت نغمة الإنقاذ فى رسائله . ولمّح إلى أن الظروف ربما تقضى

بانفاذ حملة تنقذه ومعاونيه ويتفق مع غوردون فى سياسة الاتصال بين بربر وسواكن . غير أن السلطات الحربية الانجليزية فى مصر رأت استحالة إرسال طابور من جنود جراهام عبر التلال الشرقية للمخاطر التى يتعرض لها الجند أولا وللحر الذى سوف لا تحتمله أجسامهم ثانيا . واتباعا لنصيحة الحربيين لم تر حكومة جلالة الملكة التزحزع عن سياستها بالرغم من أنّ الملكة فكتوريا نفسها اهتمت بانقاذ ذلك الجندى الباسل من رعاياها وأشارت باستخدام الجنود الهندية إذا استحال قيام الانجليز بالمهمة ، ولكن الحكومة التى انجرفت رغم إرادتها فى التدخل فى مشاكل السودان وتحت ضغط الرأى العام ما كان لها أن تتحرك وتتخذ سياسة هجومية بدل الإخلاء والانسحاب . وقد أيدتها نصيحة الخبراء العسكريين . كل تلك الاقتراحات ورفضها لا تصل أنباؤها لغردون وهو من جانبه يحاول الاتصال ما أمكنه بالخطابات بشتى الطرق وكلها تُشير إلى حرج الموقف وفتح الطريق ما بين بربر وسواكن .

مناوشات أولى مع حامية الخرطوم

تركنا المهدى يرجع إلى الأبيض بعد إبادة حملة هكس وتركناه ينعم بشهرة عمت أرجاء السودان وقد أعطى لنفسه وأنصاره راحة بعد نضالهم المتواصل واكتفى بارسال السرايا للجهات البعيدة . فود البصير عليه إثارة أهل الجزيرة والشيخ العبيد عليه الذهاب إلى الخرطوم ومناوشتها . وفى منتصف مارس سنة ١٨٨٤ تم للشيخ العبيد وود البصير سد الطرق المؤدية للخرطوم اللهم إلا عن طريق النهر وحتى هذا تلقى الوابورات عنتا قبل أن تخترق نطاق الحصار المضروب . وصار الأنصار يصوبون رصاصهم من شرقى النيل الأزرق على السراى نفسها وقد قتل أحد الكتبة نتيجة لذلك . وخرجت فرقة من جند الحكومة من الخرطوم فى أحد الأيام تحت قيادة السعيد باشا الجيعانى وحسن باشا الشلالى لطرد الأنصار من الشرق حتى يتسنى لحامية الشايقية التى تعسكر فى الحلفاية من الانضمام لحامية الخرطوم ولكن الفرقة باءت بالفشل وتناقل الناس أن القائدين تآمرا مع الأنصار ومنعا العساكر من الهجوم وعند تشكيل مجلس عسكرى عالى حُكم عليهما بالإعدام .

رد المهدى لغوردون

فى صباح ٢٢ مارس ظهر على أبواب السراى ثلاثة من الأنصار فى كامل أهبتهم وسلاحهم يحملون خطابا وربطة بها ملابس وقدموا مامعهم إلى الحكمدار دون أن يلقوا بسلاحهم وعلى أعينهم سيماء الشعور بالعظمة والاعتداد بالنفس. كان الخطاب يحوى رد المهدى على خطاب غوردون الذى بعث به من بربر وملخصه أنه ما أراد ملكا أو سلطانا وما طلب من مخلوق منّة أو مكرمة، وإنما بُعث برسالة المهدية الكبرى لهداية الخلق. وإذا كان غوردون يريد بالمسلمين خيرا كما يزعم فأولى له أن يستضىء قلبه أولا بنور الإسلام وعند ذلك ينال خير الدارين. ومع الخطاب جبة الأنصار لغوردون يلبسها فيما لو هداه الله وقبل الدخول فى الملّة المحمدية.

هنا أدرك غوردون إدراكا لمسه باليد كنه الرسالة المهدية ومدى أساسها الدينى، وبعد أن كان يظن فى المهدى آلة مسخرة فى أيدى أصحاب الرقيق أو طامعا يريد ملكا ونفوذا أدرك أنه رجل يعتقد برسالته عميق الإيمان بها. وهنا أصابته نوبة من الغضب عندما علم أن هذا الرجل يطلب منه تغيير دينه والخضوع لأوامره ونواهيه، وهنا صمم على تجربة قوته معه. فإذا كان المهدى متدينا فى إسلامه فهو مؤمن بمسيحيته، وإذا كان المهدى يعتز بقوته وكفايته فى النضال فهو ليس بأقل منه صلابة وشدة مراس. وأخذها غوردون منذ تلك اللحظة على أنها نضال شخصى ومبارزة ألقى له فيها القفاز فليلتقطه. ومن ذاك التاريخ نستطيع أن نجزم بأن غوردون رمى بسياسة الجلاء جانبا وصمم على محاربة المهدى حتى النهاية.

Turning point in career of Gordon threw away policy Evacuation decided to fight

السودان فى مجلس العموم البريطانى

ولننتقل الآن من مسرح الحوادث فى الخرطوم إلى دار مجلس العموم فى لندن وهو منعقد فى ٣ ابريل لترد الحكومة على أسئلة بصدد « مهمة غوردون » عقب ظهور رسالة فى التيمس من مكانها فى الخرطوم فرانك بوَر وفيها يناشد الأمة البريطانية ألا تتركهم وشأنهم يحاصرون فى الخرطوم. دخل المجلس المستر جلادستون بعد غيبة طويلة ظل فيها ملازما لفراش المرض وارتفعت عاصفة من

البشرى والترحيب للسياسى العظيم . وكان عليه أن يرد على سؤال تقدم به زعيم المعارضة عن مسألة السودان .

جرد الرئيس لسانا ذربا لمعارضيه وارتفع فى ذلك اليوم فى مناقشته وتأثيره على السامعين إلى درجة أن أقطاب المعارضة ما حاولوا رداً أو إحراجا للوزارة بالرغم من أنهم كانوا على استعداد لها بمستنداتهم وبياناتهم . وجّه فى أول الأمر هجومه على المعارضة بأنهم يعرقلون أعمال الدولة ويشغلون وقت الحكومة والمجلس بالتوافه من الأمور وأنهم فى ظرف شهرين شلّوا حركة الإدارة بسبع عشرة مناقشة فى موضوع السودان ومصر . ثم أبان لهم مهمة غوردون حيث تفهمها الحكومة . فهى ما بعثته إلا ليقدم تقريرا عن أنجع الطرق للانسحاب وعلى هذا فمهمته استشارية بحتة وأناطت به الحكومة المصرية مهمة تنفيذية بأن عيّنته حاكما عاما بسلطات استثنائية لإخلاء السودان . فإذا اعترضته عقبات وهو يؤدى المهمة التنفيذية فالمسؤولية لا تقع على عاتق حكومة جلالة الملكة .

جلس الرئيس تاركا الجانب الحربى من المسألة لزميله وزير الحربية اللورد هارتنجتون فوضّح للمجلس المخاطر الحربية التى يتعرض لها الجيش إن حاول القيام بحركة زحف من سواكن إلى بربر وكذلك عدم ملاءمة هذا الفصل بالذات فى أرض يشتد حرها كالسودان . وهكذا كان موقف حكومة جلادستون فى أول ابريل من إنقاذ غوردون . وحتى عندما توالت حملات الجرائد تطالب بإنقاذ غوردون ما كان للحكومة إلا أن تبعث لبيرنج فى ٢٣ ابريل برسالة موجهة لغوردون يوقفهم فيها على الحالة ودرجة الخطر وما مقدار القوة وما الطريق الذى تتخذه للوصول إليه وتأدية مهمة الانقاذ . وقد أشاروا صريحا على أنه مهما كانت الظروف فأى حملة تذهب تنحصر فى إنقاذه ومن معه ولا يراد لها القيام بعمليات حربية وهذه الرسالة وصلت إلى غوردون بعد ثلاثة أشهر .

فترة ركود

تلت ذلك فترة تقارب الثلاثة أشهر غاب فيها بيرنج عن القاهرة ليكون بجانب الحكومة فى نظر شؤون مالية تتعلق بمصر وحلّ مكانه المستر إجرتن

وما زالت مسألة إنقاذ غوردون تعرض من وقت لآخر فى الجرائد وفى مجلس العموم . والحكومة لا تزال فى انتظار ردّ البيانات والتفصيلات حتى تقرّر فى أمر حملة الإنقاذ . وفى تلك الحقبة بالذات شغلت الحكومة بقانون الإصلاح الدستورى ، وإذ ما تعرض أحد الوزراء لمسألة غوردون فى مجلس الوزراء أرجأها جلادستون لتصريف الشؤون العاجلة . وأثناء المحادثات والمناقشات ظهر أن فريقا من الوزراء ينادى بإرسال الحملة فى الحال وفريق يرى أن غوردون خالف تعليماته ولا يصح أن يضحى بعدد من الجنود لأجله . وهم وسط تلك الأفكار المتبلبلة والحكومة الإنجليزية تكسب الوقت وتسوّف إذ سقطت بربر .

الشيخ محمد الخير وسقوط بربر

كان الشيخ محمد الخير أستاذاً للمهدى كما قدّمنا وظل بعيدا فى المراحل الأولى لسريان روح المهدية يرقب نجم تلميذه الساطع باهتمام ولكنه تريث قبل أن يعتنق مذهبه . وعند ما التقى المهدى مع هكس فى الموقعة الحاسمة ثم أعلنت سياسة الإخلاء بعد ذلك شد الأستاذ الرحال وذهب إلى الأبيض . وكان عناق وحسن لقاء بين أستاذ سرّه ما وصل إليه تلميذه من مجد وتلميذ يعترف بما أسداه إليه أستاذه من جميل وما قبس منه من علم . ثم أناط به المهدى مهمة قطع الاتصال بين مصر والخرطوم وعزل كل الحاميات فى داخلية السودان . وقد تم قبل ذلك قطع المواصلة بين سواكن والنيل بفضل القائد الجرىء عثمان دقنه . وقفل محمد الخير راجعا إلى النيل يحمل قبساً من شعلة المهدى وسرعان ما انضمت إليه القبائل شمال الخرطوم وما زالوا يتجمعون ويتحمسون حتى أحاطوا ببربر ، وبعد حصار طويل وعناد من الحامية اقتحمها الأنصار وأسر مديرها حسين باشا خليفه وكبار موظفيها . وبذا تم انعزال الخرطوم وصار ما يصل لغردون من أخبار ومكاتبات وما يحاول إرساله هو بواسطة وكلاء تدفع لهم أجور عالية . فبعضها يصل فى وقت لا بأس به وبعضها يظل شهورا قبل أن يستلمه من أريد إرساله لهم وبعضها يضيع فى الطريق .

الخرطوم بين الإنقاذ والسقوط

قطع غوردون الأمل من معونة انجلترا وصمّم على الثبات وعدم التسليم وانصرفت جهوده إلى اقتراح يرمى إلى تسليم السودان لتركيا . فكتب للسلطان يحثه بأن يبعث بجنوده الشاهانية لتردّ إلى حظيرة الإسلام إقليما تمرّد وأبدى العصيان . وعندما تسربت مثل هـــذه الاقتراحات إلى انجلترا دعمت رأى جلادستون ومن ينحون نحوه فى غوردون وتصرفاته . ولـكنّ الاقتراح كمثل اقتراحه لتعيين الزبير ذهب مع الريح وبقى عليه أن يتوكل على الله ويقوّى الحصون التى أقامها عبد القادر باشا وهى عبارة عن خندق يحمى الخرطوم من ناحية الجزيرة ويصل ما بين النيلين وجسر مرتفع من تراب الخندق وطوابى على مسافات متقاربة عليها المدافع . وكان على غوردون أن يزيد عدد جنده من المتطوعين بعد تدريبهم وأن يبعث ببواخره عندما ارتفع النيل لتجمع ما تستطيع جمعه من ذرة ومواد غذائية أخرى .

حصار الخرطوم

أما المهدى فأمر ود البصير والشيخ العبيد بضرب نطاق على الخرطوم وقد نجحا نوعا ما فى مهمتهما ولـكن ما أبدته حامية الخرطوم من نشاط ورحلات البواخر المتكررة جعلت المهدى يبعث بقوات متزايدة ليُحكم النطاق . فسمى الحاج محمد أبو قرجة أميرا للبرين والبحرين . ومع تيقظ الأنصار جاوبتهم الحامية بجرأة وامتاز فيها أمثال محمد على باشا وساتى بك ونجحت فى رفع الحصار حوالى أواخر يوليو سنة ١٨٨٤ . ونتيجة للنجاح الذى لاقته الحامية بعث غوردون بمحمد على باشا يتعقب قوات الشيخ العبيد فاتصل بهم فى العيلفون شرقى النيل الأزرق وتغلّب عليهم . وفى نشوة من الظفر رأى أن يتابعهم إلى قرية أم دبان وتقع بعيدة من النيل ، فزحف ووجهته مقر الشيخ العبيد وما إن دخل فى أرض مشجرة إلاّ وأطبق عليه الأنصار من كمين فى الغابة ، وكانت موقعة هكس المصغرّة .

بعثة ستيوارت

وعقب رفع الحصار رأى غوردون أن يبعث بوكيله ستيوارت لاحتلال بربر والثبات فيها حتى تتصل بهم حملة الإنقاذ إن كانت فى الطريق وإن لم تتصل

به يحرق المدينة ويرجع للخرطوم . ولـكنه عدّل فى هذا الاقتراح بعد ما مُنى به من فشل فى موقعة أم دبان وقرر إيفاد ستيوارت ومعه آخرون بالباخرة عباس علّه يصل مصر . وهناك ينقل إلى الحـكومة البريطانية الحالة وما تردت إليه من حرج . وما قدر لستيوارت أن يصل بسلام إلى مصر حيث ارتطمت الباخرة فى صخرة فى أرض المناصير بين أبى حمد ومروى ولقى وكابها حتفهم على أيدى شيخ المناصير ورجال قبيلته .

ودالنجومى يزحف على الخرطوم

فهذا قائده (محمد على باشا) الذى أطراه أكثر من مرة راح ضحية مغامرته وهذا وكيله ستيوارت يقضى عليه المناصير — ولو أنه عرف هذه الحقيقة أخيرا — وها هو المهدى وهو بالرهد يبعث بأمير أمرائه عبد الرحمن النجومى ومعه مدافع الحصار ودم جديد من الأنصار لإحكام نطاق من الحصار لاتفلت الخرطوم منه ولاتصلها بالعالم الخارجى صلة . وكما فعل أبو قرجة قبله وجّه النجومى انذارا لغوردون بالتسليم دون إراقة الدماء ، وكالعادة كان رد غوردن عدم الإذعان والرفض البات . ودخلت الخرطوم فى حقبة حصارها الأخير والذى كان محكما هذه المرة إلى درجة انقطاعها تماما عن بقية السودان .

موضوع الانقاذ أيضا

تركنا الحـكومة الانجليزية بعد ابريل تتعرض لموضوع الحملة من وقت لآخر ولاتصل الى رأى ، ومما يبين نفوذ جلادستون وإصراره على عدم أبعاث حملة ما أنّ مجلس الوزراء بحث هذه المسألة فى يوم ٢٥ يوليو ووافق تسعة من الوزراء واعترض ثلاثة وفيهم جلادستون ، ومع هذه الأغلبية الساحقة سقط القرار لأن الرئيس يصر على اعتراضه . وبعد أربعة أيام من ذلك وزّع اللورد هارتنجتون وزير الحربية مذكرة لزملائه يعرض فيها المسألة بإسهاب ولوّح بالاستقالة إذا لم تقرر الحـكومة على الفور إرسال الحملة . وعندئذ لان جلادستون وخضع ووافق على طلب التصديق من البرلمان بثلاثمائة ألف جنيه كاعتماد إضافى يصرف لتجهيز الحملة .

حرب الطريق

وما أن قررت الحكومة إرسال الحملة وما أن حصلت على تصديق البرلمان بالمبلغ المطلوب حتى بدأت « حرب الطريق » هل تتخذ طريق النيل أم طريق بربر — سواكن ؟ ودخل الخبراء الحربيون فى جدل امتد أياماً وكان أول عوامل التأخير . وأخيرا نجحت فكرة طريق النيل وعقد لواء القيادة للورد ولسلى نفسه أكبر مؤيدى ذلك الطريق . وكان كتشنر آنذاك فى دنقلا كضابط المخابرت يستطلع الأحوال ويتصل بغوردون إذا مكّنته الظروف فنقل خبر الحملة إليه ووصل ذلك فى الخرطوم ٢١ سبتمبر ، فكان يوم أفراح وزينات ، حيث قصفت المدافع معلنة البشرى والفرح وانتشر الخبر فى المدينة بسرعة البرق ، وظن الناس أنه بعد أيام قليلة تأتى الجيوش الانجليزية بعددها وعُددها ، وسارع غوردون بتأجير المنازل التى تقع على الشاطىء لتكون مأوى للضباط الانجليز .

تجمّع القوة فى مصر

تجمّعت قوة الأمبراطورية البريطانية فى أصوان وحلفا تضم خيرة جندها المدربين وعلى رأسها جنرال خبر الحروب وخبرته ، وعُرف بالروية والاتزان ، وعُرف أنه لا يتحرك إلا بعد أخذ كامل الأهبة والاستعداد ، وعرف بانتباهه للتفاصيل ؛ فالقوارب التى تتخذ على النيل من كندا لصلاحيتها ، وخط السكة الحديد الحرب يجب أن يمد جنوبا بقدر ماتسمح الظروف ، والجمال الكافية تجمع فى الدبة ، والمؤن والذخائر تصحب الجيش لحرب قد تكون طويلة الأمد وعموما لم يترك الجنرال أمراً للصدفة أو الظروف .

جيوش المهدية تتحرك

وفى الطرف الآخر احتشدت جموع الأنصار فى الرهد وصدرت الأشارة من المهدى بالزحف على الخرطوم متحدية الإمبراطورية البريطانية كما تحدت الحكومة المصرية قبل ذلك فى ميادين الحرب والدولة العثمانية فى مجال الدعاية الدينية . وأصبحت الخرطوم آنذاك على كل لسان واتجهت نحوها الأنظار . فهذا ولسلى يطمع فى أن يصلها وينقذ غوردون والحامية قبل وصول المهدى ، والأخير يريد استلامها والدخول فيها قبل طلائع التجريدة الانجليزية . ولسلى يثق بقوته وبجنده ويحسب لكل الظروف حسابها ، والمهدى يعتمد على قوة الله ويثق فى رسالته

ويؤمن بها وأنّ الله لا بد مظهره على خصمه . فلنترك واسلى فى استعدادته ولنرافق المهدى من الرهد حتى ديم أبى سعد غرب النيل الأبيض جنوبى أم درمان بقليل .

تحرّك المهدى من الأبيض للرهد لوفرة مياهها وكثرة عشبها للحيوانات وليتكامل الأنصار والمبايعون من شتى الجهات — فكنت ترى كل يوم وفودا جديدة تعتنق المهدية وتنضوى تحت لوائها ، فوفود الجزيرة وسنار وكسلا والجعليين وما بقى من قبائل الغرب — كلها اتخذت طريقها نحو الرهد تبايع الإمام على النفس والولد والمال . وفى أبان موسم الأمطار حين امتلأت البرك والمناهل بالمياه ، وحين نبت العشب استعرض المهدى أنصاره عرضا عسكريا عظيما ، وتحرك الجمع وأكثرهم بنسائهم وأولادهم ومعهم ما يمتلكونه من متاع الدنيا وضروريات الحياة ، ومشوا ببطء فى أرض رحّبت بهم ، فالطبيعة مزدهرة والمياه والعشب متوافرة والناس يتلقونهم بكل إجلال وترحيب ، وليس لهم مشاكل نقل أو مؤن أو ذخائر ؛ فأغلبيتهم الساحقة تحمل السيوف والحراب وهى أسلحة على استعداد دائم للعمل ، ومن كان يحمل الأسلحة النارية توافرت ذخائرها مما غنموه من الوقائع السابقة ، وأقواتهم مما يحملونه من ذرة وما يذبحونه من ماشية وأغنام ، وحالتهم المعنوية فى القمة من حيث السمو ، فوراءهم تاريخ حافل بالانتصارات المتوالية ، وهاهم استضاءوا بنور الدين بعد أن كانوا فى ظلمة الإلحاد والبدع والضلالات ، وهاهم يتشوقون ويتلهفون لليوم الذى يدخلون فيه الخرطوم ، فمن مات فقد فاز بالشهادة ولقى ربّه ، ومن كتبت له الحياة نعمت نفسه بمساهمته فى القضاء على عهد الظلمة والجهالة الدينية ، وشاعر المهدى الشيخ محمد عمر البناء ينشده قصيدته التى مطلعها .

الحرب صبر واللقاء ثبات   والموت فى شأن الإله حياة

وفى مهل شات أمر بحط الرحال والراحة حتى يتكامل الجمع قبل استئناف الزحف شمالا على ضفة النيل الأبيض وهناك وافاه أستاذه — الشيخ محمد شريف

ود نور الدايم . وكان ما كان بينهما من خلاف قبل المهدية . وأدرك الأستاذ أن الظروف تقضى بالإذعان لتلميذه وقد علا نجمه وغابت شمس الحكومة المصرية ، وهاهى بربر قد سقطت وانسدّ طريق الانسحاب لمصر . فأحسن التلميذ لقاء أستاذه رغم ما كان بينهما من تدابر وتنافر وما نسى فضل الأستاذ عليه عملا بالحديث « من علّمنى حرفاً صرت له عبداً » ، وما كان المهدى ليأبه أو يعترف بما ارتكب من أخطاء قبل المهدية . فهى قد محت ما قبلها وخطت صحيفة جديدة وتُمسح الخطيئات عندما يضع المجاهد يده فى يد المهدى ويبايعه . وزيادة فى الإكرام وابتهاجا بهذا الحدث — حدث طاعة الأستاذ وولائه — نحرت النوق احتفاء بالأستاذ وقام الجمع حتى نزلوا عند الدويم ، ومن ثم تحركوا شمالا وأدركهم عيد الأضحية فى الترعة الخضراء . وفى كل يوم جديد يتلقى الإمام الوفود ويبايعونه ويلتمسون العفو والمعذرة لتوا كلهم وتباطئهم إلى هذا الحد . وأخيرا وصل الأنصار وعددهم يذيف على الستين ألفا وحطوا فى ديم أبى سعد مسافة ساعة واحدة جنوبى طابية أم درمان فى يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٨٨٤ .

خطاب النجومى لغوردون

سمت نفوس المحَاصِرين المعنوية وزادت جرأتهم حتى كانوا يقتربون من الخندق ويطلقون النيران . وبعكس ذلك هلعت القلوب فى الخرطوم وبدأت تسرى روح القلق والتمرد بين السكان وإزاء ذلك ماوسع غوردون إلا أن يكتب المنشور الآتى تقوية للعزائم « إن الجيش الانجليزى القادم لنجدتنا تبلغ عدته خمسين ألفا وقد انقسم إلى قسمين قسم بطريق أبى حمد وقسم بطريق ود قمر وقد وصلت أول فرقة منه بكورتى وعن قريب تصل بربر وربما وصلت الخرطوم قبل وصول محمد أحمد إلى أم درمان فتشددوا واعلموا أن الله ناصركم والسلام » .

ووفاقا لسياسة الإنذار كتب الأمير عبد الرحمن النجومى هذا الخطاب عند ما سمع بتحرك المهدى من الرهد « أن الإمام المنتظر قد تحركت ركابه الشريفة من الرهد غازيا الخرطوم بجيوش لاعدد لها فأنصحك أن تقابله مع من تختار من الأعيان طائعا طالبا الأمان وهو لاشك يؤمنك على نفسك ومالك ومن معك

وذلك أولى من سفك الدماء . وأما ما ينقله إليك الجواسيس من أن الانجليز قد أرسلوا جيشا لإنقاذك فكله كذب . وهم إنما ينقلونه إليك لتبذل لهم العطاء كما هى عادتك . وأنا بعون الله قادر على فتح الخرطوم وأخذها منك عنوة ولكن سيدنا الإمام المهدى أمرنى بنصحك والرفق بك حقنا للدماء والسلام على من اتبع الهدى »

وما كان لغوردون أن يقبل تحديا كهذا فأجاب « من غوردون باشا والى السودان إلى ودالنجومى بالكلا كله إعلم أنى لست بمبال بك ولا بسيدك المهدى ولا بما معكما من الجيوش . وأما خبرقدوم الجيش الانجليزى فليس هو من اختلاق الجواسيس بل قد جاءتنى به أخبار رسمية من قبل الحكومة الخديوية والدولة البريطانية العظمى . وسترى عن قريب ما يحل بك من الدمار وتقول ياليتنى مت قبل هذا . ولا تعد إلى مخاطبتى بعد الآن فهذا آخر العهد بيننا والسلام » .

اعدام أحمد العوام

وكان لوصول المهدى أثر عظيم فى السكان داخل الخرطوم فقد أثار أحمد العوام الناس . وهو أحد المنفيين من الثورة العرابية واتهم بأنه حاول أحراق مستودع الجبخانه فحكم عليه بالإعدام . واتفق بعض الأعيان وخاطبوا المهدى بأنهم معه قلبا وقالبا وسوف يقومون بدورهم فى إضعاف الحكومة وسوف يلحقون به عند سنوح الفرصة الملائمة وضبط غوردون أيضا هذه الرسالة . فحبس بعضهم فى ثكنات العساكر و بعضهم فى منازلهم تحت الرقابة المشددة .

خطابات المهدى لغوردون

ولم يسارع المهدى فى فتح الخرطوم بل أصر على حصارها حتى تسلم كما سلمت حامية الأبيض دون إراقة للدماء . واستراح فى ديمه كل شهر محرم وفى نهايته جدّد الإنذار فكتب بعد البسملة لغوردون ما يلى « و بعد فمن العبد المفتقر إلى الله الواثق بما عند مولاه محمد المهدى ابن عبد الله إلى غوردون باشا : أعلم أنى حضرت بالقرب من أم درمان بجيوشى المنصورة وأصحابى وأحبابى فى الله المؤيدين بالنصر من عند الله . وكن على يقين أنى على علم من حضور عساكر الانجليز بجهة دنقلا ولكنى لست مباليا بهم ولا بغيرهم بفضل الله . وسيكون لهم أسوة

بجيوش هكس والشلالى . ولا تغرك نصرتك المتوالية فكل من استشهد بها فهو عن أمرى رأفة بهم لينالوا درجة الصالحين تصديقا لقوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما أتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لاخوف عليهم ولاهم يحزنون » ، ولولا مراعاة حسم دماء المسلمين لضربت صفحا عن مخاطبتك وبادرتك بالهجومات التى لا أشك فى نجاحها . فسلّم تسلم أنت ومن معك وقد نصحتك وأنصحك وإلا فالحرب بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى » .

فردّ غوردون « لست أبالى بك ولا بجيوشك وليست العساكر الانجليزية بجهة دنقلا كما تزعم تضليلا لعقول أنصارك وإغرائهم بطلب المستحيل بل هم بجهة بربر والمتمه . وسترى ما يحل بك وبجيوشك عند مجيئهم من النكال بل إذا لم يأتوا ففىّ الكفاءة لأن أعرّفك قدرك ولا تغرنك كثرة أنصارك فالبغى له مصرع والسلام » .

قوة الرجلين

هكذا وقف الرجلان وجها لوجه . غوردون يفاخر بقوة الأمبراطورية ، التى لا تغرب الشمس فيها ووراءه تاريخ انتصاراتها السياسية والحربية معتدا بكفاءة الجندى البريطانى وسمو روحه ، وهاهى حكومة جلالة الملكة قررت الانقاذ وكانت التجريدة التى سوف ينتهى بها الأمر إلى الغلبة والفوز ، ولم يعد كما كان وحيدا منبوذا ، وهاهو الرأى العام البريطانى والملكة نفسها يتجهون بأنظارهم نحو الخرطوم ويتابعون بلهفة واهتمام مسير الحملة فى انتظار اتصالها بالجندى المحاصَر . وهم إذ يطمئنون للنتيجة يعتقدون فى غوردون وحسن تصرفاته ونفوذه العظيم على السودانيين عموما والجند منهم خاصة . فإذا أبطأت الحملة نوعا ما فذلك لتأمن المفاجآت وتضمن الفوز النهائى . فغوردون فيه من المقدرة والكفاية ما يجعل الحامية تحتمل الضيق وتقف فى وجه العدو حتى تصلها طلائع الحملة . والمهدى فى أوج مجده وقد دانت له البلاد بأكملها ما عدا بعض الحاميات وهذه تحت نطاق من الحصار لا تفلت منه ، وأنصاره بلغ بهم الاعتقاد برسالته والإيمان بما جاء به ما جعلهم يتسابقون إلى

الموت نصرا للدين وجهادا فى سبيل الله وهو يشع عليهم من روحه وإيمانه بصدق رسالته .

حالة السكان فى الخرطوم

وقد صاحب هذه الحالة النفسية السيئة فى سكان الخرطوم حالة أخرى من الجوع والضيق حتى بدأوا يموتون بحالة أقلقت غوردون ورأى أن ما لديه من أقوات لا تقوم بتموين كل الناس ، فبعث بالرقيق والمساكين العجزة من النساء والرجال إلى المهدى بكتاب مفاده «اعلم أن الجنس للجنس رحمة وهؤلاء المساكين يشتركون معك فى الجنسية وقد قضت الحال بإخراجهم من الحامية بعد أن عاشوا فيها سنة على نفقة الحكومة فصار عليك الآن أن تتولى أمر معيشتهم فافعل بهم ما أنت أهله » وفى طابية أم درمان آلت الأقوات إلى النفاد وبقى ما يكفيهم أياما معدودات ولا سبيل إلى تموينهم حيث رابطت جهادية أبى عنجه على الشاطئ وعزلتهم عزلا تاما من أى اتصال بالخرطوم .

الحامية تحاول الخروج مرتين

وبزغت شمس سنة ١٨٨٥ بخروج بعض جنود حامية الخرطوم من استحكاماتها لمنازلة الأنصار فى الخارج فأصابوا منهم وأصيبوا هم أيضا ورجعوا إلى داخل الاستحكام . وبعد يومين أمرت الحامية بالخروج مرة ثانية علها تزحزح الأنصار وتفتح ثغرة فى صفوفهم وتنال بعض القوت ، فرجعت دون أن تنال شيئاً . وبعد ذلك بيومين سلمت طابية أم درمان بعد نفاد القوت وفشل محاولة الجلاء للخرطوم . فأكرمهم المهدى وأدخلهم فى عداد جهاديته وسمى فرج الله باشا قائد الطابية أميرا عليهم .

المهدى يوصى أنصاره باللاجئين

وكان لتسليم حامية أم درمان أثر بالغ فى نفوس أهالى الخرطوم الذين ظلوا يعانون آلام الحصار لأشهر عديدة، فأخذوا يتسللون خلسة للتسليم . فنشر المهدى كتابا لأنصاره يوصيهم بالرفق بهم وحسن معاملتهم « وبعد فمن العبد المفتقر إلى الله محمد المهدى إلى أحبابه وأصفيائه أنصار الدين بالهوى [1] والشرق والغرب وخصوصا العلماء والرءوس . وبعد فإذا فهمتم هذا أحبابى فالفوا عباد الله الذين

---

(١) غرب النيل .

يخرجون مسلمين ومنقادين بأنواع التأليف وتلقوهم بالإكرام والتشريف ولا تنظروا لمن استشهد من الأنصار فتحنقوا بسبب ذلك على من كان مع الكفار . فإن قيامنا هذا لله ومن استشهد من الأنصار فقد نال عظم المقدار فيما فعله لوجه الله ، فأكرموا الذين يأتون مسلمين وخصوصا العلماء ومن كانوا أهل وظائف كبار وبالأخص نحو الأمين الضرير فقد قال صلى الله عليه وسلم « أكرموا عزيز قوم ذلّ وغنيا افتقر ، والسلام » ١٩ ربيع أول سنة ١٣٠٢ هـ ٦ يناير سنة ١٨٨٥ .

المهدى يخاطب أهل الخرطوم

و بعد أن أشار لأصحابه بما يجب أن يعامل به الذين استسلموا ومن يستسلم بعد ذلك مبعدا بهذا الظنة بأنه يتوق لسفك الدماء ومرغّبا لأهالى الخرطوم فى الخضوع والانقياد ومظهرا لهم بالطريق العملى أنهم فى أمن وسلام إذا ما أذعنوا . عندئذ كتب لهم يدعوهم للتسليم بما يلى : — « و بعد فمن العبد المفتقر إلى الله محمد المهدى بن عبد الله إلى كافة أهالى الخرطوم هداهم الله إلى الصواب .

وقد طالما ذكّرتكم بالله ورغّبتكم فيما عنده وحذّرتكم من وعيده فإلى متى الغفلة والتسويف و إلى متى مبارزة مولاكم بالعداوة ؟ أترغبون النجدة والفرج عند الانجليز وتصرفون نظركم عن خالقكم الذى بيده أموركم وقوامكم ؟ وهو القوى العزيز ؟ فما الانجليز وغيرهم أضعافا مضاعفة بشىء فى جنب قدرة الله التى يعجز عن وصف كنهها كلّ لبيب ونجيب وما الغوث إلا من عند الله القريب المجيب . وحيث فهمتم ما ذكر فأنى لا أؤاخذكم بما فات منكم ولا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . فأنيبوا إلى ربكم وسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ، عليكم أمان الله ورسوله وأمان العبد لله وليس عليكم حرج فيما مضى ، وغايته أن من سلّم سلم ومن خالف عطب وندم ، فهيا هيا ثم هيا إلى طريق الفلاح والنجاح قبل قص الجناح ولا تخشوا من شىء يحصل عليكم فإنا مناظرون فيكم آية قوله تعالى « و إذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم » والسلام .

مخاطبة غوردون مرة ثانية

سلمت حامية أم درمان واشتد الضيق على أهل الخرطوم وتسلل بعضهم وانحطت الروح المعنوية لمن بقى منهم ، وقوة الأنصار تضرب نطاقها على المدينة تتفوق فى العدد والعدة والروح . ومع ذلك ما كان المهدى يريد اقتحامها وأخذها عنوة وما كان يريد للدماء الإراقة والمدينة الخراب . فحذر أصحابه من معاملة المستسلمين بقسوة ، بل أمرهم بحسن وفادتهم ورغب أهل الخرطوم فى التسليم لأمر الله وأن لا تثريب عليهم فى عنادهم السابق ، وبقى عليه الآن أن يخاطب غوردون بكلام صريح ولكنه لا يجرح فيه كبرياءه ويخبره أن العون سوف لا يصله من التجريدة الانجليزية فبعث إليه برسالة هى : —

« وبعد فمن العبد المفتقر إلى الله المعتصم به محمد المهدى بن عبدالله إلى غوردون باشا فسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن أعرضت كان عليك إثمك وإثم من معك . فقد أتانى الخبر من الرسول أن الجردة الآتية لو كان معى ستة أنفار تموت أو خمسة تموت أو واحد تموت أو وحدى كذلك ولو كانت مثل ورق الشجر ونبت الوعر وموج البحر . وقد أتانى خبرها أنها تموت أيسر من موت جردة ود الشلالى وهكس والمديريات الغربية كلها والبحر الأبيض . وكذلك موعود بجميع البلاد فالأمر لله وما دام أن الله القادر أيدنى بالكرامات وبالنصر فلا يضرنى انكار منكر وإنما يضر نفسه فقط . والأمر الذى وعدت به من رسول الله صلى الله عليه وسلم صار . على أن الجردة التى تعتمدونها مالها وجه بوصولها لكم من سد الأنصار الطرق فإن أسلمت وسلمت فقد عفونا عنك وأكرمناك وسامحناك فيما جرى منك وإن أبيت فلا قدرة لك على نقض ما أراده الله والسلام » .

« تحشية : وإن طلبت زيادة بعد وصول جوابى هذا فتخبرك المرأة الواصلة إليك وإن رأيت التمكين واليقين أن أردت التسليم أكثر من هذا الجواب سنرسل لك عبد القادر ولد أم مريوم لزيادة الطمأنينه فى الأمان فلا مانع وبذا لزمت التحشية » .

كتاب آخر

وأردفه بكتاب آخر هذا نصه : — « وبعد فإن أراد الله سعادتك وقبلت نصحنا ودخلت فى أماننا وضماننا فهو المطلوب وأن أردت أن تجتمع على الانجليز الذين أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهلاكهم فنوصلك إليهم فإلى متى تكذيبنا وقد رأيت ما رأيت وقد أخبرنا رسول الله (صلعم) بهلاك من فى الخرطوم قريبا إلا من آمن وسلّم ينجيه الله ، ولذلك أحببت لله إلا تهلك مع الهالكين لأننا قد سمعنا مرارا فيك الخير ، ولكن على قدر ما كاتبناك للهداية والسعادة ما أجبتنا بكلام يؤدى إلى خيرك كما نسمعه من الواردين والمترددين . والآن ما أيسنا من خيرك وسعادتك وفيما سمعنا من الفضل فيك سنكتب لك آية واحدة من كتاب الله عسى أن ييسّر الله هدايتك بها إذ جعلنا الله باب الرحمة والدلالة إلى الله ولذلك طالما كاتبناك لترجع إلى وطنك وتحوز فضائلك الكبرى ولئلا تيأس من الفضل الكبير أقول لك قال الله تعالى «ولا تقتلوا أنفسكم أن الله كان بكم رحيما» والسلام . وقد بلغنى فى جوابك الذى أرسلته إلينا أنك قلت أن الانجليز يريدون أن يفدوك وحدك بعشرين ألف جنيه ، ونحن نعلم أن الناس يتقولون من البطال كلاما كثيرا ليس فينا وذلك لصدود من أراد الله شقاوته ولا يعلم نفيه إلا من اجتمع بنا وأنت أن قبلت نصحنا فبها ونعمت وإلا أن أردت أن تجتمع على الانجليز فبدون خمسة فضة نرسلك إليهم والسلام » .

موقعة أبو طليح تؤثر فى موقف المهدى

هكذا كان الموقف إلى ٢٠ يناير بعد انقطاع الخطابات وبعد أن بعث المهدى إلى غوردون بخطابه الثالث . فالمهدى لا يزال على رأيه من أخذ الخرطوم بالرضا والتسليم كما فعلت الأبيض . ولا يزال غوردون ينتظر العون من تجريدة الصحراء التى سنتعرض لها فيما بعد ، وما زال يطمئن الجند والمدنيين ويبشرهم بقرب الفرج وظهور جنود جلالة الملكة . وفى ٢٠ يناير وصلت الأخبار إلى معسكر المهدى بموقعة أبى طليح بين الأنصار وفرقة الصحراء فسمع عويل وبكاء فى معسكر الأنصار من النساء على من فقدن من بعولتهن واخوانهن فى الموقعة . وعلى ذلك أيقن المهدى ورجال حاشيته بوصول طلائع الحملة الانجليزية بالقرب

من المتمه وأنه وأن قاومهم الأنصار ما وسعتهم المقاومة وأبلوا بلاء حسنا حتى كثر قتلاهم إلا أن أغلبية الحملة وصلت إلى النهر ولابد أن تداوم سيرها صوب الخرطوم. فإذا صمدت الحامية كل هذه المدة ورفضت الإذعان والتسليم بالرغم من قلة عددها وبالرغم مما أصابهم من ضيق وجوع وانحطاط فى الروح المعنوية ، فانهم وقد علموا وصول الطلائع إلى المتمة فأملهم سوف يتجدد ، ويظلون فى عنادهم . فلا بدّ والحالة هذه من أخذ المدينة عنوة أن لم تنجح السياسة السلمية ، ولابد من القضاء عليها وهى فى وهنها وضعفها قبل وصول النجدات القوية الجديدة .

المهدى يقرّر الهجوم

عقد المهدى مجلسه للبت فى الشأن الخطير من خلفائه وكبار أمرائه فى مركز قيادة ود النجومى فى شجرة محو بك وتداولوا فى الأمر وقلبوا كل الظروف والاحتمالات وأخيرا قرّ الرأى على مهاجمة الخرطوم ، وأخذها عنوة ورجع المهدى إلى معسكره فى الغرب مع خلفائه تاركا تنفيذ الأمر لود النجومى وأبى قرجة . وبينما يستعد الأنصار للهجوم المنتظر متلهفين للقاء ربهم أو المساهمة فى تقوية الدين بظهوره على جيوش الكفر والإلحاد ، يبتهج غوردون ويزّف البشرى لكل من فى الخرطوم بقرب الفرج بعد الشدة وبالطوابير الانجليزية الزاحفة نحوهم . وأخذ منظاره فى الخمسة أيام الأخيرة من حياته مقضيا معظم وقته على سطح السراى يمسح الأفق به نحو الشمال علّه يرى دخان البواخر على النيل ، أو غبار البيادة على الأرض ، وانتعشت روح الحامية وتحملوا تلك الأيام بصبر وجلد وسمو روح ما كانوا يقوون على احتمالها لولا أملهم المرجو فى جنود جلالة الملكة . وهكذا كانت حملة ولسلى سببا فى الشهور الطويلة المضنية التى مرت على الخرطوم جنودا وسكانا ، وهى أخيرا التى جعلتهم يسترسلون فى عنادهم وأصرارهم ، وهى التى زادت غوردون تشدّدا فى الاستمساك بموقفه وقدّر للحامية أن تباد وتفنى دون أن تنقذهم حملتهم المنتظرة ، والتى تمشى مشى السلحفاة . وقدّر لأهل الخرطوم أن تروى دماؤهم شوارع مدينتهم لغير سبب وذلك انتظارا للفرج على يد حملة الانقاذ .

الموقعة

ركّز المهاجمون فى فجر يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ هجومهم على الثغرة التى تقع فى طرف الاستحكامات من جهة النيل الأبيض والتى لم تتم تقويتها عند ما نزل النهر بعد الفيضان ، والتى يقال أن السنجق عمر إبراهيم من ضباط الحامية أفشى سرّها للأنصار بعد فراره والتجائه إليهم . وقبل الهجوم قضى الأنصار ليلهم بين ركوع وسجود وتهليل وتكبير فما إن صدر الأمر حتى فتحت نيران شديدة من المدافع والبنادق على الاستحكامات على طول الخط ، وتحت هذا الساتر من النيران تسلل عدد منهم إلى الثغرة وباغتوا ما خلفها من العساكر ملتفين حولهم إلى الجنود الذين يحمون الاستحكامات ، وتسلق بعضهم فى أجسام بعض حتى علوا على الاستحكامات وهبطوا من ناحيتها الأخرى منقضين على جنود الحامية انقضاض النسور من شاهق . وسرعان ما أختلط المهاجم والمدافع ، وسرعان مانشب قتال اليد باليد الذى يجيده الأنصار . وذهب بعضهم إلى أبواب الاستحكامات ففتحها وتدفق سيل الأنصار . وعندما احتدمت المعركة رجع بعض الجند إلى المدينة ملتجئين بدورها ، وخرج بعضهم إلى خارج الاستحكام يلقون السلاح مستسلمين ، وذهب فريق من الأنصار توّا إلى السراى يقتلون من أشهر السلاح أمامهم ، ويصعدون السلّم فيقابلهم غوردون وجها لوجه . وهنا تختلف الروايات فتقول بعضها أنه سألهم عن محمد أحمد فأجابوه بالطعن . ولو صحت الرواية فإن فى تسميته بمحمد أحمد إعتراف صريح بعدم مهديته لأنه أصبح منذ ليلة أبا محمد المهدى . وهذا مايجعل الأنصارى المتحمس يرد عليه بالرمح لابالإجابة على سؤاله . و بعضها تقول إنه كان يطلق النيران كقواصته فما كان من الأنصار إلا توجيه الرماح نحوه . ولـكنه قتل على كل حال سواء أكان يقاتلهم أم كان يسائلهم فأخذوا رأسه وحملوه إلى المهدى .

المهدى بغضب لقتل غوردون

من المؤكد أن المهدى ما كان ليرغب فى أن يُقتل غوردون وهذايتضح من خطاباته الأخيرة التى وجهها إليه . فإذا كان يريد له أن يلتحق بالإنجليز و إذا كان يقول أنه سمع عنه كل خير وثناء ، فإنه لاشك يريد استبقاءه ولا يريد له الموت .

والرواية التى تقول إنّ المهدى كان يرغب فى مبادلته بعرابى كما أوردها سلاطين وغيره وكما أشيعت فى حينها لا يؤيدها أى أنصارى من أصحاب المهدى . ومن الأدلة أيضا على رغبة المهدى فى استبقاء غوردون أن قاتله ما ظهر بين الأنصار . وفى رواية أن الفريق الذى اقتحم السراى دافع عن قتله لغوردون بأن الأخير كان يطلق النار هو وقواصته . كل هذه الروايات تفتقر إلى التأييد لأنها أخبار جمعت من مصادر كثيرة جلّها سماعية . ومهما كان من أمر ففى زحمة الحماس الدينى ونشوة الظفر والنصر قد تُخالف الأوامر وتُرتكب الأخطاء التى كان القائد يحذّر منها .

المهدى وولسلى بعد سقوط الخرطوم

حملة ولسلى فى دنقلا

تركنا الحكومة الانجليزية تقرّر إيفاد الحملة لإنقاذ غوردون والحامية ، وتركنا اللورد ولسلى قائدها يجمع قواتها فى مصر ويعنى بالدقائق من تفاصيلها . وهاهو بعد ذلك كلّه يصعد بقواته فى النيل مستخدما ما تبقى من سكة حديد حلفا ، مجتازا الشلال الثانى وما فوقه من شلالات أخرى ، وأخيرا جعل كورتى مقر قيادته ليبعث منها بالطوابير إلى الخرطوم . وإذا كان الغرض الرئيسى لحملته هو إنقاذ غوردون ومن معه داخل نطاق الحصار فى الخرطوم ، فالسرعة عنصر رئيسى . وكان غوردون فى رسائله العديدة والتى وصل بعضها إلى مصر ، يكرر ضرورة ظهور الطلائع من تلك الحملة فى الخرطوم بلباسهم الأحمر وهذا وحده يكفى فى نظره لأن يعيد إلى النفوس طمأنينتها وأن يلقى الرعب فى قلوب الأنصار .

طابور الصحراء

أخذاً بهذه النظرية رأى ولسلى إيفاد طابور سريع عبر الصحراء المتمه ، ومنها بوابور أو وابورين سريعين يقلان عددا من لابسى الجاكتات الحمراء ويعقبهم بقية الطابور . ويتحرك بقية الجيش أو الجزء الأكبر منه بطريق النيل إلى أبى حمد فبربر فالمتمه . وكان لا بد انسياقا لعامل السرعة أن يغادر طابور الصحراء ويقرب من الألفين بما فى ذلك الأتباع فى ركب واحد دون تخلّف .

وكان لا بد لذلك من عدد ضخم من الجمال لحمل الأغذية والذخيرة والجند معا . وكان لا بد من استيراد الجمال من مصر والاعتماد على القبائل الموالية فى السودان وخاصة الكبابيش .

فالكبابيش قد وقعوا تحت نفوذ المهدى ، وقد قتل شيخهم لاتهامه بعدم الإذعان والطاعة . وهم الآن لا يستطيعون تزويد الحملة بالجمال والأنصار كلهم عيون وأرصاد . وقبائل دنقلا ألقى فى روعها أن الجناب العالى لا يريد هذه الحملة وأنها آتية بالرغم عنه وهم موالون مخلصون فى ولائهم للخديوى . ولذلك امتنعوا عن تزويد الحملة بالجمال بل أرادوا عرقلة مساعيها فى هذا الصدد كما يتضح من البرقية التالية التى بعث بها الخديوى إلى مدير دنقله بتاريخ ٤ يناير سنة ١٨٨٥

« بلغنا أن قبائل السواراب والهواوير الذين أوعدوا بتوريد جمال للانجليز عند وصول الجنرال اللورد ولسلى إلى كورتى قد تمنعوا الآن عن توريدها زعما منهم بأننا لسنا محبين للانجليز وأننا نودّ إعاقة حركاتهم فنوصيكم أن تزايلوا هذه الأفكار التى لا أصل لها وأن تفهموهم بكافة ما يكون فى إمكانكم من الوسائل بأن مصلحتنا ومصلحة مصر ومصلحتهم متوقفة على سرعة إسعاف و إنقاذ الخرطوم ، وتفهموهم على الخصوص أن الانجليز لم يتوجهوا للسودان بقصد امتلاكها والبقاء فيها ، بل إنهم توجهوا إليها خدمة لمصر ولنا ، وبقصد إنقاذ الخرطوم وغوردون باشا . وإذا لم يحصل إنقاذ الخرطوم يكون ذلك أكبر المصاب على مصر وعلينا . فنحن معتمدون عليكم وعلى صداقتكم فى تفهيم جميع ما بتلغرافنا هذا إلى مشايخ القبائل لكى يساعدوا الإنجليز ... »

الطابور يتحرك

تكامل الجيش بكامل معداته فى كورتى ووصل اللورد ولسلى وأركان حربه إليها فى ١٦ ديسمبر سنة ١٨٨٤ . وفى آخر الشهر بدأت طلائع حملة الصحراء تغادر كورتى إلى النقطة التالية وهى آبار جكدول . واستخدمت الجمال القليلة أكثر من مرة لنقل المعدّات والجند . وفى ٨ يناير غادر قائد طابور الصحراء الجنرال ستيوارت كورتى . والأوامر التى تلقاها من القائد الأعلى تتلخص فى أن تلك

الحملة تسرع وتحتل المتمه . ومنها تنزل فصيلة فى الوابورات برئاسة السير شارلس ولسون للاتصال بغوردون وتأكيد حضور الحملة لإنقاذه . ويعتقد اللورد ولسلى فى تعليماته أن المهدى ربما رفع الحصار وتقهقر إذا علم بقدوم الحملة . وإذا كانت صعوبات النقل بالجمال أخرت طابور الصحراء أياماً فإن ستيورت عندما تعمق فيها أدرك صعوبة المياه وفساد الأطعمة والتعب والضنى الذى أصاب جماله ورجاله . ولنتركهم يغادرون الجكدول صوب آبار أبى طليح آخر مرحلة قبل المتمه ، ولنرجع إلى معسكر المهدى ونرى ماذا فعل لملاقاة العدو المهاجم .

موقعة أبى طليح

كانت عيون محمد الخير وجواسيسه وهو فى بربر تتلقى أنباء الحملة وتحركاتها وكان يرسلها على الهجن السريعة تباعا للمهدى فى معسكره بأبى سعد . فلما أن علم أن حملة الصحراء فصلت عن كورتى وعلم أنها إنما تتجه نحو المتمة ، بعث المهدى سرية بقيادة الأمير موسى ود حلو وبعث الحاج على ود سعد لاستنفار الجعليين لملاقاة الانجليز وأردفهما بجيش ثالث يقوده النور عنقره ورابع يقوده الفكى مصطفى ودّ الأمين . ولكن أسرع الجيوش للاصطدام بالعدو كان جيش الأمير موسى إذ احتل آبار أبى طليح مانعا اياهم من الاستقاء بها . ولكنّ جيشا يرى الماء أمامه ليس من السهل منعه منها اللهم إلا بقوة فى الأسلحة تحصده قبل ورودها . أما وجيش الصحراء يمتلك أحدث الأسلحة وأقواها ويضم فريقا مختارا من أحسن الجنود الانجليزيه فقد شق طريقه إليها وأجلى الأنصار وسقط فيها عدد من الانجليز ، وكان للحماس البالغ الذى بدا على الأنصار لملاقاة الكفار أثر بالغ فى اشتداد المعركة .

ولسن إلى الخرطوم

استقى الجيش وبنى زريبة ترك فيها الجرحى تحت حراسة فصيلة من الجند ، واستطرد سيره نحو النهر ولكنّ الأنصار يعترضون طريقه من وقت لآخر ويدور قتال يسقط فيه عدد من الجانبين وأخيرا بعد أن جرح قائد الحملة الجنرال ستيورات جرحا بالغا وصلوا النهر واستقوا ، بعد أن عانوا ما عانوا من قسوة الصحراء وملاقاة الأنصار . وتحصن السير شارلس ولسن الذى أصبح قائد

الطابور بعد إصابة ستيوارت فى موضعين أحدهما على النهر والآخر فى قرية القبة التى تقابل الموضع النهرى . وكان السر شارلس ينوى مهاجمة المتمة وبدأ يباشر تلك المهمة فعلا ، لولا أن لاحت فى الأفق الوابورات التى بعث بها غوردون منذ أشهر لترابط فى مياه شندى والمتمة ، تتلقى الطلائع الأولى من حملة الانقاذ . فعدل عن مهاجمة المتمة ونزل فى وابورى بوردين وتلحوين بما يقارب مائتين وأربعين جنديا سودانيا وخمسة وعشرين من الانجليز وبعد أن استكشف إلى جهات شندى اتجه نحو الخرطوم فى الساعة الثامنة صباحا من يوم ٢٤ يناير سنة ١٨٨٥ وفى معيته خشم الموسى بك ، وقاسوا وقاسى الوابوران عناء فى الطريق وخاصة فى شلال السبلوقه . وفى صباح يوم ٢٨ يناير حين اقتربوا من الخرطوم وحينما كانوا بين أم درمان وجزيرة توتى كانوا هدفا لنيران من الجهتين ، ومع ذلك ما كانوا يتأكدون من سقوط الخرطوم بالرغم من صياح الأهالى لهم من الشاطئ أكثر من مرة بالخبر .

أخذ السر شارلس ولسن منظاره فبانت له أن الخرطوم فى حالة من التخريب وان الأنصار احتشد بعضهم على الشاطىء ولكن منظاره كان يتجه نحو سراى الحكمدارية فلم ير أثراً للعلم المصرى . وهنا أيقن بصحة الخبر ، وهنا علم أن لا قبل له بمقاومة كل قوة المهدية التى احتلت الخرطوم . فأصدر الأمر بأن يعكس الوابوران اتجاههما ، إذ سقط أو أسر الرجل الذى أتوا لإنقاذه وسقطت المدينة التى أمروا برفع الحصار عنها .

أما الأنصار فهم على اطمئنان من أن ما أتى فى الوابورات قوة ضئيلة لا يعبأ بها وأنّ جيشهم الذى يوالونه بالإمداد كفيل بصدّ الجنود الذين وصلوا النهر عند المتمة ولم يفعل المهدى عند ما نُقل إليه خبر الوابورات أكثر من أن رفع يديه إلى السماء يدعو بقوله « اللهم ياقوى ياعزيز انصرنا على الترك وأعوانهم الشايقية والانجليز » .

تعاليم المهدى الدينية

الانتصارات تطغى على التعاليم

طغت الانتصارات الحربية على الناحية الدينية من رسالة المهدى وهو نفسه لم يتفرغ لوضعها وشرحها ، وكان ينوى ذلك بعد سقوط الخرطوم لولا أن عاجلته المنية قبل أن يقطع شوطا فى ذلك . وإذا كان خلفاؤه وأنصاره قاموا باعباء الرسالة من وجهتها الحربية فان الناحية الدينية لم تجد من يخصص جهوده ووقته لها . فالعلماء ظاهرت أغلبيتهم المهدية خوفا على أرواحهم وأرزاقهم والمؤمنون بها لم يكونوا بأهل علم ومعرفة وفوق ذلك فرجل الدولة الأول وخليفته من بعده ما كان على غرار المهدى من حيث العلم والمعرفة والتعمق فى الشؤون الدينية وما كان له والحالة هذه أن يوطئ أكنافه لمن يتصدى لفلسفة الرسالة المهدية وهو رجل إيمان بالرسالة دون جدل وهو على استعداد لقبول ما أُثر عن المهدى على ظاهره ولا حاجة له لأن يغوص إلى أعماق تعاليم إمامه . وفى نظره زيادة على ذلك أن الحقبة التى قدّر له أن يحياها بعد الإمام كانت استمرارا للجهاد وليست للنظريات الدينية .

مقارنتها مع الوهابية

وعلى هذا انقضى عصر المهدية ولم يخلّف لنا من الناحية الدينية إلا بعض رسائل صغيرة دوّنها من عكفوا على ذلك من أحاديث وأقوال سمعوها عن المهدى وحفظ أغلبها فى صدور الرجال ودفنت معهم وقد يستطيع الباحث استخلاص اليسير من منشورات المهدى . واختلفت دعوة المهدى من هذه الوجهة عن دعوة محمد بن عبد الوهاب بأن الثانية أسسها رجل علم ودين وناصرها واعتنقها أمير حمل راية جهادها وقدّر لابن عبد الوهاب أن يتوالى علماء من المذهب يتوافرون على شرحه وتفسيره وتأليف الكتب عنه .

أسس تعاليمه

وما غفل المهدى من بناء تعاليمه على أسس منطقية فلسفية ، وما كان يصدر فى مذهبه الذى يبشر به ويدعو له عن وحى الساعة بل هى آراء كوّنها عن حالة الإسلام والمسلمين أثناء تجواله وأثناء اطلاعه وأثناء مخالطته للعلماء والصالحين . وركزّ فكرته الدينية على دعامتين دعا لها وقام بتنفيذها . أولاهما هى أن تعدد

المذاهب واختلاف الملل والنحل الدينية وتلك الأكداس من الكتب تُشرح وتصحح وتحشى ، والصفحات تلو الصفحات فى مسائل فرعية لا قيمة لها من حيث الدعائم والأركان التى تقوم عليها العقيدة الإسلامية . وذلك الخضم من وجهات النظر المختلفة بين العلماء فى تفاصيل ليست من أصل الدين والتى يغرق المسلم العادى فى لججها المتلاطمة — كل ذلك حجب نور الحق المبين وكل ذلك باعدما بين المسلم و بين مصدرى الضياء وهما القرآن والسنة وأصبحت فى نظره المسائل الدينية لا يتحدث فيها ولا يتفهمها إلا العلماء الأخصاء ، من حذقوا فنون الجدل والمناقشة ومن أطلعوا على كل الخلافات ووجهات النظر . وما كان الإسلام فى نظره عسرا يصعب فهمه على المسلم العادى وما كان يظن أنه أصبح دين خاصة . وفى اعتقاده أنه دين الفطرة الإنسانية تتلقى النفس البشرية فيوضاته و إلهامه دون كبير عناء أو مشقة .

الصوفية

وفى الناحية الصوفية تعددت الطرق واختلفت وحتى ظُن أن كل شيخ يقوم بتأسيس دين جديد وأن غيره من زعماء الطرق خارج عن الدين وحتى ضل القوم ضلالا مبينا وأصبحوا يوجهون أنظارهم لمشائخهم بدلا من ينبوع الدين والعرفان الأصيل القرآن الكريم والسنة المطهرة . كل ذلك خبره المهدى وعرفه ، فما من عالم إلا وجلس فى حلقته وما من ولى معتقد وصالح نابه الذكر إلا واتصل به . وسمع ووعى ما يعتقده الناس وما تتناقله الألسن . ومثلما حجبت الكتب والشروح والخلافات المذهبية نور اليقين المتجلى فى القرآن والسنة أضل أرباب الطرق عامة المسلمين وتنكبوا بهم محجة الصواب .

العمل بالدين

والدعامة الثانية هى العمل بالدين والخضوع لنواهيه وأوامره والقيام بفروضه وواجباته فقد طغت على القوم موجة من الاستهتار والانصراف عن الدين وانحدر الكل نحو هاوية سحيق قرارها . وأصبح الدين اسما لا عمل به ، ورأى بعينه ما وصلت إليه الحالة فى السودان وسمع الكثير عن حالة البلاد الإسلامية الأخرى ورأى أنه مهما سمت المبادئ ومهما صحت الأصول فالعمل بها ضرورة لازمة . وما

ظهر الاسلام لتُنبذ مبادئه ويُعمل على خلافها . فالشريعة الإسلامية معطلة والحكومة والقضاء يقومان على العرف والعادة والقوانين الوضعية ، والحكام يتساهلون مع الشعب فى اتباع الفروض الإسلامية والعمل بها ، والبدع والضلالات تفعل فى جسم الأمة مثلما ينخر السوس فى الأخشاب . وها قد سمع وهو فى الأبيض بزواج رجل لرجل وتذكر وهو يرى ما يرى ويسمع ما يسمع الحديث القائل « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك هو أضعف الإيمان » وما كان المهدى أن يكون سلاحه أضعف الإيمان بل السيف والسيف أولا .

حرق الكتب وبطلان العمل بالمذاهب

وتنفيذا لهذين المبدأين قام بأعمال أنكرها عليه العلماء إذ أمر بإحراق الكتب إلا الأصول منها كالقرآن والصحيحين وإحياء علوم الدين للغزالى وغيرها مما لأنصاره وتلك الكتب التى أمر باحراقها فى نظره حجبت النور المنبعث من القرآن والسنة . فليهدم هذا الحائط وليسرح المسلم بنظره حتى يرى بعينه نور الحق واليقين . والمذاهب الأربعة يبطل العمل بها لأنها المسؤولة عن أقامة السد فى وجه منبع العرفان . والمهدى يشكرهم على اجتهادهم وأنهم قادوا المسلمين إلى أن أوصلوهم لزمان المهدى المنتظر . وإذ كان عهدهم قريبا نوعا ما بزمان النبوة إلا أن من أخذ عنهم بالتوالى بَعُد بهم الزمن وأصبح الدين فى حاجة إلى تجديد لا يستطيع أن يقوم به المقلدون . وفيما يلى بعض أقوال المهدى تبيّن تعاليمه حسب ما رواها ثقات سمعوا عنه أرويها بلغتها التى دونت بها .

بعض أقوال المهدى

روى عن عبد الصمد حاج شرفى أنه قال « الحاج مرزوق رجل شايقى عالم كان قابل المهدى فى قدير وسأله مرة قائلا . معلوم أن المذاهب هى أربعة الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى . فما هو مذهب المهدى ؟ فقال له هؤلاء الأئمة جزاهم الله فقد درّجوا الناس ووصلوهم إلينا كمثل الراوية وصّلت الماء من منهل إلى منهل حتى وصّلت صاحبها للبحر فجزاهم الله خيرا . فهم رجال ونحن رجال ولو أدركونا لاتبعونا . وأن مذهبنا هو الكتاب والسنة والتوكل على الله وقد طرحنا العمل بالمذاهب ورأى المشايخ » .

ما رواه ود البدرى فى أحد مجالس المهدى . قال المهدى عليه السلام « أيها الفقراء والمهاجرين والأنصار أن كلا من كان عنده مذهب أو نص أو شيخ فيترك مذهبه ونصه وشيخه لأن هذا أخذ من هذا فقد أبعدوا من نور النبي صلى الله عليه وسلم ونحن جئنا نحيي نور النبي صلى الله عليه وسلم » وروى عنه أنه قال « اتركوا الكتب لكتاب الله فانها حاجبة عن فهم معناه »

مرتبة أنصاره

وقد أخذ على المهدى أنه قال « أن أقل أنصاره مرتبة يتفوق على الشيخ عبد القادر الجيلانى » وعندما سئل عن منطقه فى هذا قال « إن مناقب الشيخ عبد القادر كثيرة وهى أكثر من أن تحصر ولكن الشيخ عبد القادر لم يُزل المنكر من غيره ولكن أدنى أصحابنا إذا رأى منكرا يزيله حالا بسيفه وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك هو أضعف الايمان » .

وقال الفكى جلال الدين للمهدى « ياسيدى العلماء يسألون عن طريقنا وعن مذهبنا فما نقول لهم ؟ » قال « قل لهم طريقنا لا إله إلا الله محمد رسول الله ومذهبنا السنة والكتاب . ما جاء من عند الله على رؤوسنا وما جاء من النبى صلى الله عليه وسلم على رقابنا وما جاءنا من الصحابة إن شئنا عملنا به و إن لم نشأ تركناه »

وكان الفكى أحمد ولد حمدان العركى عرض كشف كتب للمهدى ويرغب الإذن من المهدى يقرأهم ويقرئهم فأجابه المهدى بأن يترك جميع ماذكره من الكتب التى بالكشف ويستعمل تفسير القرآن والحديث والسير الصحيحة المسنودة وأما كشف الغمة للشيخ عبد الوهاب الشعرانى فهو مقبول.

ومن مذكرات عبد الحق الأمين قوله « وحيث أن بعض الكتب أدخلت فيها بعض الحيل الشرعية والأحاديث الضعيفة التى أدخلها بعض الملحدين لأغراض شخصية أو سياسية فقد أمر المهدى بحرق أغلب الكتب والروايات والقصص التى لا صحة لها وقد أبقى الكتب المشهورة النافعة التى اتفق العلماء على

صحتها مثل مسلم والبخارى و إحياء علوم الدين وكتب الشعرانى والسيرة الحلبية وكتب التفاسير مثل روح البيان والبيضاوى والجلال السيوطى وغيرها وقد أمر بتدريس القرآن أمرا عاما اجباريا».

وروى أن المهدى رد للذين أرادوا معرفة السبب الذى من أجله أبطل الطرق بقوله «لو فرضنا أن كل قبيلة حفرت ثمدة [1] لتشرب منها واعتادت أن تشرب منها زمنا طويلا فجاء البحر وغطاها كلها فماذا يفعلون به هل يكتفون بأن يشربوا من البحر أم يبحثوا وراء ثمدهم ليشربوا منها؟» فأجابوه «إذا بحثوا على الثمد فلا يجدونه لأنه عمه النيل وصار جزءا منه» فقال لهم «هكذا الحال الآن».

طريقة تعليمه

كان المهدى فى نشر مبادئه يخاطب الناس بقدر عقولهم ويضرب لهم الأمثلة بما ألفوه فى حياتهم العادية ولا يتخذ طريقة الكتب الغامضة المعقدة. والغرض الذى يهدف له هو تيسير تفهم الدين وإزالة ما علق به من غموض وإبهام. فالعبادات تقليد لما يقوم به من صلاة وصيام والأحكام الشرعية يشرحها فى منشورات فى متناول الفهم العادى وهو أثناء تبشيره يرمى إلى غرس روح الزهد والتقشف فى نفوس أنصاره، وأن ناحية الدين الروحية هى ممارسة وعمل لا علم ودرس. وما من مجلس من مجالسه إلا وينثر الحكمة تلو الحكمة والموعظة تلو الأخرى وكلها تشير إلى ضرورة ترك الدنيا والعمل لخير الدار الباقية وهاك بعضا من مواعظه وحكمه المختارة.

مختارات من مواعظه

أن العبد إذا لم يجتمع مع ربه فى الصلاة لم يذق لها لذة. عند دخول الوقت عجلوا إلى لقاء ربكم. الجنة محفوفة بالمكاره والنار محفوفة بالشهوات. قاسوا الشدائد ووطنوا نفوسكم عليها لأن النعيم فى طى النقم والمزايا فى طى البلايا، فمن لم يصبر على النقمة لم يجد عند الله نعمة، ومن لم يصبر على البلية لم يجد عند الله مزية.

---

(١) ينبوع مياه مثل البئر يحفر فى بطن مجرى مياه بعد جفافه.

خير الغنى

الرزق مقسوم والحريص محروم والنعمة لا تدوم والأجل محتوم والحق معلوم والحياة لا تدوم وخير الغنى القناعة .

إذا طلبت بنت ملك للزواج وأعطوك إياها فلما بقيت على زواجها تركتها وتزوّجت بخادمتها ورجعت إلى زواجها ثانيا ، فهل تقبلك أم لا ؟ كذلك الدنيا خادم الآخرة فمن أخذ الخادم فلا يطمع فى الست . فمن أراد الآخرة فليترك الدنيا لأنها كالحية ليّن مسّها و يقتل سمّها و أن الدنيا ليست دارنا لأن دارنا الدار الآخرة ونحن جئنا لخراب الدنيا وعمارة الآخرة . من نازعك فى دينك فنازعه ومن نازعك فى دنياك فألقها له فى نحره . الاستعانة بغير الله محل الخذلان . إدعاء الإيمان بلا تصديق من الجنان لا ينفع .

نموذج من دروسه

وهاك درسا ألقاه المهدى فى الصلاة وكيف تؤدى « إذا دخلتم فى الصلاة فادخلوها بالحضور والخشوع والخضوع والتواضع والتذلل والابتهال والانكسار وانسكاب الدموع أن استطعتم مع توجيه القلب إلى الله ، وتقول اللهم لا عائش إلا فى دارك ولا نعيم إلا فى لقائك ولا خير فى غيرك بك الحياة و بك الممات و بك التقلبات و إليك المصير ثم تكبر وتضع يدك اليسرى على صدرك واليمنى فوقها إشارة لحفظ القلب من الجولان فى غير الله ومن الوسواس وتبـدأ بدعاء الافتتاح قبل قراءة الفاتحة اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك عملت سوءا وظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفر لى ذنوبى كلها فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدنى لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدنى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها فإنه لا يصرف عنى سيئها إلا أنت لبيك ربى وسعديك . والخير كله بيدك والشر ليس إليك . أنا بك و إليك أستغفرك وأتوب إليك . ثم تتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وتقرأ البسملة وسورة الفاتحة اشارة لقوله تعالى و إذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم فإن من تعوذ بالله من الشيطان قد احتمى فى الله فلا يقرب به الشيطان » .

وهكذا يشرح المهدى ما يقوم به المصلى فى الركعة الأولى وفى السجود

والركوع والقيام ومايقرؤه فى كل منها . فعند الرفع من الركوع يقول « لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذاالجد منك الجد » وفى السجود « سبحان ربى الأعلى وبحمده وإن شئت تقول اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك أنت خلقتنى وأنت رزقتنى وأنت تميتنى وأنت تحيينى . اللهم إن كنت محسنا فزد فى إحسانى وإن كنت مسيئا فتجاوز عن سيئاتى ووفقنى لما يقربنى إليك ولا تحرمنى اكتساب نفسى لما يقربنى إليك » .

وصف لصلاة المهدى

وقد روى ود البدرى وصفا لصلاة المهدى بما يلى : — « ورأيته فى حالة الركوع يمكّن يديه من ركبتيه ويساوى ظهره وعنقه استواء بحيث أنه لو وضع على ظهره شيء لم يمل ، ويباعد فى الركوع يديه من جسده ولم يضمهما ، ورأيته عند الرفع من الركوع يعتدل قائما بتمهل إلى أن تركز أعضاؤه ثم يهوى ساجدا . وعند سجوده يقعد على أقدامه ثم يسجد وظهره عديل ولو وضع عليه شيء لم يمل ، ويضع يديه فى حالة السجود قدّام ركبتيه ولا يضمهما إلى جسده ، وعند قيامه من الجلوس الوسطى والسجود يقعد على أقدامه ثم ينهض قائما . ورأيته عليه السلام يسجد على جبهته الشريفة وعلى كتفيه وركبتيه ، ورأيته عليه السلام عند السلام يشير به قبالة وجهه ثم يتيامن قليلا ويقبل على أصحابه على جهة يمينه وأثر الدموع على خديه الشريفة ، ورأيته عليه السلام يصبر متفكرا قليلا ثم يشرع فى الباقيات الصالحات . وبعد تمامها يقول وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، ثم يرفع يداه بالفاتحة متضرعا إلى ربه بخشوع ودمعتاه سائلة تقطر على خديه » .

درسه فى الوضوء

وفى درسه عن الوضوء يقول « إن الإنسان أولا يكبّ الماء على يده فإن لم يجد فيه تغيير يبدو فيه يغسل يديه ويتمضمض ، فإن كان فيه طعم تغيير فإنه يبين له عند المضمضة ويستنشق منه فإن لم يجد فيه رائحة فيكمل وضوءه منه فإنه طهور . ولا يتيمم منكم أحد بغير عذر بيّن » .

تعاليم أخرى

أبطل العمل بجميع الأوراد وألّف لأنصاره راتبا يقرأونه يوميا وهو مجموعة من الآيات والأحاديث والأدعية. وساوى بين الناس فليس هناك من فقير أوغنى، وعمم لبس الجبة المرقعة من الخلفاء إلى المجاهد العادى، ومنع النساء من لبس الحلى الفضية والذهبية وصرح لهن بالزينة فيما عدا ذلك، ولكن داخل بيوتهن، ويسّر الزواج بتخفيف المهور وبساطة الولائم والمآدب وتحريم الرقص والغناء وضرب الدفوف، وأبطل بدعة البكاء والنواح على الميت والمبالغة فى الحزن. ثم أنه صبّ لعناته على أعمال السحر وكتابة الأحجبة وما شابهها من أعمال الشعوذة، وأقام حدود الشريعة فى اتيان المحرمات كالخمر والزنا وفى البدع كالتمباك والسجاير. واتّباعا لسياسة التيسير والتبسيط بدأ فى تأليف كتاب يضمنه العبادات والأحكام الشرعية والمعاملات يكون مرجعا لأنصاره فى كل أمورهم فى بساطه يسهل فهمها على المسلم العادى، ولكن المنية اختطفته قبل أن يودع ذلك السفر تعاليمه ومبادئه

أخلاقه

أما أخلاقه فهى التى أوردناها فى تاريخ نشأته قبل القيام برسالة المهدية، وقد ظلّ حتى يوم وفاته زاهدا فى الدنيا متقشفا مؤمنا بما عند الله ومتجافيا ماعند الناس، يضرب به المثل فى التواضع والرأفة والمؤاساة. وقد ذكر القس أوهر الدر قصة تمثل لنا عطفه الإنسانى حتى ولو كان على من يخالفه فى الملّة والدين. فقد روى أنهم عندما سيقوا من محطتهم التبشيرية فى الدلنج إلى الأبيض أدخل القس على المهدى وهو جالس على فروة على الأرض وأمامه إناء مملوء بشراب القمر دين، فما كان من المهدى بعد أن رأى ما على القس من الإعياء والتعب إلا أن ناوله ذلك الإناء ليروى ظمأه منه. وما كان ليحلو للمهدى وهو صاحب الانتصارات وزعيم الغزوات الموفقة إلا أن يحمل طعامه بيده بالرغم من وجود العبيد والاتباع والمريدين الذين يتحرقون شوقا للقيام بخدمة الإمام ويخرج إلى أنصاره يشاركونه فيه. وما عرف عن المهدى ايثاره لذوى قرباه بل من ظهر منهم فى المهدية إنما برز لسابق اخلاصه وولائه للمهدية. وما عرف عنه أنه قرّب قبيلة بذاتها، فالكل عنده سواء، يمتازون بإيمانهم برسالته وصدق خدمتهم لها، فمن لازموه قبل الرسالة فهؤلاء

المادة الثامنة : فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه (أصبح الحكم نافذا حتى على سواكن بعد اتفاقية يوليو سنة ١٨٩٩) .

المادة التاسعة : يعتبر السودان بأجمعه ماعدا مدينة سواكن تحت الأحكام العرفية ويبقى كذلك إلى أن يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام .

المادة العاشرة : لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأمورى قنصلاتات بالسودان ولا يصرّح لهم بالإقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية .

المادة الحادية عشرة : ممنوع منعا مطلقا إدخال الرقيق إلى السودان أو تصديره منه . وسيصدر منشور بالاجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن .

المادة الثانية عشرة : قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يولية سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بادخال الأسلحة النارية والذخائر الحربية والأشربة المقطرة أو الروحية وبيعها أو تشغيلها .

تحريرا بالقاهرة فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ .

الإمضاءات كرومر بطرس غالى

الصفة البارزة

والصفة البارزة فى الاتفاقية الجديدة كما ذكرنا من حيث الإدارة هى أنها وضعت فى يد الحاكم العام سلطات واسعة حتى لا يعوق الرجوع إلى الحكومتين السائدتين حركة الاصلاح المراد القيام بها ومع ذلك فالمعتمد البريطانى فى مصر وخاصة فى عهد كرومر يشرف من بعيد على مايجرى فى السودان ويشير وينصح عند الضرورة .

كتشنر أول حاكم عام

ورأت الحكومة الانجليزية أنه ما من رجل أقدر على إدارة البلاد تحت النظام الجديد من اللورد كتشنر . فهو قائد الجيش الذى فتح البلاد ولا يزال يطفئ الثورات ويقضى على جيوب المقاومة ، ولا يزال الخليفة تلتف حوله الجموع ليلاقى الجيش سواء مهاجما أو مدافعا . وفوق ذلك فكتشنر عرف البلاد وخبر أحوالها عندما كان ضابط اتصال بين غوردون وحملة الانقاذ ، وعندما كان محافظا لسواكن . وأثناء تجهيز الحملة جمع من البيانات والمعلومات عن السودان مالايتأتى لرجل غيره . وتعيينه لا يثير ضجة أو غبارا فهو يحتل مركزا ممتازا فى الحكومة المصرية كسردار للجيش المصرى والآن يضطلع بإدارة السودان فوق قيادته للجيش .

وتيسيرا للأمر واقتصاداً للنفقات رؤى أن يقوم بحكم المديريات والمراكز ضباط الجيش المصرى أيضا . ومن محاسن الصدف لتنفيذ السياسة الكرومرية دون جلبة أو ضوضاء أن كان معظم الضباط العظام فى الجيش المصرى من الانجليز . فهم يحتلون مناصب المديرين والمفتشين ويبقى للمصريين إدارة المراكز والمأموريات . وماهيات الجميع من الخزانة المصرية لأنهم ضباط جيشها . ومثل ما كان السردار أجدر من يحكم البلاد فى مثل تلك الظروف لما تتطلبه من خشونة وصبر على مغالبة الطبيعة فالحكام الآخرون قد صقلتهم حياة الجندية ومُرّنوا على الطقس وتحمل المشقات ، وهم يرابطون فى الحدود على أهبة الاستعداد حتى لا يباغتهم الأنصار بالهجمات الخاطفة . والقانون العسكرى الذى ألفوه وعملوا به فى الثكنات سوف يطبق على السكان المدنيين إلى أن تشرّع القوانين وتصدر اللوائح المدنية .

إصدار جريدة اللواء

كل تلك التطورات تحدث فى سنة ١٨٩٩ إلى أن انقضت السنة وتغلب الجيش على الخليفة وصدرت جريدة اللواء لمصطفى كامل فى ٢ يناير سنة ١٩٠٠ متطرفة فى وطنيتها . وتعالى صوت مصر بعد أن ظلّ خافتا نوعا ما أثناء عقد الاتفاقية وأثناء تنفيذها فى السنة الأولى من حياتها . وكانت الحرب دائرة على أشد ما يكون عنفا وشدة بين الإنجليز والبوير . وكان أن لقى البوير انتصارات

رائعة على الإمبراطورية البريطانيـة ، واللواء تغمز وتعرض بتقلص النفوذ البريطانى وتنشر بحروف واضحة ما يصل إليها من أنباء القتال وانتصار البوير .

مقال مصطفى كامل

وفى يوم ٢٠ يناير سنة ١٩٠٠ نشر مصطفى كامل مقالا ناريا لمناسبة مرور عام على اتفاقية السودان قال فيها « وأن أكبر أيام الشقاء فى تاريخ مصر وأسوأ تذكار يهيـج فى نفوس المصريين الأحرار الآلام والأشجان هو يوم ١٩ يناير يوم تذكار اتفاقية السودان ، ذلك اليوم المشؤوم الذى أعلنت فيه الحـكومة الخديوية للأمة المصرية وللعالم كلّه أن السودان صار مستعمرة إنجليزية بالفعل وأن المشاق الهائلة والأتعاب الجسيمة والأموال الباهظة والدماء الطاهرة التى صرفت فى سبيل استرداده قدّمت هدية من مصر للدولة البريطانية . فما أعظمك يا مصر كرما وأكبرك بلاء وهمّا .

أجل كان الأمس تذكار المصيبة الـكبرى والداهية الدهماء التى أنزلها وزراء مصر وساسة البريطان على أمتنا الأسيفة من سماء عدالتهم وإنصافهم . فإن كان لكم معاشر المصريين شعور وإحساس فتذكروا هـذه الحادثة تذكر الأحياء ، واعتقدوا أن حقوقـكم فى السودان مقدّسة وأن كل المعاهدات والاتفاقيات لا تميت هذه الحقوق أبدا ، وعلموا أبناءكم صغارا معنى هذه الحقوق المقدسة ليطالبوا بها كبارا ، أو يحافظوا عليها إن استرجعتموها أنتم .

تذكروا معاشر المصريين أن أخوتكم فى الوطن والدين أهرقت دماؤهم العزيزة فى سبيل اسـترداد السودان . تذكروا معاشر المصريين أن أرض السودان رويت بدمائكم وصرفت فيها أموالـكم وسلبتكم اشد الرجال وأعز الأبناء . تذكروا معاشر المصريين أن مصر لا حياة لهـا بغير السودان وأن القابض على منابع النيل قابض على أرواحكم . تذكروا معاشر المصريين أن ضياع السودان ضياع لمصر وأنـكم بغير السودان فاقدون الحياة . تذكروا معاشر المصريين أن اتفاقية السودان مخالفة لدستور البلاد وفرمانات جلالة السلطان الأعظم ومعاهدات الدول الأوروبية تذكروا معاشر المصريين أن فرنسا لم تنس

الألزاس واللورين إلى اليوم وقد مضى على انفصالها ثلاثون عاما وما حاجة فرنسا إليها كحاجة مصر إلى السودان .

وما أذكركم بالسودان إلا لتفكروا فيه صباحا ومساء وتعتبروا الاتفاقية المشؤومة اتفاقية باطلة حتى يجيء اليوم الذى تحققون فيه رغائبكم وتكون الحكومة طوع إرادتكم وتصير كلمتكم فى بلادكم هى الكلمة النافذة كغيركم من الأمم الحرة والشعوب الحية المستقلة » .

وأثارت هذه الافتتاحية حماساً وشعورا فياضا بين الطبقات المتعلمة فى مصر ونزلت كالثلج على الحكومة المصرية التى وقعت على الاتفاقية .

وفى اليوم التالى كتب ما يلى : — « وقد اعترضنا أحد أنصار الوزارة الفهمية فقال « ما بالكم تحملون على الوزراء فى مسألة السودان وأنتم تعلمون أكثر من كل إنسان أن الوزارة لا حول لها ولا قوة وأنها مسوقة إلى ذلك بقوة بريطانيا وتهديداتها » فأجبناه « أن الأمر بسيط فإن الوزارة الفهمية إذا كانت تعمل ما تعمل مضطرة فما عليها إلا أن تبرئ نفسها أمام أميرها وأمام أمتها ووطنها وتستقيل من منصبها قائلة الموت أحب إلىّ من القضاء على حقوق مولاى وحقوق أمتى . عندئذ كنا نضرب بوزارتنا الأمثال للناس فى الشهامة وعزة النفس والوطنية » .

عصيان بعض الجنود فى أم درمان

وهكذا نبتت بذور الاستياء من الاتفاقية عند فريق من المصريين وظلوا يجاهرون ببطلانها قانونيا لأنها إرغام من قوى على ضعيف . وسرى الحماس إلى صفوف الضباط فى الجيش المصرى . وشاءت الأقدار أن يسحب عدد من مدافع مكسيم الجيش المصرى ليبعث بها إلى جنوب إفريقيا ، وطارت إشاعة بأن الاورط السودانية فى الجيش المصرى سترسل إلى ميادين القتال . ورافق ذلك أن ما كسويل باشا بدأ يجمع الذخيرة التى فى أيدى الجنود . فوجد من الضباط المتحمسين من حفز الجند للعصيان والامتناع عن تسليم الذخيرة ، وكان أن هجموا عليها لاستردادها بعد أن سلموا جزءا منها . وامتنعت نهائيا الأورطة الرابعة عشرة السودانية من الرضوخ . وظلت الحالة فى أم درمان مقلقة إلى أن تعاون

الجنود الكبار فى الأورطة مع ضباطهم السودانيين بتسليم الذخيرة تدريجيا، وأنشئت محكمة تحقيق لتعاقب المحرضين وأتت الرسائل من الخديوى تستنكر هذا العمل ، وتؤيد السردار الجديد السر ريجنلد ونجت باشا وحكم على بعض الضباط بالرفض وبعضهم بالتوبيخ وذهب المحكوم عليهم إلى القاهرة مخفورين وانتهى تمرّد لولم يكن محصورا فى أورطة واحدة لأدى إلى زعزعة أركان الحكم الثنائى ، وهو علامة ظاهرة لروح السخط السارية بين الضباط المصريين من عدم اسناد وظائف كبيرة لهم فى الإدارة الجديدة ، ومن عدم إجابة بعض مطالبهم فيما يختص بالماهية ، وفوق ذلك كانوا يرون فى معاملة كتشنر قسوة وشدّة .

أعضاء الجمعية التشريعية والسودان

وقد أجاز اعضاء الجمعية التشريعية إعانة السودان لأنّهم يرون فى السودان جزءا لا يتجزأ عن مصر ، وما كان لكرومر أن تفوته الملاحظة والتعليق على مثل هذا الرأى . فقد بين فى تقريره لتلك السنة أن ليس لديه ما يعترض به على هذا الرأى ، ولكنّ السودان يدار بموجب اتفاقية ارتضاها الطرفان ورأى فى ذلك مناسبة يبين السبب الذى من أجله يحكم السودان بذلك النوع الغريب من الاتفاقية . فواضعو المشروع يهدفون إلى غايتين . الأولى حكومة رشيدة لأهالى السودان والثانية التخلص من الامتيازات الأجنبية وما تجرّه من عراقيل . ولم يكن الغرض حسب ما بين كرومر هو الحيلولة بين مصر وحقوقها المشروعة . وأجابة لما أراده اعضاء الجمعية من بحث تفاصيل الإيرادات والمصروفات لحكومة السودان لا يرى مانعاً من ذلك .

مالقيته مصر حسب رأى كرومر

وظلّ كرومر يتحسس ما يوجه من نقد للسياسة الإنجليزية فى السودان ويرّد عليه . وحين علم بأنّ الرأى السائد فى الأوساط المصرية لا يرى مقابلا لمابذلته مصر من تضحيات فى الأنفس والأموال ، يقول أن مصر جنت فوائد ليس فى الاستطاعة تقديرها بالأرقام . فقد زال خطر الغزو لمصر من الجنوب نهائيا وبذا تخلصت مصر من نفقات عسكرية باهظة . وكذلك ضمنت موارد مياهها وكان من المحتمل أن تقام مشروعات رى كبرى فى السودان تجعل حياة مصر

الزراعية فى خطر . وكذلك انتعشت التجارة بين القطرين ، وبعد ذلك كله يحق لمصر أن تفخر كما لبريطانيا أيضا بأن أعادت السودان إلى حظيرة المدنية والحضارة .

مسائل الحدود مع إيطاليا

وإذا كان الحكم الجديد أن يستقر هيكله الداخلى وتتركز الاتفاقية ، فإن مشاكل الحدود لابد من تسويتها مع إيطاليا والحبشة والكونغو البلجيكى . وكان مسلك الحكومة الإيطالية منذ البداية مسلك التعاون والوفاق . فانجلترا لبت نداءها عندما طلبت منها القيام بعمليات حربية فى دنقلا أو سواكن . وإيطاليا احتفظت بكسلا إلى أن سلمتها للجيش المصرى . وبعد مفاوضات بين إنجلترا وإيطاليا تقابل كرومر مع وزير الخارجية الإيطالية فى روما واتفق أمرهما على تفويض حاكم السودان العام وزميله حاكم إرتريا لتعيين الحدود وتم ذلك على وفاق وتعاون .

الحدود مع الحبشة

ولو أن منليك رحب بالجيوش الفاتحة كجيران أزالوا الحكومة التى كانت سببا فى مقتل سلفه ، إلا أنه كان أقل تعاونا من إيطاليا فى هذه المسألة . فهو وإن كتب خطابا رقيق العبارة للسردار يهنئه بالفتح وإزالة الدولة الإسلامية من السودان ، ويشكره على فك أسارى الأحباش الذين كانوا فى سجن أم درمان ، إلا أنه ظل يراوغ ويطاول فى المفاوضات التى جرت بينه وبين اللفتنانت هارينجتون معتمد بريطانيا فى أديس أبابا ، وظل رؤوسه يمتدون من ناحية جمبيلة والقلابات وفازوغلى ويرفعون الأعلام الحبشية ، ليضعوا حكومة السودان أمام الأمر الواقع وقد تساهل هارينجتون معه فى مسألة بنى شنقول إذ تركها للحبشة بالرغم من أنها كانت جزءاً من السودان لتثبيت منليك بها وهى ذات الشهرة بمعادن الذهب ولما قدمه الأمبراطور من مقابل إذ منح اللفتنانت ماكميلان شركة إنجليزية امتياز استغلال تلك المنطقة .

الحدود مع البلجيكا

وادعت البلجيك الحق فى احتلال منطقة من بحر الغزال ومنطقة اللادو والرجاف على النيل .. وبعد مفاوضات بين الفريقين تم الاتفاق على أن تظل

منطقة بحر الغزال بكاملها جزءا من السودان وأن تؤجر منطقة اللادو للكونغو لضرورتها كميناء نهرى ، ويمتد زمن الإيجار إلى حياة الملك فقط ، وبعدها تعود لحكومة السودان . وما كان لانجلترا أن تسمح لأى دولة تعترض طريق مصر — الكاب ولهذا رضيت بالإيجار الوقتى ولم ترض بالاحتلال الدائم . أما الحدود مع أوغندة فقد تمت دون أثارة نزاع .

الشؤون المالية

والشؤون المالية وما يتبعها خرجت عن نطاق الاتفاقية حيث أنّ السودان سيظل حقبة من الزمن دون أن تقوم إيراداته بسدّ نفقاته ، وعليه فلا بد أن تتحمل الخزانة المصرية عبء الفرق بين الإيرادات والمصروفات . والحالة تقضى إذاً فرض رقابة مالية من الحكومة المصرية على المالية السودانية . وأثناء زيارة كرومر للسودان فى يناير سنة ١٨٩٩ وقبل إعلان الاتفاقية قضى جلسات مع كتشنر وسر الدون غورست المستشار المالى للحكومة المصرية آنذاك فى أم درمان ،يضعون الأسس التى تقوم عليها العلاقة المالية بين القطرين . وفى رأيهم أن لا بد من عرض الميزانية السودانية على مجلس الوزراء المصرى ، ولا بد للحاكم العام ومستشاره المالى من التزام الحدود التى يوافق عليها مجلس الوزراء ، وألا سبيل إلى تجاوز الأرقام التى عرضت وتم التصديق عليها فى باب المصروفات إلاّ بتصديق إضافى من مجلس الوزراء . وللحاكم العام إذا رأى ذلك أن ينقل مبلغا من باب إلى آخر من أبواب المصروفات طالما أنه يلتزم حدود الميزانية العامة وبهذا وضعت أسس وقواعد بسيطة تضمن للحكومة المصرية الرقابة العامة طالما أنها تسد العجز ، وفى الوقت نفسه تعطى للحاكم العام مجالاً يتصرف فى حدود معلومة .

الأداة الإدارية

تعليمات المديرين

قسمّت البلاد إلى مديريات ، وهذه إلى مأموريات أو مراكز اضطلع بأعباء إدارتها ضباط الجيش المصرى من انجليز ومصريين . فالمدير الإنجليزى يساعده مفتشان انجليزيان ، وعلى كل مركز يقوم مأمور مصرى ومعه معاون

أو معاونان . ووضع كتشنر الارشادات اللازمة لمن وكل إليهم أمر الإدارة . فمنشور للمديرين يخاطبهم فيه بأنّ القوانين والوائح التى يجب العمل بمقتضاها سوف تصدر قريبا . ولـكن حسن الإدارة وانتزاع الثقة والاحترام من السكان لا يتأتيان باللوائح والقوانين ، بل بالاتصال الشخصى مع ذوى النفوذ من الأهالى ولا بد للمفتش أن يعرف كبار الرجال وذوى المـكانة فى مركزه ويجلب ثقتهم ورضاهم بما يبديه من اهتمام بأشخاصهم وأحوالهم ، وبواسطتهم ونفوذهم نتمكن من التأثير على الجمهور .

وأكدّ كتشنر ترك الناس أحرارا فيما يعبدون ويعتقدون ، وأمر بتشجيع إشادة المساجد العامة فى المدن ولـكنّه لا يسمح بالمساجد الخاصة والتكايا والزوايا إلاّ بترخيص خاص من السلطة المركزية . فقد تكون هذه بؤرا للشغب والتعصّب الدينى وما يعقبه من اضطراب فى حبل الأمن العام . وعلى الحاكم الإنصات بصبر إلى ما يُبدى من آراء مهما كانت مخالفة إذا أبديت بروح الصدق وبطريقة محترمة . وألاّ يصغى بل عليه الملاحظة على حـديث المتملقين والـكاذبين ، وليعلم الـكلّ أن الرق غير معترف به من قِبَل حكومة السودان .

تعليمات المفتشين

والمفتش وهو أركان حرب المدير فى حدود مركزه أن يراقب أعمال المأمورين وأعمال البوليس من حيث التحقيق الجنائى وحفظ الأمن العام وتقديم تقرير عن الموظفين الذين يكونون فى دائرة مركزه للمدير ، إذا أبدى أحدهم عجزا فى العمل أو ارتكب مظالم ، أو كانت حياته الخاصة مجانبة للاخلاق الفاضلة . وله أن يرقب باهتمام شديد وأن يمنع ارتكاب المظالم فى التحقيق،وفى جمع الضرائب وكل ما من شأنه أثارة السخط والاستياء بين طبقات الأهالى . وليس من عمله أن يكون حلقة اتصال بين المدير والمأمور بل للاخير حق الاتصال المباشر بالمدير فيما يتعلق بمأموريته ولذلك ليس له مكتب خاص بعمّاله وكتبته .

تعليمات المأمورين

وأشير للمأمورين فى منشورهم بأنهم حجر الزاوية فى الصرح الأدارى الجديد وعليهم بمسلكهم أن يبرهنوا بأنهم نواب حكومة رحيمة عادلة حتى تكون استجابة

الأهالى الاحترام والتقدير لحكومة هم رسلها وممثلوها وليتذكر المأمورون أنهم ورثوا تركة مثقلة بالآلام والمظالم والخوف من رهبة الحاكم وسطوته ، ومن أولى واجباتهم أن يجعلوا إدارتهم ظاهرة المزايا راجحة الكفة فيما لو وضعت فى ميزان مع الحكومة السابقة . ومع ذلك عليهم أن يضربوا بشدة وحزم على أيدى من تحدثهم أنفسهم بإقلاق الأمن العام أو من يرتكبون أعمالا تعسفية أتينا لإزالتها . ولابد أن يحاول البعض تقديم رشوة ينال بها العطف والرضا أو امتيازات خاصة . فعلى المأمور استهجان مثل هذا العمل وعقاب من يريد ممارسته ، وأن يلقى فى روع السكان أن النزعة السائدة هى تحقيق العدالة دون انتظار ثمن لها من قبل الأهالى . وعليهم القيام بما يجعل الناس يزيدون من مساحاتهم الزراعية والإتيان بحاصلاتهم وسلعهم إلى أسواق تراقب فيها الأسعار . وعليهم أن يكونوا مثلا أعلى فى الأخلاق الخاصة من حيث الامتناع عن هتك الأعراض . وأخيراً ختم المنشور بتهديد الرفت والمحاكمة لكل من يرتكب جريمة الرشوة فى أى شكل من أشكالها . والمأمور فى مركزه هو رئيس البوليس وقاضى الجنايات الصغيرة ومسجل الأراضى وخبير الأهالى الاقتصادى .

قوانين السودان

وكان على كتشنر أن يصدر أولى لوائحه وقوانينه فى حق ملكية الأراضى وخاصة فى المدن الكبيرة كالخرطوم وبربر ودنقلا . وأصدر كذلك اللوائح التى تنظّم الضرائب . ولا بد أيضاً من وضع القوانين الجنائية والمدنية . فقد تعاون المستر وليم برونيات الموظف بوزارة الحقانية فى مصر مع المستر بونهام كارتر السكرتير القضائى لحكومة السودان فى وضع « قانون عقوبات السودان » و « التحقيق الجنائى » وراعيا فيها البساطة وسهولة الفهم والتطبيق . والأول مقتبس بعد تبسيطه من قانون الجنايات فى الهند والذى قد نجح تطبيقه قبل ذلك فى زنزبار والأراضى التى تقع تحت الحماية البريطانية فى شرق أفريقيا ، والثانى يرتكز فى أصوله على قوانين الهند أيضا ولكن نظراً لأن الذين يقومون

بتطبيقه هم ضباط الجيش المصرى رؤى الاحتفاظ ببعض عناصر القانون العسكرى فى الجيش المصرى لمعرفتهم له وخبرتهم به .

النظام القضائى

والنظام القضائى الذى أقيم يتلخص فى أن الجرائم تحاكم غالباً فى المديريات التى ارتكبت فيها . فالصغيرة منها أمام قاضى يجلس بمفرده والكبيرة منها أمام ثلاثة من القضاة بعد التحقيق الأوّلى من قاض واحد ، وهذه المحكمة تسمى « محكمة مدير » أو « محكمة مركزية صغرى » ويرأسها مدير أو موظف آخر كبير له سلطة قاض . وفيما عدا القضايا البسيطة فكلّها قد تستأنف إلى محاكم أعلى . وللحاكم العام الحق فى إعادة النظر فى كل قضية . والقضايا المدنية يقضى فيها بموجب لائحة سُنّت خصيصاً لذلك . والمحاكم الشرعية فى المديريات والمراكز تعالج قضايا الأحوال الشخصية بين المسلمين .

ونجت باشا يخلف كتشنر

وبموت الخليفة وحاجة انجلترا لضباطها فى حرب البوير غادر كتشنر وادى النيل إلى جنوب أفريقيا ليكون أركان حرب للورد روبرتس وحلّ محله كسردار للجيش المصرى وحاكم عام للسودان السرر يجلند ونجت ؛ وهو مثل سلفه ليس بغريب على الجيش الذى وكلت قيادته له والبلاد التى وضعت أمورها تحت إدارته . فبرئاسته لقلم استخبارات الجيش المصرى أبان المهدية عرف عن السودان وعن أحواله الكثير بحكم مركزه معرفة مكّنته من استلام زمامه ، وهو خبير به وبرجالاته وبالأداة الإدارية التى عليه أن يديرها . وكان هو وكرومر على اتفاق من حيث ضرورة استخدام شبان إنجليز مدنيين من خريجى الجامعات عُرِفوا بمتانة الخلق لتكون منهم نواة سلك إدارى سودانى خاص . ومما زاد فى ضرورة اتخاذ تلك الخطوة قيام حرب البوير واستدعاء عدد من الضباط . ومنذ سنة ١٩٠٠ بدأ هؤلاء الشبان يحتلون المراكز الإدارية التى كان يشغلها الضباط بالتدريج حتى إذا أشرفنا على نهاية الحقبة التى نؤرخها نجد أغلبية المديرين من تلك الطبقة وكل المفتشين منهم تقريباً .

كرومر يشرف على السياسة

وقد ظل كرومر يُشرف على وضع الأسس العامة لمستقبل السياسة والإدارة فى السودان إلى سنة ١٩٠٧ ، ومن وقت لآخر يصرح بالنقاط الأساسية من تلك السياسة سواء فى تقاريره السنوية أو خطبه فى أم درمان والخرطوم . ففى ديسمبر سنة ١٩٠٠ خاطب جمعاً حاشداً فى الخرطوم بقوله « إلى حضرات علماء السودان وعمده ومشائخه وأعيانه وسكانه كافة . إنى أشكركم من صميم فؤادى خطابكم والترحيب الذى لقيته منكم . عند زيارتى لهذه البلاد منذ سنتين أوضحت لحضراتكم أنكم ستكونون فى المستقبل تحت حكومة كل من جلالة ملكة إنجلترا وسمو الخديوى المعظم . ولقد صدرت لى الآن أوامر خصوصية من صاحبة الجلالة مليكتى العظيمة التى تحكم فى غير هذه البلاد على ملايين من المتدينين بدينكم الشريف لأعرب لكم عن مزيد إهتمام جلالتها بكل مايؤول إلى سعادتكم وإنى الآن باسم جلالتها سأقلد فرداً من أشرف أهالى السودان المسلمين وساما إنجليزيا نظراً إلى ما عرضه عنه سعادة الحاكم العام لجلالتها وهو السيد على الميرغنى .

ولقد تقدمت هذه البلاد كثيراً منذ زيارتى الأخيرة لها وترون أن العهد الذى عاهدتكم عليه وقتئذ من جهة احترام ديانتكم وعوائدكم الدينية قد روعى كل المراعاة . ولقد أنشئت لكم المحاكم والمدارس وضربت على أطيانكم ضرائب خفيفة جمعت منكم على ما أظن بلا ظلم ولا إكراه ، وتم وصول سكة الحديد إلى الخرطوم ، ولى أمل أن تكونوا قد أصبحتم مقتنعين بأن حكامكم سواء كانوا إنجليزاً أومصريين — ولا أميز بينهم لأنهم مشتركون فى العمل وعلى وفاق تام — ليسوا فقط ذوى مقدرة تفوق جداً مقدرة الحكام السالفين بل أن قلوبهم قد أشربت روح العدالة والرغبة الزائدة فى كل ما من شأنه النفع العام لجميع الأهالى وهذا كله لم يكن له أثر حين كان ظلم الدراويش محيقاً بكم . »

وفى يناير سنة ١٩٠٣ قال « وكثيراً ما يقال لنا نحن معشر الإنجليز فى هذه الأيام إننا متأخرون عن غيرنا من الأمم فى أمر التعليم ، وربما كان لهذه

التهمة بعض الصحة ولـكن للمسألة وجه آخر عسى ألاّ يفوت نظر المنتقدين . فإن نتائج نسقنا الخصوصى فى التعليم تظهر بأجلى مظاهرها فى بلاد كالسودان . فالشاب الذى يتربى فى إحدى مدارسنا العمومية أو كلياتنا الحربية وينشأ على الاستقلال الذاتى والمسؤولية الشخصية ، هو الرجل القوى الحازم الذى لا يعوّل فى الدنيا على أحد لأنه يتلقى فى حداثته تحت سماء الحرّية مبادىء تضمن له مستقبلاً نيّراً كما هو خليق بفرد من أفراد أمة مستعمِرَة مجيدة . فلا يكون آلة متحرّكة بل يكتسب من حيث لايدرى عوائد وطباعا تؤهله لأن يتدبّر ويعمل الفكرة ويأخذ على عاتقه مسؤولية الأمور . وبكلمة أن يحكم بالعدل والحزم ، وأمثال هؤلاء منتشرون الآن فى جميع أنحاء هذه البلاد من سواكن إلى ماوراء الأبيض . ومن وادى حلفا إلى أقاصى غوند وكرو . ويمكننى أن أشهد مما شاهدته بنفسى أنه حيثما وُجدوا نظر إليهم الأهالى على اختلاف طبقاتهم من همجييهم إلى أرقاهم علماً كممثلى نظام يحول دون الظلم وسوء الإدارة اللذين سادا فى الماضى . »

ولو أن الاتفاقية قد وضعت سلطات قريبة من الإستقلال فى يد الحاكم العام إلا أنّه ظل السير ونجت واللورد كرومر على إتصال دائم يتعاونان على الأسس وأحياناً الجزئيات . والحـكومة البريطانية تحاط علماً بما يجرى وتوحى وتوجّه من بعيد حتى يتلاءم مايطبّق من مبادىء سياسية فى السودان ، مع ما يجرى فى البلدان الخاضعة للنفوذ البريطانى عن طريق الحماية أو الاستعمار . وفيما عدا التعاون والتوجيه من قِبَل المعتمد البريطانى فى مصر وحكومة بريطانيا ، فالحاكم العام له حرية التصرف داخل البلاد ، ويتمتع المدير بسلطات واسعة كحاكم مقاطعة منحتها إياه السلطة المركزية ، واقتراحاته فيما يتعلق بالمالية والامن العام تلقى أذناً صاغية فى الخرطوم ، ولا تزعجه الحـكومة المركزية بتدخلها فى شؤون مديريته .

مفتش المركز

وقد تغيّرت صفة المفتش عما تركها عليه كتشنر . فبعد أن كان عمله التنقل بين مأموريات عدة ، و بينما كان عددهم لا يتجاوز الإثنين فى كل مديرية ، و بينما كان المأمور يتصل رأسا برئاسة المديرية ، تكاثر عددهم بالتدريج واستقروا فى إدارة المركز . وأصبح المأمور مسؤولا لديهم ، وبذا أصبح المفتش دعامة الإدارة فهو قاضى المنطقة ورئيس بوليسها ، وهو المسّجل والمسّاح والخبير الزراعى والاقتصادى ، ومدير المواصلات والأشغال ، وهو منفذّ القوانين الصحية وخبير التربية والتعليم ، وبالاختصار أصبح المفتش صورة مصغّرة لنواحى الحكومة المتعددة فى مركزه . وقد اكتسب بما له من سلطات ونفوذ على حياة الأهالى أينما يتجهون الاحترام المشوب بالرهبة والخوف . فهو قد يستطيع أن يجعل لهم الحياة جحيما أو نعيما . وهو الذى ينتزع احترامهم أو يثير سخطهم وتذمرهم بما يعاملهم به .

المصالح الحكومية

وإذا كان للحاكم العام أن يكون المرجع الأخير فيما يتعلق بإدارة شؤون السودان التى ظلّت تتشعب بازدياد ، كان عليه أن يستخدم خبراء يساعدونه فى الشؤون المالية والقضائية والإدارية . فلا بد من سكرتير للمالية وآخر للحقانية وثالث للإدارة ولابد من الأشراف على المديريات فيما يتعلق بهذه الشؤون عن طريق هؤلاء السكرتيريين ، كل فى دائرة اختصاصه ولا بد من خبراء يشرفون على المصالح الفنية من مواصلات وتلغراف و بريد وزراعة ، ومساحة وأشغال وتعليم وصحة ، حتى تأتى اصلاحاته نتيجة لدراســة وأشراف فنيين وحتى يباشرون عنه أعمال الروتين العادية . ورؤساء تلك المصالح يتعاونون مع المديريين بصفتهم الأداة التنفيذية للحكومة ، وعلاقاتهم هى علاقة الأنداد الذين يعملون فى وفاق ووئام ، لاعلاقة رئيس ومرءوس . أما السكرتيريون الثلاثة فإنهم يباشرون أعمالهم فى دائرة اختصاصهم كرؤساء على المديريين . وظلّ سلاطين باشا إلى قيام الحرب العظمى الأولى يباشر عمله كمفتش عام له الإشراف خاصة على شؤون الوطنيين بما له من سابق معرفة وخبرة بالسودان وأهله .

إدارة تعاون بين المختصين

والصفة البارزة فى تلك الأداة الإدارية هى العمل بالتفاهم والوفاق ، لا تطبيقاً للوائح وقوانين توزّع الاختصاصات ، وتجعل لها حدوداً وحواجز ؛ فمدير المعارف مثلا يفتح مدارسه ويبسط سياسته التعليمية بمعاونة واتحاد مدير المديرية وكل منهما يرى ضرورة الآخر. فالبرامج وتدريب المدرسين والأدوات اللازمة للمدرسة من شأن مدير المعارف ومدير المديرية يقترح المكان الذى تنشأ فيه المدرسة وربما يقوم ببنائها وينشر الدعاية لها ويشرف عليها من وجهة الإدارة والسياسة . كل ذلك يتم دون أن يتقيد كل منهما بلائحة تبيّن الاختصاصات . ومثل ذلك يتم بين رؤساء المصالح الأخرى والمديريين ، وإذا كان لهذا النظام حسناته من حيث مساهمة الجميع فى بسط رواق المدنية والعمران فى البلاد بتعاون ومساندة ، إلاّ أنه قد يعطى المدير نفوذا وسلطة فى مسائل فنية تعرقل سير العمران والرفاهية إذا أسىء استعمالها . فإذا أصرّ المدير على أن لا تنشأ مدرسة ابتدائية وألاّ يقام مستشفى فقد لا يتم ذلك ، وتحرم مدينة من أعمال عمرانية لا شك فى فائدتها .

وهكذا ظلّ السير رجنلد ونجت يدير الدفة بمعاونة ملاّحيه وظلت الإدارة تتشعب مناحيها وتتزايد أعمالها وظل يتصل بالسكرتيريين ورؤساء المصالح اتصالات غير رسمية ، كل فيما يتعلق بعمله إلى أن رؤى إنشاء مجلس من رؤساء الإدارات الهامة ليشارك الحاكم العام فى حمل عبء الأدارة الذى أصبح يثقل باضطراد ، ولتخضع تلك المشاورات والاتصالات إلى نظام مكفول بقانون . وبعد موافقة الحكومتين صدرت لائحة إنشاء المجلس فى سنة ١٩١٠ .

مجلس الحاكم العام سنة ١٩١٠

لم يكن الغرض من إنشاء المجلس الحدّ من سلطة الحاكم العام بموجب الاتفاقية ، فقد تُرك له العمل بقرارات المجلس ، ولكنّه ليعاون ويشاركه المسؤولية ويدخل نوعا من التنظيم فى مناقشة السياسة العامة مع معاونيه فى النواحى المختلفة . وإذا كان لابد من استخلاص النواحى التى يمارس المجلس عمله فيها كصاحب سلطة والنواحى التى يكون فيها رأيه استشاريا لقلنا أن سن القوانين والموافقة على

الميزانية من أعمال المجلس التى يشترك فيها مع الحاكم العام ، وأصبحت القوانين بعد سنة ١٩١٠ تصدر من « الحاكم العام فى مجلسه » ، وإذا رأى الحاكم مخالفة مجلسه فيما وافق عليه الأعضاء بالأغلبية فله أن يفعل ذلك لأسباب يدوّنها . أما ما يتعلق بالسياسة العامة فرأى المجلس استشارى . ولكن لا يفوتنا أنه إذا رأى الحاكم اعتراضات قوية على سياسة ما ، قد يجد من العبث الإصرار عليها إذ الأعضاء هم الأيادى التى يوكل إليها أمر التنفيذ ولعله يلجأ فيما لو كان متمسكا بها مع معارضة الأغلبية إلى التخلص منهم وتعيين غيرهم وذلك فى حدود سلطته . أما شؤون الدفاع والتعيين فى الوظائف العليا فلم تمسّها لائحة المجلس إلاّ إذا رأى الحاكم الاستئناس برأى الأعضاء .

تقضى لائحة المجلس بأن يكون السكرتاريون الثلاثة والمفتش العام أعضاء بحكم وظائفهم ، ويضاف إليهم آخرون يتراوح عددهم ما بين إثنين وأربعة (وقد أصبحوا خمسة فيما بعد) وتمتد عضويتهم إلى ثلاث سنين قابلة للتجديد . وقد خفّت قيود الرقابة المالية من مصر بإنشاء المجلس إذ كان عليه مراقبة الشؤون المالية فى الصرف والإيراد طبقاً للقوانين واللوائح التى وضعت للتنظيم المالى للبلاد . وبتشعب النواحى الإدارية وكثرة الأعمال العادية تناقصت المراقبة التعاونية المفروضة من قصر الدوبارة وخاصة عند ما غادر كرومر البلاد

أما الخطوط الرئيسية للسياسة ، وأما المشروعات العمرانية الكبيرة فلا بدّ من العمل بها على ضوء ما ينتج من مناقشتها وبحثها مع المعتمد البريطانى فى مصر وربّما مع الحكومة البريطانية .

التقدم الاقتصادى والثقافى

خلفت حملات الفتح خطاً حديدياً ما بين حلفا وعطبرة ، وامتد هذا الخط الحربى إلى الخرطوم بحرى فى أواخر سنة ١٨٩٩ ، وشبكة من المواصلات التلغرافية جعلت اتصال السودان بالخارج و بين أجزائه أمراً ميسوراً . ورؤى

منذ البداية أنه لا يرجى للسودان تقدم اقتصادى من حيث الإنتاج والتجارة إلا بالمواصلات الحديدية وخاصة إتصال النيل بالبحر الأحمر إما عن طريق بربر سواكن أو بطريق طويل ولكنه فى الوقت نفسه يمر بأقاليم زراعية لها أهميتها وهو من الخرطوم جنوبا محاذيا للشاطئ الشرقى من النيل الأزرق إلى أبى حراز ثم إلى القضارف فكسلا فسواكن . وأخيراً قر الرأى على العمل فى خط الاتصال المباشر القصير وهو عطبرة — سواكن وافتتح رسمياً فى سنة ١٩٠٦ ولكن حلّت پورت سودان محل سواكن كميناء وبهذا تم الاتصال التام السريع مع العالم الخارجى ، وقد صادف نقداً من بعض الجهات فى مصر إذ رأوا فيه توهيناً لصلات مصر بالسودان وتحويلاً لتجارة السودان التى كان طريقها الوحيد بواسطة مصر . غير أن كرومر يرى فيه خلق أسواق أخرى جديدة للتجارة السودانية وانتعاشاً لحالته الاقتصادية لا يصل إليها إلا بهذا الطريق الحيوى .

وقد واجهت الحكومة أو بالأحرى كرومر مشكلة نفقات توسّع المواصلات بالسكة الحديد ، فهى كثيرة النفقات ولا أمل البتة فى ميزانية حكومة السودان بتحملها . ولذا قد دارت فى الرءوس فكرة بيع الخطوط القائمة لشركة على أن يعهد إليها مدّ الخطوط الأخرى ، أو ترك ما تم توصيله للحكومة وقيام الشركة بما يجدّ منها . ولم يكن كرومر متحمساً للشركات ، وصادف أن الحكومة المصرية آنذاك اعترضت أيضاً على الشركات . وكان عليها إيجاد المال اللازم عن طريق المنحة أو الإقراض للقيام بتلك الأعمال العمرانية وفعلاً أوجدت الحكومة المصرية المال اللازم للإنفاق منه على الخطوط الجديدة .

دراسة مشروعات الرى

وإذا كان للسودان أن يتّصل بالعالم أولاً فما هى المشروعات العامة التى تزيد فى إنتاجه لاستثمار ذلك الاتصال ؟ وكان طبيعياً أن تتجه الأنظار للزراعة وإلى استغلال مياه النيل ، وكان على ولاة الأمور وضع سياسة مائية موحدة بين مصر والسودان ، وظلّ المهندسون الإنجليز الذين يعملون فى خدمة الحكومة

المصرية يترددون على السودان لدراسة النيل وروافده ومنابعه يقدرون ما يجلبه من مياه فى أشهر السنة المختلفة ، ويقدرون حاجة مصر الحالية والمستقبلة ، ويدرسون ويضعون الخطط للمشروعات التى تستغل بها مياه النيل ، بخزنها وتوزيعها فى وقت الحاجة مع تقدير دقيق لنفقاتها و بيان أسبقيتها .

وكانت الخطة فيما يختص بتلك المشروعات استيفاء حاجة مصر أولا ، ثم استخدام ما يفيض منها لحاجة السودان . وعلى كل حال فالسودان لا يستطيع تقويم مشروعات كبيرة لحقبة من الزمن نظرا لقلة الأيدى العاملة وسكانه يقدرون فى سنة ١٩٠٣ ب ٥٠٠ر٧٨٠ر١٠ وهذا قادهم بطبيعة الحال إلى الهجرة وتشجيعها . وكان الرأى السائد أن مصر هى المصدر الطبيعى لزيادة السكان ، فهى فى طريقها إلى الامتلاء والإفاضة ، والسودان لا يزال خاليا ، وسوف يظل كذلك إلى زمن بعيد . واقترح أحد الأمريكان وقتذاك أن يؤتى بزنوج أمريكا لتعمير البلاد وزيادة الأيدى العاملة فيه ولم يعمل بإحدى الوسيلتين . فلا زنوج أمريكا هاجروا منها ولا الفلاح المصرى غادر قريته ليبنى حياة جديدة أوسع رحابا .

المشروعات بعد الدراسة

وإذا كان لحكومة السودان وقتئذ أن تشجع الزراعة المطرية واستخدام الآلات الرافعة البخارية للأفراد والشركات ، وأن تدخل زراعة القطن وتشجعها بتوزيع التقاوى دون مقابل ، إلا أنها فى نفس الوقت لابد لها من دراسة احتمالات المستقبل ووضع خطة للتوسع الزراعى تتناسق مع السياسة المائية العامة التى تركزت بعد دراسة الخبراء . فقد رؤى أن تحفر قناة فى منطقة السدود حتى تحفظ المياه التى تضيع نتيجة امتصاص الأعشاب والأرض لها وتبخيرها ، لانتشارها فى مساحات متسعه ، وكذلك مشروعات تخزين على بحيرة البرت وتانا . فإذا ما تمت هذه أخذت مصر حاجتها وفاض كثير يكفى لأمد بعيد لتوسع السودان الزراعى الطبيعى . والعقبات فى سبيل تنفيذ هذه المشروعات هى

مالية أولا لما تتطلبه من نفقات باهظة ، وسياسية ثانيا خاصة فيما يتعلق ببحيرة تانا .

مشروع الجزيرة

ولكن حتى قبل قيام تلك المشروعات قد يأخذ السودان قدراً كافيا من المياه إبان امتلاء النيل . وتركّز أخيرا مشروع للرى على النحو الآتى . يقام سد فى المنطقة ما بين الروصيرص وسنار ، وتخرج من ورائه ترعتان إحداهما بالبر الشرقى لتروى منطقة شرقى النيل الأزرق والأخرى بالبر الغربى لتروى منطقة الجزيرة . وإذا كان لهذا المشروع ألاّ يأخذ قطرة مما كان يجرى لمصر ، ففى زمن التحاريق يقف العمل به فى السودان . ويستطيع السودان زراعة القمح فى الزمن المسموح له فيه بالرى ، دون الإضرار بصالح مصر ، وسوف يجد له سوقا فى بلاد العرب وربما يزاحم القمح الهندى فى الأسواق الأوروبية .

تجارب القطن

وأثناء ما كانت أبحاث الرى تأخذ هذا الاتجاه كانت تجارب القطن تبشر بمستقبل باهر لهذا المحصول فى الأراضى السودانية . وأعيد نظر المشروع على هذا الضوء ؛ وتقرر إقامة السد ولكنه رؤى ألاّ بد من خزن طالما أن المحصول الرئيسى سيكون القطن ، نظرا لحاجته لمياه أكثر ومدة أطول . ولا بد تمهيدا لذلك القيام بعمل المساحات والتسجيل لأراضى الجزيرة . ورؤى أيضا حصر الزراعة فى الجزيرة بترعة واحدة . وقاد هذا بدوره إلى اتجاه الخطوط الحديدية الجديدة . فكان لزاما أن يجرى خط وسط سهل الجزيرة لنقل محصولاتها . وكان لابد من عمل قنطرة للخط على النيل الأزرق فى الخرطوم .

وقامت جمعية زارعى القطن فى إنجلترا بمجهود لتعضيد مشروع زراعة القطن فى الجزيرة . وقابل وفد كبير منهم رئيس الوزراء و بسط له أهمية السودان بعد نجاح تجارب القطن فيه ، كمورد لأجود أنواع القطن . وهذا التأييد من تلك الجماعة القوية أدّى إلى أن تضمن الحكومة البريطانية قرضا بثلاثة ملايين جنيه يقدّم لحكومة السودان لعمل السد والخزان وحفر الترع والقنالات . وتم

القرض وشرعت الحكومة فى العمل فعلا فى خزان سنار إلاّ أن الحرب العالمية أوقفت العمل إلى أن استعيد بعد انتهائها .

ومما دعا إلى الإهتمام بهذا الخط وضرورة عمله زيادة على الجزيرة ما اكتشف فى كردفان من حاصلات وخيرات وفيرة تعوزها الأسواق وخاصة الصمغ ، فامتد الخط فى الجزيرة من الخرطوم إلى سنار ومنها اتجه غربا إلى الأبيض وتمّ افتتاحه رسميا فى سنة ١٩١٢ . ووجد صمغ كردفان طريقه إلى الأسواق الأوربية والأمريكية ونال شهرة يتمتع بها إلى وقتنا الحاضر . وقد رؤى أنّ خط حلفا — كرمه لا يقوم بنفقاته فاستعيض عنه بخط من أبى حمد إلى كريمة يربط طرف دنقلا ببقية أنحاء السودان . أما الجنوب فالبواخر النيلية تصله بالشمال بانتظام ولو أنه فى بطء بعد تمزيق جزر السدود التى تعترض المجرى .

الضرائب

ومثلما اتخذت الوسائل لتنمية المرافق الاقتصادية حتى يزيد الدخل الأهلى ودخل الحكومة ، فقد رؤى من الناحية الأخرى تنظيم الضرائب بطريقة عادلة لا ترهق كاهل السكان ولا تدع وسيلة لهم للهرب منها . وقد أعجب كرومر بضرائب المهدية وهى الزكاة الشرعية . فهى ضئيلة ولا ترهق المنتج ، وتوضع على المحصول لا على الأرض ، وتجمع عيناً عندما يتعذر إيجاد السوق . فالعشر فى الزراعات المطريه قد جُعل الأساس لضريبة الحكومة ، غير أن المزارع وهو مسلم لا يكتفى بما يخرجه للحكومة بل عليه إخراج العشر وتوزيعه على ذوى الحق حسب الأصول الشرعية ، بينما فى المهدية يكتفى بالعشر الذى يذهب لبيت مال المسلمين . وما وضع على السواقى وأطيان الجزائر والجروف ما كان مرهقاً ، وكذلك الحال فى ضريبة القطعان . والنزعة الغالبة هى تفادى كل ما من شأنه أن يثير سخط السكان بتطلب أعباء مالية ، وكل ذلك حدّد بقوانين يسير على هديها الموظفون الموكول إليهم جمعها . وفيما يلى جدول لميزانية حكومة السودان إلى سنة ١٩٠٢ بالجنيهات المصرية .

السنة	الدخل	المصروفات
١٨٩٩	١٢٦ر٥٦٩	٢٣٠ر٢٣٨
١٩٠٠	١٥٦ر٨٨٨	٣٣١ر٩١٨
١٩٠١	٢٤٢ر٣٠٩	٤٥٧ر٣٣٥
١٩٠٢	٢٧٠ر٢٢٦	٥١٦ر٩٤٥

والفرق فى كل هذه الأحوال يغطى من الخزينـة المصرية زيادة على ما تتحمله من نفقات الدفاع بواسطة الجيش المصرى . وقد أثار هذا نقد بعض الهيئات فى مصر إذ رأوا أن الحـكومة الإنجليزية ترمى إلى تضحية المصالح المصرية وخزانتها فى سبيل السودان الذى لايشتركون فى حكمه إلا إسمياً ، وليس لهم أى نفوذ أومساهمة فى شؤونه ، بينما أنّ الإنجليز وهم الذين لايدفعون شيئاً لتنمية مرافقه ، يستأثرون بكل ما فيه ويهيمنون على مصائره . وشؤونه . ويلاحظ كرومر كل نقد يوجّه فى هذا الصدد ويرد عليه فى تقاريره السنوية وتتلخص حججه وبراهينه فى الآتى :—

ماأفادته مصر حسب رأى كرومر

أمرت مصر بإخلاء السودان فى الثورة المهدية وعدّ الوطنيون من المصريين ذلك خسارة عظيمة أصابت الجسم المصرى ؛ فهى لاتعيش بغير السودان ، وقد رجع الجسم المقتطع الآن ، وأنفقت مصر فى سبيله ما أنفقت : ولا مراء أنه لازم لها وخاصة من حيث المياه . ويتفق كرومر معهم أن من يسيطر على النيل الأعلى وروافده تـكون مصر تحت رحمته ، وباستعادة السودان أمنت مصر هذه الناحية واستطاعت أن تضع خطط مشروعاتها فى الرى بكل حرّية واطمئنان ، وأمنت حدودها الجنوبية التى كانت عرضة للخطر دائما . وما من مشروع للرى يقام فى السودان إلاّ بعد أن يثبت بالأرقام عدم إضراره بمصالح مصر الحيوية ، وحقها الأوّل فى مياه النيل . ومن هذه الناحية يرى كرومر أنّ السودان ضُحى

به فى صالح مصر لا العكس . وعليه والحالة هذه فما صُرف من أموال أتى ثماره مضاعفة ، وأقام صرحا للعمران فى السودان كفيل بتوطيد الحالة فى تلك البلاد حتى لا تعود المصالح المصرية مهددة فى المستقبل .

رد المصريين

والمصريون من ناحيتهم لا ينظرون إلى الناحية المادية بل إلى السياسية . فهم يرون أن الشريك الثانى استأثر بشئون السودان وترك لهم الإمضاء الموجود فى ذيل العقد ، وأنهم حين ينظرون إلى المستقبل يرون السياسة تتجه إلى إقصائهم من السودان تدريجيا ، وتدعيم النفوذ الإنجليزى . وتظل الشركة وهمية والعمل بيد الإنجليز بالفعل . ونتيجة لذلك يرون أن انجلترا بمركزها فى السودان تستطيع إخضاع مصر لمشيئتها ، طالما أنها المسيطرة على أعالى النيل ، وأن منشآت ريها فى السودان معرّضة للخطر ؛ وأنهم لا يستكثرون مالا إذا ما كانوا فى مثل مركزهم قبل الثوره المهدية ، ولـكن المقارنة بين العهدين غير عادلة .

مؤسسة تعليمية لتخليد ذكرى غوردون

كانت ومضة من ومضات العبقرية حين فكر كتشنر فى تخليد غوردون بمؤسسة تعليمية تحمل اسمه فى الخرطوم . ولعلها كانت تكفيرا للخطايا التى اتهم بها كتشنر فى محاولته الانتقام لغردون ، ومهما كان من أمر وإن التفكير فى أمر التعليم بعد موقعة أم درمان مباشرة اتجاه صحيح . حمل معه الفكرة حينما ذهب يقضى إجازته فى انجلترا فى شتاء سنتى ١٨٩٨ — ١٨٩٩ وكان الشعب البريطانى متحفزاً ومستعداً للاكتتاب لمكانة كتشنر فى قلوب الشعب آنذاك ، وللجرح العميق الذى لا يزال داميا فى قلوبهم حينما علموا بموت غوردون . ولهذا لاغرابة فى أن الإستجابة لنداء كتشنر لتخليد ذكرى غوردون كانت سريعة ومخلصة . فقد اجتمع لديه ما يزيد على المائة ألف جنيه فى وقت قصير . وسرعان ما وضعت التصميمات اللازمة للبناء ، وسرعان ما بدئ بوضع الأساس . وأثناء ذلك ترك أمر التعليم فى تلك المؤسسة لصاحب الفكرة فماذا كان يودّ لها ؟ يرى أن تكون الناحية العملية المفيدة هى الغالبة ، وأن تكون اللغة العربية صاحبة المكان الأوّل . ويرى أن تكون فى البداية على غرار مدارس أسوان ووادى حلفا .

ويرى كرومر ألا تتخذ خطوة ثانية إلا بعد استشارة الخبراء فى التربية والتعليم

تأسيس المدارس الأخرى

أما فى مراحل التعليم الأولى فقد رأت الحكومة تأسيس مدارس أولية فى المدن الكبيرة لتكون نموذجا لما سوف تكون عليه الكتاتيب . ولابد من الرقابة عليها وعلى غيرها بتفتيش منتظم . واتخذت الخطوات لإنشاء مدرسة ابتدائية فى أم درمان تقام على غرارها مؤسسات تعليمية فى المدن الأخرى ، وتركزت آراء كشنر فى كلية غوردون التذكارية بما يأتى ؛ « ورأيى الخاص هو أن تصرف أموال الكلية على النهوض بالتعليم الإبتدائى وسيأتى التعليم العالى فيما بعد » .

سياسة مدير المعارف العامة

وكان أن أوكل ونجت فى أول الأمر شؤون التعليم للمستر بونهام كارتر سكرتيره القضائى ، حتى إذا كان نوفمبر من سنة ١٩٠٠ حل بالخرطوم المستر جيمس كرى مديراً للمعارف ، واستلم ما كون من نواة فى شؤون التعليم . وفى الحال وضع خطته لما يريده من تعليم للبلاد أو ما يتوخاه من أغراض له ؟ فرأى فقر البلاد المدقع وأن الأداة الإدارية فيها لا تسير لولا ما تقدمه مصر من معونة فالتعليم يجب أن يساير تقدم النواحى الاقتصادية الأخرى فى بطء وأن تقصر أغراضه فى أول الأمر إلى ما يعود على البلاد بانتعاش اقتصادى ، وما يقود إلى تيسير الأداة الحكومية . وعلى ذلك فأغراضه يجب أن تكون خلق طبقة من مهرة الصناع بين الوطنيين أولا ، ونشر التعليم بين العامة بالقدر الذى يجعلهم يفهمون الآلة التى تدير شؤونهم ثانيا ، وتدريب طبقة من أبناء البلاد تساهم فى إدارة دفة الحكومة فى الوظائف الصغيرة ثالثا .

واتخذت خطوات لتنفيذ تلك الأغراض ، إذ أنشئت ورش صناعية فى ترسانة الوابورات النيلية ، وفى حلفا للسكة الحديدية ، والعمل قائم بتشييد مدارس أولية نموذجية فى الخرطوم وبربر وأم درمان ودنقلا وود مدنى وحلفا وسواكن؛ وسوف تمتد أمثال تلك المدارس إلى المدن الأخرى ؛ ويقوم بالتدريس فيها أساتذة مصريون أكفاء . ولتدريب طبقة من الموظفين لا بد من إقامة

مدارس إبتدائية أخرى زيادة على حلفا وسواكن ومدرسة أم درمان الجديدة ، فالحاجة ملحة لهم فى الجيش والخدمة المدنية ؛ وفوق ذلك فالموظفون والضباط المصريون يريدون تعليما لأبنائهم . ولقد تبيّن للمستر كرى أن الأهالى فى المدن يقدرون ما تقوم به الحكومة من تعليم أبنائهم .

تدريب المدرسين

وشُغل المستر كرى منذ البداية بتدريب المدرسين سواء للمدارس الأولية أو الإبتدائية ، فأنشأ مدرسة لتخريج معلمى المدارس الأولية فى أم درمان . وأثناء بحثه ووضع خططه لمعلمى التعليم الإبتدائى اتفق مع صديقه المستر بونهام كارتر ، وكان يسكن معه فى منزل واحد أن ينشأ قسم المعلمين والقضاة الشرعيين ، لأن توسع المحاكم الشرعية يستدعى تدريب قضاة لهذا الغرض . فأنشئ هذا القسم فى أم درمان أولا إلى أن تمت مبانى الكلية حيث انتقل إلى الخرطوم .

وبدأ المستر كرى بتنفيذ برنامجه فيما يختص بإنشاء الكتاتيب الراقية بالتدريج فى المدن الكبيرة . وفى أكتوبر سنة ١٩٠١ أنشئت مدرسة أم درمان وهذه المدارس تتخذ مناهج الدراسة الإبتدائية فى مصر أساساً لدراستها مع تحوير بسيط يلائم البيئة السودانية . ولقد تبيّن للمستر كرى الصعوبات المالية التى تقوم أمام انتشار التعليم ورأى فى أول الأمر أن تكون المدارس الأولية (الكتاتيب) الحكومية قليلة العدد كنموذج تنسج على منواله المدارس الأهلية الخصوصية وتقدم لها أعانات حكومية .

وعندما طاف المدير فى أرجاء البلاد تأيدت نظريته لضرورة تخريج أفواج من السودانيين الذين يتلقون تعليمهم فى المدارس الإبتدائية ، لعدم كفاءة من يشغلون الوظائف من غير السودانيين ، ولإرتفاع أجورهم نسبيا ، وعدم ملاءمة الطقس لهم وملاءمتهم له . وأخيراً إذا كانت مصر هى المصدر الرئيسى الذى يجب امداد السودان بتلك الطبقة من الموظفين فهى نفسها فى أمس الحاجة لهم ، وبعضهم قد يتذمر من وجوده هنا . والطبقات التى تتمتع بالكفاءة والخلق المستقيم تجد السبيل ممهداً فى مصر ، ولا ترى حاجة إلى الخدمة فى السودان .

وهكذا كان يشرح المستر كرى الحالة كما شاهدها وأحسّها .

مجلس أمناء الكلية

ولقد تركنا الكلية حين لبّى الشعب البريطانى نداء كتشنر ، والصورة المختصرة التى رآها صاحب الفكرة لمؤسسته ؛ وأبدى الشعب تحمسا لذكرى غوردون حتى أن الملكة فكتوريا أكتتبت بنفسها ، وقبلت عن طيب خاطر أن تكون راعية المؤسسة الجديدة ؛ وأبدى اللورد سلسبرى رئيس الوزراء تعضيده للمشروع نيابة عن الحكومة . وفى يناير سنة ١٨٩٩ اجتمع مجلس كبير فى بنك انجلترا لتكوين لجنة تنفيذية تشرف على تنفيذ المشروع ووصفه اللورد سلسبرى فى ذلك الاجتماع بأنه مشروع « فرضته علينا التزاماتنا الامبراطورية . فهو محاولة لإزالة ما بين الشعوب من حواجز وإقامة رابطة من المعاونة الفكرية ونشر الثقافة الإنسانية . » وأعدّ مهندس صاحب السمو خديوى مصر الرسومات لمبنى الكلية ووافق عليها اللورد كتشنر . وفى يناير سنة ١٩٠٠ وضع اللورد كرومر الحجر الأساسى باسم الملكة فكتوريا وقال فى أثناء خطابه أن الكليّه لا ترتبط بدين خاص وأنها مفتوحة للجميع ، وسيكون التعليم فيها باللغة العربية على قدر الأمكان .

وفى تقريره لسنة ١٩٠٠ تعرّض المستر كرى لاستجابة الأهالى لهذا النوع من التعليم الذى فُرض عليهم فرضا حسب رأيه ، واندهش من تسابق الناس لإدخال أبنائهم المدارس وازدحمت الفصول بالتلاميذ وخاصة فى المدن الكبيرة ، ولعلّهم عرفوا مزايا التعليم من الخمس مدارس التى أنشأها اسماعيل قبل الثورة المهدية .

هدايا أخرى لكلية غوردون

ولم تقتصر التبرعات للكلية على الإكتتابات المالية بل توالت الهدايا . فمنها آلة بخارية لرفع المياه ومطبعة وماكينة خياطة وعُدَد وآلات أخرى كثيرة ، وخرائط وكتب . وأكبر هدية هى التى قدّمها المستر ولكم من عُدَد كاملة لمعامل بكتريولوجية وتحليلية ، وكذلك وهب المستر وليم مَاذر عددا وآلات لإنشاء مدرسة صناعية .

وفى أكتوبر سنة ١٩٠٢ تمت المبانى وانتقلت الأقسام التى كانت تتلقى الدراسة فى أم درمان والخرطوم إلى مبانى المؤسسة التذكارية ، وكانت تضم آنذاك مدرسة إبتدائية ومدرسة للمعلمين والقضاة الشرعيين ومدرسة صناعية ، ومعملاً للتحاليل الكيماوية والبكتريولوجية .

انشاء قسم ثانوى

ولم يشأ أن يكون المستر كرى وراء التقدم المادى والاقتصادى فى مشروعاته ، فما إن علم بما تزمعه الحكومة من أعمال هندسية للرى وما يتبع ذلك من أعمال مساحة وتسجيل ، حتى بدأ يفكر فى إنشاء مدرسة ثانوية كجزء من كلية غوردون لتخريج النوع الذى يصلح لتلك الأعمال . ورأى أيضا وهو يسعى لتوسع التعليم الإبتدائى أن لابدّ من قسم أدبى يتخرج منه مدرسون يعرفون اللغة الإنجليزية . ولكن أعمال الهندسة والمساحة تستدعى المبادرة فأنشأ ذلك القسم وتخرّج منه رعيل التحق بمصلحة المساحة فى سنة ١٩٠٧ وفريق آخر التحق بالرى والمصلحة القضائية فى سنة ١٩٠٩ . وأخرج القسم الأدبى أوّل فوج أكمل دراسته السنوية للتدريس فى المدارس الابتدائية سنة ١٩١٢ .

ضرائب خاصة للتعليم الأولى

وبالرغم من الطلب المتزايد للتعليم والأوّلى خاصة وبالرغم من نيات المستر كرى الطيّبة نحو نشر ذلك النوع منه ، فإن المال كان عقبة كأداء آنذاك ؛ فالبلاد لا تزال مواردها ضئيلة ، وعجز الميزانية تسدّده الحكومة المصرية ، وأعمال الإدارة والأمن العام لها المكان الأول والتعليم يأتى فى المرتبة الثانية وقتذاك . ولكن لم يعدم المستر كرى الوسيلة التى تحل هذه العقدة فقد فرضت ضريبة خاصة للتعليم يساهم فيها كل من يدفع ضريبة للحكومة . وبذا تسنى للمدير إنشاء عدد من المدارس الأولية فى السنين القليلة التى سبقت إشعال نيران الحرب الكبرى فى سنة ١٩١٤ . وحينما غادر البلاد فى تلك السنة ترك وراءه كلية غوردون بأقسامها الثانوى والابتدائى والصناعى وتدريب المدرسين والقضاة الشرعيين ، وخمساً من المدارس الابتدائية الأخرى ، وعددا من المدارس الأولية ومدرسة حربية . وبدأت الإدارة الحكومية تُدعّم بخريجى هذه المدارس فالتحق الخرّيجون بمصالح

الحكومة فى وظائف القضاء الشرعى والتدريس والهندسة والمساحة والوظائف الكتابية والجيش . ولا نستطيع اختتام معالجتنا لتأسيس التعليم وتطوّره فى السودان دون الإشارة إلى الدور البارز المشرف الذى لعبه أحمد هدايت بك حيث كان المشير الأول للمستر كرى . وكذلك فضل الأساتذة المصريين الذين غرسوا بذور الثقافة العربية الإسلامية .

السودان والحرب العظمى

ثورات محلية

كان غرض حكومة السودان التى تألفت قانونيا فى يناير سنة ١٨٩٩ تهدئة الأحوال ونشر لواء الأمن العام والعدالة . وكانت توجس خيفة من كل الحركات الدينية ولذا راقبت فى أول الأمر تجمهر الدراويش أتباع الطرق الصوفية وحذّرت بعض مشائخها وقام عدد ممن ادعى رسالة دينية ضد أعداء الدين . فى سنة ١٩٠٣ قام شخص يدعى الشريف محمد الأمين من مهاجرى الغرب ، ساح فى الأقطار الإسلامية ومر بالسودان فى طريقه للحج ، وأخيرا رجع من مكة بوثيقة تثبت انتسابه لآل البيت ؛ وبأخرى كنداء لقبائل السودان بتأييده وشد أزره . وعندما حط رحاله فى جبال تقلى جهر بدعوته وتبعه عدد من الناس . ولما ترامى إلى سمع الحكومة أمره قاد ماهون باشا مدير كردفان حملة من الخرطوم وكان فى طريقه للاجازة وداهم الشريف فى قرية بالقرب من دار تقلى ، وقُتِل من قاوم من أتباعه وأُسر الباقون بما فيهم زعيم الحركة نفسه ، فاقتيد للأبيض وهناك أعدم شنقا . وقد دلّت التحريات التى قامت بها الحكومة بعد الحادثة أن الدعوة كانت عظيمة الخطر وأنه لو تُرِكَ الأمر لها لمدة شهرين فقط لانضوى تحت لوائه عدد ضخم من رجال القبائل .

وفى سنة ١٩٠٤ قام شخص آخر فى ضواحى سنجة وادّعى أنه نبىّ الله عيسى وقطع خط التلغراف ، وتبعه عدد قليل من الناس ولكنّ الجيش أخمد حركته فى مهدها . وفى سنة ١٩٠٦ قام السكان فى تالودى بثورة كان ضحيتها عدد من البوليس والجند والتجار وعلى رأسهم مأمور تالودى أبو رفاس . ولو أن الأسباب

المباشرة لهذه الحركة كانت شخصية حسب ما تروى إلا أنها تدل على استهانة الأهالى بسلطة الحكومة وعدم انصياعهم لأوامرها . وفى سنة ١٩٠٧ قبض على رجل من أهالى برقو فى القضارف ادعى أنه عيسى ولكنه لم يبشر بدعوته ولم ينضو أناس تحت لوائه . وادعى شخص آخر فى مدنى نفس الدعوة غير أنه رجع إلى صوابه فى الحال عندما قبض عليه .

ثورة ود حبوبة

وفى سنة ١٩٠٨ قامت ثورة عبد القادر ود حبوبه فى الحلاويين فى الجزيرة . ورئيس الحركة هو عبد القادر بن محمد إمام المشهور بود حبّوبه . ومحمد إمام والد صاحب الحركة من أشهر مشاهير القبيلة وعُرِف بإصالة الرأى و بعد النظر . أما عبد القادر فقد انخرط فى سلك الأنصار عندما امتدت الثورة المهدية إلى الحلاويين وسافر مجاهدا فى جيوش الأمير عبد الرحمن النجومى . و بعد موقعة توشكى كان ضمن الأسرى فى مصر ، وأخيرا سُمِح له بالعودة إلى بلاده .

واشتهر عبد القادر من بين إخوانه بإخلاصه الشديد للمهدية ، وهذا ما جلب العداء والتباغض بينه و بين إخوانه ، لأنهم قد ساعدوا الحكومة ابّان الفتح بجمع الذرة والقبض على المؤمنين بالمهدية . ونقم عبد القادر على أهله الذين قاموا بنصيب فى مساعدة الحكومة . وعندما بدأت تسوية أراضى الجزيرة فى عملها ظن عبد القادر نفسه مغبونا فيها وهذا ما زاد فى نقمته على الحكومة التى ظلمته ، وإخوته الذين شايعوها . وهو لم ينس أن الحكومة الحالية قضت على حكومة إسلامية وهو لا يزال من أشد المتحمسين والمعتقدين برسالة المهدية .

ولم يشأ عبد القادر أن يغير عاداته التى كان يتبعها فى المهدية ، ولم يشأ أن يعترف بهذه الحكومة . فقد باع جزءا كبيرا من أطيانه و بأثمانها فتح خلواته للضيوف ، وتجمع عليه من هم على مثل رأيه فى المهدية وإيمانهم بها ، وازوّرارهم عن الحكومة الجديدة . وترامى إلى سمع الحكومة أن عبد القادر يتجمهر أتباعه ويتزايد أنصاره . وعندما بلغت الإشاعة حداً من الذيوع والانتشار بعد أن طُلِب عبد القادر المركز ولم يلبّ الطلب ، ذهب مفتش انجليزى ومأمور مصرى لمقابلته . وكان نصيبهما القتل بالخديعة . وأيقنت الحكومة أن لا بد من القضاء

على الثورة فى مهدها قبل أن يستفحل أمرها . وقامت بلوكات الجيش من مدنى والخرطوم وتم لها القضاء على الحركة بعد أن فقد الجيش عدداً من جنوده فى مباغتة ليلية قام بها عبد القادر . وقبض على زعيم الثورة بعـد وقت من الواقعة ونفّذ فيه حكم الإعدام . وهكذا تبين للحكومة أن شعلة المهدية لم تخمد فى قلوب بعض الأنصار . وكانت هذه آخر محاولة ثورية ضد نظام الحـكم حيث تمتع السودان بهدوء عام بعدها إلى أن قامت الحرب العظمى فى سنة ١٩١٤ .

الحرب العظمى

أصبحت الدول الأوربية فى حالة حرب والحـكم الجديد له فى السودان نحو الخمسة عشر عاما شغلت الحـكومة أثناءها بالأمن وتحسين المواصلات ووضع الأسس لتقدم اقتصادى وتعليمى . ولقد أعان السكان الحـكومة لتعمل فى هدوء وطمأنينة ، ورضخ الناس للنظام الجـديد ، للأمن الذى نشره بينهم ، وكانوا فى أشد الحاجة إليه . والثورات البسيطة التى قامت كما ذكرناها سابقا لم تصـل إلى درجة الإزعاج . وها هى الحرب العالمية قد استعر أوارها فماذا حدث فى السودان وما مقدار المساهمة التى قام بها فى سبيل النصر ؟

دعاية الحـكومة

كان همّ الحـكومة الأكبر شرح القضية الأوروبية عامة وقضية انجلترا فى تلك الحرب خاصة . ولقد كان مفهوما منذ البداية أن لا بد من أن تنجرف تركيا وتنضم إلى ألمانيا . وكان على الحـكومة أن تهيئ الأذهان وتقاوم الدعاية التى تبثها تركيا متكئة على الرابطة الدينية ومقام الخليفة فى نظر العـالم الأسلامى . وكانت التقارير ترد من الأقاليم منبئة بأن الحالة على ما يرام وأن الناس كان مسلـكهم مؤيدا للحكومة فى ذلك العراك العـالمى ، وأنه ليست هناك دلائل شعور دينى فى صالح تركيا فيما إذا أصبحت عدوّة لانجلترا .

وفى اكتوبر سنة ١٩١٤ قام الحـاكم العام السر ريجنلد ونجت بطواف فى الأقاليم . فمر بالجزيرة والأبيض وبورت سودان واتصل هناك بزعماء القبائل والأعيان وكبار الموظفين شارحا لهم الحالة الأوربية وأهمية انجلترا فى تلك الحرب ونُبلِ مقاصدها . ومن الخرطوم قامت جريدة السودان ومحررها آنذاك لبيب

جريدتى بالدعاية اللازمة لمثل ما كان يشرحه الحاكم العام . وبهذا تهيأ الجو لتلقى نبأ دخول تركيا الحرب ضد بريطانيا .

إجراءات الحكومة بعد دخول تركيا

وفى يوم ٦ نوفمبر وصلت الأخبار للخرطوم بإعلان العداء بين تركيا وبريطانيا ، ودعا الحاكم العام نتيجة لذلك فى اليوم التالى لسرايه بالخرطوم عدداً من الضباط العظام بالجيش المصرى ، وخطب فيهم قائلا : « دعوتكم اليوم لتسمعوا من شفتى الإعلان الذى سيظهر فى غازيته السودان بشأن الحرب » . واستمر فى حديثه شارحا لهم الأسباب التى دعت لنشوب الحرب وتحدّث عن قوة المعسكرين المتقاتلين واحتمالات النتيجة لتلك الحرب ، وأخيراً أهاب بهم أن يظلوا على ولائهم وإخلاصهم لواجباتهم ، وختم حديثه بأنه على استعداد لأن يعفى من الاشتراك فى الأعمال الحربية أولئك الضباط المتحدرين من أصل تركى ولا تسمح ضمائرهم بحمل السلاح ضد بنى جنسهم .

وبعد ذلك قابل الحاكم العام فى نفس اليوم فئة من العلماء وشرح لهم الحالة أيضاً . وفى اليوم الثامن من نوفمبر دعا للسراى المشايخ والعلماء من المدن الثلاث وأبان لهم الثمار التى جنتها البلاد من الحكم الحالى ، ومناصرة حكومته للإسلام والمسلمين . وتحمّس كل الحاضرين ووقعوا على وثيقة ولاء وإخلاص ونحا نحوهم أعيان العاصمة المثلثة الذين لم يحضروا الاجتماع ، وكذلك فعل زعماء العشائر وأعيان الأقاليم ورجال الدين وكبار الموظفين بالعرائض والتلغرافات . وجمع صاحب جريدة السودان كل ذلك وطبعه فى كتاب سماه سِفر الولاء ، وهاك بعضاً مما ورد فى تلك العرائض بنصه .

سفر الولاء

حكومتنا العادلة التى لم يرَ الإسلام والمسلمون منها إلا كلّ خير دينى ودنيوى وجميعنا فى استياء من قيام تركيا فى هذه الحرب التى نتبرأ منها فإنه لا مصلحة فيها للمسلمين بوجه من الوجوه » . « وسترون بلادنا هادئة راتعة تحت ظلّ العلم البريطانى الظافر بالنصر على أعدائه قريباً إن شاء الله » . « دولة العدل والشرف على سائر رعاياها فى جميع أنحاء المعمورة وخصوصاً فى السودان بعد أن خلّصته من

المظالم والاستبداد ، وسهّلت لنا طرق الحج وزيارة قبر النبى » .

« إننا قد شاهدنا عيانا ما كان وجرى فيما سلف مدة الأتراك من الجور والفجور والاستبداد فى الأحكام بدوام الظلم والتنكيل والتمثيل والسجن والقلاقل والإهلاك والإهانة ، وامتد ذلك الظلم إلى أن ألحق بظلم العرب من الأذية » .
« نعلن إخلاصنا ومشاركتنا لدولة بريطانيا العظمى المحبوبة فى كل ما يكدّر صفاءها وهى دولة العدل التى خلَّصت عموم السودان من مشقّات العذاب وأتعاب العهد الماضى وصرنا بفضل حمايتها راتعين فى بحبوحة الأمن » . « أما نحن فراضون بالحكم الحالى فإنه من خير الأحكام » .

« تركيا التى حاربنا ظلمها من قبلكم » . « تغلبت علينا أدوار كثيرة وحكمنا الأتراك والدراويش وغيرهم ، ولم نجد عدلا ما مثل ولاة أمورنا الإنجليز الحاضرين الوفيين العاملين » . « نرفع لحكومتنا العادلة ولاءنا وإخلاصنا قلباً وقالباً ، إذ لم نر منها سوى احترام ديننا وتعمير مساجدنا وتوظيف العلماء لتعليم ديننا وتوظيف القضاة الشرعيين للفصل فى أمورنا بموجب الشريعة المحمدية ، وتشييد المدارس لتربية أولادنا وتعليمهم وتسهيل طرق الحج والزيارة النبوية ، ونشر العدل والأمان فى جميع أنحاء بلادنا وحسن معاملتنا » .

« إن الحزن والأسف لملء أفئدتنا لدخول تركيا فى حرب ضد بريطانيا العظمى الأمر الذى حصل بلا شك رغم وضد إرادة ورغبة السلطان وعقلاء دولته » . « إن هذه الحرب التى تقوم بها تركيا اسماً والألمان فعلا إنما هى حرب ألمانية بكل الوجوه » . « ويكفينا ما شهدناه ورويناه عن آبائنا السالفين من أعمال الحكومات السابقة من الاستبداد أو الجور وسوء المعاملات والتهافت على أكل الرشوات وهتك الحرمات ولا سيما حكومة الترك ورجالها » .

هذه مقتطفات وردت فى سفر الولاء من تلك العرائض والتلغرافات والخطابات التى سجّلها العلماء والأعيان وزعماء العشائر والتى يستشف منها الباحث الروح التى كانت سائدة آنذاك أو التى أريد لها أن تسود ، وأن تنتشر دعايتها بين

الأهالى بواسطة قادتهم وزعمائهم . وهذه نتيجة لدعاية واسعة النطاق قام بها رجال الحكومة . وترتكز على أن الحرب التى خاضت غمارها تركيا زعيمة العالم الإسلامى لم تكن بالحرب الدينية فى كثير أو قليل ، وإنما انقادت تركيا لألمانيا لمطامع الدنيا لا جهادا فى سبيل الله ، وإن الشبان الأتراك الذين بهرتهم المدنية الأوروبية قادوا الخليفة ورجال الدين إلى هذا المصير والانصياع لألمانيا .

وقد نجحت الدعاية أيما نجاح وساعد على نجاحها ما يعرفه وما خبره أهل السودان عن تركيا والأتراك . فهم لم يعرفوا الأواصر الروحية التى تربطهم بالخليفة بل عرفوا عن الحاكم والجندى التركى القسوة والفظاظة والجلد بالسياط ونفروا منه عندما كان السودان تحت سيطرة النظام الإدارى التركى .

وهكذا عندما أعلنت تركيا الحرب اطمأنت حكومة السودان على ولاء البلاد والشعب ولم يذعنوا للدعاية الدينية التى قامت بها تركيا . ومع ذلك فقد قام نفر قليل ممن يرجع أصلهم إلى الأتراك أو من تغلبت فيهم عاطفة الرابطة الإسلامية بدعاية سرية فى شكل منشورات وُزعت على رجال الدين . ولكنها لم تأت بنتيجة ما ، وقبض على المتهمين وعلى غيرهم ممن ظنّت الحكومة أنهم يضمرون لها سوءا . وما عدا ذلك وما عدا نشر الإشاعات التى تشير إلى انتصارات الألمان واندحار الانجليز ، فقد ظلت البلاد بوجه عام فى هدوء وأمن ما عدا دارفور كما سنبينه فى فصل خاص وما عدا العصيان الذى حدث فى جبال النوبة واستدعى إخضاع العصاة انشغال الجيش المصرى أشهرا عديدة .

مساهمة السودان

ساهم السودان بنصيب وافر فى سبيل الحرب وخاصة فى الحملة السورية التى قادها أللنبى وفى تموين الجيوش التى كانت ترابط فى مصر . فالجمال كانت لا تزال سفينة الصحراء وصدّرت السودان عددا كبيراً منها والبقر والغنم تحملها القطارات الحديدية باستمرار نحو مصر لغذاء الجند ، والحاصلات السودانية يرسل فائضها لمجهود الحرب .

ثورات فى جبال النوبة

لقد ألمعنا سابقا إلى ثورات قام بها بعض سكان جبال النوبة أثناء الحرب نذكر منها اثنتين . الأولى اشتعلت فى جبال النما بمركز الدلنج يرأسها عجبنا .

فقد سيطر على مجموعة الجبال التى تحمل اسم النما وأعلن عصيانه على الحكومة وتطلب من السكان موافاته بالضريبة بدلا من توريدها للحكومة . فقامت دورية مكونة من ٣١ من الضباط الإنجليز و ١٠٥ من الضباط المصريين والسودانيين و ٢٨٧٥ من الجنود ومعهم ٨ مدافع كبيرة و ١٨ مكنة . وقامت هذه القوة بضرب الحصار على مجموعة الجبال ورابطت أشهراً عديدة . وقد تم لها الاستيلاء أخيرا على الجبال والقبض على زعيم الثورة فى ديسمبر سنة ١٩١٧ . والثورة الثانية كانت فى جبال ميرى بمركز كدجلى وزعيم الحركة الفكى على ولكنها لم تبلغ فى خطورتها ثورة عجبنا ، وتمكن الجند الحكومى من استلام ناصية الحالة وإعادة المياه إلى مجاريها .

وفد سودانى لانجلترا

وعندما دقت أجراس السلام فى نوفمبر سنة ١٩١٨ احتفلت البلاد بالنصر وتكون وفد من السادة والعلماء وزعماء العشائر وسافر إلى انجلترا فى سنة ١٩١٩ لتهنئة جلالة الملك شخصيا بالانتصار . وبدأت الحكومة فى مشروعاتها التى تركتها بسبب الحرب وخاصة مشروع الجزيرة ودخلت المسألة السودانية فى طور جديد حيث ارتبطت بالأمانى القومية المصرية ، وبدأت الحالة السياسية فى مصر تظهر آثارها فى السودان ، وتوالت مشاكل وأحداث جديدة لا تدخل فى نطاق حقبتنا هذه ويكفينا القول بأن السودان دخل فى عهد جديد بانتهاء الحرب .

فتح دارفور

ابراهيم على يبعث لدارفور

تراءى لكتشنر ومعاونيه منذ البدء أن حكما مباشرا يرتكز على الخرطوم لا يجدى فى دارفور . وهم فى رأيهم هذا إنما يعتبرون بالدرس الذى تلقته الحكومة المصرية عند ما تم لها فتح دارفور على يد الزبير واسماعيل أيوب . فقد ظلّت الثورات متصلة الحلقات إلى أن تم زوال السلطة المصرية ، وكلفت الخزانة المصرية أموالا طائلة . ولذلك عندما فر ابراهيم على من جيش محمود وهو يمت بصلة للعائلة المالكة فى دارفور بعثه كتشنر إلى الغرب ، لينشر الأمن بين ربوع دارفور ويستلم زمام السلطة المؤقتة إلى أن يفرغ الجيش من مهمة الفتح ، وعند ذاك يعمل

القائد ما يراه صالحا لحكم دارفور . وفعلا غادر ابراهيم على النيل ووجهته دارفور ليباشر ما وكل إليه من مهمة .

السلطان على دينار

وتشاء الأقدار ألا يتم لابراهيم على ما يرجوه من ملك وسلطان ، وأن يقوم بالمهمة من لم تزوده الحكومة الجديدة ، ومن لم توعز إليه بالأمر . فقد كان على دينار بن زكريا بن السلطان محمد الفضل ملازما فى أم درمان فى شبه اعتقال فى أخريات أيام المهدية ، فهو آخر السلاطين الاسميين لدارفور الذين جرت العادة فى المهدية أن يحتلوا هذا المنصب منذ أن غادر السيد محمد خالد زُقل البلاد . وقد لوحظ عدم إخلاص وولاء على دينار للمهدية حينما كان سلطانا اسمياً وأخذ لأم درمان ، وبقى فى سلك الملازمين إلى اليوم السابق لمعركة كررى ، حيث انتهز فرصة الاضطراب الذى ساد مدينة أم درمان وغادرها بمجموعة من صحبه المختارين يقلّون عن العشرة . وظل سكان دارفور يتجمعون عليه وهو فى الطريق ، إلى أن قيل أنه عبر حدود مملكته الجديدة بما يقرب من الألفين وهناك فى الفاشر سلمت له السلطات التى كانت تباشر الحكم نيابة عن حكومة المهدية ، وتمكن بما له من قوة ونفوذ على إزالة مُنافِسِه ابراهيم على .

وعند ما وصلت أخبار تلك المنافسة إلى أسماع كتشنر خاطب الاثنين بالتريث والأناة حتى تحل جنود الحكومة بالبلاد ، وعندها يعين من يملك قلوب السكان ويجذب احترامهم وطاعتهم له ولكن سرعان ما تبين لابراهيم على أنه ليس بالذى يرتفع إلى مستوى على دينار فترك الأمر قبل أن تتدخل الحكومة .

العلاقة بين السلطان والحكومة

كانت نية حكومة السودان متجهة نحو خلق سلطنة فى دارفور يتربع عليها على دينار ، وتترك له حكم البلاد الداخلى ، ولكنها تمده بالمستشارين ويقيم معه فى عاصمته معتمد من قِبَلِها . غير أن على دينار منذ أن خلصت له البلاد وتولى الأمر ما كان ليرغب أو يريد تدخلا من حكومة السودان ، وبدأ يعمل لهذه الغاية ؛ فإذا ما استشير فى أمر مقابلته مع مندوب من الحكومة تعلل بمختلف

الأعذار ، وإذا ما رأى تجمعا حربيا أو قوات تشرف على الحدود احتج على هذا العمل وحذرها من عاقبته ، لأنه قد يحرك السكان و يشيع بينهم الاضطراب . وأصبح يراقب بحذر شديد كل قادم من جهة الشرق ، وكل رسول تبعثه الحكومة بخطابات . وكل ما كان يريده من علاقة من حكومة السودان هو الاعتراف بسيطرته على البلاد ، مقابل أن يرفع العلمين وأن يدفع جزية سنوية .

ولو أنّ حكومة السودان كانت تريد لنفسها رقابة وسيطرة على دارفور أقوى مما كان يريد لها على دينار إلاّ أنها رضخت للأمر الواقع الذى وضعه أمامها السلطان . وهى قبل كل شىء ما كانت لترغب فى أكثر من تهدئة الأحوال ونشر الأمن فى ربوع البلاد . وكما قدّمنا كانت تحاذر النفقات الباهظة فيما لو أخضعت المديرية للحكم المباشر ، فقد كفاها السلطان مؤونة الإدارة والصرف عليها . ولقد أقام نوعا من الإدارة نشر بها الأمن ، فلتترض بهذا الوضع وترقبه باهتمام ولتعاونه وتشد أزره إن هو أخلص لها .

مشاكل السلطان

كان على السلطان أن يحمى حدوده من الغرب ، ويجاوره سلاطين يحكمون قبائل متقلبة فى ولائها لهم أوله . وكان بعضهم يرضخ لسلاطين دارفور عند ما كانت دولتها وطيدة الأركان . وتمكن على دينار من إظهار هيبته ونفوذه فدان له بعضهم ، وطاطأ الرأس البعض الآخر لأنه يفوقهم فى نفوذه وعدده وعدّته . وكان عليه أن يخضع سنيّن التاماوى الذى احتمى إلى الغرب من الفاشر وظلّ يرد التجريدة تلو الأخرى من قبل السلطان ، وظلّ شوكة فى جنبه عددا من السنين . وكان عليه أيضا إخضاع قبائل البقّارة التى تسكن جنوب دارفور من معاليه ورزيقات و بنى هلبة وغيرهم . فهم قد تعوّدوا فى القديم الرضوخ لحكم السلاطين أحيانا ، وإعلان حريتهم وحق التصرف فى حكم أنفسهم أحيانا أخرى والسلطان يريد منهم الرضا بحكمه والإعتراف بسلطانه عليهم . فإذا ما طاولوا فى إظهار ولائهم وإخلاصهم ، أرسل عليهم التجريدات القوية لتكتسح أرضهم ويفرّ الكثير منهم و يلتجئ بأرض كردفان . وهذا قاده إلى إثارة مشاكل بينه

و بين القبائل الكردفانية التى تقطن الحدود . فهم فى رأيه آووا من فرّ من رعيته ، وهم يخترقون حرمة الحدود أحيانا للنهب .

السطان وسلاطين باشا

وهو فى خطاباته للحكومة يشكو من جيرانه رجال قبائل الحدود ، ويشكو من تعدّيهم على أراضيه ، ويشكو من رعاياه الذين أبدوا العصيان وفروا إلى أرض الحكومة ، و بعد ذلك كلّه يعتب على حكومة السودان لأنها آوت من فر من رعيته ، وخاصة موسى مادبو زعيم الرزيقات . ومما زاد الطين بلّة أن سلاطين باشا المفتش العام لحكومة السودان ، وهو ضابط الاتصال بينه و بين الحكومة يخاطبه ويرد عليه على وجه الاستعلاء . وأشتم السلطان من خطابات سلاطين أنه يتوعده و يتهدده ، أو على الأقل لا يصوغ عباراته فى القالب الذى يجب أن يُخاطَب به الملوك . وسلاطين نفسه يُدل على على دينار بأنه ساعده على التربع فى دست الحكم فى دارفور ، ويذكره بصداقته له القديمة ، ويفتخر بأنه يعرف دارفور وأحوالها لسابق خدمته فيها . ولا يرضى السلطان عن هذه النغمة ويرد بأنه يدفع الجزية فى أوقاتها للحكومة حسب الاتفاق معها ، وأنه لا يقبل مرة ثانية ما يُشتم منه تهديد أو وعيد ، و يناشد سلاطين بأن يكون معه على وفاق حسب ما كان معه من قبل .

ومما جاء فى خطاب بعث به سلاطين إلى السلطان بتاريخ ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٣ ما يلى « أن جل ما أرمى إليه من الغايات هو أن أخلص لكم النصيحة فى كل أموركم وعلاقاتكم وواجباتكم نحو الحكومة التى أنقذتكم من أيدى الخليفة وأعوانه وأعادتكم إلى بلاد آبائكم وأجدادكم حتى تحكموها وتقيموا العدل والأمن فى أرجائها » وفى ٨ يناير سنة ١٩١٤ خاطبه بقوله « اننى قد كتبت لكم مرارا عديدة وشرحت لكم أننى كنت أول العاملين لإعادة الراحة إلى هذه البلاد وإعطاء الحرية والأمان لأهلها ، و إطلاق أعناقهم من قيود الظلم والاستبداد ، وكيف أننى كنت الواسطة لأجل تمتعكم بنعمة العودة إلى بلاد آبائكم وأجدادكم ، لتحكموها بالعدل والحكمة ، وترد إليها ما فقدته من سابق

مجدها وعزها بسبب الظلم والاستبداد . وقد ذكرت لكم مراراً أن الحكومة لا تزال على عهدها القديم معكم تحفظ لكم أصدق العواطف وتميل إلى مساعدتكم ومعاونتكم بكل وسيلة ممكنة ، وكان الأولى بكم أن تثقوا بما قلته لكم مرارا وأقوله الآن لأن غايتى كما يعلم الله هى راحتكم ودوام مجدكم » .

مشكلته مع الفرنسيين

وفى السنين القليلة التى سبقت أعلان الحرب فى سنة ١٩١٤ برزت مشكلة جديدة للسكان وهى توغل الفرنسيين فى أواسط أفريقيا إلى أن تاخموا دارفور من الغرب ، وبدأوا يضمون إلى أملاكهم بعض الأراضى التى يعتقد السلطان بأنها جزء من دارفور من قديم الزمان . ودخل معهم فى مكاتبات بصدد الحدود وأخبر حكومة السودان بذلك . وتنصحه الحكومة بالا يدخل مع الفرنسيين فى مفاوضات أو محادثات سياسية بل يترك الأمر للحكومة الإنجليزية ، فهى التى تتولاه بالنيابة عن حكومة السودان ، وتطلب منه البيانات التى تساعد حكومة جلالة الملك فى حل المشكلة بما يرضى مطامعه وأمانيه . وتندلع نيران الحرب البلقانية فى سنة ١٩١٣ وتؤجل المفاوضات إلى أن تسوى الإشكالات الأوربية وتشب الحرب الكبرى فى سنة ١٩١٤ ويُصرف النظر نهائيا عن المشكلة إلى أن تسوى حكومة السودان حساباتها نهائيا مع السلطان كما سيجىء .

إدارة على دينار

كانت إدارة السلطان هى حكومة الفرد المطلقة ، ولكنّه يعتمد فى جباية الضرائب وفى إقامة العدل على الشريعة الإسلامية وَعُرِفَ عنه التديّن والتمسك بتعاليم الدين ، وبدأ يرسل محملا سنويا للحجاز شأن ملوك المسلمين .

توتر العلاقات

وفى السنتين السابقتين لقيام الحرب بدأت تتوتر العلاقات بينه ، وبين حكومة السودان . فهو منذ البداية لم يطمئن لها وما كان يريد عرشاً يُشاد على حماية أو تدخل أجنبى ، بل كان يريد عرشا خالصا مستقلا ، ولكنّه من حسن السياسة رأى أن يستعين بالحكومة على الوصول إلى غايته . وهو يستلهم الوحى من تاريخ أجداده أيام أن كان ملكهم مستقلاّ لا تشوبه شائبة ، ويقتدى بأعمالهم فى إدارته وحكمه . ثم هو فوق ذلك أمير مسلم يجب عليه أن يصون عرشه

ورعيّته من تدخّل الذين على غير دينه ، فقد يفسدون عليه دنياه وآخرته .

وقد تمّ له ما أراد من توطيد للعرش وإقامة الملك ، فليسلك منهجا يدلّ على استقلاله عنهم ، وألا يغادر صغيرة أو كبيرة تدل على التدخل فى شؤونه إلا رد فيها بما يُشعر بتفرّده بالحكم .

وحكومة السودان من جانبها قد أحنت رأسها فى أول الأمر ورضخت لسياسة الأمر الواقع لأنه كفاها تكاليف وتضحيات الفتح ، ولأنها كانت فى شغل عن دارفور بتشييد إدارة جديدة فى بقية أنحاء السودان ، ولأن مواصلاتها مع دارفور سيئة إن أرادت القيام بحركات عسكرية . وما إن وافت سنة ١٩١٢ حتى تم لها إقامة الأداة الإدارية ، وتم لها مد الخط الحديدى إلى الأبيض ، وبدأت على ما يظهر منذ تلك السنة تفرض نفوذها على السلطان وتمنع منه ما يمكن أن يزيد فى قوته . وكان أن وصل السلطان إلى أوج شهرته وعظمته وبدأ يُظهر استقلاله . ولا بد فى مثل هذا الموقف من تصفية الحالة إن لم يكن بالمفاوضات فبالقوة .

شكاوى السلطان

ومن خطاباته المتبادلة مع الحكومة يُعرف أن السلطان يشكو من الحكومة فى أمور عدة . أولا : إنه كان يطلب أسلحة وجبخانه فلا يجاب طلبه وأحيانا يكون الرد بندقية واحدة . ثانيا : تعدى الفرنسيون على حدود بلاده ولم تقم الحكومة بعمل يرد المعتدين . ثالثا : تآمر موسى مادبو زعيم الرزيقات حسب ظن السلطان على حكومة دارفور ووافقت حكومة السودان على تآمره رابعا : هرب الزيادية من دارفور إلى كردفان ولم ترجعهم الحكومة إلى سلطانهم الشرعى . خامسا : تعدى الكبابيش على دارفور ولم تقم الحكومة بواجب العدالة والإنصاف فيهم . سادسا : لم تسمح حكومة السودان لمندوب السلطان بالذهاب إلى الحجاز لشراء الجبخانة ، بل أعطته كمية بسيطة من الرمنتون وبغلين هزيلين .

خطاب ونجت للسلطان

وسط هذا الجو من عدم الثقة المتبادلة اشتعلت نيران الحرب العالمية فى سنة ١٩١٤ . ونقل الحاكم العام الخبر للسلطان فى الخطاب الآتى : — « أما بعد

فلا بد أنه بلغكم أن دولة انكلترا العظمى ودول أوربا الأخرى تحارب الآن الدولة الألمانية التى قد مزقت جميع شرائع الأمم ومعاهداتها ، ولم ترع حرمة العهود . وأن قسما من جيوشنا يحارب الآن العدو فى قارة أوربا . وأما الأسطول الانجليزى الذى يفوق الأسطول الألمانى بعدد مدرعاته وعساكره وسلاحه فقد اضطر أسطول العدو أن يلتجىء إلى موانى بحرية عديدة ، ولا يتجرأ على الخروج منها . أما فى البر فإن جيوش الدول المتحالفة معنا فقد تجمعت وبإذن الله ستضرب جيش الألمان الضربة القاضية . وليكن بعلمكم أن أخبار هذه الحرب الحقيقية تنشرها جريدة السودان ، التى تظهر فى الخرطوم ، والتى على ما أظن تصلكم فى دارفور . فإذا بلغكم من بعض الناس الجهلاء الذين لا يعرفون الحقائق أو المفسدين الذين يحبّون نشر أخبار كاذبة أخباراً لا تنطبق على ما تنشره الجريدة المذكورة ، فإنى أوصيكم بأن تأمروا موظفيكم بالقبض على هؤلاء الكاذبين ، وتبقوهم عندكم تحت المراقبة أو ترسلوهم للحكومة . ثم إنه لا بد سيبلغكم خبر وصول جيوش انجليزية كبيرة إلى مصر فهذا الخبر صحيح ولكن لا علاقة له بالسودان على الإطلاق ، لأن السودان متمتع الآن بالراحة والطمأنينة بفضل الله تعالى . »

السلطان يخاطب الخليفة

وببدء الحرب فى أوربا صارت الإشاعات تنتشر فى العالم وكل ما بعدت من مواطن المعارك دخل فيها عنصر المبالغة . ووصل السلطان أن الانجليز وحلفاءهم على وشك الانهيار ، وأنهم سوف يخرجون من السودان ، وما على السلطان إلا أن يتقدم شرقا ويقيم دولة اسلامية فى ربوعه . فإذا أضيفت هذه الأخبار إلى ما كان يبديه السلطان من نفور والى ما كان بينه وبين حكومة السودان من جفوة ، كان من الطبيعى أن يلجأ السلطان وهو مسلم متدين إلى خليفة المسلمين ويخاطبه بقوله : « وقد أحاطت أيدى النصارى الكلاب الكفار بالمسلمين من يميننا وشمالنا وورائنا وأمامنا ، وحازوا ديار المسلمين كلها ، ممالك البعض سلطانها مقتول ، والبعض سلطانها مأسور ، والبعض سلطانها مقهور ، يلعبون بأيديهم كالعصفور ، ما عدا بلادنا دارفور قد حفظها الله من ظلمات الكفار . والداعى

أنهم حالوا بيننا و بين الحرمين الشريفين الذين حرسهم الله ومنحكم بخدمتهما . ولم نرحيلة نتوسل بها لأداء الفرض الذى فرضه الله علينا من حج بيته الحرام ، وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام ، انجبرنا على مواصلة دولة الإنجليز وصرنا نعاملهم تارة بالمشاحنة معهم ، وتارة رغبة فى حفظ إيماننا وإسلامنا فى بلادنا » . ولم يتبين لنا فيما إذا وجد هذا الخطاب طريقه إلى الاستانة العلية أم لا .

مخاطبة أنور للسلطان

وكان من بديهيات الأمور أن تنشط الدعاية التركية تضرب على نغمة الجهاد المقدس ، وتهيب بالمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بحمل السلاح ومساندة دولة تركيا ومقرّ الخلافة الإسلامية . و بعث أنور باشا بتاريخ ٣ فبراير سنة ١٩١٥ خطابا للسلطان على دينار يخبره فيه بالتعدى الذى حصل من روسيا وانجلترا وفرنسا على تركيا وتحدّيهم للاسلام ، وأن خليفة المسلمين أعلن الجهاد المقدس ، والمشيخة الإسلامية أفتت بأنّ الجهاد الآن فرض عين على كافة المسلمين ، وأنه أرسل نورى بك للسنوسى وجعفر بك له . ويخبره بإرسال تجريدة لانقاذ مصر ، وأنهم انتصروا على الإنجليز فى البصرة ، وأن حلفاءهم الألمان وأهل النمسا يحاربون ، وأنهم على أميال قليلة من عاصمة فرنسا ، باريس ، والألمان احتلوا جزءا من روسيا وأنه أخيرا يهيب بالمسلمين النهوض وقتل الجراثيم التى فتكت بأجسامهم ، وأنه يعهد فيه الغيرة الإسلامية والذود عن حياضه وأورد له فى اختتام خطابه آيات قرآنية مناسبة تدعو إلى التضامن والاتحاد .

رد السلطان لأنور

ولقد سرّ السلطان أيما سرور بخطاب أنور باشا وردّ له « ونخبر جنابكم أننا منذ انتشاب الحرب بين جلالة سلطان الإسلام و بين الألداء الكفار والفساق الانجليز وفرنسا وما يليهم ، فمن وقته قطعت ما كان بينى وبين الكفار الملعونين من العلائق الودية ، وجاهرتهم بالعداوة وأعلنتهم بالحرب ، واستعديت لهم بقدر ما يستطعنى من القوة ، غيرة فى دين الله وحمية للاسلام » .

الحكومة تجهز الحملة

ومنذ أن علمت الحكومة بنية السلطان فى العصيان ، ومنذ أن ترامى إليها أنه ينوى الزحف شرقا إلى السودان فى سنة ١٩١٦ ، رأت أن تبدأه قبل تنفيذ

رغبته . و بدأت تعد حملة تسيرها نحو دارفور ، بالرغم من حاجة انجلترا وحلفائها إلى الأسلحة والذخيرة والرجال فى ميادين أخرى ، و بالرغم مما تقاسيه فى الميادين الرئيسية من شدة . وجمعت قوة تقل عن الـ ٣٠٠٠ جندى أغلبيتها من الجيش المصرى ، وقادها كلى باشا . وأثناء التجهيز والتجمع وقبل الزحف كانت الرسائل تتوارد على السلطان ، تارة من الحكومة ، وأخرى من زعماء الدين فى السودان يمحضونه النصح و يشيرون عليه بألا يرمى بنفسه فى التهلكة ؛ غير أنه رأى فيها فرصة سانحة يستطيع تصفية حساباته نهائيا مع الانجليز ، ولذلك مضى فى سبيل الحرب والجهاد .

المسير فى دارفور

وزيادة على الصعوبات العامة من حيث الاشتراك فى حرب عالمية ، فإن حكومة السودان فى حرب دارفور قامت أمامها صعاب خاصة من حيث النقل و إيجاد المياه الكافية غربى النهود فى فصل الجفاف ، ولكنها حملة لا بد من القيام بها مهما وقف أمامها من صعاب . واتجهت التجريدة نحو أم شنقة ثم منها لجبل الحلة وأبيض وأخيرا للفاشر عن طريق مليط الطويل نظرا لانعدام المياه فى الطريق القصير .

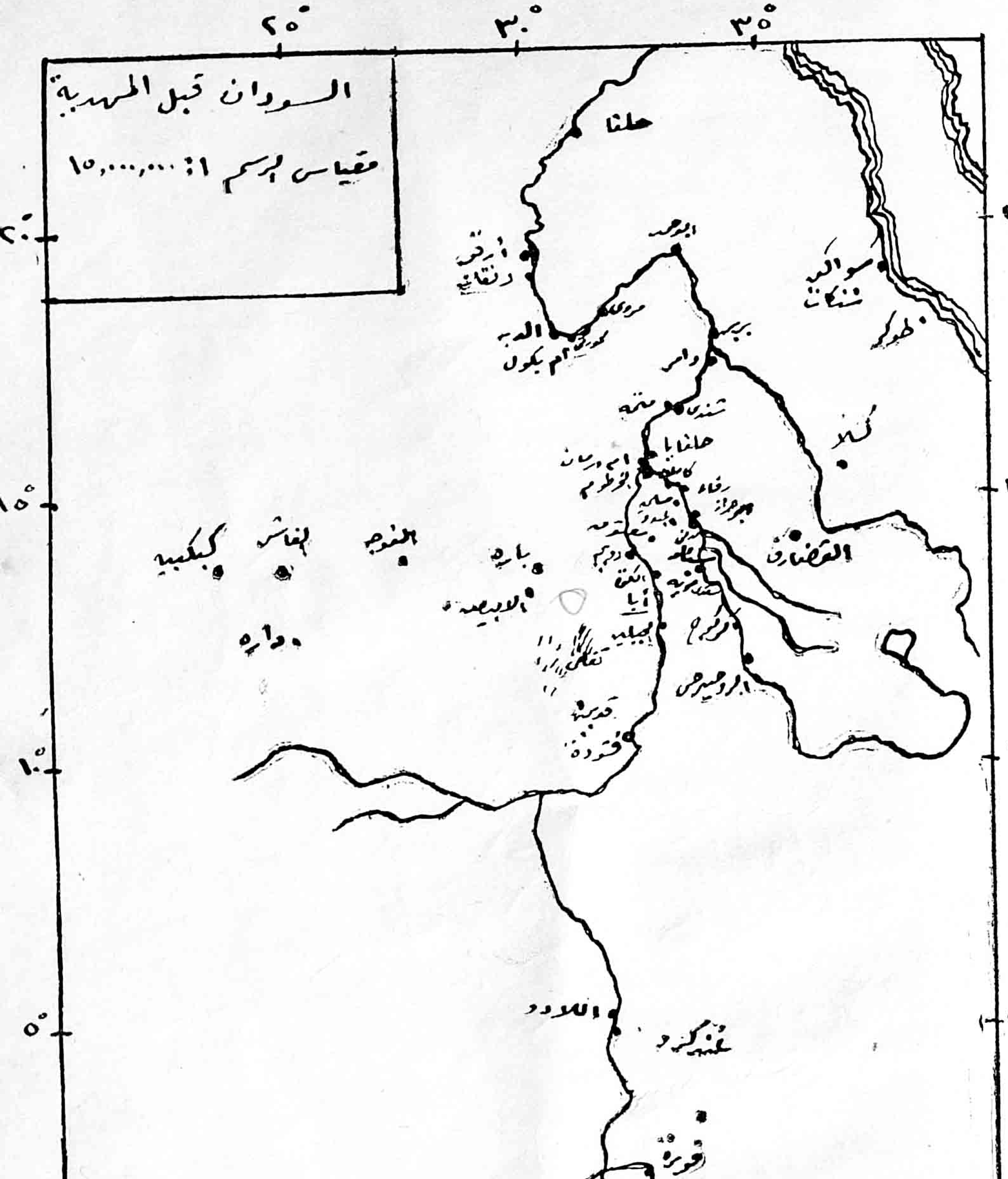
موقعة برنجية ٢٢ مايو سنة ١٩١٦

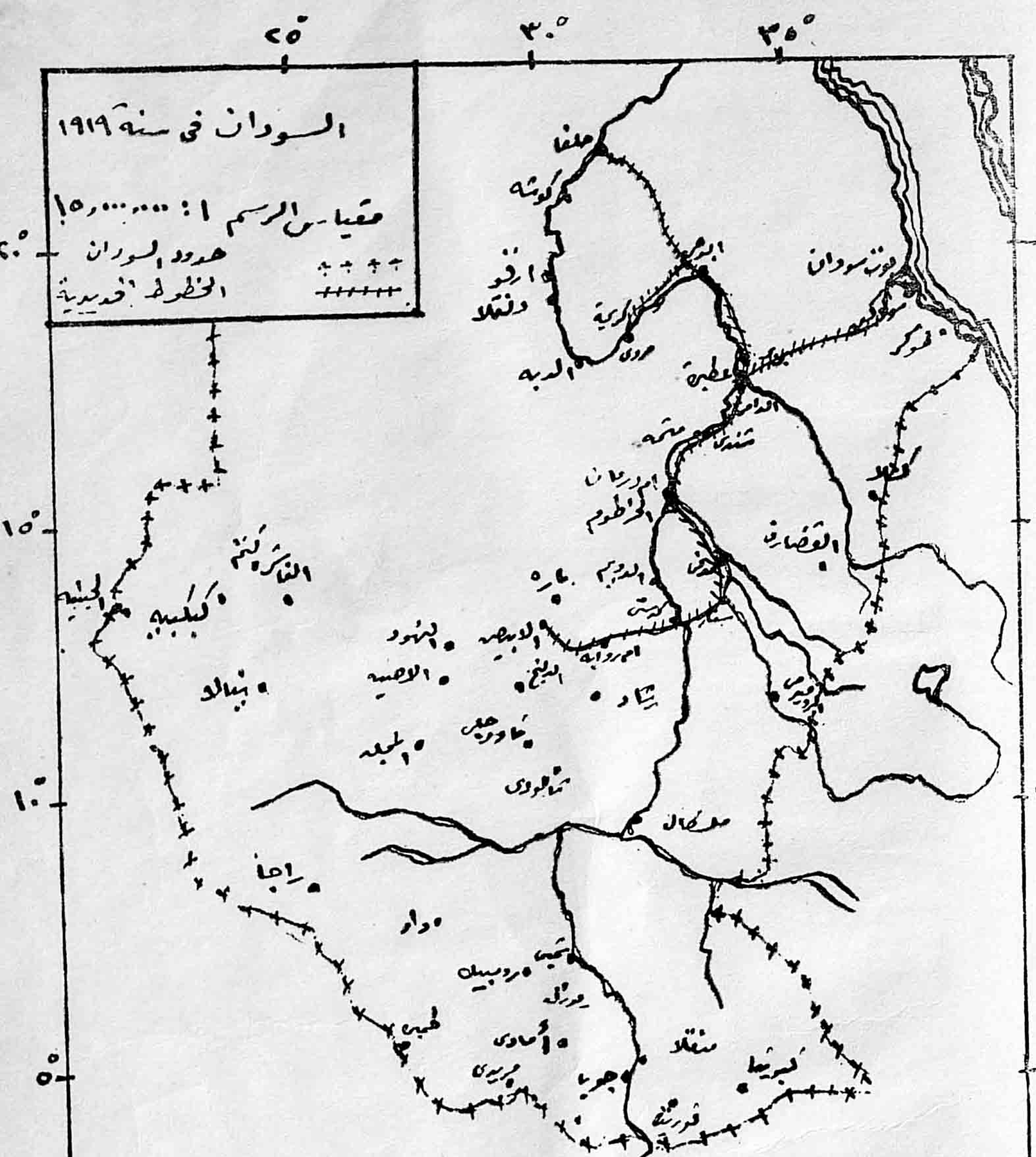
وما إن كانت جيوش كلى على بعد نحو ١٢ ميلا شمالى الفاشر حتى أحست بوجود قوة بالقرب من قرية برنجيه . وكانت خطة السلطان أن يكمن جنده حتى يباغت الجيش الزاحف و يقضى عليه . وقام الميرالاى هدلستون بك (حاكم عام السودان السابق) بحركة استكشافية ، وهب الكمين يطارده ، مما اضطره إلى التراجع واحتلال مكانه فى المربع . وخرج فرسان الفور ومشاتهم من خنادقهم ورموا بأنفسهم على مربع الجيش . غير أن الجند قد ركزوا أقدامهم وثبتوا مدافعهم و بدأت فوهات بنادقهم وما كيناتهم تصب الحمم على جيش السلطان الباسل . وما كان هناك من شك فى نتيجة المعركة تحت الظروف التى وصفناها ، إذ لا بد من سيطرة الصبر والنظام على الحماس الغير منتظم ، مهما بلغت درجة البسالة والإقدام . وترك جيش الفور نحو ٥٠٠ قتيل فى الميدان و بعضهم بلغ من استهانتهم

بالحياة و إقدامهم أن رقدت جثثهم على بعد عشر ياردات أمام المربع .

نهاية على دينار

لم ير السلطان بدًّا من مغادرة العاصمة والالتجاء إلى منطقة جبل مرة الحصينة ، وانتهى بذلك الفصل الأول من فتح دارفور ، و بُعث ببلوكات تقيم نقاطا فى الجهات المختلفة وكان الميرلاى هدلستون بك يرابط بقوة صغيرة فى الجهة التى تقع بالقرب من السلطان . وتم الأمر بين من بيدهم مقدورات الحملة على الاستجمام والراحة والاستعداد لحملة أخرى قوية . غير أن هدلستون بك رأى أن كل يوم يمر ربما يزيد من قوة السلطان ، ووصل إلى سمعه أن مماليك السلطان بدأوا يتخلون عنه ، وأنه أصبح فى شرذمة قليلة من أتباعه ، وأن عمليات حربية يقوم بها الآن توفر على الحكومة مالا وجهدا وهماً . وخاطر وقاد عساكره مقتفيا أثر السلطان حتى داهمه ، وكانت نهاية على دينار رصاصة طائشة أردته قتيلا فى ٦ نوفمبر سنة ١٩١٦ . وبهذا تم انضمام دارفور نهائيا للسودان بعد ثمانية عشر عاما من فتح كتشنر وأصبح تاريخها جزءاً من تاريخ السودان .


السودان قبل المهدية
مقياس الرسم ١ : ١٥,٠٠٠,٠٠٠
حلفا
الدبة
ام بكول
بربر
الدامر
شندي
متمه
حلفايا
ام درمان
الخرطوم
كسلا
سواكن
طوكر
القضارف
الابيض
بارة
النهود
الفاشر
كبكبية
داره
اللادو
قوده
دوباطا



السودان في سنة ١٩١٩
مقياس الرسم ١ : ١٥,٠٠٠,٠٠٠
حدود السودان
الخطوط الحديدية
٢٥°
٣٠°
٣٥°
حلفا
دنقلا
الدبه
مروي
عطبرة
متمه
شندي
امدرمان
الخرطوم
القضارف
بارة
الابيض
النهود
واو
٢٥
٣٠°
٣٥°

الخطأ والصواب

نأسف لوقوع أخطاء فى الطبع ، فنرجو تصحيحها قبل القراءة :

ص	سطر	خطأ	صواب
٤٠	١٤	الفيطان	الفيضان
٤١	١٣	منهم	من
٤١	٢١	السوانية	السودانية
٤٥	١٥	تنحضر	تنحصر
٥٤	١٥	عنف	والعنف
٥٩	٢	ترى	ترَ
٥٩	١٦	حكمدار	حكمدارا
٦٣	٢١	المر	المركزية
٦٥	١	عربان	العربان
٧٥	١	ستعيض	استعيض
٧٥	١٦	الجنونية	الجنوبية
٧٥	٢٢	لوقت	الوقت
٩٢	٢٠	مشرف	مشرفا
٩٣	٢١	مصرفات	مصروفات
٩٤	١٦	وروى	ويروى
٩٥	١٢	كسكابيه	كبكابية
١٠٠	١٤	لى	الى
١٠٧	١٤	أنيل	النيل
١١٦	١٨	رغما عن أن	رغما عن
١٢٠	١٢	كنا	تركنا
١٢٤	١٣	ن	أن
١٣٣	٦	اللخطات	اللطخات
١٣٥	٢٣	بدرفور	بدارفور
١٤٩	١٧	نقلقل	تغلغل
١٦٤	٢٤	مهدى	المهدى
١٦٥	٢٣	عراب	عرابى
١٦٦	٢٣	وستيورت	ستيورت
١٦٨	٩	بسب	بسبب
١٧٠	١٧	غرائم	عزائم

ص	سطر	خطأ	صواب
١٧١	٥	وفرين	دوفرين
١٧٢	٥	الحيوناب	الحيوانات
١٧٢	٧	ورح	روح
١٧٤	١٤	جيين	جبين
١٧٨	٢١	وفرن	دوفرن
١٧٩	٢٠	وفى الحال التى	وفى الحال
١٨١	٦	بأكمها	بأكملها
١٨٨	١٢	تأجل	تأجيل
١٩٥	١٠	لاحتمال	الإحتمال
٢٠٣	٣	وبما	وربما
٢١٢	٧	حصيت	حيث
٢١٦	٢٣	بأكمها	بأكملها
٢٢٥	١٣	بالعدد	بالعدو
٢٢٦	٨	الموسى	الموس
٢٣١	١٥	أنذك	آنذاك
٢٣٦	٥	الدين	والدين
٢٤٣	١٤	عبد الله	محمد
٢٤٥	١٠	بقاد	بقادى
٢٤٨	١٥	الخلفية	الخليفة
٢٥٦	٦	شخية	شخصية
٢٨٢	٢	وصلوا	واصلوا
٢٩٣	١٣	فبراير	نوفمبر
٢٩٩	١٠	الغربية	الغريبة
٣٠٠	٩	الادرآة	الإدارة
٣١٢	٢	والوائع	واللوائع
٣١٣	٣	إدارقهم	إدارتهم
٣٢٦	١٢	له ؟	له .
٣٢٩	١٣	السنويه	الثانوية